
الطبعة الثانية
الخوف
مجموعة قصصية
صالح مرسي
دار نهضة مصر للنشر

مجموعة قصصية

صالح مرسي





العنوان:
الخـــوف «مجموعة قصصية»

تأليف:
صالح مرسي

إشراف عام:
داليا محمد إبراهيم

الترقيم الدولي: 978-977-14-5105-1
رقـم الإيـــداع: 13800/ 2014
الطبعة الثانيـة: ينايـــر 2015

تليفـون: 33466434 - 33472864 02
فاكـس: 33462576 02
خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

21 شارع أحمد عرابي -
المهندسين - الجيزة

الخوف

الإهـــداء

إلى كـــل أب.. مثـــل أبـــي

«صـــالـــح»

الخـــــوف

كـبر جابر، وخط شـاربه، واخضر ذقنه، وتعدى الخامسـة عشرة، ورغم هذا لم يستطع أن يقود القارب!

كبر جابر، أصبح شـابًّا، ولكنه وسط الشباب طفل، والاسم الذي يحمله سيضيع، ويا ليته ما كان، ويا ليت اليوم الأسود الذي ولد فيه ما وجد.

كبر جابر، ورآه أبوه يدخن ويقهقه كالحشاشـين في المقهى، ولكنه ما زال جبانًا يخاف المياه، ويخاف الرياح، ويخاف البحر!

كبر جابر الذي سـيقول الناس عنه: إنه ابن الحديدي، ويا وكسـة الاسم، ويا عرة العائلة بجابر آخر سلالتها.

لا يدري المعلم محمد الحديدي كيف أصبح ابنه هكذا، لقد رباه في البحر، فوق سـطح المياه، ومنذ أن عرف كيف يخطو فوق الأرض وهو يصحبه معه في غدواته وروحاته، يضعه في القارب، ويتوكل على الله، يجوب الميناء؛ يحمل هـذا، ويوصـل ذاك، ويأتي الصيف، ويحمل الكثيريـن إلى كل مكان، والولد معه، لم يتركه لحظة.

في البدايـة كان يحايلـه ويلاعبه ويعده بالكراملة والعسـلية؛ عله يمسـك الدفة أو يجلس إلى المجداف.. دون جدوى، ثم أخذ يتوعده ويسـبه ويشـتمه وقد يزغده عله يخاف أو يقدم.. دون جدوى أيضًا. ثم ضربه. ضربه بالعصا، وضربه بكفوفه، وضربه بكل ما وصلت إليه يده، ثم خلع ذراع الدفة الغليظة وأخذ ينهال على جسده حتى ازرق لحمه وطفح منه الدم.. ولم يفلح جابر، لم يمسك بدفة، ولم يجذب حبلًا، ولم يقبض على مجداف.

والعيال أصبحوا رجالًا، حنفي، وسيد، وعبده، ورومة، كثيرون كثيرون ملئـوا الميناء، وبلعطوا في المياه، وجابوا بالقوارب كل رصيف، وجاوروا كل سـفينة، واقتلعوا الـرزق من أنياب الأمواج، وزوجهـم آباؤهم وفرحوا بهم وقالـوا للحديـدي «عقبال جابر»، ولكن جابر لم يبلعط في المياه، ولم يكسـب قرشًا، ولم يفكر في الزواج.

ليـت الأمـر وقـف عنـد هذا، وليـت جابـر أفلـح في صنعة أخرى، إنـه لا يفلـح إلا في التدخـين والجلوس عـلى المقهى والذهاب إلى السـينما... والابتسام للناس ببلاهة وعبط عندما يقولون له «يا خرع»!!

يومها كانت الشمس غائبة وراء السحب السوداء، والأرض مبللة بالمطر الذي ظل يهطل ساعات وساعات، وسطح المياه يتلوى كظهور التماسيح، ثم يجري في سلسـلة طويلة من الأمواج تضرب الرصيف بعنف وتزمجر، ويتناثر رذاذها على حافته المتآكلة وكأنه أصابع كثيرة تريد اقتلاع الأرض من مكانها، والدنيـا برد، والريـح تصفر، والقوارب ملطوعة بجـوار الرصيف كالجثث، لا حيـاة فيها ولا حركة، والرجال قبعوا بجـوار المقهى، بعضهم قرفص على

الأرض، والآخرون يشربون الشاي.. والولد جابر جالس في الطرف، عاطل، ضائع، لا شغلة له ولا شغلانة، ولا يدري المعلم محمد ماذا حدث ولكنه سمع سيد البوهي يقول لابنه «يا خرع»... وضحك جابر، ابتسم في بلاهة ولم يرد.

وكل الجالسين في المقهى ساعتها لم يفهموا شيئًا سوى أن الحديدي يضرب ابنه.

كانت الصفعات والركلات تنهال عليه بلا حساب، والغل القديم والجديد يسري في كفي الأب وقدميه أيضًا لينصبَّ على جسد ولده بلا رحمة. وهاج الرجال.. «وعيب يا معلم، وميصحش».. وآخرون يقولون «معلش.. ما كلهم شباب زي بعض».

هدأ الحديدي وكله نار تغلي.. وعوت الريح مزمجرة بصوتها الرفيع، وسرت في الأبدان رعشات، واصطكت أسنان، وبكت السماء أمطارًا مجمدة أخذت تضرب الأرض وسطح المياه بقطع الثلج التي كانت تتفتت وتذوب، ثم تجري نحو البحر الهائج ذي اللون الغامق الكئيب، وكأنه يقتلع أعماقه، ويتقيأ أحشاءه.

لا يدري المعلم الحديدي لم حدث ما حدث بعدها.. ولا يدري كيف فكر ولا كيف تصرف.. كان قد رمى طوبة جابر منذ مدة، ولم يعد يعنيه أن يجدف أو يقود القارب، أو يفرد الشراع، سلم مجهوده الذي ضاع وهو يعلمه، وسلم أمره أيضًا لله، وسلم كل ما فعله يوم كان يصحبه في الصيف، والبحر رائق والسماء صافية، ويجلس أمامه يحادثه ويحثه.

«يـا جابر، امسـك الدفـة كده.. يـا جابر، حـل البارومة كده.. يـا جابر، القـماش لازم تمـلاه الريـح، وإذا كان الريح شرقي خليك بوجـي، وإذا كان غربي اضرب بلط يمين وشمال لحد ما توصل».

كلام كثير، وعرق، وينهج المعلم وهو يجدف ويفرد الشراع ويعود فيطويه ثم يعود فيفرده، ويتساقط العرق، وتلمع بشرته، وجابر جالس أمامه كالجوال الفارغ، ملقى في إهمال وبلاهة وكأنه ليس هنا.

كانت القوارب وقتهـا تتناثر على صفحة المياه داخل الميناء، تروح وتجيء وتميل إلى اليمين، وتدور حول نفسـها ثم تميل إلى اليسـار. والعيال يقودونها، وآبـاؤهـم بجانبهم، يشـجعون ويصفقون ويقولون بمـرح: «صلِّ عـالنبـي يا جدع». وتدوي أصواتهم في فضاء الميناء الواسـع، ويرددها الصدى عندما تصطدم بجوانب السـفن الهائلة العالية الجدران.. وهو جالس في قاربه، ابنه يقبـع كابن الموظفين، جبان خائف، يرتجـف.. وهو محروم من أن يقول ككل الآباء: «صلِّ عالنبي»، أو يقول: «حصوة في عين اللي ما يصلي على النبي»!

ويتمنى، يتمنى أن يقولها مرة من أعماق قلبه، وينتظر الوقت الذي سيطلقها فيـه، ويحـل الليـل، وينغمها بطريقـة لافتة، ويقولهـا في سره مـرات ومرات وعـشرات المرات، ويضيف إليهـا دعوات ونداءات: «الورد كان شـوك من عرق النبي فتح» وغيرها وغيرها... يحفظ ويحضر ويتمنى ويضطرب قلبه!

الأيام تروح وتجيء، والسـنون تروح والسـنون الأخرى تضاف إلى عمر جابـر، والحسرة في قلب المعلـم لا حد لها.. أصبـح بلا ولد، ذراعـه اليمنى مشـلولة، وذراعـه اليسرى بنـت لن تجلس في قـارب أو تقـود فلوكة.. بنت

سيزوجها لرجل، رجل غريب، ربما أصبح ذات يوم مالكًا لقارب الحديدي، وتراث عائلة الحديدي.

ولا يدري المعلم لم كان يرتجف كل هذا الارتجاف وهو جالس، لم كان يرتجف وكأن زمهرير القطب قد لف جسده. الرجال من حوله صامتون، وهو صامت يغلي، ودمه يفور، وعيناه تدمعان في غيظ، لا يستطيع أن يصنع شيئًا، تدور عيناه مغلفتين بالدموع وتجري فوق وجوه كثيرة جلست صامتة تنظر إليه بإشفاق، رجال من سنه، وعيال من سن ابنه، كلهم أذرعتهم مفتولة، أكلت المياه من بطون كفوفهم ثم حجرتها فأصبحت كالحديد.. ولم يكن كالحديد في الميناء كلها سوى جده المعلم صابر الحديدي.

نهنه جابر في صوت مكتوم، وصفرت الريح وعوت، وتمايلت القوارب وأزَّ خشبها وهي تحتك ببعضها، وترنحت الصواري، ودفعت الريح مقعدًا وقلبته، وخف هطول المطر، واندفعت الأمواج نحو الرصيف تلطمه بوحشية، وتخرج منها آلاف الأصابع كأنها تريد اقتلاع أحجاره.

قال رجل شيئًا وهو ينفخ في كفيه، وزام آخر، ورفع المعلم الحديدي عينيه إلى السماء، وراقب الأفق، وهبت ريح باردة، ثم قال:

«محدش يطلع النهارده يا رجاله، دي نوة العجوزة نزلت آهيه، والبوره نازله من الشرق».

أمن الحاج حسن على حديثه وهو يرقب الأفق بدوره ويدفئ كفيه في كوب الشاي الساخن، وهز المعلم أبو شادي رأسه وقال: إن هذه النوة

الملعونـة عـدوة القـوارب والبحارة، وإن أحدًا لم يسـتطع أن يخـرج في البحر أثناءها إطلاقًا... ثم صمت ورفع عينيه إلى الحديدي وابتسم وقال:

«إلا اثنـين من عيلة الحديدي، الله يرحمه المعلم صابر، ويديله طولة العمر المعلم محمد».

لم يـدرِ المعلم أبو شـادي وهـو يقول تلك الجملة أنـه كان يغرز خنجرًا في أحشـاء المعلـم محمد، كان الرجل يعلـم جيدًا أن أحدًا في الميناء لم يسـتطع أن يقـاوم هذه العاصفة، سـواه هو وجده، وهمهم بصوت خفيـض وكأنه يتابع تفكيره:

«أبويا الله يرحمه مات فيها».

وجاءت الأصوات من كل ناحية:

«ألف رحمة تنزل عليه، الفاتحة له».

وتابع المعلم الحديدي أفكاره بصوت مسموع:

«كان عندي سنتها عشر سنين، وكان جايب لي الفلوكة الصغيرة الخضرا، ويومها النوة نزلت عليَّ وأنا في وسـط الميه، رحت رابط على رصيف الفحم، وقعـدت اسـتنى، ومـات ابويـا قدامي، راسـه جـت فوق حجـر الرصيف، وصرخـت عليـه، ومـددت لـه إيديـه، لكن الـدم بس هـو اللي استنى على الرصيف.. و...».

وسـاد الصمـت فجأة، توقـف الرجل عـن الحديث ونكس رأسـه، كان ثمـة خاطر رهيب قد انبثـق في ذهنه، واضطرب، ورآه الرجال سـاعتها وقد

اكتسى وجهـه بصفرة شـديدة، وسـأله أحدهم عما بـه، ولكنه ظـل صامتًا، وطلب الجوزة، وأخذ يجذب منها أنفاسًـا شرهة وعيناه غامتا واكتستا بلون أسود غريب، كانتا تجولان في الوجوه ثم تقفان عند وجه ولده، وتضطربان، ويسأله الرجال:

«إنت عيان يا معلم محمد؟!».

«مالك يا معلم؟!».

«قوم روح وارتاح».

«يا شيخ وحد الله.. البركة فيك إنتَ...».

كانوا يتحدثون ويثرثرون ويتكلمون، ولكنَّ أحدًا منهم لا يدري أن كبده كانت تحترق، لم يذكر أحدهم اسـم جابـر، لم يقولوا عنه كلمة.. وهو حزين، ولكن حزنه يتحول إلى ثورة، وثورته تتحول إلى أفكار جنونية.

لذلك اصفر وجهه حتى أصبح كالمريض بدوار البحر.

كان ثائرًا، وكان مشفقًا، وكان حائرًا.. وأصبح يتعذب!!

شـملت عينـاه وجه جابر ثـم ارتدتا عنـه في ذعر، والفكـرة تكبر وتكبر، والأمـل؟ ليـس هناك أمـل، ولكـن... ولكن الأفكار عـادة ما تأتيـه هكذا، مثـل أول مرة خرج فيها في نـوة العجوزة هذه، تلك العاصفـة المجنونة التي لا ترحـم، والتـي تبتلع كل مـن يتحداها وتطويه في جوفهـا المزمجر الرهيب، وتطوي معه كل ما تستطيع أن تبتلعه من سفن وقوارب، ثم تهدأ وتلفظه جثة مهزومة، لتعود في العام التالي، وفي نفس الموعد مجنونة شرسة لا ترحـم.

«يا معلم محمد، ما توحد الله..».

«لا إله إلا الله..».

قالها بحزن وكأنه يترحم على عزيز فقده؛ فقد كانت الفكرة الرهيبة قد تقلصت كالمرض في رأسه، ثم انفجرت وتوهجت وأصبح لا مفر..

«قوموا يا رجالة نلم الفلايك في الكن».

قالها بهدوء وكأنه لا ينوي سوى أن يسحب قاربه إلى مكان هادئ في ركن الرصيف، ونهض الرجال معه، وخطا هو خطوة، ثم التفت إلى ولده، وهوى قلبه بين ضلوعه، وبردت أنفاسه وتهدجت ثم ناداه:

«قوم يا جابر معايا.. أنا تعبان حبتين».

ومضى الركب الكبير نحو طرف الرصيف، كان الموج ينقض عليه وكأنه قبضة هائلة فردت عشرات الأصابع فجأة، وتناثر الرجال وهم يقفزون كالقرود فوق الرصيف، يتعلقون بالصواري. وأخذ كل منهم يعمل ويقاوم الريح، ويجذب قاربه نحو «الكن»، وينظر الحديدي إلى ولده، كان يقف مرتجفًا من البرد، ذراعاه متدليتان بجانبه في بلاهة، وأحس وقتها بالدنيا تدور من حوله.

ثم...

لا يدري.. لا يدري كيف تم الأمر، كيف طاوعه قلبه، لا يدري إلى اليوم.

أمر جابر أن يقفز إلى القارب ليحمل المجاديف إلى الداخل، ويسوي الأرض ويخلع الدفة... وقفز جابر إلى القارب فترنح به، وترنح هو معه، وانحنى المعلم محمد على الحبل الذي يربط القارب بالرصيف، وكان ولده

لا يزال يتعثر، وفجأة أحس المعلم بعينيه تغيمان، وجز على أسنانه، وأغمض عينيه بشدة.. ورفع يده بطرف الحبل. وتردد لحظة.. ولكنها كانت مجرد لحظة قصيرة، قصيرة جدًّا، انحنى بعدها إلى الأمام، ودفع القارب بكل قوته... وترك الحبل يهوي في المياه. وهوى مع الحبل قلبه إلى قدميه.

ومضت دقيقة..

مجرد دقيقة كان جابر وقتها لا يزال يتعثر، ولكنها كانت كافية لأن تقذف بالقارب إلى وسط المياه والريح العاصفة والمطر الذي كان ينهمر من جديد. وتنبه الرجال على صرخة خالوها تصدر من أعماق ألف رجل:

«يا ترجع انت والقارب، يا مترجعوش انتو الاتنين.. فاهم؟!».

وصرخ جابر في توسل وقد شله الرعب:

«في عرضك يابا...».

وران سكون عميق، وشلت الألسنة، حتى القلوب كادت تتوقف وتقفز في اضطراب من الحلوق التي كانت مفغورة في ذعر.

ورغم أن أحدًا من الرجال لم يستطع أن يقترب من المعلم محمد الحديدي، فإن كلًّا منهما وقف ينظر إلى القارب الذي كانت الريح تحمله إلى بعيد فوق سطح مزمجر متلاطم. وانطلقت صرخات جابر وتوسلاته، وحملتها الريح إلى أذني والده، وخفق قلب العجوز وكاد يبكي، بل إنه أحس بالدمع يغزو عينيه، وتقدم نحو أحد القوارب خطوات، ولكنه تراجع مرة أخرى، وقلبه ينفطر وهو يرى الأمواج الصغيرة تتكسر وتجري نحو القارب كأنها أسنان وحش سيفترس ولده.. أفاق للحظة، وتقدم نحو قارب.. لكن الوقت كان قد فات!

كانت هناك همهمات ودمدمات:

«الراجل اتجنن..».

«الولد حايموت..».

«يا حول الله..».

«وده اسمه كلام برضه؟!».

«خليه يتعلم..».

«والعلام يبقى بالشكل ده؟!».

«ولو يجرى للولد حاجة، يبقى يعمل إيه؟!».

كان جابر وقتها يبكي بلا دموع، كان يعلم تمامًا أنه لن يستطيع شيئًا، لم يدر مم كان يخاف، ولم كان الذعر يلم به كلما رأى ذراع الدفة الطويلة الغليظة... ترنح به القارب، مال إلى اليمين، ومال إلى اليسار، وتسربت إليه المياه، واقتلع الذعر قلبه ونفضه نفضات رهيبة، وجرى نحو الدفة، وأمسك بالذراع في يده.. وانحرف القارب، وعاد يترنح ويدور حول نفسه، واضطرب جابر، ونهض فجأة من مكانه، كان الذعر قد شل عقله تمامًا، والقارب يبتعد عن الرصيف، وكان ينهنه في ذعر، وهبت ريح قوية دفعت بالقارب فمال بشدة، وترنح جابر، وتمايل جسده النحيل.. ثم هوى إلى المياه.

عندما دوت صرخات الحناجر الكثيرة فوق الرصيف، كانت ذراعا جابر تتشبثان بحافة القارب، وقد غرق جسده في المياه الباردة كالثلج، وارتفع رأسه فوق اللجة، ورأت عيناه السماء سوداء مقبضة، وتحولت قبضتاه إلى

قبضتين من الصخر.. وثمة شيء يجذبه إلى الأعماق، ويشد جسده كله، ويميل معه القارب.

وصرخ..

واندفع جسده فجأة إلى أعلى، كان يحس رعبًا غريبًا؛ رعبًا تبخر تمامًا عندما أحس بساقيه في الهواء، وشعر بصلابة قاع القارب، فاستدار ناحية الرصيف بسرعة وكأنه يصد وحشًا يريد التهامه، وكان ثمة قارب يشق المياه، وأيقن أنه أبوه.

وعندما نظر إلى الخلف، وجد قاربًا يندفع بشراعه نحو رصيف الفحم، حيث آثار دم جده، ولم يكن هناك مفر، ووجد نفسه يعمل دون وعي، يداه تعملان، ورأسه يعمل، وساقاه تقفزان هنا وهناك، وغاب تمامًا، كل ما يذكره أنه كان يقفز في القارب ويمسك بالحبال ويوجه الدفة ويفرد القماش، وكأنه صنع ذلك آلاف المرات من قبل، لم يكن هناك خوف قطُّ، وأحس بنار غريبة تندلع في صدره.. وهمس بصوت جاف مرتعب:

«مش عاوز اموت، مش عاوز اموت».

وعندما رفع رأسه، كان أبوه يقف كالعملاق في القارب الآخر، يدور به ويندفع مسافات بعيدة، ثم يدور ويتجه نحوه من جديد. ولكنه في لحظة كان قد نسيه تمامًا.. نسي أباه ونسي كل شيء عدا الشراع الذي انفرد في فرقعة مدوية، وصفق القماش، وأصبح هائلًا كبيرًا كجناح طائر ضخم.

قبض على ذراع الدفة بيسراه، ثم مال إلى الخلف وهو يجذب حبل الشراع بكل قواه.. وتوقف القارب عن الزحف وترنح، ثم مال بشدة.. ثم استقام وبدأ يندفع إلى الأمام.

لم يصـدق جابـر نفسـه، ولم يصـدق المعلـم الحديـدي عينيـه، ولم يصدق الرجال الذين كانوا على الرصيف ما رأوه.

أحـس الحديـدي وقتها كأن الدنيا كلها لا تسـعه، ووقف برهة يبحلق في قارب ابنه الذي كان يشق طريقه في سرعة، وقد امتلأ الشراع بالهواء، وجابر هنـاك، بجـوار الدفة، متحفز، نصف قائم ونصـف جالس، واضطرب قلب الرجـال، وجاش صدره بكل مـا فيه من حب وأمـل.. وانطلق صوته هائلًا مدويًا:

«صـلِّ على النبي يا جدع.. صلِّ عالنبي.. ترضي النبي.. حصوة في عينك ياللي ما تصليش.. عالنبي».

وتـردد الصـدى وحملته الريـاح إلى كل مكان، ثـم ارتد إليـه مدويًا حلوًا كأحلى ما سمع من أنغام.

اسـتدار بقاربه نحـو الرصيف، وانثنى الـشراع ثم مال، ثـم امتلأ بالهواء وكأنه يشـير إلى ولده أن يتبعه، ودار قارب جابر، وانثنى الشراع، ثم مال، ثم امتلأ بالهواء. وكأنه يقول «حاضر»!!

والرجال على الرصيف يهللون، والقاربان يعودان، والريح تعوي وتزمجر وتصفـر في غضـب كأنها وحـش قيدته سلاسـل، والقاربان يشـقان الطريق وينزلقان فوق السطح المربد بسهولة وقوة.. و...

وكبر جابر.

أمٌّ

كانت هانم قصيرة حدباء.. قد أصيبت بجرح عميق في رقبتها.. وعندما التأم الجرح كانت قد أصبحت خنفاء.

وشببت لأرى هانم تعمل عند جيراننا في البيت.. عائلة بسيوني، ورغم كثرة عددهم كانت تخدمهم جميعًا بهمة لا تعرف الكلل، تستيقظ في الصباح الباكر فتظل تعمل وتعمل حتى المساء المتأخر، ولا أراها إلا صاعدة أو هابطة أو عاملة، وصوتها المكتوم المختنق يطن بين جدران البيت في رتابة.

كانت تحتمل الأذى من الجميع، وتخدم الجميع، وترضي الجميع... حتى نحن الصغار كثيرًا، بل دائمًا ما كنا نضربها بأقدامنا الصغيرة في ساقيها المتورمتين المشوهتين، فلا تتأوه، إنما تنظر إلينا في بلاهة، وتحك ساقًا بساق وهي تقول بصوتها المخنوق:

«بس بأه يا سيدي..».

ولم يكن هناك شيء لا تعمله هانم؛ فهي تطبخ وتخبز وتغسل وتكنس وتمسح وترعى الصغار وتطعمهم... وتعمل كل شيء... وأي شيء. تحمل الأطفال وهي ذاهبة إلى السوق على كتفها، وتحملهم على ظهرها وهي منحنية

تمسح الأرض أو السلم... ولم أسمعها مرة تتذمر، ولم أسمعها تشكو، بل كانت تلبي طلبات الجميع الكثيرة المتناقضة في صمت وجمود وآلية.

وأذكر مرة أن أخوين من عائلة بسيوني طلبا منها شيئين مختلفين في وقت واحد، وكل منهما مصرٌّ على أن تلبي طلبه في البداية، ووقفت هي تتلقى ركلة من هذا وأخرى من ذاك، وكل منهما يصرُّ، وهي تدور على نفسها في حيرة وفي عينيها انطفاء ينبئ بالعدم.. وفي حركاتها رتابة وركود وكأنها لا تحيا.

لم تكن هانم تحب أحدًا. ولم نحس أن في حياتها طراوة. بل إنني لا أذكر أنني رأيتها مرة تقبل أحد الأطفال الكثيرين الذين كانت تحملهم، بل حتى لا تربت عليه. كانت تحمل الطفل وتضعه فوق كتفها.. هكذا، كأنها تضع صندوقًا أو حملًا... أي حمل!

كذلك لا أذكر أن هانم كانت ترتاح... بل إنني ما رأيتها جالسة إلا في النادر، فلم يكن للراحة معنى في حياتها، بل كانت تعمل وكأنها لم تخلق إلا لكي تعمل وتشتم وتضرب وتسب وتهان.

ورغم حياة هانم هذه، فلم تكن تخاف أحدًا قدر خوفها من عمي سيد.

كان رجلًا أنيقًا مهيبًا ذا وجه عريض قوي.. يضع تحت إبطه كرباجًا سودانيًا أسود رفيعًا، ويركب حصانًا يتقدمه دائمًا أنور السايس الذي كان يصحبه في غيباته الطويلة التي لم نكن نعرف لأيامها عددًا. وكان أنور يبيت الأيام التي يقضيها في البلدة في حجرة هانم فوق السطح، ولم تكن هانم هي التي تخاف عمي سيد فقط، كنا كلنا في الحقيقة نخافه ونخاف لدغات سوطه الأسود الطويل الذي كان الكبار يرهبوننا به.

ولم يكن غريبًا أن نسمع صرخات هانم المكتومة عندما يعود عمي سيد من إحدى جولاته، كان دائمًا يضربها بالسوط، ونراها بعد ذلك تهبط السلم وهي تبكي بكاء أجوف روتينيًّا، بلا دموع، وهي تتحسس مواطن الألم من جسدها الضامر الواهي.. وكنا نقول إنها لا تبكي لأنها لا تحس، فجلدها ميت، وعقلها ميت، لا حياة فيها ولا تؤثر فيها الضربات... حتى ضربات سوط عمي سيد!

ولست أدري متى سمعت هانم تغني لأول مرة، ولكنه كان شيئًا غريبًا على البيت كله، أخذ الجميع يتندرون به ويضحكون منه، واتخذوه زمنًا مادة لسخريتهم.

على أن هانم اعتراها فجأة شيء من المرح غير مألوف فيها... كانت تغني وهي تعمل. ووجهها قد شملته راحة غريبة وكأن جلدها المشدود قد استرخى في رحابة ورضا... وقد تميل فتقبل أحدنا أو تحتضنه، ولا تأبه لصفعات الصغير وصراخه فيها وشتائمه وركلاته، بل كانت تضحك وهي تربت عليه.

بل إنها أخذت في أحيان كثيرة تلاعبنا وتضحك معنا، ونحن نسخر منها ومن صوتها المكتوم ووجهها القبيح وبشاعة رقبتها ذات الجرح العميق.

وعندما يسألها أحد ساخرًا عن سبب طربها، كانت تجيب وقد اكتسى وجهها بإشراق عجيب:

«يوه.. هو انا منيش نفس؟!».

وفجأة أصيب الجميع بمفاجأة مذهلة؛ فقد اكتشفوا - ولست أدري كيف - أن هانم حبلى!

واشتعلت النار في البيت، واهتز الحي كله، وأصاب الجميع ذهول ودهشة، وأخذت الأقاويل تترى، وأصبحت هانم مادة للحديث في كل مجتمعات الحي، بل البلدة كلها!

وحاولوا أن يعرفوا الفاعل بشتى الطرق، ولكن هانم أصرت على الإنكار، فاتجهت شبهاتهم إلى أنور السايس، وكان نصيبه لدغات من سوط عمي سيد... ولكنه فر في اليوم التالي من لفحات السوط وهو ينكر كل صلة له بالموضوع.

وثارت ثائرة الجميع، وانهالت الضربات والركلات على هانم، وتحملت وقاست كثيرًا من الهوان والعذاب. كنت أرى عمي سيد ينهال عليها ركلًا وصفعًا... ويكف هو ليقوم عمي عبده أو حافظ أو أحد الكثيرين في عائلة بسيوني، ولكنها كانت صامتة. وبطنها مع الأيام ينتفخ، والتعب والإجهاد رسما خطوطًا سوداء تحت عينيها وعلى وجهها.

وكان الكل يصرون على شيء واحد؛ هو أن يجهضوا هانم. ولكنها رفضت، وازداد عذابها، وأصرت على الرفض، وأحفظ هذا الجميع عليها خاصة عمي سيد.

كان شيئًا غريبًا أن تعترض هانم أي مخلوق. وكان الأغرب أن تعترض كل مخلوق وتقف وحدها في معركة غير متكافئة، تتحمل في صبر وصمت وجمود وهي تدافع عن بطنها ضد الركلات المنهالة عليها بذراعيها في استماتة.

حتى نحن الصغار لم تسلم هانم من أذانا؛ كنا نضربها بأقدامنا في ساقيها مشيرين إلى بطنها المنتفخ ونحن نصرخ فيها بأصواتنا الرفيعة الحادة:

«جبتي ده منين يا خنفة؟!».

وفي الحقيقة أنني أول الأمر كنت أنظر إلى الموضوع من خلال عقلي الصغير في شيء كبير من الدهشة والحيرة... كنت أبحث عن وجه الغرابة في الأمر، فلقد كانت أمي كثيرًا ما ينتفخ بطنها وتلد إخوة لي وأخوات. ولم يكن أحد يركلها بقدمه أو يضربها أو ينهال عليها شتمًا وسبًّا.

وعندما يئستُ من وجود تعليل للأمر انسقت في التيار بعواطفي الصغيرة، وكرهت هانم كما كرهها الجميع، وأخذت أؤذيها وأركلها بقدمي الصغيرة.

وكلما مرت الأيام زادت ثورتهم، وزاد عناد هانم، وأصبحت حياتها جحيمًا قائمًا، والجميع يصبون عليها حقدهم وغضبهم بلا رحمة ولا هوادة، وهي تتحمل في صمت وصبر، لا تدافع ولا ترد الضربات إلا بمقدار أن تحمي بطنها منها... وامتلأ وجهها بالكدمات، ومزق سوط عمي سيد لحمها، واعتبرها الناس شيئًا نجسًا وحرموا عليها دخول بيوتهم، ولم تكن تمر في شارع دون أن ينالها أذى، أو سخرية أو إهانة. ولكنها كانت تمضي في طريقها لا تلوي على شيء... تتحمل السخرية والإهانة في صمت وصبر عجيبين.

ومرت الأيام - ولست أدري كيف مرت بها - وهي تتحمل ما تتحمله من صنوف العذاب والهوان. وتدافع عن حملها بإصرار وعناد، وقد اعترى

حياتهـا تغـير كبير رغم هذا كله... ذلك أن الجمود الـذي كان ناشرًا جناحيه على حياتها اختفى، وأصبح في عينيها بريق يكاد يضيء تقاطيعها المشوهة.

وكرت الشـهور... وسـمعتُ ذات صباح أنها وضعـت طفلًا... وبقيت هانم في حجرتها فوق السـطح لا تبرحهـا، ولا يصعد إليها أحد، وأصبحت منذ ذلك اليوم تسـليتنا الوحيدة... كنا نتسـلق سلمًا وراء حجرتها وننظر من شـباك صغير في أعلى الجدار، ونتفرج عليها وهي ترضع وليدها أو تهدهده، كأنها حيوان غريب... وكان الصغير كتلة من اللحم الأحمر، قد لفته هانم في خرق كثيرة... ولسـت أدري لم كان يعتريني الاشمئزاز عندما كنت أرى ابن هانم الذي لم نكن نعلم له اسمًا!

وأهملتها عائلة بسـيوني... لم يكن يصعد إليها أحد بطعام أو شراب حتى هزلـت فوق هزالها، وضمرت فوق ضمورهـا، وتحركت ضمائر كثيرة، حتى أمي التي كانت تسـبها دائمًا إذا جاءت سـيرتها، والتـي حرمت عليها دخول بيتنـا... رأيتها مرة تبكي وأنا أخبرها كيف رأيت هانم، وما أصابها من ذبول وشـحوب، وأرسـلتني لها بطعام، وأصبحت هذه عـادة كل وجبة... أصعد بالطعام إليها وأقدمه لها من بعيد.

وكان الأمـر شـاقًّا عـلى نفسي في البداية، كنت أحـس كأننـي أختنق إذا دخلـت حجرتها... ولكن سرور هانم كان كبيرًا وهي تراني أدلف من الباب وفي يـدي الطعـام، ومـا تكاد تراني وأنـا داخل عليها حتى تقـول وهي تدفع الطفل نحوي:

«بص. مش حنو والنبي يا سيدي؟!».

ولم أكن أعلم سبب الاشمئزاز الذي كان يعتريني كلما رأيت الطفل وهو يمتص ثدي أمه، وقد أطبق عليه بكفيه الصغيرتين وأنشب فيه أظافره اللينة، ولكني كنت لا أملك سوى أن أراها كل يوم مرات. وقد أحسست بمرور الأيام أن هناك شيئًا ينمو في نفسي، وبت أحب الوقوف لأطيل النظر في وجهه الصغير... ومع الأيام أحسست بنفسي أحبه، وشعرت برغبة جارفة في الاقتراب منه... وقد جازفت مرة، وربت عليه وأنا أبتسم... وما إن رأتني هانم أفعل ذلك حتى شاهدت دموعًا في عينيها وهي تردد في رجاء ولهفة:

«مش حنو والنبي يا سيدي؟!».

لست أدري لمَ بكيتُ وقتها. ولم أستطع سوى أن أبكي وأنا أغادر الحجرة... ولكن صداقة قامت بيني وبين ابن هانم في الخفاء، فلم أكن أجرؤ أن أخبر أحدًا أنني أحمله، بل أقبله وألاعبه، وكان سرور هانم بذلك شديدًا حتى خلت أنها تكاد تطير من الفرح والغبطة.

وأحبني ابن هانم... وأصبح يرتاح إلى صدري وإلى البزازة التي أحضرتها من دولاب أمي، وشغلني هذا الأمر عن اللعب مع أقراني زمنًا، وبت لا أعرف لي طريقًا غير حجرة هانم وابن هانم... ولقد سألتها ذات مرة عن اسمه فأخبرتني أنها سمته «سيد».

وقلت لها على الفور:

«على اسم عمي سيد؟!».

ولم أدر لمَ اعتراها في تلك اللحظة وجوم غريب، حتى خلت أنها ستموت وأنا أرى وجهها المحتقن يكاد ينفجر، وبكى الصغير، ولهوت في إسكاته،

ولكــن منظــر هانــم كان يلح عليَّ.. ثــم عزوته إلى أنها خائفة مــن عودة عمي سيد.

ذلـك أن عمـي «سـيد» كان غائبًـا منذ فترة طويلـة، قبل أن تضـع هانم. وكانـت غيبتـه قد طالت هذه المرة عن كل المـرات، والجميع ينتظرون عودته بشيء كبير من القلق، وفي نفوسهم تساؤل عما سيفعله بهانم عند عودته.

وأخيرًا عاد عمي سيد.

وأصاب البيت وجوم كبير. وأخذت الألسـنة تتسـاءل في خفوت ورهبة عما سـيحدث... وأصابني هلع وقلق لما سيصيب سيد الصغير... كان عمي سـيد قد صعد إلى مسكنه والسوط تحت إبطه كالعادة، وعلى وجهه العريض لمحت الهم والكمد.

ومر وقت قصير رأيته بعدها يصعد إلى السـطح وفي يده السوط... وكان شعوري بالقلق يعذبني، وشيء خفي يدفعني إلى الصعود.

وكان قلبــي يـدق بقوة وعنف وأنا أقترب من حجرة هانم، وسـمعت في الداخل همهمة كانت تشـتد وتخفت، ووجدتني أتسـلل إلى السلم وأتسلقه، وأطل في حذر من الشباك.

كان منظـرًا غريبًـا ذلك الذي رأيته؛ هانم تقف أمام عمي سـيد، والطفل ملقـى في ركـن الحجرة... وكان واضحًا أن عمي «سـيد» يريد بالطفل أذى، وهانم تدافع عنه.

لولا خوفي من السوط الرهيب لاندفعت أرجو عمي «سيد» وأقبل يديه بل قدميه ليترك الطفل الرضيع. ولكني دهشت وأنا أسمع عمي «سيد» يحايل هانم.. بل يربت على كتفها، ولكنه كان يتكلم في صوت جاف جامد وهو يقول بين الحين والآخر:

«لازم يموت الولد ده يا هانم».

ولكنها كانت ترفض في عناد وإصرار... وأخذ عمي سيد يهددها، وهي لا تتزحزح قائلة في قوة أدهشتني:

«دابني.. دا ضنايا..!».

وأخذ صوت عمي سيد يرتفع تدريجيًّا... وزمجرته تكاد تهد جدران الحجرة، ولكن هانم لم تلن... واجتاحني سرور بالغ وأنا أرى إصرارها يهز أعماقي هزًّا عنيفًا... وأخذ يلوح لها بيده والسوط فيها وهو يقول في غيظ وحقد:

«لازم يموت.. لازم يموت.. فاهمة..؟».

وفي عيني هانم كنت أرى شيئًا غريبًا... وأحسست رغم صغري أن الحياة تتدفق منهما في قوة، حتى اجتاحني شعور بأني أريد أن أقبلها... نعم أقبل هانم الشوهاء الخنفاء.. كنت أراها والدهشة تملؤني ترد على عمي سيد بعنف وقوة وإصرار، ثم تردد بين الحين والآخر:

«موتني أنا الأون. أنا الأون».

وخرج صوت عمي سيد في فحيح عنيف:

«إنتي بتردي عليا يا بت؟!».

وردت عليه قائلة:

«إنت مانك ومانه.. كن الناس عانفة إنه ابني وبس».

وصرخ عمي سيد صرخة مدوية وهو يقول:

«لكن أبوه، حايسألوا كل يوم عن أبوه..».

كان يبدو أن عمي سـيد معذب... والكلمات تخرج من حلقه متحشرجة متقطعة، وهانم تقول له:

«منكش دعوه.. ده ابني أنا بس.. أنا منيش غينه..».

وحاول عمي «سيد» أن يتقدم من الطفل... ولكن هانم حالت بينه وبين الرضيع... فازداد هياجه، وارتفع السـوط في الهواء، ثم هوى يمزق جلباب هانـم.. ثـم ارتفع وهـوى... ومزق لحمها في قسـوة رهيبـة... وظل يضربها وهي جامدة صامتة، وتفجرت الدماء من أماكن كثيرة في جسدها، ولكنها لم تلن، ولم تتراجع، ولم تتخلَّ عن الدفاع عن وليدها.

وعمي سيد يصرخ ويزمجر في حقد هائل وهو يهوي بالسوط بلا رحمة:

«لازم يموت.. لازم يموت..».

وطال الصراع... ومزق السوط صدر هانم ووجهها وظهرها، ثم سقطت عـلى ركبتيهـا من الوهن، ولكنها كانت ممسـكة بسـاقي عمي سـيد، وهو قد اجتاحـه جنون أرعبني وأخافني... وظل يهوي بالسـوط وهو يصرخ، وهي تغمغـم وتئن، وأصواتهـا تختلط بأصـوات الوليد الباكي الصارخ. ولسـانه

الصغير يتلاعب في فمه المفتوح كأنه يلعن ضارب أمه... ويداه وقدماه تضرب في الهواء في عنف كأنه يريد أن يفعل شيئًا.

ولست أدري كم من الوقت مضى... ولكني وجدت عمي «سيد» يكف فجأة، وقد خارت قواه، ووقف ينهج ويلهث بصوت عالٍ... ثم استدار ومضى خارجًا وهو يترنح.

كنت في وقفتي أرتعد، ولم أستطع أن أبرح مكاني... ودموعي تنساب من عيني دون أن أشعر، وهانم ملقاة فوق الأرض وقد اختلطت الدماء المتفجرة من جسدها، وكانت تئن أنينًا مكتومًا... وتبكي، لكنَّ بكاءها هذه المرة لم يكن أجوف جافًّا، بل كان بكاء حارًّا، وهناك دموع تنهمر في كثرة من عينيها وهي تنظر نحو الباب الذي خرج منه عمي سيد، وتهز رأسها في إشفاق وتقول:

«إخص يا سيد.. كده.. دا جزائي!».

وجذبني كلامها من بحر الحيرة الذي كنت غارقًا فيه... ونظرت ورائي لأرى عمي «سيد» يغادر السطح وهو لا يكاد يتماسك، ورأيت وجهه العريض وهو يستدير نحو السلم. وأدرت رأسي بسرعة أنظر إلى الوليد الباكي، وفي عقلي الصغير خواطر غريبة!!

وأخذت هانم تزحف بعد برهة... ودماؤها تترك آثارًا على الأرض... واقتربت من طفلها الصارخ، ومدت يديها المرتعشتين وحملت الصغير بينهما، ثم ضمته إلى صدرها، وناولته ثديها الممزق الدامي... وهو سادر في صراخه وبكائه، وظلت تربت عليه وتهدهده، وهي تقول خلال شهقاتها:

«إخص يا سيد.. دا جزائي؟!».

وأخـيرًا، التقـط الطفـل الثدي وهـو يغمغـم... ثم يصمـت، ويغرق في الرضاعـة... بينـما كانـت أمه تهـزه في حنان وتربـت عليه بكفهـا، ودموعها تنهمر من عينيها، وتسـقط فوق صدرها، وتنزلق على ثديها، وتختلط برضاع الصغير.

الابـــــن

خيرية لا تنجب.

وهي مقطوعة من شجرة، وحيدة، لا أب لها ولا أم ولا أخ ولا أخت... ليس لها سوى زوجها محمود.

ومحمود يتحرق شوقًا للخلفة... يريد طفلًا.

والسـنون تمر، والأيام تجري، وينتهي الزمن عند نقطة تحددها أنوثة المرأة بشـهر... وتنتظر خيرية بقلـب واجف، تضطـرب وتتضرع، وتظـل الليالي سـاهرة تطبطب على زوجها وتضاحكه، وتمتص الأمل من بين شـفتيه، وتمر ليلـة، وليلة، ويأتي اليـوم الموعود، وما تكاد تحس مغصًا حتى تنفجر باكية. لم تصبح أمًّا بعد.

الأطباء يؤكدون أنها ليست عاقرًا.. وأن زوجها كذلك.

وهي لم تدع شيخًا ولا ضريحًا ولا وليًّا إلا وزارته ونذرت له.

قالوا لها «معمول لك عمل»، فذهبت إلى الحاجة وسـيمة وأعطتها عشرة جنيهـات مما دبرتـه واختزنتـه، ولا يدري أحد حـال الدنيـا المتقلبة، وظلت

تـتردد عليها أيامًا طويلة، واشـترت هدهدًا وذبحتـه وشربت دماءه، ولكنها لم تحمل.

ذهبت إلى الكوبري وجلسـت تحته لكـي «تنخض» عندما يمـر القطار، وجاء القطار وانخضت، ولكنها لم تحمل.

أما محمود فقد كان في أول الأمر يسخر من تلهفها وضيقها ويقول لها: إن هـذا أمر الله... وبعد ذلك صمت ولم يعـد يقول إنه أمر الله، بل أخذ يردد في تثاقل كلما جاءت سيرة العيال «على الله» فقط!

ثم أحسـت بعينيه تجوسـان خلال البيت سارحتيْن، وعرفت أنهما تبحثان عن طفل.

وخيرية مقطوعة من شجرة، وحيدة، لا أب لها ولا أم ولا أخ ولا أخت، ليس لها سوى زوجها محمود.

ومضـت أعـوام ثلاثة... وأصبح الأمر لا يطـاق، وأصبحت خيرية ترى في كل يـوم جحيم الضرة، وبرودة الوحـدة والطريق، وهي وحيدة، ليس لها سوى زوجها محمود.

وعندمـا قال لها محمود ذات ليلة وهما متجاوران فوق الفراش: «نفسي في عيـل يا خيرية»... بكت، فأولاها ظهـره، وزام، ثم قال في تبرم: «هو العياط حايجيب عيال؟!».

وبدأ محمود يتذمر علانية، ثم بدأ يلمح بأنه لا بد سيتزوج. وعندما قالت لـه ذات مـرة: إن هذا أمـر الله... انفجر فيها قائـلًا إن الله حلل له الزواج من مثنى وثلاث ورباع!

ومحمود مبسوط، ويستطيع الزواج من غيرها وألف من تتمناه زوجًا لها، وهي تعلم ذلك جيدًا، وتعلم أيضًا أنها مقطوعة من شـجرة، وحيدة، لا أب لها ولا أم، ليس لها سوى زوجها محمود.

وأحست كأن الدنيا تطبق بكليتها على صدرها... وبكت كثيرًا، وتوسلت كثيرًا، دون فائدة!

وخُيـل إليهـا أن لا فائـدة ولا مفر، ولا بد من الاستسـلام المكتوب، فلم ينفع زار، ولم يشفع ولي، ولم يحرك قلب محمود عمل أو شبشبة!!

ولكن المشكلة حلت ذات يوم.

يوم أن جاءتها حبيبة ابنة خالتها من دمنهور، وشاهدت دموعها فضحكت منها وسـخرت لعجزها. وخيرية تعلم أن حبيبة مستقوية، وأنها ست قادرة، واعية، تعرف كيف تعيش.

مصمصـت حبيبـة بشـفتيها وهـي تتهمهـا بالخيابـة وصغـر العقـل، ثم مالـت عليها وهمسـت في أذنها بالأمر كله... وهو لـن يكلفها أكثر من عشرة جنيهات.

«خلاص يا حبيبة؟!».

«عيب يا اختي، هو كلام عيال!».

«أوعي يا حبيبة».

يوه ما بلاش كلام فارغ أمال!».

وسافرت حبيبة...

وحل الموعـد... ودار الشـهر دورتـه، وانتهى الزمـن، ووجفت خيرية، وفوجـئ محمود بأن زوجته حامل... وكاد يطير مـن الفرحة، وكان يومًا من أسـعد أيامه. وفي الليـل، عندما أراد أن يقبلها تمنعـت وتدللت، وادعت أنها تعبـة. وضحك. ونام وهو يضـم بين جفنيه صورة طفل يقـول له «بابا»، ثم همس لنفسه برضاء: «عندها حق تتدلع»!

ومر أسبوع وأسبوع، وتوحمت خيرية، وطار محمود يأتي لها بالخوخ والتفاح وكل مـا كانـت تطلبـه. وأصبح يخاف عليهـا من الهواء، وعـاد حبه ومرحه، وكلما توغلت الأيام في الشـهور تجلى حبه لها وخوفه عليها. وعندما قالت له ذات ليلة صافية راقت فيها بسمة الحياة، وكانا متجاورين يضحكان، عند ما قالت له: إنه لا يحبها بل يحب طفلها.. ضحك وقتها وقال وهو يداعبها:

«بذمتك الحب اللي من غير عيال ينفع؟!».

وأحسـت وقتها كأن خنجرًا قد غرز في أحشـائها الفارغة... وبادرت في اليوم التالي بإرسـال خطاب إلى حبيبة التي ردت عليها تقول لها ألا تنعي همًّا وأن الأمانة ستكون جاهزة في أي وقت.

وعندمـا تعجب محمود من عدم انتفاخ بطنها، ضحكت منه سـاخرة، ثم قالت إن هذا أول بطن، وأول بطن لا يظهر كالبطون التالية.

ومحمـود رجل مؤمن، من بيته إلى الجامع، ومـن الجامع إلى الدكان، لا أم وراءه ولا أب، ليـس سـوى أخت في أقـاصي الصعيد، والجـو خالٍ، وكيف كنت خايبة طوال هذا الوقت يا خيرية؟!

ثم أيها كانت أيضًا سمينة، وكان واضحًا أن هذا الأمر من الممكن حدوثه، وصدقها محمود وقد امتصته السعادة وبات لا يعيش إلا لليوم الذي سيسمع فيه كلمة «بابا».

وفي الحقيقة أن خيرية كانت تمر في تلك الفترة بأزمة عنيفة.

ذلك أنها استبشعت الأمر في البداية، ولم تكن لتستطيع أن تتصوره. وهي بعد سفر حبيبة، كادت أن تتراجع، وانتابها الذعر أيامًا. ولكنها ما إن كانت تـرى شـوق زوجها وقلقه، وما إن يتراءى لها شـبح الـضرة، وتطن في أذنيها كلمات زوجها - حتى يهون كل شيء.

والأمر كان بسيطًا للغاية.

حبيبة أكدت لها أنها تستطيع أن تدبر لها طفلًا بعشرة جنيهات، وما عليها إلا أن تتظاهر بالحمل، وأن تحرص على ألا يكشـف زوجها الأمر، وفي بداية الشهر التاسع تأتي حبيبة لزيارتها ثم تصر على أن تصحبها معها لترعاها أثناء ولادتها، فهي وحيدة، لا أم لها ولا أخت سوى حبيبة.

وعندمـا قالـت لهـا خيرية: «وجـوزك يا حبيبـة؟»، ضحكـت منها وهي تقول: «وهُمَّ الرجالة يفهموا في الحاجات دي؟».

كانـت حبيبـة تتحدث في هـدوء وثقة، لم تهتـز فيها شـعرة، ولم تضطرب لحظة، وعندما كاشـفتها خيريـة بخوفها اتهمتها بالخيابـة وصغر العقل، وأن مثلها ليس لهن العيش مع رجال هذا الزمن.

والإنسـان عادة لا يقدم مرة واحدة، إنـه يقف حائرًا، يغلب عليه الخوف في البدايـة، يقـدم رِجلًا ويؤخر أخرى، ولا يحتاج إلا أن يخطو خطوة، فتثبت قدمه، والخطوة التالية هي بداية الطريق. ولن يقف بعد ذلك، وسيسير حتى النهاية.

وهـذا ما فعلته خيرية... عندما أخـبرت زوجها للمرة الأولى أنها حامل، كادت في اليـوم التـالي أن تتراجـع، وهمـت في المسـاء أن تخبره أنهـا أخطأت، ولكنهـا ما كادت تنطق كلمة، حتى سـمعته يحمد الله ويشـكر فضله، ويقبل يده ظهرًا وبطنًا.

واضطرب قلبها، وأجلت الأمر إلى اليوم التالي.

كانت تحبه، وكانت تخاف عليه، وكانت أيضًا في رعب دائم من المستقبل، فهي مقطوعة من شـجرة، وحيدة، لا أب لها ولا أم ولا أخ ولا أخت، ليس لها سوى زوجها محمود.

وكلـما مرت الأيام كانت تحس ثقلًا يشـدها إلى الأرض، وتحس بكل يوم وكل سـاعة كأنها تربطها بما اعتزمته، وكلما بعدت الشـقة، وكلما طال الزمن وتعددت الأسـابيع ثم الشـهور أصبح مستحيلًا أن تتراجع. ومر شهر وآخر وأصبح لا مفر... وسـارت في الطريق في ثبات وقد اعتادت أشواكه، بل إنها أخذت توغل فيه بعقلها، وتستعجل الأيام وتسبقها بخيالها.

وبدأت تفكر في الطفل.

وتوغـل الأيـام مـرة أخـرى في الزمـن، وتمـر الشـهور وينتظـم تفكيرها تدريجيًّـا، ويهدأ بالهـا، وتترتب أفكارها، ثـم أخذت هـذه الأفكار تأخذ خطًّا مسـتقيمًا ينتهي عنـد قلبها. فأحبته. وزادها حبها إيغالًا في الأمر. وفي الشـهر الثامن كادت أن تصدق نفسها وتؤمن فعلًا أنها حامل.

وجاءت حبيبة، وسافرت معها خيرية!!

وعندمـا تسـلـم محمــود برقية تخبره أنه أصبح أبًا... طـار إليها والفرحة لا تكاد تسـعه، وعندما رأى الطفل في مهده وقد انحنت عليه خيرية، كاد أن يبتلعهما من فرط نشوته.

لقد أصبح منذ ذلك اليوم «أبو جلال».

حقًّـا أنه تضايـق في أول الأمر لأن خيرية لا ترضع ولدها، ولكن شـهقة حبيبة، وأوامر الطبيب التي منعتها من ذلك، وسـيل الكلمات التي انسـابت من فم الولية الطيبة، أسكتته وألجمته.

والحقيقة أن هذا الأمر ما كان يهمه، فقط... شـفتا الصغير وهما تنفرجان في صرخـة، وعينـاه الصافيتان الرائقتـان، ويداه الدقيقتـان وهما تتحركان في الهـواء، تنفرجان ثـم تقتربان في عصبية لذيـذة، وقدماه الصغيرتان ترفسـان الهـواء... وهـو كله ولده، كتلة حية مـن قلبه المتلهف... كل هذا أنسـاه كل شيء، وطفق يعيش بكل جوارحه في الجسد الصغير، يرقب حركاته، ويرقب رضاعـه، ويرقـب بخياله عمـره المتدرج مع الزمن، وجسـده الذي سـيكبر

ويكبر ويكبر ويصبح رجلًا ذا شارب، وسيعلمه، وسيصرف عليه، وسيفعل كل ما لم يفعله أب من أجل ولده، فهو ولده وهو قد أصبح أبًا.

في الليلـة الأولى، عندما دبـرت حبيبة الأمر ووزعـت زوجها لأن خيرية جاءهـا الطلـق، وعيـب أن يبقـى رجل في البيـت، وعندما رتبـت كل شيء، الحجرة والمياه والطشـت والخرق، ودماء دجاجة، وعندما دق الباب ودلفت أم مسـعود تحمل بين يديهـا لفافة... قفز قلب خيرية بـين ضلوعها في عنف، وانبهرت أنفاسـها، وتلاحقت باردة رطبة. وكانـت حبيبة توحد الله وتصلي على النبي وهي تكشف الغطاء عن وجه صغير، ولم تدر خيرية ماذا تفعل... ولكن حبيبة كانت تدري.

ناولتها الطفل بسرعة، وأحسـت وهي تحمله بين ذراعيها برجفة شـديدة شـملت كل أوصالها. ولم تتابع المناقشـة التي دارت بين المرأتين والتي انتهت بخـروج أم مسـعود بعد أن قدمت لهـما ورقة وهي تقـول بصوتها المتحشرج المتقطع:

«آدي شهادة الداية... وابقوا سموه بكرة في المستوصف».

ومـضى الوقت، وأخذت خيرية تختلس النظر إلى وجه الطفل، ثم أطالت النظر بعض الشيء، ثم شـملت تقاطيعه بعينيها... ووجدته مسمسًـا هادئًا، وسرها أن شـعره كان أسـود وأن عينيه كانتا عسـليتين، وعندمـا بكى ناولته البـزازة، وكانـت حبيبة قد أعـدت كل شيء وجاءت لتجلـس بجانبها فوق الفـراش الذي أعدته إعدادًا دقيقًـا، ثم تناولت منها الصغير وأخذت تلاعبه

وتضاحكـه وتناغيـه وكأن شـيئًا لم يحدث، وعندما سـمعتا طرقًـا على الباب ناولتها حبيبة الصغير وهي تقول:

«خدي ياختي ابنك لما أشوف مين».

وتحـرك شيء غريب في أعماق خيرية عندما سـمعت كلمة «ابنك»... وما درت إلا وذراعاها تضمان الطفل في حنان، وأخذت تتسمع إلى غمغمته وهو يمتص من البزازة غذاءه، ويرفص بقدميه الصغيرتين الحمراوين، وامتصتها حركاته، وهزت شفتاه الرقيقتان أحلامها، وبعث منظر لثته الحمراء التنميل في صدرها؛ ذلك التنميل الذي أخذ ينتشر ويجوس خلال ثدييها. واجتاحتها رغبة طاغية في إرضاعه!

قاومـت الفكرة في أول الأمر، ولكنهـا أخذت تلح عليها. والليل يوغل. والسـكون يغريهـا بالكثـير... وهـي وحدهـا معـه. وهـو مستسـلم قابع في أحضانهـا، وتسربـت يدها إلى صدرهـا في تردد، واختلسـت النظر إلى الباب المغلـق، وامتـدت أصابعها لتجذب ثديهـا إلى الخارج، ثم انحنـت تقربه من الفـم المفتوح نصف فتحة، وعندما أحسـت الهواء السـاخن المنبثـق من أنفه الصغير الدقيق يطوف بثديها، دفعت الحلمة إلى الشـفتين، فتسربت إليها هزة لذيذة نشـوة... وعندما انطبقت الشفتان على الحلمة، ولعب اللسان الصغير حولها، أحست ذلك الدفء الرفيع يتسرب إلى كل جسدها فينمله، وانفردت ساقاها المثنيتان تحت الغطاء... وغرقت بكليتها في الحلم الجديد، وأغمضت عينيها وقد امتصتها نشـوة جارفة، ثـم ضمت الطفل بكلتا ذراعيها وانحنت بشفتيها تقبل رأسه الصغير... ونسيت كل شيء عدا أنها ترضع ولدها.

وتـسرب حبه إلى قلبها، وكان ينمو وتتضـح ملامحه، فينمو حبها ويطغى على كل مشـاعرها. وعندما ابتسـم لأول مرة، أحسـت كأنهـا ملكت الدنيا. وعندمـا جلـس وحده، شـعرت كأنهـا لا تحتاج إلى شيء سـوى النظـر إليه. وعندمـا بـدأ يحبـو، اسـتقرت عواطفهـا. ولكنه عندمـا وقف، أحسـت أنها راسـخة الحياة. ويـوم أن خطا خطواتـه الأولى، اندفعت تضمـه إلى صدرها وتبكي من فرط سعادتها.

وتـسرب الأمـان إلى قلبهـا... ولم تعد تحس أنها مقطوعة من شـجرة ولا وحيـدة، حقًّـا إنها بلا أب ولا أم، ولكن لها جلال الصغير، ولدها الذي أخذ يخطو خطواته الأولى.

ويـوم أن قال لها «ماما»... أخذت تلح عليه وتعلمه، ولم تتركه إلا عندما قال «بابا».

ومرت الأيام...

ولم يفاجـأ محمـود ذات ليلة عندما أخبرته خيرية أنهـا حامل... وضحك وهو يقول: «هي العقدة انحلت؟!».

ولكـن خيريـة لم تنـم في تلك الليلـة، وظلت سـاهرة تبحلـق في الظلام، وتحتضن الصغير ولا تصدق... لقد كانت حاملاً حقيقة هذه المرة!!

كان الأمر غريبًا، وكانت تحس أشياء صغيرة تطوف بنفسها طوفانًا هادئًا محيرًا. وعندمـا تسربت خيـوط النهار. امتـدت يداها إلى الصغـير تضمه إلى صدرهـا كأنها تحميه من شيء مخيف، وانتابهـا الذهول فترة، وعجب زوجها لذلك وأخذ يردد في مرح:

«زي ما يكون أول مرة!!».

وفي غمرة ذهولها لم تنس «جلال»، بل كانت تحس أحيانًا أن حبها له يزداد ويقوى ويشتد، ولكنها كانت دائمًا تفكر في الزائر الجديد، دائمًا وبلا انقطاع.

وعندما توحمت، أحست كأن خيطًا يربطها بمجهول يزحف، لم تتدلل، ولم تتوجع، وإنما أخذت الأمر برهبة وخشوع لم تدرِ لهما سببًا.

وليلة أن وضعت «عادل» لم تنم. كانت هناك شفتان تمتصان من ثديها الحياة. وكانت تحس إحساسًا مقدسًا يربط عواطفها بالرضيع، وأن هناك شيئًا كبيرًا، ربما أكبر من الحياة، يجذبها إليه. كان محمود نائمًا، وكان جلال قد تعرت ساقاه وقد رفس عن نفسه الغطاء وامتدت يدها لتدثره، ووقع نظرها على وجهه... وتوقفت يدها.

كان الليل صامتًا مغرقًا في الصمت، وكانت هي تفكر، بل كانت تبحث عن شيء سرعان ما اتضح وسط ظلام تفكيرها، أحست مرهوبة بحبها لجلال باهتًا شاحبًا، أحست به يتضاءل ويصغر، ثم يصبح لا شيء بجانب شيء آخر، شيء غريب هائل كان يدثرها كلها، ويدثر عمرها، ويدمجها دمجًا مع قطعة اللحم الصغيرة التي كانت تمتص من ثديها الحياة.

وحاولت أن تثور على نفسها، وأن تبتسم عندما تتذكر بسمة جلال... تلك البسمة التي كانت تسعدها كل السعادة، ولكنها أحست بزيف البسمة، زيف صدئ لا جدة فيه، ليست له تلك اللمعة التي تجلجل في بكاء عادل!!

وكبر عادل... ومع نموه كان يمتص حنانها امتصاصًا... لم تعد تربط بين ملامحه التي كانت تتضح وبين حياتها، كانت ترى فيه شـيئًا يملأ حياتها كلها وتفكيرها كله، ويضعها معه في نطاق ضيق، في عالم ليس فيه سواهما.

ويـوم أن بكـى جلال وبكى عـادل، وقفت بينهما حائـرة. كانت تنظر إلى هـذا ثم تنظـر إلى ذاك. هذا ابنها... وجلال؟ إنـه... ولكن هناك ذلك الخيط الـذي يشـدها بعنف نحو عادل... وترددت، وازداد بـكاء الاثنين، فما درت إلا وهي تندفع نحو عادل بكل قلبها وعواطفها.

ثـم أخذت تهرب... تهرب دائمًا من شيء مجهول لم تكن تدريه وإن كانت ملامحه أخذت تظهر لها وتتضح، فتغمض عينيها عنه وتواصل الهرب.

ولكنها واجهت الحقيقة ذات يوم.

صفـع جلال «عـادل»... فـما أحسـت إلا ويدها تهـوي بـكل قوتها على صدغه.

ومنـذ ذلـك اليـوم، سـقطت الغلالـة الرقيقـة التـي كانت تحجـب عنها الحقيقة التي نمت في ظلام أعماقها، ثـم أخذت تجاهر أمام نفسـها وتعلن سر مشاعرها.

كرهت «جلال».

كرهته وهي تشعر أنه دخيل على ولدها وبيتها، دخيل ينتزع من ابنها أباه، ويسلب منه حقه.

عندمـا كان يبكـي كانـت تضربـه. وعندمـا كان يضحك كانـت تزجره. وعندما كان محمود يلاعبه كانت تحس النار تكوي فؤادها.

وجلال يكبر، ومحمود يزداد حبه له، ويزداد مقتها هي له.

وأصبحت لا تحتمل الأمر.

ماذا لو مات؟!

وارتجف قلبها... ثم هدأ.

ماذا لو مات؟!

ولم يرتجف قلبها... وترقرقت في عينيها دموع لم تدرِ لها سببًا.

ماذا لو مات؟!

ولم يرتجف قلبها وظلت عيناها جافتين.

ثـم أحسـت أنه يجب أن يمـوت، وأنها يجب ألا تكـون خايبة. وأن ترعى حق ولدها.

نعـم يجب أن يمـوت. ويجب أن يبقى حب محمود لابنـه الحقيقي. لعادل وحده.

ووسـط هـذا كله، كانـت الحياة تضيق بهـا، ووجه جـلال يعذبها. كانت الحقيقـة كبيرة رهيبة مسـطحة تغطي كل حياتها، وتسـد أمامهـا كل الطرق، وتسجنها في نطاق ضيق لا يترك لها منفذًا لشيء.

وهــو شيء رهيــب أن يحـس المرء كرهًا ومقتًـا نحو إنســان، المفروض أنه يحبـه، شيء رهيــب على النفس. قد يضطر المرء إلى أن يكبت أحاسيســه، وأن يظهــر غير الحقيقــة... وهكذا كانت خيرية، تتقاذفها أنــواء حيرتها من ناحية لأخرى، فقد تصفو ســاعة، وتعلم أن لا ذنب لــه، وقد تقبله وقد تضاحكه، ولكنهـا كانت تحس كأنهـا تبذل له ما ليس من حقه، بـل لقد أصبحت تحس كأنها تعطيه ما هو حق لعادل. وأصبحت قســوتها ظاهرة، وكرهها واضحًا، ويصرخ فيها زوجها ألا تقسو عليه، وتقول هي إنها تربيه، ويبرطم هو قائلًا: «زي ما يكون مش ابنها»!

ثم بدأت تحس في خوف الصغير لذة، وفي ارتجافه منها نشــوة، وفي صمته وانطوائه ارتياحًا... وشــعرت أنه يلغي نفسه بنفسه، أصبح يقبع في ركن من الأركان صامتًـا، تـدور عيناه الصغيرتان في المكان في حـيرة وألم هائل يتلوى له الجســد الطري، ويذبل وينحل، ويزحف الاصفرار إلى جلده، لا يأكل إلا بمقدار ما تعطيه، ولا يضحك إلا بمقدار ما يسمح له وجود أبيه.

ولا شيء يثنــي خيريــة. والأمــر قد أصبــح طبيعيًـا... قســوتها أصبحت طبيعية، وكرهها له أصبح طبيعيًا. واعتادت نفســها ممارسة ذلك، وارتاحت لمنظر الألم الذي رسم خطوطًا سوداء حول العينين الصغيرتين اللتين أصبحتا تبرقــان ببريق غريب؛ بريق لم تســتطع خيريــة أن تواجهه بعينيهـا مرة... مرة واحدة.

وكان يوم...

كانت تعد الطعام عندما انسكبت مياه تغلي لتكوي ساقها، وصرخت، وجاءت جارة وجارة وجارة، وازدحم المكان، وصراخها يعلو، وألمها يشتد ويزداد، وجاء محمود، وذهبت معه إلى الطبيب، وعادت وألمها قد ازداد، وقلبها يتمزق مما عرفت.

وانقضى اليوم ولا تدري كيف انقضى... وجاء الليل ليترك محمود الحجرة هو وجلال حتى تنام.

ولكنها لم تنم.

بقيت مفتحة العينين تبحلق في لا شيء. يكويها ألم ساقها المربوطة، ويكوي نفسها شيء آخر؛ شيء مرعب... ويجذبها النوم بعنف لا برحمة، ويوقظها الألم بقسوة، ويدور رأسها، ولا تدري إن كانت نائمة أم مستيقظة، قد تكون هذه أم تلك، وقد تكون بين بين، والأمر في كل الحالات واحد.

تقفز إلى ذهنها ساق مشوهة محترقة، ويتسرب الألم من ساقها إلى فخذها فبطنها وظهرها وصدرها ثم يرتفع ليطوف كإعصار رهيب يسحق رأسها.

لقد أصبحت مشوهة... وقد رأت كل شيء، رأت ساقها حمراء فاقعة الحمرة، تكاد تصبح قطعة من الدماء اللامعة، وقد تدلى جلدها الرقيق كأنه ثوب مزقته يد عابثة.

نعم... لقد أصبحت مشوهة. وانطلق الخوف كالمارد من جديد.

محمود، ماذا سيفعل؟! ماذا سيقول؟! ترى هل سيظل يحبها؟!

ترى، هل سيجزع من منظر ساقها؟ وهل سيتزوج غيرها؟ وماذا سيكون مصيرها؟ وماذا... وماذا...؟

أفـكار وأفكار وأفـكار... ورعب يلد رعبًا، وجزع يتلـو جزعًا، وثعابين الخـوف تلـدغ كل قطعة في جسـدها... فتتلوى. والليل مظلـم، مظلم جدًّا، والسـكون مخيف، ولا نوم ولا يقظة، شـفتاها مفتوحتان في فزع، وأنفاسـها لاهثـة تـتردد بسرعـة، وآهـة تخـرج بوعي، وأخـرى بـلا وعـي. ودوامة لا ترحم... محمود، عادل، طلاق، صراخ، وحدة، حزن، بكاء، تشـويه، وساق حمراء كقطعة لامعة من الدماء تهتز وتتأرجح في الظلام كاللهيب.

كابـوس وراء كابـوس، وحلـم مزعج، ويقظة أشـد إزعاجًـا، وألم دفين قاتل.

وهدأت قليلًا.

وأخذت تتسـمع سـكون الليل، وعرق بارد يغرق كل جسـدها المهدود، وهمهمـة تأتي من بعيد، صوت صغير رفيع مرتجف، لا تدري من أين، ولكنه لا يذهـب... أهـي في حلم؟ أهـي نائمة؟ لا تدري، ولكـن الصوت يأتي، لا يغيب، رفيع متموج مع هواء الليل الساكن المغرق في السكون.

وتتنبه لنفسها قليلًا... وتحس شيئًا.

ثمـة شيء يتلمـس في الظـلام سـاقها، وثمة ضـوء يتسرب مـن المصباح السـهاري في الصالـة... ويرتد إليها وعيها شـيئًا فشـيئًا، وتـدرك مكانها من الحجرة بعد لأي، والضوء شـاحب، ولكنه يوضح فضاء الحجرة، والصوت لا يكف، فيه ألم، وفيه حزن، وفيه شيء كالرحمة ارتاحت إليه.

ورفعت رأسـها، وبدأت عيناها تخترقان ستر الظلام وتتحسسان موضع الرؤية.

هناك... أسفل... عند قدمها رأت شيئًا، ما إن ميزته حتى جمدت تمامًا.

كان جـلال واقفًـا بجسـده الصغـير، وكان يبكي في صمـت، وكان يقبل سـاقها المربوطة ويتحسـس بشـفتيه لفائف قدمها الملطخة بالدمـاء والدواء. وكان صوتـه قـد أصبح واضحًا... ومن وسـط الطنين الـذي كان يدوي في أذنيها سمعته:

«ماما.. أنا حب ماما.. يا لب حب ماما».

وكأن قبضة تعصر قلبها، وشيئًا حادًّا ينغرز في صدرها، حادًّا حادًّا كطرف سكين مرهف، يغوص ويغوص ويمزق بقسوة كل شيء، وحاولت أن تتكلم ولم تستطع، وفردت ذراعها مرتعشة في الهواء، والصغير لا يشعر... يتحسس الساق والأربطة، ويهمهم ويبكي في صمت، ويناجي بكلمات ساذجة صغيرة ربَّما لا يدري عنه شيئًا.

والليل... هو نفس الليل الذي جمعهما من قبل، منذ ثلاث سنوات، لأول مرة.

نفس السـكون، ونفس الوحدة، إلا من أنفـاس عادل... وانطلق الماضي يطويها فكأنما ردت إلى عالم آخر، وكان لسـانها يجاهـد، ويتلوى في حلقها... ومع زحف صوتها من أعماق صدرها، تحرك لسانها:

«جلال..».

وارتجف الصغير كأن يد شيطان قد مسته... وابتعد قليلًا.

«جلال..».

ولم يرد.. وازداد ابتعاده.

«جلال..».

وازداد بـكاؤه، وأخـذ يبتعـد، وهمـت هي مـن مكانها، وحركت سـاقها المربوطـة، وازداد الألم، وانتـشر كاويًـا في كل جسـدها، ولم تبـال. كان هناك شيء أقـوى من كل ألم يدفعها إلى جلال، وكان جسـدها يرتجف وهي تحاول الهبوط من الفراش.

«جلال..».

ولم تشـعر أنهـا كانت تقولها هـذه المرة باكيـة ودموعها تنهمـر في قطرات كبيرة ثقيلة.

«يا ابني.. يا جلال..».

وتقـف عـلى سـاق واحـدة، وتسـتند إلى مقعـد، وإلى السريـر، ويتقهقـر الصغـير حتى يلتصـق ظهره بالحائط، وهي تقترب منـه، وخوفه يزداد، وتمد يدهـا إلى البـاب فتفتحه، ويتسرب الضوء ليشـمل الجسـد الصغير المرتجف، نفـس العينـين اللتين رأتهما منذ ثلاث سـنوات، صافيتـين بريئتين، فقط فيهما اليـوم حـزن، وشيء آخر؛ شيء تنبئ عنه تلك الخطـوط التي بانت في الضوء الشاحب أكثر سوادًا وأكثر عمقًا، كان فيهما رعب!

وامتـدت ذراعاهـا نحـوه... وانفردت ذراعـا الصغير تصدان عنه شـيئًا مجهولًا، وازداد بكاؤه، وتقطعت كلماته التي انطلقت تبرر فعلته:

«أ.. أأ.. أناحـ.. حـ.. حب.. حب ماما..».

ولم تدر خيرية بعد ذلك شـيئًا، قد تكـون قد صرخت، وقد تكون قد بكت، لم تدر شـيئًا قطُّ، كل ما تعيه هو تشـنجات ودموع وكلمات حانية، وجسد صغير يلتصق بصدرها وذراعان رفيعتان تلتفان حول عنقها وتضمانها بكل قواها.

■ ■ ■

وعندمـا أضاء زوجهـا النور... أفاقت لتجد نفسـها فوق الأرض، تضم جلال إلى صدرها وهي تنشج باكية:

«سامحني يا ابني.. سامحني».

وربت محمود على كتفها وقال بحنان بصوت متحشرج نائم:

«يـا ولية خضتيني.. مش كـده.. ده أمر الله.. مش أحســن ما كان الحرق أكبر من كده.. احمدي ربنا، قومي، قومي نامي».

ونامت ليلتها وعلى شـفتيها ابتسـامة، وأحسـت النوم يتسرب حانيًا إلى جفنيها المبللين بالدموع، كأنها ولدت من جديد، ودقات قلبها تدق منتظمة، وراحة حلوة هادئة تشملها... لأول مرة منذ زمن طويل.

الرجل الكبير

إبراهيم أفندي رجل دُغري لا يعجبه الحال المائل، وهو أيضًا رجل مستقيم يرضى بالقليل، ولا ينوبه من الدنيا سوى السيجارة وفنجان القهوة، والحمد لله على ذلك، فهو لا يطلب شيئًا سوى الستر.

ولكن الذي ينغص عليه حياته ويحرمه النوم هو ابنه محمود، فالولد خسران وأخلاقه تالفة، حقًّا إنه ينجح كل عام، ولكن النجاح غير مهم، فإبراهيم يعلم تمامًا أن الأدب فضلوه عن العلم.

والذي يغيظه حقًّا هو أن الولد يقول إنه لم يعد طفلًا، وإنه قد أصبح رجلًا... ويوم أن قال ذلك، ثارت ثائرة إبراهيم، وقال لابنه: إنه رجل على نفسه فقط، أما في البيت فالرجل هو وحده، وليس من رجل سواه، وإن لم يعجبه الحال فليره عرض أكتافه.

وكان من الممكن أن يتحمل إبراهيم أفندي كل شيء، كان من الممكن أن يطيق سهر ولده في الخارج إلى ما بعد منتصف الليل، وقد يطيق صوته الغليظ الأجش وقلة أدبه على أمه وإخوته... ولكن الذي لا يطيقه ولا يتحمله هو أن يعلم أن ابنه يدخن.

ويومها نظرت الست زبيدة إلى وجه زوجهـا المحتقن، وإلى العرق النافر في منتصف جبهته العريضة، وقالت له بصوتها المستكين: «خير يا إبراهيم؟». ولكـن الذي قالـه إبراهيم في ذلك اليوم لم يكن خيرًا أبدًا... وعندما حاولت أن تقـول كلمـة طيبة، ومـا كادت تنطق بـ والنبي يا اخويـا، حتى انفجر فيها كإعصـار، وألقى عليهـا يمينًا بالثلاث إن هي اقتربت منـه!! وانفلتت زبيدة تجري إلى حجرة أخرى وهي تنشج بحرقة وتقول:

«إخـص عليـك يـا ابراهيـم، بعـد العمـر ده، وبعـد الشـيبة، ترمـي علي اليمين.؟!».

وأخيرًا جاء محمود.

ولا يـدري أحـد بالضبط مـا حـدث، كان إبراهيم موقنًا أن ابنه سـينكر، وكان محمـود يعلـم أن أبـاه لن يصدق، فقـال «نعم» من هنـا، وانهالت عليه العصـا بكل غضبـة أبيه من هنـا... ولكن المصيبـة أن الولد أمسـك بالعصا وكسرهـا، وهـاج الأب وصرخ، وهـاج محمـود وصرخ، ولم يطـق إبراهيم، فكيف يرد الولد عليه، ويعلو صوته على صوته؟

وسـمع الجيران يومها صراخ زبيدة. ورأوا «محمود» يهبط الدرج مسرعًا، وفتحـت الأبواب، وتزاحمت الـرءوس، وتطلعت العيـون... وكان إبراهيم أفندي الذي يسـكن الدور الأول ممددًا في وسـط الصالة وقد أفقدته الصدمة وعيه.

ومـر يوم ويومان، ومرت عـدة أيام، وبدأ قلب السـت زبيدة يأكلها على ولدها الذي أصبحت لا تعلم عنه شيئًا.

وأخذت تسوق طوب الأرض على إبراهيم عله يلين، وعلَّ محمود هو الآخر يعود. والحقيقة أن الأمر لم يكن بالصورة التي تصورتها، فلقد رضي إبراهيم أن يحدث ابنه بالحسنى، ورضي محمود أن يصالح أباه ويقبل رأسه ويده، وأن يقسم بألا يدخن مرة أخرى.

وجلس إبراهيم أفندي ينفث دخان سيجارته في وجه ابنه - دون قصد- ويقول له إن الحالة كما يرى، وإن السجائر تضر ولا تنفع، وإنها تهلك الصحة... «وآديك شايف صحتي، واسألني أنا، النهارده سيجاره، بكره يبقوا اتنين، بعده تلاته..».

وعندما قبَّل محمود رأس أبيه ويده، بكت الست زبيدة ودعت من قلبها أن يهدي الله ابنها.

ولكن الولد لم يهتد... وعادت ريمة إلى عادتها القديمة.

وعاد إبراهيم أفندي ثائرًا، وثورته هذه المرة تكاد تحرق كل شيء... وهمت الست زبيدة أن تقول كلمتها الطيبة، فصرخ فيها زوجها بأنها هي السبب، سبب خسارة الولد، وأنها، وأنها، وأنها، و... وعندما قالت له: «كلها سنة وياخد الشهادة ويشتغل». قال لها: «أحلق شنبي لو طالها».

«ليه بس يا خويا بتبشر على الولد؟!».

ولأول مرة لم تفهم الست زبيدة ماذا يريد زوجها... قال لها إن الولد كان يهتف في وسط شوية عيال «تسقط الحكومة»، وقال: إنهم أناس على قد حالهم، وإنه لن يتحرك من مكانه مهما فعلوا بابنها، وإنه وضع أصابعه في الشق، وخلاص، رمى طوبة محمود ولن يسأل عنه.

ولكنه لم يرم طوبة محمود.

فإنــه قــد يطيق أن يســهر ولــده في الخــارج، وقد يطيــق أن يدخــن، فهذه أشـياء يقدر عليها... قد يتحمل ذلك كله عله يفلح ويأخذ الشـهادة ويغور مـن وجهـه، وهو بعد ذلك لا يريد منه شـيئًا. لا يريد منه سـوى أن يبعد عنه ويتركه للصغار ليربيهم، ولكنه لا يطيق أن يسـمع من ولده ما سـمع منه في تلك الليلة.

«ابعد عن السكة دي أحسن لك».

«ومين يدافع عن البلد؟!».

«كان غيرك اشطر!!».

«معلهش.. الحكومة لازم تسقط يا بابا..».

ويثـور إبراهيـم أفنـدي، فهو رجـل دُغـري لا يعجبه الحـال المائل، وهو صاحـب أولاد، كوم لحم، بطون تريد أن تأكل، ألا يكفيه ما هو فيه من ذل؟ ألا يكفيـه عبد السـتار أفنـدي الوكيل الذي كان في العـام الماضي فقط يعمل تحت إمرته، فإذا به بين يوم وليلة رئيسه وسيده وتاج رأسه؟ ويصرخ في ولده بحدة:

«اسـمع كلامي بقول لك، ابعد عن السـكة دي.. لا.. مش عايز كلام.. مـش عايـز مقاطعة، حكومـة آل، وطنية آل، ياخي اتنيل وشـوف دروسـك الأول، هـي دي بلـد يـا حمار! هـي دي بلد تسـتاهل؟ وافـرض.. افرض إن

الحكومة دي سقطت، حاتيجي حكومة أنيل منها.. إيه؟ تسقط راخره؟تبقى عملت إيه؟ ما انيل من ستي إلا سيدي!».

وثورته تتحول تدريجيًا دون أن يدري إلى شيء آخر... وهو ثائر حقًا، وجبهته حمراء يكاد الدم أن يبك منها، والعرق يتوسطها نافرًا، وهو لا يقبل مناقشة، وعلى محمود أن يبعد عن الشر ويغني له، فهو بلا ظهر يستند إليه، ليس كعبد الستار، إنه مقطوع من شجرة.

وقد يطيق إبراهيم أفندي ألا تعجب ولده الحكومة، وقد يطيق أيضًا أن يهتف بسقوطها، ولكنه لا يطيق من ولده أن يقول: إن الملك أيضًا يجب أن يسقط!

وماذا يفعل مع هذا الولد الذي يريد جلب المصائب عليه؟!

ويلين صوته، ثم يشتد ويثور، ويأمر ولده أن يبتعد، ثم ينصحه، ثم قال له: «عندك حق». ثم توسل إليه:

«يا ابني احنا مش ناقصين، كل واحد بيقول يالله نفسي، يا ابني اهتدي بالله».

ولم ينم ليلتها، كان الأمر قد بلغ ذروته، وأحس أنه لم يعد يطيق رائحة ابنه، وكره حياته تلك، أحس ببيته الصغير تعبث به يدان قاسيتان فتترنح جدرانه، وظلت عيناه تبحلقان في الظلام، وظل يتنهد وينفخ طول الليل... كله إلا هذا، إنه ليس من ذلك النوع من الآباء الذين يخضعون لأولادهم، لا، لن يترك هذا الولد يفعل ما بدا له، يجب أن يسمع كلامه ويطيعه، وإلا ... وإن لم يعجبه الحال، فليره عرض أكتافه.

وتغلي الدماء في عروقه، ويحس وكأن رأسه سينفجر، وأن شيطانًا قاسيًا يعصر جسده ويعذبه ويحيل حياته إلى ذلك الجحيم المستعر، وكره محمود، كَرِهَهُ بكل عذابه وقرفه من الحياة، وبدأت كراهيته تمتد لتشمل كل شيء، تشمل زوجته وأولاده وبيته.

والأيام تمر، لا راحة ولا أمل في راحة، والدنيا تزداد ضيقًا به يومًا بعد يوم، والغلاء يشتد، وتصبح المعيشة نارًا، وغيظه وحنقه يزدادان، والبيت هبطت عليه غلالة سوداء حالكة، فالأمر لم يقتصر على ذلك، ولو سمع محمود نصائح أبيه لما حدث ما حدث، ولما أصبحوا في تلك الحالة التي كانوا عليها ذات ليلة قارسة البرد، وقد حل الوجوم على الجميع، وثورة إبراهيم أفندي هذه المرة كظيمة عاتية، تزمجر في أعماقه بقوة، وظلام الليل الحالك يصل إلى القلوب المتوجسة، وهو بين الحين والآخر يردد في صوت منفعل مرتجف: «يعني لو كان سمع الكلام. يعني لو كان سمع الكلام!».

ويرفع بصره إلى السماء، وتحتقن الدماء في وجهه، وينفر العرق في منتصف جبهته. ويختنق صوته وهو يقول:

«يا رب، أنا عملت إيه في دنيتي بس؟!».

ويتنهد في حرقة، وتتشتت أحاسيسه، والليل يمضي، وزوجته لا تكف عن البكاء، والصغار في حجرتهم قد حبسوا أنفاسهم، وعيونهم الصغيرة تلمع في الظلام وتبحلق في لا شيء، وعقولهم حائرة، وحزن يعتصر قلوبهم، وخوف رهيب يدثر كل البيت بقسوة، ومن جوف الظلام تأتيهم تأوهات أمهم، وتهز قلوبهم صرخاتها الطويلة الممطوطة الملتاعة.

«يا ابني...!».

وينبعث صوت أبيهم خشنًا غليظًا، ولا يدرون ماذا يقول، ويسود السكون. ويعمق، ثم ينبعث صوت أمهم في لوعة:

«يا رب خليك معاه! يا رب».

وتنسال دموعهم في صمت، ولا أحد يدري شيئًا سوى ألفاظ ضخمة ترسل الرعب إلى نفوسهم... سجن وبوليس وعساكر، واختفى محمود بعد ذلك، ولم يعد.

أيام طويلة كئيبة تمر، وإبراهيم أفندي لا يدري ماذا يفعل. قالوا له أن يذهب إلى محامٍ، فذهب وعاد ثائرًا صاخبًا لاعنًا... عاد يهذي وكأن الزمن لا يكفيه ضياع السنة على الولد والمصاريف التي اقتطعها من قوت الصغار، لا يكفي كل هذا، فيرزقه الله بأتعاب المحامي لتقصم ظهره.

وتعتريه لحظات يحس فيها بنفسه ضئيلًا صغيرًا، يحس وكأن آلام الدنيا كلها قد حطَّت فوق أكتافه، ويرفع كفيه إلى السماء... ويتوسل في صوت خفيض:

«يا رب، أنا عملت إيه في دنيتي بس؟!».

ولا يدري ماذا فعل في دنياه حقًّا، لا يدري سبب عذابه هذا المقيم، ويغضب، ويهدأ، ثم يعود إليه غضبه أشد مما كان... ويصرخ في زوجته:

«عاملِّي راجل حضرته، والله يوم ما يطلع ماحايعتب باب البيت، فاهمه، ابقي قولي كاني ولَّاماني، إنتي حره..».

وتقول زوجته: «معلهش»، ويصرخ في وجهها:

«معلهش دي حاتسد فلوس المحامي؟!».

ويقترب يوم المحاكمة، وإبراهيم أفندي يسـمع عن ولده الكثير، يسـمع عن مظاهرات وهتافات وسب في الذات، ويصدق، يصدق كل شيء، ويعلم أنه حدث، وينظر إلى المحامي في قلق، ويقول الرجل: «ربنا يستر».

وهو يقسـم لكل من يراه أنه لم يدخل محكمة في حياته، ولا قسـم بوليس، ولكنـه الزمـن الأغبر الذي جعله يتشـحطط ويمد يده للذي يسـوى والذي لا يسوى، ويلطم وجهه على خلق الله... ومين السبب؟ ابنه!

كان الرجـل يتعـذب حقًّـا، ولكن أشـد مـا كان يعذبه ذلك الإحسـاس الغامـض الـذي كان يحس بـه رغمًا عنـه، وتلك الرغبـة الخافيـة العربيدة في رؤيـة ولده، ولكنه رجل دُغري، فكان يجب أن يعلن سـخطه وغضبه وعدم رضائه... فلم يذهب. ولم يفكر في زيارة محمود.

إلى أن كان يوم المحاكمة، وكان لا بد من الذهاب.

ولم يكـن هناك داع للبهدلة، لذلك فقد رفض أن تذهب معه زبيدة، غادر البيت يومها وفي قلبه ألف خاطر، وفي نفسـه صراع رهيب، وفي صدره رغبة جارفة، وعيناه قلقتان وكأنهما تبحثان عن شيء.

ومـا كاد يأخـذ مكانـه في القاعـة حتى اعـتراه قلق رهيـب، وكان صدره يعلـو ويهبـط في انفعال وسرعة، وكانت يـداه ترتجفان، وعيناه لا تسـتقران، ترى كيف حال الولد؟ وماذا فعلوا به؟ وتنهد، وسـعل وحوقل، وصلَّى على

النبي، وعندما ساد الهرج، التفت إلى الباب ليجد صفًّا طويلًا يسير في اتجاه القفص.

ورأى محمودا!

وتعلقت عيناه بالوجه الشاحب الذي برزت عظامه وغارت فيه عينان كانتا وكأنهما فجوتان سوداوان، وكان الطابور يقترب، ووجه ابنه يقترب، وعيناه تبحثان في القاعة، والناس تتهامس، والتقت عيونهما، وابتسم محمود.

ولا يدري إبراهيم أفندي إن كان قد ابتسم هو الآخر أم لا، ولا يدري إن كان قد قال شيئًا، كل ما يدريه هو أنه وجد نفسه جالسًا في مكانه مرة أخرى وعيناه معلقتان بوجه ابنه الشاحب وراء القضبان، وتمنى لو ينهض إليه، وكان يعلم أنهم سيمنعونه، ولكنه تمنى لو فعل شيئًا، وأحس أن ساقيه ترتجفان، وعرف أنه لن يقوى.

والأحداث تمر بسرعة. أسئلة وأجوبة. وسكون مطبق. ومحام يتكلم. ورجال يأتون. والقاضي يسأل. وهمهمات. أشياء كثيرة كانت تدور دون أن يعيها. وشيء غريب مثلج كان يطوف بجسده. وأنفاسه منبهرة مترددة. وعيناه لا تكادان تريان سوى الوجه الشاحب. وهمس متواصل في أعماقه. همس رهيب يتردد صداه في كل أرجائه «مش قلت لك يا محمود. احنا مش قد البهدلة دي!».

ولكن محمود كان يبتسم. دائمًا يبتسم. نفس الابتسامة الغاضبة التي كان يلمحها على وجهه كلما تشاجرا.

ويسمع اسم ولده، ويسود سكون قصير، ويقف المحامي، ويقف محمود، ويأتي صوته ضعيفًا وكأنه آت من أغوار سحيقة:

«أنا عايز اقول حاجه يا حضرة القاضي..».

وترنح محمود في وقفته، وهمس إبراهيم «ليه تعمل في نفسك كده؟!».

وتكلـم القـاضي. وتكلم المحامي. وسـاد الصمت. وران سـكون عميق على القاعة كلها. وتعلقت عينا إبراهيم بوجه ولده، ورأى شـفتيه ترتعشـان، ثـم خرج صوتـه في أول الأمـر ضعيفًا كـما كان، وتكلم كثـيرًا، وعلا صوته قليلًا، ثم استقام.

كان محمـود يتكلم بقوة. وصوته تعود إليـه نبرته التي طالما اخترقت أذنيه، وكان ثائرًا كعادته، منفعلًا، وأخذ صوته يعلو ويعلو ويشـتد، ثم يصبح صلبًا قويًا، وتمتد يداه إلى قميصه، وعندما يظهر لحمه الممزق... تدوي في القاعة شهقة إبراهيـم، ولم يكن يـدري أأطلقها هو، أم أنها انطلقت رغمًا عنه... الذي يدريه أن عينيـه التقتا بعيني محمود، وأن صوت ولـده الأجش ظل يدوي في القاعة، وهمـس كثير حوله، والوجوه تتمايـل، وشيء كالدفء يسري في أوصاله عندما سمع جاره يمصمص بشفتيه، ويقول: «والنبي راجل من ضهر راجل».

ويسري التنميل في جسده مدغدغًا كل حواسه، كان الناس يستمعون إلى ولده، وكان ولده قويًا، كان رجلًا، رجلًا كبيرًا.

ولا يدري كيف ابتسم، وكيف أحس تلك الحرارة، لم يعد يخاف. ولم يعد يهمه أحد، ولم يعد يعجبه عبد الستار ولا غير عبد الستار، فرحة غامرة تهبط عليـه، ويـدور بعينيـه في الوجوه التي كانت معلقة بجسـد ابنه، كان محمود

لا يـزال يتكلـم، وكانت الهمسـات تصل إلى أذنيه فيحس لها لـذة. وفي عينيه دمـوع، وفي قلبـه شيء غريب، شيء لم يعرفه أبدًا، لم يكن حبًّا، فلقد كان يحب ابنـه طـوال عمـره، ويفرك كفيه في عصبية، وتتسـع الابتسـامة فوق شـفتيه، وتتراخـى عضلات وجهه المشـدودة وكأنها تسـتريح بعد عنـاء طويل، ويهز رأسه في نشوة، وينظر إلى جاره، كانت عينا الرجل معلقتين بوجه ابنه، ويميل إليه، وترتفع إصبعه مرتجفة مرتعشة تشير إلى محمود... ويقول هامسًا:

«دابني.. دابني».

لم يعد يهمه شيء، لا المصاريف ولا العام الذي خسره محمود، ولا أتعاب المحامي... لا... لا شيء يهم بالمرة، شيء واحد يحس به... هو أن محمود ابنه، ولأول مرة يحس أن كلمة محمود حلوة حلوة... لها مذاق العسل.

كان القـاضي يسـأل، ومحمـود يجيـب، ووكيل النيابـة يتكلـم، والمحامي يترافع، والوقت يمضي، وإبراهيم لا تكف عيناه عن التعلق بولده.

وجلس محمود، وتكلم آخرون في القفص.. لا.. لا.. ليسـوا مثل محمود، ولا يسـتطيع أحـد أن يكـون مثله، لم يسـمع لأحدهم صوتًا خشـنًا كصوت ولده... والوقت يمضي، والأمر ينتهي بسرعة، وكأنه لم يبدأ. ويسـود الهرج، وينفتح بـاب القفص، ويندفع إبراهيم نحو ولـده، وتمنعه أيد غليظة، ولكنه يحاول ويعافر، وينطلق صوته حنونًا لينًا:

«محمود.. محمود.. عايز حاجه يا ابني؟!».

وأحس أنه يقول يا ابني بكل صوتهِ وكأنه يريد أن يسمعها لكل الناس، وتلتقي عيونهما، وتلتقي ابتسامتاهما، ويحس الرجلان كأن كلًّا منهما يحتضن الآخر:

«سلم على نينة، أنا عال خالص، شد حيلك».

«ما لكش دعوه بيَّه، ومتنعاش هم، قول قوام، عايز حاجه؟!».

كان وجه محمود يقترب ويقترب، ويقول إبراهيم بكل لهفته:

«قول يا محمود، مش عايز حاجه؟».

«عايزك طيب.. سلم عليهم».

وتضايـق إبراهيـم، كان يريد أن يصنع شـيئًا، أي شيء، كان يجري بجوار ولـده ولا تريـد عيناه أن تفارقاه، وفجأة تذكر شـيئًا، وامتدت يده مرتجفة إلى جيبـه بسرعـة، وامتـدت ذراعـه إلى ولده وقـد قبضت يده عـلى شيء، ونظر محمود إلى علبة السـجائر في يد أبيه وابتسـم بكل وجهه، وامتدت يده بسرعة واختطفت العلبة في مرح، وقال وهو يبتعد:

«ربنا ميحرمنيش منك».

«ولا يهمك.. ولا يهمك.. كل اللي انت عاوزه.. ولا يهمك».

كان محمـود يبتعـد، ولكنـه لم يختف عن العينـين الدامعتين، والوجـه الذي كان يبتسـم في ارتيـاح لأول مرة منذ زمن طويـل، طويل جدًّا، وكلـما ابتعد زاد ارتجاف قلبه، والناس تتزاحم، وينبعث الهمس من أعماقه: «والله لك وحشه يا محمود».

وعندما كان ولده يقترب من السـيارة، كانت ابتسامة رحبة تشمل وجهه كله، وعندما وضع محمود قدمه فوق السـلم، نظر إبراهيم إلى السيارة بلهفة، وامتدت إصبعه مرتعشة نحو العربة... وقال لجاره بصوت هامس:

«دا ابني.. أنا أبوه.. صحيح أنا أبوه!».

اللهب

كان سطح المياه يكاد يلتهب تحت قرص الشمس الذي بدا كجمرة رهيبة معلقة في الفضاء الصامت الآسن... وما تكاد العين أن تلتقي بالسطح المترقرق اللامع حتى تجفل مذعورة، وترتد إلى ظل خانق كئيب... ثم تجذب جفنها وتسبح في ظلام أشد كآبة.

كانت السفينة تنزلق على السطح بتثاقل شديد، وصوت الآلات يطن في الداخل، ومع طنينه الرتيب كانت تنبعث من الآلات حرارة تنتشر في الممرات وتختلط بحرارة الجو فتزيد من شدة الاختناق.

الممرات كئيبة مظلمة، والمراوح تعمل بلا انقطاع منذ يومين، ثم أصبحت هي الأخرى تنفث هواء ساخنًا ملتهبًا، فامتدت إليها الأصابع وأسكتت حركتها وأخمدت دورانها... وما لبث أن ران جمود رهيب على كل شيء... حتى على نفوس الرجال وأجسادهم العارية المستلقية فوق سطح السفينة في استرخاء وكسل.

كانت ثمة مجموعات متناثرة، وهناك في الطرف الأيمن، كانت مجموعة من أربعة رجال منهمكة في لعب الورق، قد ظللتهم قطعة سميكة من

القـماش، بانت وقتهـا كأنها كابوس يكتـم الأنفـاس... كان الرجال عراة لا يسـتر أجسـادهم سـوى سراويـل قصـيرة، والعـرق يتصبب مـن جباههم، ويسـيل على وجوههـم وأعناقهم ويتخلل شـعيرات صدورهم، وأصابعهم تمسـك بالأوراق والأقراص الملونة وهم غارقـون في اللعب... متأففون منه في ذات الوقت.

وكانت المجموعات الأخرى المتناثرة تمارس أشياء مختلفة... فمن حديث كسـول ملـول، إلى شراب بـارد تحول في لحظـة إلى شراب يغـلي... وفي نهاية المؤخرة كان ثمة شـاب يافع ناعم الوجه مسـتلق وحده، شـاخص بعينيه إلى المظلـة السـميكة... بينما في وسـط المـكان كان عملاق ضخم الجثـة قد تمدد وراح في نوم عميق.

صرخ أحد اللاعبين وسـب الأوراق وسـب زملاءه وسـب الحر والبحر والدنيا بأجمعها إثر خسارته لمبلغ كبير. ثم تساءل وهو يهرش لحيته النابتة عن موعد وصول السـفينة... فرد عليه آخر، بانـت على وجهه العريض - الذي يتوسطه أنف أفطس كبير - أمارات قلق وضيق:

«إن شـا الله ما وصلت، هي جهنم حانبقى أكتر من كده؟ علشـان تتمرن من دلوقت على الشوي».

كان الشـاب المستلقي في نهاية المكان لا يزال يبحلق في المظلة المعلقة فوق رأسه، وصدره العاري الخالي من الشعر يعلو ويهبط في سرعة وضيق، وعيناه قد احمرتا... وشفتاه جفتا وأصبحتا كقطعتين من الصخر.

أما العملاق النائم في الوسط، فكان شخيره قد ملأ المكان، فصرخ فيه أحد اللاعبين، ولكنه كان غارقًا تمامًا، وشخيره المنتظم يتصاعد من أنفه وفمه المفتوح... وانطلقت ضحكات ملولة، سرعان ما ماتت عندما أصابت العملاق النائم فردة حذاء خلعته من نومه خلعًا... فنهض مذعورًا، وتلقفته سبة بذيئة أطلقها أحدهم، فاصطدمت بأذنيه، ولكنه بدا وكأنه لم يسمع شيئًا، فأمسك فردة الحذاء بكف غليظة هائلة، وأطاح بها في الهواء فطارت ثم استقرت على سطح المياه، ثم غاصت في جوفها، وما لبث أن عاد إلى مكانه من جديد مسندًا رأسه إلى ذراعه المثنية.

وعلت في الجو صرخة مهددة:

«والله لتشتري لي غيرها... إنت حر، يا كده يا أخرب بيتك».

تصاعدت الضحكة الملولة، وسرعان ما ماتت من جديد في صدر صاحبها... وصرخ أحد اللاعبين متهمًا زميلًا له بالغش، ورد زميله عليه بصرخة مماثلة، وهدده بإلقائه في المياه... وهمد الأمر بعد لحظات، وعاد السكون والهدوء إلى المكان. وعلا حفيف المياه المحتكة بجوانب السفينة، وتصاعد في الجو بخار خانق رطب، وصبت الشمس شواظها بلا رحمة وبإصرار قاتل... وهتف رجل:

«هوا.. شوية هوا..».

وران الصمت من جديد... عميقًا. عميقًا.

وظهر في أعلى سلم صغير رجل أخذ يهبط السلم في بطء وتثاقل، كان باديًا عليه أنه يملك الأمر والنهي، كان القائد... وتحولت إليه الرءوس

لفترة، وشـملته العيون بنظرة، ثم اسـتدارت في محاجرها وعادت إلى أماكنها غير مبالية.

علت شـفتي الرجل ابتسـامة واهنة مرهقة وهو يومئ برأسـه إلى الشاب المستلقي في المؤخرة... ثم سأله في صوت أجش خافت:

«مالك؟!».

أدار الشـاب بـصره دون أن يرد عليه، ثم تقلب بجسـده كلـه إلى الناحية الأخـرى، بينـما صدره يعلـو ويهبط في انفعـال وسرعة وضيق. كان الشـاب نحيـلًا أسـمر الوجه ضئيل الجسـم، وجهه الصغـير الناعم يثير تسـاؤلًا بين الوجـوه الخشـنة الرهيبة... وقال القائد في اقتضـاب وهو يمضي وكأن الأمر لا يعنيه:

«إنت تعبت من أول سفرية؟!».

ولم يتلـق جوابًا... وكأنه كان يعرف ذلك، فقد دس بين شـفتيه سـيجارة أشـعلها، وجذب منها نفسًـا سرعان ما طرده في الهواء وألقى بالسـيجارة إلى المياه، ثم استدار وعاد من حيث أتى.

علا شـخير النائم مرة أخرى، فزأر العمـلاق ذو الذقن النامي، وامتدت يـده إلى فردة الحذاء الأخرى وطوحها تجـاه الرجل النائم، فارتطمت بوجهه في شدة، وهب الرجل غاضبًا مزمجرًا، وأطبقت يده على فردة الحذاء وطوحها بـكل قواه فأصابت الرأس ذا الأنف الأفطس العريض الذي كان مائلًا فوق جسد ضخم كانت ذراعاه منهمكتين في اللعب.

وبدأ العراك.

كان واضحًا في البداية أن كليهما يريد أن يحطم الآخر، وقد هم بعض الرجال أن يفرقوا بينهما، ولكنهم عادوا مسترخين إلى أماكنهم وقد بدت السعادة على وجوههم... ومع صوت اللكمات، أشعلت السجائر، وانتشرت الابتسامات على الوجوه، بينما كان الرجلان يتقاتلان ويئنان من وقع ضرباتهما.

قال رجل من بعيد:

«كفاية يا محسن..».

ودوى في المكان صوت لكمة، ودار أحد الرجلين وهو يهجم كالوحش على زميله... وعم السكون تمامًا إلا من صوت الضربات المتلاحقة في البداية، والتي أخذت بمرور اللحظات تتباعد وتتباعد، واسترخت الأجساد المشدودة بعدما بدا أن الرجلين قد نالهما التعب تمامًا. وأن أذرعهما قد وهنت، وأصبح واضحًا أنهما سيفترقان بعد لحظات... ولكن هذه اللحظات لم تطل؛ إذ علا في الجو صوت غريب... غريب جدًّا.

كان نحيبًا متصلًا، وبكاء حارقًا... وكان الشاب الصغير الراقد في مؤخرة السفينة قد دفن رأسه بين ذراعيه، وأخذ جسده ينقبض وينفرد في حركات تشنجية... كان يبكي بحرقة.

وتوقف الرجلان فجأة... واسترخت أذرعهما. وبحلقا في الجسد الممدود الذي انصبت فوقه كل العيون... وهمس أحدهما بصوت مسموع:

«الولد بيعيط!».

وقهقه الآخر وهو يمسح بظهر كفه دماء كانت تسيل في جانب فمه، وهو يقول في سخرية:

«نجيب له بزازه؟!».

كانت دهشـة الجميع شديدة عندما التوى جسـد الشاب، والتفت برأسه الصغـير نحو الرجل القائم وسـط المكان، هائلًا عملاقًـا كأحد ملوك البحر الطغاة، وصرخ الشاب بكل صوته:

«اخرس...».

ضحك العملاق وهو يقول:

«حاتسكت والا احطك في اللفة؟!».

«اخرس يا كلب..».

كان المنظر فريدًا، فتراخى جسد العملاق الآخر، واستلقى فوق الأرض. بينما كان الشـاب قائمًا على ركبتيه وذراعيه متحفزًا كقطة متوحشـة أمام أسـد ضخـم مفـترس... وعاد الشـاب إلى الصراخ بكل صوتـه المختنق، ودموعه تسيل من عينيه فتختلط بقطرات العرق النابتة فوق وجهه:

«وحوش. وحوش. كلاب».

قهقه العملاق وقد بدا له الأمر مسليًا تمامًا.. وقال في برود:

«تحب أجيب لك شخشيخة يا ابني؟».

وقفزت القطة في سرعة وأنشبت أظافرها في عنق الأسد، والتحم الجسدان التحامًا غير متكافئ... وتصلبت عضلات الرجال وتوترت أعصابهم وهم يرون جسد الشاب يهوي مرتطمًا بالأرض في قسوة... وصاح أحدهم من نهاية المكان:

«بالراحة عليه يا محسن».

قفز الشاب من جديد، وارتفعت يده وهوت في صفعة هائلة فوق وجه محسن، ورد محسن بصفعة أكثر قسوة، وجرت الدماء من فم الشاب وأنفه ولطخت وجهه... كانت الدموع قد جفت تمامًا... وعيناه قد اختفى احمرارهما، والعرق ازداد تصببه فوق وجهه وجسده، وأنفاسه قد انتظمت، بينما الآخرون قد استلقوا في أماكنهم تمامًا في استرخاء لذيذ. لذيذ! والعرق السائل من مسام جلودهم ينزلق في بطء... ونسمة من هواء - لا يدرون من أين - هبت فشملت أرواحهم. وتباعدت أصوات الضربات، وتباعدت وتباعدت، ووضح أن المتعاركين قد وهنت قواهما، وسرعان ما توقفت أصوات الضربات وران سكون، قطعه صوت قدمي العملاق وهما تزحفان فوق أرض المكان... ثم هوى جالسًا في مكانه من الجماعة... وقال في صوت لاهث مستريح:

«فرق الورق، وبلاش سرقة».

وفجأة...

توقفت ساقان بجوار جسده، وهوى الشاب جالسًا إلى جانبه، ثم قال وفي عينيه نظرة ارتياح، وبقايا الدماء تلطخ وجهه:

«وسع لي مكان.. عاوزالعب معاكم..».

وعادت الشمس ترسل شواظها إلى سطح المياه الذي كان يضوي ملتهبًا، ومـا تكاد العين تلتقي به حتى تجفـل مذعورة، وترتد إلى ظل خانق كئيب... ثم تجذب فوقها جفنها وتسبح في ظلام أشد كآبة، والسفينة تنزلق فوق سطح الماء بتثاقل... والأجساد ممددة... ممددة ممددة في استرخاء... والجو خانق.

العروسة

عشرة أعوام كاملة... وهو يشترك في السباق، ويخسر.

عـشرة أعوام منذ أن أصبح له قارب، وهـو يبذل كل جهده وطاقته لكي يكسب ولو مرة، مرة واحدة، دون جدوى.

كانـت الأيـام دائـمًا تقترب مـن يـوم السـباق، وكان العام يمـر كالريح، والرجـال يسـتعدون، وهو يسـتعد معهم، يخـرج القارب إلى الـبر... ويظل شـهرًا دون عمـل، ولم يكن يهمه. لم يكن يعنيـه أن يأكل أو يشرب، كل الذي كان يشـغل بالـه هـو أن يسـتعد، كان يعـرض قاربـه الكبـير للشـمس حتى يجـف... ويطليه حتى يجف، وينظفه حتى يصبح كالعروسـة... وكان اسـم القارب «العروسة».

ويأتي يوم السباق... ويزدحم الميناء بالخلق الكثير، ويقف الرجال مهللين ومغنين... ويمتلئ سـطح المياه بالقوارب الصغيرة... ويمتلئ الجو بالأغاني وصـوت الدفوف والمزمـار... ويمتلئ بالقلـق والهتاف، وتنطلق الإشـارة، وينطلـق القـارب وينزلق فوق الميـاه بسرعة... محروس يجلس بجانبه، يشـد الحبال، ويرخي قلعًا ليفرد آخر... والريح تملأ الشراع، والمياه تجري من تحته

لهـا أنغام كشقشـقة العصافير، وقلبه يخفق، والأصوات تصـل إليه من بعيد، أصوات الأصدقاء، وأصوات الشـامتين، وتعلو الصرخات من كل جانب، وينقلب سـطح المياه في الميناء إلى زفة، وتتطلـع كل العيون، والقوارب تجري مـن حولـه ومن أمامه، وتنسـاب إلى باب البوغاز، ثم تنثنـي إلى الفنار، ومن الفنار تنحرف نحو الرصيف الكبير الممتلىء بالناس...

ولكنهـم كانوا دائمًا يصلون قبله...

في العـام الأول قال: «معلـش»... وفي العام الثاني قـال: «برضه معلش، أنا لسـه صغـير»... وفي العام الثالـث لم ينم ليلة السـباق... ولكنه قال أيضًا: «معلش ناخدها السـنة الجاية»... وجـاء العام الخامس فبكى من الغيظ. ثم، مـرت الأعوام العشرة وأصبـح عمره ثلاثين عامًا كاملة... ولم يكسـب فيها مرة.

وهذا العام قرر ألا يدخل السباق.

بـل أصبح لا يطيـق ذلك اليوم... ويفر من كل جلسـة تأتي فيها سـيرته، ومرت الأيام... وطوت في داخلها عامًا.

وقرر سيد الحموي ألا يدخل السباق هذا العام... فهو لن يجني منه سوى «الوكسة والعار»، واسمه سيكتب دائمًا في الذيل.

سنوات عمره كلها قضاها في البحر... يداه منذ الصغر لا تعرفان الطريق إلا للمجاديـف وحبال الشراع، والدفة في يده أليفـة، لينة طيعة... والقارب كله ينصاع لقيادته كما تنصاع له أصابعه.

ورغم هذا فهو لا يكسب!

وسيد الحموي قد قرر ألا يدخل السباق بعد ذلك.

قال له محروس: «عيب يا سيد، لازم تخش، ويمكن.. يمكن تكسب».

ورد عليه في ضيق: «مش حانخش السبق، خلاص يا محروس».

خلاص... قرر سيد ألا يدخل السباق، ولن يدخل سيد السباق.

وبقي من الزمن شهر.

وأخرج الرجال قواربهم إلى البر، وبقي قاربه في الماء.

وامتلأت ساحة الخليج بأرضها اللينة المنخفضة بالقوارب... قوارب كبيرة تستعد لليوم الموعود، وقوارب صغيرة تستعد للزفة والتشجيع، والرجال يكحتون، وينكتون، والعمال يعملون ويصلحون ولا يهدءون. كان الرجال كثيرين كالقرود، يتسلقون ويهبطون ويقفزون ويعملون ويأكلون ويشربون الشاي ويدخنون السجائر والجوزة... الرايات الملونة غسلت وعلقت ترفرف في الهواء، والأشرعة البيضاء بانت مشرعة على الأرض كأنها كسوة العيد... والساحة أصبحت كخلية النحل، والرصيف قد خلا من القوارب، إلا من قلة ضئيلة هزيلة من بينها قاربه، بانت وقتها غلبانة منكسرة لا حول لها ولا طول.

كان يمر على الرجال في الصباح فيجدهم منهمكين... محمود ينظف قاع قاربه، وزينهم يكحت الجوانب، وعمر يحرق الطلاء القديم، والحاج حسن حوله عشرة صبيان تحت إمرته، والألوان الزاهية تبهر العين وتفرح القلب.

ودبت في المكان ضحكات العيد، وقاربه في المياه... لا طلاء أحرق، ولا قاع كحتت، ولا رايات غسلت، ولا ضحكة رفت على شفتيه.

وحدثته حسنية ذات مساء، وكاد أن يضربها، وكادت أن تترك له البيت غاضبة... وقالت له في ثورتها وهي تصرخ في وجهه:

«إنت خايف يا سيد؟!»

وصمت ليلتها سيد... ولم يرد عليها سيد... ودفن رأسه في الوسادة وهو يقول لنفسه: اللهم اخزيك يا شيطان... ولكنه لم يخز الشيطان، بل هب واقفًا كالنمر الهائج وصرخ فيها، ورفع يده عليها ثم عاد وتكوم في الفراش، ثم عاد ونهض ودخن، ثم قام وترك لها البيت وخرج إلى الطريق.

الدنيا كانت ليل... والفوانيس معلقة هناك في الساحة الواسعة، والرجال لا يزالون يعملون ويضحكون ويستعدون للسباق... وهو قد صمم ألا يدخل السباق... قاربه قائم وحده كالحوت، لا أنيس ولا سمير... سوى قوارب صغيرة كالأسماك الوليدة، يتلاعب شراع قاربه المطوي بينها في الظلام كعملاق مسلول.

ووقف سيد أمامه.

الدنيا ظلام في ظلام، وكل شيء راكد، وكل شيء هامد، لا حياة ولا حركة، ولا طلاء ولا رايات، واقترب سيد من القارب، ومد إليه يده، وربت على جانبه، ثم مد قدمه وقفز إلى داخله، وجلس في الليل يدخن، ينظر إلى النجوم المنثورة في السماء، ويصغي إلى الأصوات الآتية من هناك، ويضرب قلبه جنبات صدره، وتغرق عيناه في ظلام الماء الساكن تحته، وتمتد يده إلى الماء

فتعبث فيها أصابعه، ويتمنى أن يقفز إليه، ويدثر نفسه في طياته، ويغوص ويغوص... ويعيش وحده في القاع، وهو قد يفعل ذلك... لولا حسنية.

ولا يذكر سيد بعد ذلك شيئًا... كل الذي يذكره أنه قال للقارب: «ليه مش عاوز تنصرني؟»

ولم يرد عليه القارب!!

وفي الفجر مضى إلى البيت.

في الصباح قالت له حسنية: «إنت لسه زعلان يا سيد؟». وقال لها: «لأ مش زعلان». وقالت حسنية: «يا سيد دنا مراتك، إنت نسيت يا سيد؟» وقال بجفاء: «اصطبحى عالصبح يا ولية». وقالت حسنية: «العروسة لسه ما نسيتش». وقال سيد: «يا فتاح يا عليم». وألحت حسنية: «مش انا برضه حسنية؟». وقال سيد: «وانا قلت حاجة؟». وقالت حسنية: «مانا عوزاك تقول يا سيد». وقال: «بس أقول إيه؟». وقالت حسنية: «وحياة غلاوتي تقول، إيه اللي مزعلك؟». وقال سيد بلا وعي: «أنا... أنا خايف يا حسنية».

ووجم سيد... وابتسمت حسنية.

«خايف من إيه يا سيد؟»

ولم يرد سيد... ترك البيت وجرى.

ووجد نفسه في وسطهم من جديد... وقال زينهم: «نويت على إيه يا سيد؟»... وقال سيد: «مبش داخل السبَق»... وصمت زينهم وتركه، وجلس سيد ينظر إلى القارب.

جـاء زبـون، وقال سيد: «أنا تعبـان». وجاء آخـر، وقال سـيد: «مانيش طالع»... ومضى النهار، وسيد ينظر إلى القارب.

يـوم وراء يوم، والسـاحة لا تنام طيلة الليل، والرجال يسـتعدون للعيد، وحسـن ومحمود وزينهم يحدثون سـيدًا: «عيب يا سـيد، محـدش ضامن»... ولكـن سـيد لـن يدخل السـباق، ولن يكتب اسـمه بعـد اليـوم في الذيل... ويكفيه من العمر عشر سنوات.

جلـس في المقهـى ذات يوم... لا يـدري ما الذي حدث سـوى أن الحاج حسن قال: «السبق للجدعان».. وقال سيد: «يعني هو اللي ما يخشش السبق ما يبقاش جدع؟»

وقهقه الرجال... وقال الحاج متهكمًا: «عيب يا سيد.. حد داس لك على طرف؟»

عـشرة أعـوام وهـو يدخـل السـباق... عـشرة أعوام وهـو ينتظـر اليوم ويسـتعد... يكحت ويطلي ويعلـق الرايات ويبخر القارب ويقسـم أن يقيم ليلة لله... عشرة أعوام والعروسـة تنطلق وسـط القوارب كالعروسة، مزينة لامعـة، تتهادى في البداية وتمخر المياه، وتسـبق، ثم تثقـل وتتراجع، ويكتب اسمه دائمًا في الذيل.

لا... لن يُكتب اسمك يا سيد بعد اليوم في الذيل.

كفـاك يا سـيد «وكسـة»... وكفـاك ذلًّا، وكفاك مـا قالـوه في كل عام... وكفاك أنك لم تكسـب ولا مرة... فما الذي تجنيه سوى الغم والكمد، وكتابة اسمك دائمًا في الذيل.

وليلة السبق لم ينم سيد... حاول أن ينام، ولكنه لم ينم، حاول أن يجلس مع الرجال، ولكنه لم يستطع، كانوا هايصين، الحاج يجلس وسط شلة، وعبده وسط شلة، ورومة وحسين وعلي ومحروس... والدنيا كلها، والقوارب نزلت إلى المياه، وراحت فوقها وجاءت، وتهادت وتبخترت، وقاربه ملطوع في مكانه لم يتحرك.

وطلع النهار.

ووجد سيد نفسه في وسطهم.

رصيف الميناء كان يشغي بالخلق، العيال والبنات، خواجات وأولاد عرب، وناس، ناس كثيرة كأن السماء أمطرتهم فأغرقت بهم الدنيا... وهو في وسطهم حائر، عيناه زائغتان، وقلبه يتهاوى بين ضلوعه، وأنفاسه... أنفاسه باردة لاهثة، وحسنية بجانبه، وزغدانة وسيدة، وعطيات، وكلهن كلهن تجمعن ووقفن يرقبن مع الخلق الكثير، والقارب لا يزال يتطوح صاريه كالمارد المسلول... وقالت حسنية:

«مالك يا سيد؟»

«ولا حاجة يا حسنية».

«سيد؟»

ولم يرد سيد... كانت عيناه معلقتين بالقارب الذي كان يتمايل وسط القوارب المزوقة كالأجرب، لا حياة فيه ولا بنادير، ولا طلاء جديدًا ولا أعلام، وقالت حسنية:

«سيد؟»

ورد سيد... وقالت حسنية:

«إنت نسيت يا سيد؟»

لا... لم ينـس سـيد... لم ينس أيام أن كان يصحبها في العروسـة، وكانت حسـنية وقتهـا عروسـة، يطوفـان المياه، يـشرق ويغـرب، يتهـادى ويتمايل، ويغرقـان في الضحـك، ويربت على جوانب العروسـة في فرحـة وهو يقول: «يلاّ يا عروسة.. اسبقي الريح يا عروسة».

لا... لم ينس سـيد... لم ينس وغلاوة حسـنية عنده، لم ينس قط أنه قال لها وهو يضحك: «وإيه يعني لما اخسر، حافضل كل سـنة وراهم وراهم لحد ما اكسب يا حسنية».

وجاءه الصوت من بعيد:

«إنت نسيت يا سيد؟»

«لا... مانسيتش يا حسنية».

السـاعات تجري، وسـأل سـيد أحد الأفندية: «سـاعتك كام يافندي؟»، وقال الأفندي: «أربعة إلا ربع».

بقت ربع سـاعة يا سـيد، وبعدها تنطلق الطلقة، وتفر القوارب كلها إلى عـرض المياه، وقاربك ملطوع يا سـيد، وأنت واقف هنـا تتفرج كالأغراب، كأنك لست ابن كار، وكأنك لم تركب في حياتك قاربًا.

هل هذا كلام رجال يا سيد؟ ليه حق الحاج لما ضحك عليك وقال السبق للجدعان، أليس السباق حقًّا للجدعان، وألست أنت أحد الجدعان، وأولاد الكار يا سيد؟ إياك أن يتركك السباق يا سيد... وفجأة صرخ سيد:

«حسنية..»

ونظرت إليه حسنية... عيناها حلوتان تجذبان القلب من موضعه، كانت في صمتها تقول دائمًا: «يا عنين حسنية».

«البنادير، البنادير يا حسنية... تقدري تجيبيهم من البيت قبل الـ..؟».

«البنادير في القارب يا سيد..!».

«إيه؟ مغسولين؟».

«ومكويين وحياة غلاوتك..».

«والغيار؟».

«معاهم يا سيد.. ربنا ينصرك يا سيد».

وانطلق سيد كالمجنون وسط الزحام يدفع الناس، ويلهث من الاضطراب، وينادي بأعلى صوته: «يا محروس.. يا محروس.. يا محرووووس».

وانطلق صوت حسنية وسط الضجيج والغناء كالزغاريد تنادي هي الأخرى على محروس.

وقفز سيد إلى القارب كالجن المصور... وانقضَّت يداه لتفتحا باب الدولاب الكبير في قاع القارب، وجذبت أصابعه اللفة الضخمة، وأخذ يعمل في سرعة ولهفة وهو يصرخ على محروس:

«يـا محـروس.. يا محـروس.. حانطلـع، حانخش السـبق، وحيـاة المرسي حانخش السبق».

كان صوتـه يخفـت ويخفت حتـى أصبح همسًـا، وكان يقفز هنـا وهناك، ويجـذب الحبـال، ويعلق الرايات، ويـروح ويجيء في سرعـة، ولا يكف عن الحديث مع محروس الذي لم يكن موجودًا... «يا محروس، لازم تخش السبق، لازم نمـشي مـع الجدعان، نخـسر نخسر مش مهـم، المهم تكـون راجل مع الرجالـة، أنـا كان جـرى لي إيـه يا واد؟ العروسـة لازم تجري مـع القوارب، ولازم تميل وتتمخطر، ونزفوها يا محروس... يا محروس».

وتلفت سـيد ولم يجد محروسًا، وانطلق ينادي من جديد... ولبى محروس النداء من بعيد:

«سيد يا حموي.. سااايد.. سا.ا.ا.ايد».

وتمايل القارب عندما قفز إليه، وانضمت يداه إلى يديه، وسرعان ما أخذا يعملان وهما يتكلمان دون أن ينظر أحدهما إلى الآخر:

«كده يا أبو السيد.. في آخر دقيقة!».

«أيوه..».

«نويت؟»

«أيوه..».

«جدع والنبي..».

«رفعت القلع الكبير؟»

«أيوه..».

«وحانطلع السبق؟»

«أيوه..».

«يا حلاوة النبي..».

«أيوه..».

«وإذا خسرت؟»

«أيوه..».

«حاتخش السنة الجاية؟»

وتوقف سيد عن العمل، ورفع عينيه لبرهة إلى محروس الذي كان يعمل ويعمل دون أن ينظر إليه، ورفت ابتسامة على وجه سيد، وقال وهو يعود إلى العمل:

«أيوه..».

ومضت دقيقة... واثنتان... وثلاث... وأربع... وبقيت خمس دقائق.

وانطلقت العروسة نحو الصف الطويل من القوارب الواقفة في الانتظار... وسمع سيد من بعيد صوتًا يقول:

«سيد الحموي داخل السبق يا جدعان..».

«زمر يا جدع.. سلام مربع للعروسة..».

وانبعث اللحن يزغرد في الهواء، واستدار سيد نحو الرصيف في لفتة سريعة... والتقطت عيناه صورة الناس والزحام... ورأى حسنية تقف وسط العازفين وعلى وجهها ابتسامة سعيدة... وانساب القارب فوق السطح الأملس، وتمايل، ودار، وتطايرت من حوله القوارب الصغيرة المزينة المليئة بالطبل والزمر والضحكات والتهليل... وأخذت تفر من أمامه مذعورة كالأسماك الصغيرة أمام حوت كبير... وشقت العروسة طريقها في سرعة، وامتلأ شراعها الهائل بالريح... ومالت على جانبها متبغددة متراقصة... وكان الصف الطويل من القوارب يقترب... وكلها مستعدة، المعلمين الكبار وراء الدفة، والصبيان على الحبال والأشرعة، والعروسة تطير وتنزلق وتسبح، والأعلام الصغيرة تطرقع فوقها... وما كاد سيد أن يصل إلى صف القوارب ويحاذيه، حتى دوت طلقة البداية في الهواء... وانطلقت القوارب، وعلت الضجة يلَّا والصراخ والهتاف، وصرخ سيد وهو جالس بجوار الدفة نصف جلسة... صرخ بكل قواه:

«يلَّا يا عروسة.. اسبقي الريح يا عروسة».

قاع البحيرة السوداء

تجمع الرجال حول القوارب، وتمددت أجسادهم السمراء اللامعة في استرخاء... ووراءهم وأمامهم وفوقهم وعلى جوانبهم، كانت الشباك ملقاة ومعلقة في تهدل واستسلام، كأنها هي الأخرى تستريح من عناء اليوم... وسبح كل شيء في ضوء القمر.

ورغم أن الوقت كان قد جاوز منتصف الليل، فإن آثار الشمس كانت لا تزال عالقة بكل شيء، ولم تفلح النسمات الرطبة الندية في تخفيف تلك الحرارة، وذلك الصهد الذي كان يتصاعد من الرمال ومن سطح مياه البحر.

والتفت النسوة في حلقات حلقات... أغلبهن قد ألقمن أطفالهن أثداءهن، وضممنهم إلى صدورهن، وأخذن يثرثرن ويعبثن بأصابعهن في رمال الشاطئ.

وخلف أحد القوارب المنتصبة على الرمال فوق قوائم بدت وكأنها أرجل قصيرة غليظة... كانت امرأة عجوز قد استسلمت للصبية والفتيات الملتفين حولها.. وقد تعلقت عيونهم بها، وقد همت أن تقص عليهم القصة للمرة المائة

أو المائتـين، وربما كانت المرة الألـف... فهي لا تدري، ولا تمل من حكايتها، كما لا يمل الصغار سماعها.

صاح أحد الرجال ينادي على ولده... فتململ الطفل في مكانه، وتعلقت عيناه بوجه العجوز دون أن ينطق كلمة... بينما ابتسمت هي وقالت:

«شوف أبوك داكر عايز إيه.. مش حاحكي إلا لما تيجي».

قفـز الصغـير بسرعـة وانطلق يعـدو فـوق الرمـال... بينما عينـا العجوز تتبعانـه في وله وشـغف، وبدا لها شـبحه في ضوء القمر طويـلًا... أطول من سـنه بكثير... كان الطفل في الثامنة من عمره، بينما كانت قامته قامة صبي في الثانية عشرة، وكان جسـده عريضًا وذراعاه مفتولتين، فتعلق نظر العجوز به لفترة، ثم قالت بصوت خافت:

«آهو أنا وعيت عليه كان في طول سيد تمام.. بس كان أصغر منه..».

وسرعـان ما انتصب بجـوار الصبي رجل عملاق الجثـة، وضع يده على كتفه ومضى به بين القوارب... فارتجف قلبها... وقالت إحدى الفتيات:

«هو عمي داكر رايح فين؟»

وسـاد الصمـت برهة. صمـت مزقه صوت امـرأة تنادي عـلى ولدها... فتململ الصبي وسط الحلقة... وابتسمت العجوز وهي تقول:

«بلاش النهار ده يا ولاد.. بلاش.. أنا تعبانه».

زام البعض... وهم البعض بالاحتجاج، ولكنها كانت قد أطرقت، فأيقنوا أنها لن تحكي... ثم أخذوا ينهضون في تثاقل وينفضون من حولها... وفي لحظة، كانت قد أصبحت وحيدة.

امتدت يدها فغرفت من الرمال الدافئة حفنة... وامتدت عيناها فتعلقتا بقرص القمر... ثم انزلقتا إلى سطح المياه... وسبحتا بعد ذلك فوق السطح في رحلة طويلة عبرت بها مدخل الخليج الضيق... ثم سرح خيالها فقفز بها فوق القمة السوداء الشامخة... ووراء القمة حدث كل شيء.

وقد مضى زمان طويل... زمان لم تعده بالسنين وإن كانت قد عدته بدقات قلبها.

■ ■ ■

كانت أيامها عروسًا.

لم يكن قد مضى على زفافها أكثر من قمرين اثنين... وكانت الحياة في الخليج شاقة، والأسماك قد شحت وقلت، وتعرض الرجال للأمواج الصاخبة خارج الخليج حيث كان جوف البحر يبتلعهم مع قواربهم وشباكهم. ولا يلفظ منهم شيئًا. فانكمشت رحلاتهم، وشح رزقهم، وجاءت عليهم أيام سوداء... أيام كانت الشباك تخرج من المياه كما تلقى إليها. فارغة. فلا هم قادرون على الخروج إلى البحر بقواربهم الهزيلة الصغيرة، ولا أحدهم بقادر على الاقتراب من البحيرة السوداء.

كـم تناقـش الرجـال وتحدثـوا وحكـوا الحكايـات عن جيوش السـمك التي كانت تملأ البحيرة. وكم سـمعتهم أيامها يصفون أنواع السـمك الكبير والصغـير، الغـالي والرخيص، جيوش وجيوش كانت تقفـز أمامهم في مرح فوق سطح البحيرة... ولكن أحدهم لم يستطع أن يقربها.

حتى عندما تسلقوا الصخرة الكبيرة الشامخة، وهبطوا إلى شاطئ البحرية ثـم ألقـوا بشـباكهم إلى مياهها، وما يـكادون يجذبونها حتـى يجدوها مهلهلة ممزقـة... فحاولـوا وحاولـوا، أيامًـا وأيامًـا، في الليـل والنهار... ثـم أيقنوا بعدها أن كل ما سمعوه كان صحيحًا، وأن البحيرة لا بد أنها مسكونة بجنية شرهة.

ثـم قرر رجـلان أن يدخلا البحـيرة، ولكنهما لم يعـودا. لم يعد منهما شيء سـوى أشـلاء القوارب، وبقع دماء طفت على سـطح المياه... ثم ذاب لونها الأحمر في لون مياه البحيرة السوداء.

ومرت شـهور قاحلـة، لا رزق فيها ولا عمل... يلقي الرجال بشـباكهم لتخرج فارغة، وتنظر عيونهم إلى البحيرة في حسرة. ولكن أحدًا منهم لم يجرؤ على الاقتراب منها.

ثم قرر الرجال أن يقتلوا تلك الجنية.

لا يذكر أحد من الذي قال هذا... ولكن الذي حدث أن الشـاطئ تحول في يـوم وليلـة إلى جيـش. الرجال والعيال والنسـاء والفتيـات. حمل الرجال الحراب والسكاكين والفئوس والأسلحة والعصي. وحملت النسوة المشاعل. وتجمـع العيـال بالحـصى والحجارة والطوب. وتسـلق الجميع قمـة الصخرة

الشـاهقة وهبطوا واحدًا وراء واحد إلى الشاطئ، ثم أحاطوا البحيرة من كل جانـب... حتـى مدخلها الصخري الضحل، وقف فيـه عدة رجال، غمرت المياه سيقانهم حتى منتصفها، وعلى أكتافهم وفي أيديهم أسـلحتهم. وسدوا الطريـق إلى البحـر. ومرت ليلة، ثم ليال سـبع وهـم ينتظـرون دون جدوى. سبع ليال طويلة لم ينم فيها أحد.

ولكن الجنية لم تظهر!!

كانت لياليَ غريبة. الشاطئ يخلو، والجميع يسهرون، وفي النهار يعملون. ولحظات النوم تمضي كالريح. والأكواخ شح فيها الطعام.

كـم من ليال مـرت عليها لم تكن تجد مـا تقدمه له من طعـام، ولكنه كان دائمًا مشرق الوجه... تقاطيعه لم تنسها رغم الأعوام الطويلة، كم أحبت تلك التقاطيع، وكـم سحرتها وفتنتها. وكانت سعيدة أيامها، وكان يقول لها:

«إنتي حلوة يا نرجس.. حلوه زي القمر..».

ولم تكن تخجل من غزله، بل كانت دائمًا تستزيد منه وتقول له:

«زي القمر بس؟»

فينطلق ضاحكًا ويعابثها قائلًا:

«إنتي يا بت مش بتنكسفي أبدًا.. إنتي مش وليه؟!»

كم أحبته... وكم بكت عليه.

■ ■ ■

غنـى رجل، فسبح صوتـه في ضوء القمـر وهو يغمـر الشـاطئ، فتلمع أطراف المياه وهي تلتقي بأطراف الرمال فتصنع معها خطًّا متعرجًا كعلامات الطريق. فألقت بحفنة الرمال من يدها وأسندت رأسها إلى يسراها. وامتدت أصابع يمناها تعبث في الرمال من جديد.

■ ■ ■

كيف فعل ما فعل؟

إنه لم يذكر لأحد شيئًا. ولقد كانت يومها سعيدة، كانت فرحة تكاد تطير من الفرح. وكانت تبحث عنه. خرج في الصباح ولم يعد. سـألت عنه فقالوا لها: «في الميه».

وغربت الشمس وسألت عنه فقالوا لها: «مع الرجالة».

كان ذلـك في الليلـة الثامنـة... وكان اليـأس قـد أخذ بتلابيـب الرجال، بعضهـم كان يعـد العـدة للرحيـل، فلم يعد في المياه سـمك، وميـاه الأرض واسعة. وبعضهم تشبث بالشاطئ. وكان هو أكثر المتشبثين به.

لقد سمعته ليلتها يتحدث بحدة... كان الرجال يتناقشون، وكان يتناقش معهم، ولم يظهر عليه شيء، ولم يحدث أحدًا عما كان ينوي أن يفعله.

سمعته ليلتها يقول للرجال بصوته الثابت القوي:

«نسـيب الشـط لمين؟ داحنا اتولدنا عليه، وعشنا فيه.. جنية إيه يا رجاله! مفيش جنيه، لازم فيه حاجة.. حاجة!».

فصاحوا فيه: «حاجة إيه؟!»

وصمت...

لقد كان هذا ما يدهشها منه، لقد سألته ذات ليلة نفس السؤال، فصمت، وطال صمته، ثم قال:

«يعني الجن ملقوش غير البحيرة اللي حيلتنا؟.. أبَّاهتنا ما كانوا بيصطادوا فيها..».

«ماهي انسكنت بعدها».

«يا وليه اعقلي.. بَقَلْها قد إيه مسكونه!!».

وكان يعرف كما كانت تعرف... كان يعرف أن الجنية جاءت مع تلك العاصفة المشئومة، قبل أن يولد هو أو تولد هي... عاصفة هوجاء لم ير الشاطئ لها مثيلًا... أطاحت بالقوارب والأكواخ، وابتلعت أناسًا وألقت إليهم بجثث أناس آخرين... أناس من أرض بعيدة.

وقد حكت لها أمها الحكاية... وحكى له أبوه الحكاية. ولكنه كان دائمًا يقول: «مفيش جنيه».

وقد قال ذلك الرجال في تلك الليلة... واحتد الحديث بينهم... كانوا جميعًا في كوم، وهو وحده مع اثنين آخرين في كوم. ثم تحول النقاش إلى صياح... ثم سمعته يقسم ألا يبيت معهم حول البحيرة. فذهب الجميع ليلتها إلا هو.

لو كانت تعرف ما سيفعل لما غادرته، ولكنه كان صامتًا كقلب الرمال الباردة. ثم اختفى ولا تدري أين... فذهبت ليلتها مع الذاهبين إلى شاطئ البحيرة، كم تمنت أن تلقاه ليلتها ولو للحظة.

حملت مشعلها في يدها وأخذت تبحلق في سطح المياه الساكنة الذي كان ينشق بين الحين والحين عن أسراب وأسراب من الأسماك العابثة اللاهية. وكانت الحسرة تأكل قلبها كما كانت تأكل قلوب الجميع.

وفجأة... انعصر قلبها حتى كاد يتوقف.

فعلى اليسار، هبطت العيون إلى أسفل حيث مدخل البحيرة. ورأى الجميع قاربًا صغيرًا يسبح في بطء وسكون، يضرب مجدافاه سطح المياه، وتشق مقدمته أمواجها الرقيقة في قوة وإصرار... وصاح أحد الواقفين عند المدخل:

«مين هناك؟!»

وعلت الهمهمة هنا وهناك... وتحول شاطئ البحيرة إلى خلية من الأجساد المتحركة القلقة... والرءوس قد استدارت كلها إلى حيث القارب، بينما العيون تجاهد في ضوء القمر الشاحب أن تلمح صاحبه. والقارب يقترب ويقترب، والصياح يعلو فيشق الفضاء:

«مين في القارب؟..»

وأضاء أحدهم مشعله. فأضاءت امرأة مشعلها. ومرت لحظات غمر الشاطئ بعدها ضوء عشرات المشاعل، وانعكس على سطح البحيرة وترقرق. وذاب ضوء القمر تمامًا. وجاء بعدها صوته:

«أنا داكر..».

وشهقت. ثم جمدت ولم تدر ماذا تفعل أو تقول. كان القارب لا يزال يقترب من البحيرة ويقترب، والأصوات قد علت وعلت. ثم صاح أحد الرجال:

«ارجع يا داكر.. ارجع حرام عليك شبابك».

وتوقف المجدافان، ثم وقف داكر بقامته المديدة الفارهة في وسط القارب، وصاح في الرجال الواقفين عند المدخل:

«إللي عايز ييجي معايا ييجي.. واللي مش عايز..».

وقاطعه صوت أبيه من فوق الشاطئ البعيد:

«ارجع يا بني.. ارجع حرام عليك.. كفاية اللي راحوا في جوفها.. كفاية اللي بلعتهم».

وقد عاد إلى المجدافين... وأخذ يضرب بهما سطح البحيرة في قوة... والقارب يسبح ويسبح ويسرع في انزلاقه... ولم يستطع أحد من الرجال أن يعترض طريقه... بينما ضوء المشاعل يغمر سطح البحيرة... والقارب يتوغل ويتوغل... وصوت يدوي في الفضاء:

«حاتعمل إيه يا داكر؟»

ولا يـرد داكـر، بـل يوغل ويوغـل، حتى توسـط القارب البحـيرة تمامًا، ونهـض مـن مكانه، وجمد للحظـة. ولكنها كانت لحظة مـرت كلمعة البرق. ثـم أخذ يخلـع ملابسـه. فانطلقت الصيحات تغمـر الفضاء. كانـوا يعلمون كـما كانت تعلـم أن البحـيرة عميقـة عميقـة. وكان الكبـار منهـم يقولـون إنهـا بلا قرار. فلم تستطع أن تكتم صوتها، فصرخت. صرخت ملتاعة حتى أخـرس صراخهـا كل الأصوات... وأخذت تقترب من الشـاطئ، وخطت في الميـاه خطـوة، في يدهـا المشـعل يضيء وجههـا المفزوع، ثـم خطت خطوة أخرى... وامتدت أكثر من يد تمنعها، ولكن الأيدي لم تمنع صوتها:

«ارجع يا دااكر.. ارجع..».

فاستدار بوجهه ناحيتها... ورغم بعده الشديد، فقد خيل إليها أنه يبتسم. وكانت تعلم أنه لن يرد، ولكنها عادت إلى الصياح بصوت مختنق:

«ارجع.. يا دااكر.. أنا بطني مليانه.. أنا حبلى يا دااكر.. حبلى..».

ساعتها، خيل إليها أنه وجم، فقد توقفت يداه عن خلع ملابسه، واستدار نحوها تمامًا. ومرت لحظة صمت عميق... عاد بعدها يخلع ملابسه ثم تخلص منها تمامًا. وانحنى إلى قاع القارب والتقط سـكينًا لمع في ضوء المشاعل. دس السـكين بين أسـنانه، وانحنـى والتقط سـيخًا طويلًا... ثم هوى جسـده إلى المياه.

■ ■ ■

تنهـدت العجوز، وغرسـت أصابعها في الرمال كأنهـا تريد اقتلاع شيء. وتمتمت شـفتاها بلا حديث. وأغمضـت عينيها كأنها لا تريد رؤية ما حدث بعد ذلك.

لقد اقتلع قلبها ليلتها منظره وهو يشق المياه عائدًا، ويتعلق بحافة القارب لاهثًا، والأصوات تدوي من حوله:

«فيه إيه؟.. لقيتها يا داكر؟..».

«لقيت الجنيه؟!»

«يا أخي ما ترد.. شفت حاجه؟!»

وصاحت هي بكل جوارحها:

«يا دااااكر.. يا دااااكر».

وعاد يختفي في المياه من جديد.

ومـا كادت تمـر لحظة حتى فار جوف المياه، فـار وغلى كأن لهيب الدنيا قد وضع تحت قاع البحيرة... وشـقت السطح سـحابة رهيبة من الرذاذ المتناثر، فصرخت. وصرخ الرجال... وقالت أصوات:

«آهي هاجت!».

«حضر نفسك يا جدع انت وهوه».

«خلي بالك هناك..».

«اضربوا يا رجاله على طول!».

«اوعى تفلت منكم».

في لحظـة... نسـيه الجميـع إلا هـي. وعيناهـا الجاحظتان تبحلقـان فوق السطح الثائر الرهيب بحثًا عنه. بينما الجميع في تحفز منتظرين الجنية.

ومن وسط سحب الرذاذ الذي امتلأ به سطح البحيرة، سمعت صياحه. وسمعه الجميع. ولكن أحدًا لم يره وقتها. كان يصيح بأعلى صوته:

«ده حـو.. و.. و.. ت. حـوووووت. حوووت محبـو.. و..وس.. حو.. و..».

وضـاع صوتـه المرتعب. كانـت صرخاته مذعـورة مذعـورة. ولم تعرف صوته... وردد الجميع في ذهول وتسـاؤل «حوت؟!!»... بينما كان صراخها يشق الفضاء:

«دااااكر.. دااااكر..».

وصاح من ورائها صوت مفزوع:

«آهو.. داكر آهو.. جنب القارب..».

وتحولـت العيون كلها إلى القارب، كان داكر يتشـبث بحافته في اسـتماتة، وكان وجهه يبدو من خلال سـحابة الرذاذ باهتًا، ورأته. رأت كفيه وذراعيه وهمـا يجاهدان ويتشـبثان بخشـب القـارب. ويجاهـد. وصرخـت. ويعافر. وصرخـت. كان كمن يقاوم شـيئًا يجذبـه إلى القاع. ولكنـه أفلح. وصعد إلى القارب. وصرخت بصوت كان يحمل كل أحشائها... كان بلا ساقين!!

شق صوته الفضاء في وهن:

«حووت.. حوووت.. حو..».

وانشقت المياه عن رأس شيطان هائل، كانت كبيرة كبيرة. عيناها واسعتان هائلتـان. وسرعـان ما دفعت الرأس جسـد القـارب دفعة انقلـب بعدها.. وغاص في المياه... وغاصت الرأس وراءه.

ولم تر منه شـيئًا. لم تر سـوى بقع دماء طفت على سـطح البحيرة، ثم ذاب لونها الأحمر في لون مياه البحيرة السوداء.

■ ■ ■

همهمت العجـوز بصوت خافت، وأصابعها لا تزال مغروسـة في جوف الرمـال. وعيناها معلقتان بالذرات الصفـراء الرطبة... وكان صوتها ضعيفًا متهدجًا:

«وبعدها يا ولاد... قتلوا الحوت. جابوا الحكومة موتته... كان بيجي قد الجبـل. قالوا إنه جه مع النوة الكبيرة إللي ما خَلِّت ولا سـابت. وإنه انحبس في البحيرة. حاكم بابها واطي. الميه فيه تيجي شبرين. و.. ولدت عمكم داكر بعد تسـع شـهور تمام. هو راح فين؟!.. قولوا له ييجي ياخدني العشه.. الله.. انتو رحتم فين؟. مشـيتم؟. نمتم؟. نـ.. نهايته. كان السـمك اللي في البحيرة يغطي عين الشـمس. والأشْيَا بعدها بقت معدن. ولا اتجوزتش بعده راجل. مـلاش عيني راجـل غيره... وكمان محدش من الرجالـه طلبني يا ولاد.. الله يرحمه..».

وسقطت من عينيها دمعة، لمعت في ضوء القمر.

الساقية

الموظـف في زمانـنـا هذا كالسـاقية، ما يأتيـه باليمين يصرفه باليسـار. وما يـكاد يقبض مرتبه حتـى تتفتـت الأوراق الكبيرة إلى جنيهـات، والجنيهات إلى أنصـاف وأربـاع، وهذه إلى قروش... وسرعان ما تـذوب الماهية كلها في الشقوق التي لا نهاية لها.

وهنـاك مثـلٌ يقـول: «عـلى قد لحافـك مـدد رجليـك». ولكنه نـادرًا أن نجـد موظفًا يريـد أن يمدد رجليه على قد لحافه. فالسـاعي يتشبه بالأفندية الموظفين، والكاتب يتشـعبط على حبال الحياة حتى لا يصبح ابن الباشكاتب أحسـن من ابنه، والباشـكاتب يعتبر نفسـه مديرًا ولو بالعافية، والمدير هو في مكتبه وزير ورئيس وزراء، يدير جمهوريته من وراء كرشـه الكبير بكل حذق ومكر، يتحين الفرص، ويسـعى ويسـتدين ليُدخل إلى بيتـه تليفونًا وثلاجة، ولتتزوج ابنته من شاب يناسب المقام.

وعبـد التواب أفنـدي زين العابديـن... رجل ليس له مـن أمل في حياته التي أصبح نصفها في القبر سوى تربية أولاده وضمان مستقبلهم. وهو رجل عصبي لا يستطيع أحد في بيته أن يقول له «تلت التلاته كام»، أو يتفوه أمامه

بكلمة أو يعترض على رأي له... وهو أيضًا رجل طيب يحبه أولاده وزوجته وزملاؤه ورؤساؤه... يحبه الجميع، ويصفونه بأنه قطعة من السكر.

وكما أن الحلو لا يكمل، فإن عبد التواب أفندي له عيب يعرفه عنه الجميع، ذلك أنه في أول كل شهر يصبح رجلًا لا يُطاق. وما إن يهل يوم 28 حتى تهجم التكشيرة على وجهه، ويَزْوى ما بين حاجبيه، وتضيق عيناه، ولا تفارق يده ورقة طويلة بها أسماء الديانة..!

عشرون عامًا وهو بهذه الحال، وكل شهر يقول إنها لا بد وأن تتعدل، ويأتي كل شهر ولا تتعدل، بل لا بد له من خازوق لا يعرف من أين يأتي.

وفي هذا اليوم، كانت الحياة في البيت لا تطاق، فالقروش التي تكوِّن الماهية تبعثرت ما بين أجرة البيت، وقرشين لأم علي، وأربعة لبرعي، وخمسة وسبعين قرشًا للفكهاني... ويبرطم عبد التواب وهو يقول:

«وكان لزمته إيه؟»... وتشهق زوجته قائلة: «يوه... هم العيال ملهومش نفس؟» ويصمت على مضض، وجنيهين قسط السمن، ويبرطم قائلًا: إن الناس كلها تأكل النباتي، وتشهق زوجته قائلة:

«يا ندامتي... أنا أدخل بيتي سمن صناعي؟!»

ولا يجد جوابًا سوى الأرقام التي تتكاثر، ثم تطير الماهية عن آخرها.

وتتراقص أمام عينيه الأرقام والأسماء في بجاحة غريبة، وهو مغيظ يكاد الدم ينبثق من عينيه، وتمتد يده إلى الجنيهات الثلاثة الباقية ويقول لزوجته في ضيق:

«خدي.. آدي قسط الزفته الجمعية».

وما كادت الست تفيدة تمد يدها إلى النقود حتى سمعته يقول:

«يقطع الجمعيات وعيشتها».

وقالت زوجته لنفسها: «موال كل شهر.. ياخي وانا مالي».

«ده آخر قسط مش كده؟»

وهزت رأسها إيجابًا فقال لها في حدة:

«في ستين داهية.. إياك تجيبي سيرة جمعيات تاني.. فاهمة؟»

والحقيقة أنه ما من شيء يغيظ عبد التواب أفندي سوى حكاية الجمعية هذه، فما تكاد زوجته تخبره بأمر جمعية، حتى تقفز إلى رأسه ألف مشكلة ومشكلة... وينفتح أمامه ألف باب وباب، ويتخيل أن الحياة بعد الجمعية ستصبح نعيمًا، فيقدم، وما تكاد الجنيهات تستقر في يده كثيرة، يكاد من فرط إحساسه بها أن يشتري الدنيا كلها، حتى تتبخر وكأنها في يد عفريت دون أن تحل مشكلة أو تسد بابًا. وتبقى العيشة بضنكها وقرفها، وتنقص الماهية كل شهر عدة جنيهات، ويطَلِّع هو على جتة زوجته البلاء!!

وهو لا يدري كيف يسيطر عليه الإغراء، فما إن ينتهي من جمعية حتى يلضم في جمعية أخرى، دون أن يشعر، أقسم وألح في القسم عشرات المرات، ولكنه كان يجد نفسه وقد انغرز في جمعية جديدة.

والست تفيدة تعتقد أن هذا الأمر لا يُرضي الله... بل لا يُرضي أحدًا على الإطلاق. فما لها هي وهذه المواويل التي تظل تسمعها في صبر طوال

عـشرة شـهور كاملة؟... وكادت تقول له ذلك، ولكنها همسـت لنفسـها أن تخزي الشيطان، وتنهدت وعقدت ذراعيها فوق صدرها، ثم تربعت فبلعت ساقاها نصف الكنبة... وأغاظ ذلك زوجها فصرخ:

«مفيش حد فيكم ناعي هم.. طبعًا تتنهدي، على قلبك مراوح».

وانفتح فمها، وهمت بأن تصرخ فيه، فليست هذه الحياة بالتي تطاق، ويجب أن تضع حدًّا لذلك، والأولاد قد كبروا وليس فيهم من يحتاج إليها، وكادت تنفـذ مـا يدور بخاطرهـا عندما قالت لنفسـها: «يا بت اخزي الشـيطان»... وسمعت كلام نفسها وخزت الشيطان وظلت جامدة كالصخر.

وسـاد الصمـت برهـة، ووجدت أنهـا لا بد وأن تقـول شـيئًا، فقالت في صوت مستكين:

«بكره تتعدل يابو صابر».

ونظر إليهـا بجانب عينه الحمراء، وبرطم قائـلًا إنها لا تفلح في غير هذا. وعربـد غضبها في صدرها، فهي تعمـل بلقمتها، ترعاه وتربي أولاده، ورغم هـذا لا ينوبها منـه كلمة حلوة، بل هو يسـقيها كلمات كالسـم المنقوع، كلمة وراء كلمـة، ولو كانـت جبلًا لانهـد... وبرطمت داخل شـفتيها، وتلاعب لسانها في قلق... لترد عليه وليكن ما يكون.

وبلعت ريقها وزمت شـفتيها أكثر كأنها تحجز الكلمات المعربدة الصاخبة في داخلهـا، والتـي كانـت تتزاحم فوق لسـانها متوسـلة أن تخزي الشـيطان وتعقـل، فالرجل معذور، والماهية لم يبق منها سـوى قـروش وبضعة أوراق

صغيرة، ويكفيها نفسه في الدنيا، من أجلها ومن أجل العيال... كان الله في عونه. وأخيرًا وجدت لسانها يقول:

«أعمل لك فنجان قهوة ياادلعدي؟»

وصمت ولم يرد، والسكوت عند عبد التواب أفندي دائمًا علامة الرضاء... والبيت كله قد هبط عليه سكون عميق، والأولاد في الحجرة الأخرى كالكتاكيت، يقف صابر في وسطهم كالديك الكبير... وما إن رأى أمه تدلف من باب الحجرة حتى سألها في لهفة:

«عملتي إيه؟»

«اسكت دلوقتي.. يوه.. هو ده وقته؟»

قالتها في حدة وغضب ثم استدارت نحو سميرة وأمرتها أن تعد فنجانين «قهوة على الريحة»... ولضمت في كلماتها هذه كلمات كثيرة كي تفز سميرة ولا تتلكع، فأبوها مزاجه معكر... وبرطم صابر، وصرخت عائشة الصغيرة فسقطت البزازة من فمها، وجاء صوت صابر:

«إيه هو ده، مفيش حاجة اسمها استنى، لازم أدفع المصاريف، مفيش دخول جامعه من غير مصاريف».

كان واضحًا أن صوته عال، وكادت أمه تغلق الباب حتى لا يصل صوت ولدها إلى أذن الرجل فيغضب ويثور وتفور دماؤه، وقد يحدث له شيء فمن ينفعهم حينئذ؟

ولكـن صوت صابر الماكر تسرب من الباب في غفلة منها ووصل إلى أذن عبد التواب الذي ثار وصرخ من مكانه:

«ماله البيه؟ مش عاجباه العيشة؟»

وسـاد الصمت، ولم يسـمع ردًّا، فعـرف أن مفعول كلماتـه قد سرى على الفور، وأحس بشيء من الغبطة عجيب، ولكنه أخذ يبرطم في خشـونة سـابًّا الأولاد الذين هم سبب المصائب.

وما إن عادت زوجته إلى الحجرة، حتى كان غضبه يغلي من جديد... فقد لمحت عيناه الجنيهات الثلاثة وكأنها تخرج له لسانها... فقال لزوجته:

«تعرفي لو جبتي سيرة جمعيات تاني؟!»

«ما سمعت بأه، تنك طيب و..».

«طيب والله، آخر مرة فاهمه؟»

ولم تـدر تفيـدة مـا الذي حـدث، وكيف لم توقفهـا نفسـها ككل مرة فلم تخـز الشـيطان، وكيف اندلـع لسـانها كاللهب وهي تعـدد له مـا صنعته من أجلـه، وكيف باعت ما أمامها وما وراءها... وقـال لها: «اخرسي» ولكنها لم تخرس... وظلت تسب وتلعن وتقول إنها راضية بالهم والهم ليس راضيًا بها، وإنه لولا العيال لما بقيت في بيته ساعة.

وغلـت دماء عبد التـواب، وقال لها «مع السـلامة»... ووجدت نفسـها تنهـض لترتـدي ملابسـها وتقسـم ألا تبيت فيهـا. وجاء الأولاد... عائشـة تحبو بين الأقدام وتصرخ، وصابر يهدئ أباه تارة وأمه تارة، وسـميرة تبكي.

والبيت أصبح وكأن نارًا اشتعلت فيه. وكلاهما سادر في صراخه. وفارت القهوة فوق النار وأقسم عبد التواب ألا يبيت فيها هو الآخر. وما كاد صابر يقترب من أبيه حتى هوت على صدغه صفعة.

ووجدت الست تفيدة نفسها فجأة تهمس لها بعد طول صمت... «اخص عليكي، مش قادرة تستحملي الراجل؟ شوفي يا كبدي وشة مزرود ازاي؟»

وصرخت بكل صوتها تقاوم الضعف:

«وانا مالي.. اشمعنى انا، هو انا بس اللي كل حاجة فوق راسي؟ مانا شايفة الغلب زيه تمام.. يا ندامه!!».

وهمست لها نفسها: «يا وليه اخزي الشيطان وصلِّي ع النبي امال، روحي هاتي شوية بخور».

وصرخت مرة أخرى وهي تزيح سميرة من أمامها وتكمل ارتداء ملابسها:

«بخور على إيه.. حايحسدونا على إيه؟..ع الهم اللي احنا فيه ولّا ع الهم اللي احنا فيه؟»

كان واضحًا تمامًا أن أحدًا لا يستمع إلى ما تقوله تفيدة، لا زوجها الذي كان يصرخ، ولا صابر، ولا سميرة، وضاعت صرخات عائشة بين جلبة الأقدام والأصوات المتضاربة وكأنها تتعارك هي الأخرى... «معلهش يا نينه والنبي». «حقك عليَّ يا بابا». دموع... والأب يصرخ والأم تصرخ. وكل شيء ثائر.

وكان لا بد - مهما طال الوقت وحمي وطيس المعركة - أن يخلع عبدالتواب أفندي الجاكتة، ثم يفتح قميصه، وبعدها يجلس من أجل العيال، وكان لا بد - أيضًا - أن تجلس تفيدة بجانب زوجها وهي تروح بجريدة أمام وجهها، وأن تخزي الشيطان أخيرًا من أجل العيال.

وسميرة تعد القهوة، وصابر يقف صامتًا وفي عينيه حنان وضيق وثورة، وأشياء كثيرة كانت تختلط وتنفرج ثم تعود فتتضارب معها دقات قلبه.

وكان لا بد وأن يتم الصلح، وعبد التواب يعلم أنه لن يترك البيت، وتفيدة تفخر بأنها منذ أن تزوجت من عشرين عامًا لم تغضب مرة واحدة، وسميرة تبكي لأنها تريد أن تبكي دون أن تدري لِمَ، وصابر حائر، وفي رأسه طاحونة، وتأتي القهوة، ويصالح عبد التواب زوجته، وتبكي هي ثم تبتسم، ويقول لها في عتاب:

«بقى كده يا وليه، مش قادرة تستحمليني؟»

وتسقط دمعة وراء أخرى، وتقول تفيدة:

«بعد العمر ده تقوللي: مع السلامة؟»

ويقول: «يا وليه اعقلي». ويقول صابر: «متقصدش». وتقول سميرة: «ساعة زعل». وترفس عائشة بقدميها الصغيرتين صدر أبيها، وتضحك ثم تقفز كالدودة محتمية بصدر أمها، ويبتسم عبد التواب وهو يقول إنها بنت كلب تحب أمها أكثر... وتطبطب عليها تفيدة وهي تلاعبها وتحتضنها وتقول بدلال:

«من اللي بتعمله فيها!».

وفجأة قال صابر في صوت جاد:

«أنا قررت حاجة».

وساد الصمت... ورشف عبد التواب رشفة من فنجانه، ونفث دخان سيجارته في هواء الحجرة، وشهقت تفيدة وأخذت تغمز ولدها وتشير له أن يصمت فليس هذا وقته.

ولكن صابر استمر في حديثه ويقول:

«أنا قررت أشتغل».

وساد الصمت تمامًا... وبحلق عبد التواب في وجه ولده:

«تشتغل؟!»

«أيوه..».

«ليه؟»

«المصاريف كتير.. وانا.. وانا.. عا.. عارف انـ..».

وأحس عبد التواب كأن أحدًا يغمد نصلًا في قلبه فقال:

«طيب اسكت انت.. ربنا يحلها».

«ما هو..».

«اسكت بقول لك.. اسكت..».

كان واضحًـا أن عبـد التواب أفنـدي يفكر، وداعبت أصابعه السـيجارة قليـلًا... وسـهم ببصره، وغاضـت الحمرة من جبهته... وعـادت إلى وجهه تلك السـمرة اللامعـة الرائعة، وانفرج ما بين حاجبيـه، وتنهد، وامتدت يده إلى الوريقات المتناثرة على مسـند الكنبة... واندست أصابعه فيها ثم ارتفعت تحمل ورقة صغيرة، مدها نحو ولده وهو يقول:

«روح.. روح انت سينما.. خش سينما..».

وخـرج صابر، وخرجت سـميرة، وابتسـمت تفيدة وهـي تقول بصوت ناعـم: «ربنا ميحرمهمش منك». وغاص هو في التفكير... ثم جذب النفس الأخير من السيجارة... ونظر إلى زوجته وقال بصوت منخفض:

«إلا الجمعية بتاعة أم حنفي، الجمعية الجديدة، عملتي فيها إيه؟!»

خنـاقـــة

الليـل يزحـف... والظـلام يهبـط... ونـور المصبـاح الشـاحب الأصفر المختلـط ببقايا ضوء النهار يتسـلل من فوق الجدار المتهـاوي، فيغمر الخرابة المليئة بالقاذورات والفئران والصراصير والخنافس والسـحالي... ويسـكنها الأطفـال الصغـار وجامعـو أعقـاب السـجائر والخطافـون والنشـالون واللصوص.

والداخل إلى الخرابة، لا بد وأن يجتاز فجوة منخفضة، وأن يتخطى أكوام الزبالـة وقشر البطيخ والشـهد والمنجـة... ولا بد وأن تنفـذ إلى أنفه رائحتها القوية العفنة، ولا بد أيضًا أن يمر على فلفل، الكلب الأسود الأعجف الذي يمد عينيه يمنة ويسرة وهو قابع في اسـترخاء ممددًا قدميه الأماميتين، والذي ينهـض دائـمًا في تكاسـل عجوز زهـد الدنيا وما فيها ليسـتقبل أحد سـاكني الخرابة بمواء خفيف ليس بينه وبين صوت الكلاب صلة... ثم يتبع الساكن إلى داخل الفجوة، ويلقي نظرة طويلة على المسـكن المسـتكن في ركن الخرابة تحـت الجـدران العالية الشـاهقة الصـماء، ويهز ذيله ورأسـه... ويمـوء كأنه يمصمص في شـفقة... ثم يسـتدير ويعود إلى مكانه وهو يترنح فوق الأكوام والأحجـار... وبعدها ينثني ويهبط بنصفه الخلفـي ويفرد قدميه الأماميتين،

وما تكاد بطنه تلامس الأرض، حتى يهبط برأسه ويوسدها ما بين قدميه في زهد وكسل وغير مبالاة.

وفي داخل الخرابة، وتحت السقف المصنوع من الصفائح القديمة الصدئة وقطع الحصير، والذي شيده فوله ولبه وعبورة وحسن وزلطة وبقية العائلة التي لا عائل لها... كان زلطة وعبورة جالسين وقد انهمكا في اللعب، وأمام كل منها كومة من أعقاب السجائر المقسمة إلى أصناف، منها أبو فله والبحاري واللاكي سترايت!!

واللعب كان قد اشتد وحمي وطيسه... والنهاية تزحف ثم تتراجع منذ العصر، والأمل يداعب كلًّا منهما... وتتابع الأدوار، ويرتفع الزهر المصنوع من قشر البرتقال ويهبط متدحرجًا إلى الأرض، وتصحبه طرقعة الأصابع كأنها تجلده بالسياط ليطيع... وتتدحرج معه أربع عيون تزحف في محاجرها وراء ألوانه الصفراء والبيضاء.

وتلمح على وجهيهما الصغيرين لمحات بريئة ساذجة طيبة... ولكنك لا تملك إلا أن تحس قسوة رسمت في عنف على الوجهين خطوط رجولة مصطنعة جاءت في غير أوانها، وفي غير رغبة من أصحابها، وحددت لتصرفاتهما دائرة لا يقضي العرف وأكل العيش وظروف الحياة أن يخرجا عنها... ولكن تصرفاتهما لا تلبث أن تفلت من الحصار... وتهرب من القيد... وتنطلق طفلية بريئة.

وكان شعر زلطة الأصفر قد جمعته القذارة في كتل متماسكة كأنها نبابيت لزجة، وجبهته العريضة قد اختلط بياضها الشاحب بسمرة خلقتها لفحات

الشـمس فكونـت لونًـا رماديًّا أغبر علتـه أتربـة عجنت بالعـرق، وصنعت خطوطًا وأشـكالًا متوازية ومتقاطعة ومتعرجة، كخطوط شـق لوح الخشب القديـم الباهت... وتنحدر لتختلـط بالحاجبين اللذين لولا غزارة شـعرهما لاختفيـا فيها... وتحت الحاجبين عينان واسـعتان قلقتـان في محجريهما كأنهما بليتان لامعتان مصقولتان تتحركان في حوض زئبق، لا تسـتقران على حال، يجريـان خلـف الزهر، ويتعقبـان الأعقـاب، ويصعدان إلى وجـه عبورة، ثم يهبطان مرة أخرى مع الزهر، ويظلان هكذا لا يتعبان ولا يكلان.

أمـا عبورة فـكان أضخم من زلطة... وجهه عريـض كبير كقطعة الحجر التي تصنع مدخلًا للسقيفة، والتي سرقتها الشلة من التنظيم عندما كان يبني رصيفًـا للشـارع المجـاور، ليوهموا البيت أن لـه بابًا... وقد بـرز أنف عبورة الكبـير من هذا الوجه معقوفًا صارمًا... تحده من أعلى عينان ضيقتان كعيون الفئـران التـي تسـعى حولهما في أمـان وثقـة، وصوته أجش خشـن كصوت الرجال، يعلو سابًّا الزهر إذا خسر، شاتمًا زلطة في بذاءة ساخرة إذا كسب.

وكانت الخرابة خاوية فارغة، ليس بها أحد غيرهما، وما كانا يظنان عندما بـدآ اللعب أنهما سـيمكثان طوال هـذا الوقت... ولكن الزهـر كان يعاكس، والمكسـب يداعبهـما، يأتي مع هـذا تارة، ثم يخرج لسـانه ويفـر إلى الآخر... والأعقـاب تنتقـل، وتفرغ، ويتناثـر دخانها عـلى الأرض ويختلـط بالأتربة. وهي أيضًا تنقص، فكلاهما يدخن وكلاهما كيِّف، واللعب يحتاج إلى مزاج، وصحصحـة، وإلى إشـعال عقب وعقـب وأعقاب... وأعصابهـما ما عادت تتحمـل طول الجلسـة، فتوترت، وشـدت بقوة خفية غاضبـة... تلعن الحظ والبخـت والزهـر، وتلعـن اللعب في سـبة قـذرة بذيئة تنتشر في جـو الخرابة

وتتآلـف بذاءتهـا وقذارتها مع أكـوام الزبالـة المتناثرة عـلى الأرض، ورائحة قشر البطيخ وبقايا السـمك، وتنسجم مع الرائحة النفاذة التي تعودتها أنوف ساكني الخرابة، بل وألفت إليها وسكنت لها.

وتدريجيًّـا، ومـع زحـف الليل، زحف الغضـب والضيق إلى نفسـيهما... زحـف حثيثًا مسـتكينًا، ثم تملـك وتمطى داخـل الصدور الصغـيرة، وتخلل الحناجر إلى الأفواه سـبابًا ولعنًا أشـد حدة وضيقًا... وتحول اللعب إلى تحد، وإذا التحدي يرفع ويرهف حتى يصبح كحد المدية التي يحملها عبورة... ثم يتحفز تارة، ويخبو تارة أخرى أمام الحق، ولا يجد منفسًا خلال قانون اللعب، ولكنه يظل مرهقًا مستعدًّا كأنه يد الجلاد تنتظر الأرض لتقتطع وتبتر.

وكلاهما يحس بذلك... يحسـه ويضطرب له، والليل يوغل، ولم يعد أحد مـن العائلة بعد، والصمت يهبط، وضجة الفئران وصراخها وعراكها يشـتد وهـي تمرح في المكان. وقد يقف أحدها ناظرًا إلى الجالسـين قبالة بعضهما في ألفـة. ثم يمضي منزلقًا سريعًا مرحًا خلال الخرابـة الرحبة... وتثقل الوحدة على اللاعبين، ويحس زلطة بوحشـة قلقة، ويرفع رأسه إلى السماء ثم يهبط بها إلى الفجوة التي كسـاها الظلام، وخيوط نـور تسربت إليها بعد جهاد خلال الشقوق والأحجار... ثم قال في صوت خافت:

«الجماعة تأخروا ليه؟»

«العب..!».

قالهـا عبورة باترة قوية دون أن يرفع رأسـه عن الأرض... ومد زلطة يده إلى الزهر، وأطبقت أصابعه عليه وعلى حفنة من التراب... ثم هز قبضته هزًّا

عصبيًّا عنيفًا، وفرد كفه وهـو يلقي به ويطرقع بأصبعيـه... وجرت العيون تلحق بالزهر المتدحرج... ثم استقرت مع استقراره لحظة، ثم جرت وراء يد زلطة التي امتدت إلى الأعقاب تجذبها نحو كومته.

ومـا كادت يـده تهبط فـوق الأعقاب... حتـى لحقت بها يد عبـورة وقد نفـرت في ظهرها عروق كثيرة، وزحفـت عينا زلطة إلى أعلا، ثم التقتا بعيني عبورة الحادتين:

«فيه إيه؟»

«الزهر مكسور!».

«فين هو اللي مكسور؟»

«أهوه.. إنت اعمى؟»

«متطولش لسانك.. الزهر نايم ومرتاح..».

«ده نايم يا ابن الـ...».

وسرعـان ما وجد الغضب الكامن المتحفز لنفسـه مخرجًا... وتمطى وهو ينفلـت خارجًا من سـجنه، ورنـت صفعة مكتومة، وسـبة، ولكمـة، وآهة، وزمجـرة، وحشرجـة، وتناثـر تـراب، وعلت سـحابة منـه، وحميـت المعركة وتطورت... ونهض الكلب من مكانه في تثاقل... ثم أطل برأسه من الفجوة، وتراجع بعدها ثم عاد إلى استلقائه، وأحس زلطة بوجه عبورة الكبير يقترب من وجهه... وأحس كأن ذلك الوجه كابوس يكاد يكتم أنفاسه... واندلعت في نفسه غضبة وكراهية، وأمسك عقله بخيط جرى وراءه... كان طوال عمره

لا يحب عبورة، كان يكرهه ويكره رجولته الخشنة ويحسده عليها، وتمنى لو كان له أنف كبير مثله، وشعر أكرت مثل شعره، وأن له شاربًا خفيفًا يعلو فمه كخط من تراب رمادي، سيصبح غزيرًا بعد أيام، كان يكره صفعاته وركلاته وسبابه، وكانت قبضة عبورة تجذب شعره إلى الخلف في قوة عنيفة، وانثنت رقبته حتى أحس بها تكاد أن تنقصم... وجاء إلى أذنه صوت عبورة مزمجرًا، ورأى السماء على الأرض، والأرض مكان السماء، والبيت مقلوبًا، وكان يعلم أنه أضعف من عبورة... وأن عبورة سينتصر.

«قول أنا مره..».

ولكن زلطة لم يقلها، كانت الآلام تكاد تقتله، لقد تمنى في لحظة ما أن يخسر ولا يكسب، ولكن بالحق، وهو لا يريد الخسارة بغير حق، وهو أيضًا لا يحب الغش... والزهر لم يكن مكسورًا. والله العظيم لم يكن مكسورًا.

«قول أنا مره!».

وزاد انثناء رقبته إلى الخلف... وأحس كأن نملًا كثيرًا يجري في حنجرته، وصعدت من صدره آهة تخللت حنجرته ودارت في حلقه ثم في فمه، ولكنها اصطدمت بشفتين مزمومتين في عناد عنيف، فعادت كالصدى إلى الحلق ثم صعدت إلى الأنف وخرجت منه هواء حارًّا يكاد يغلي... وجسد عبورة قد برك فوق جسده، وامتدت يده نحو عبورة، وأمسكت بأذنه وتشبثت بها، ثم قال بصوت مرتجف:

«قول أنا مره..».

قالها في غيظ وعناد، وجن جنون عبورة، وانهالت يده بصفعة قوية على الوجه الصغير.. وتشبثت يد زلطة بالأذن، واستجمع كل قواه، وغرز

أصابعـه في لحم الأذن غرزًا، حتى خـال كأن أصابعه قد نفذت منها والتقت ببطن يده... وانتابته نوبة من وحشية قاسية، وجز على أسنانه وجذب الأذن جذبـة قوية... وخرج صوت عبورة لاعنًا صاخبًا خشـنًا... وشـاع في نفس زلطة سرور خفي... وخرج صوته الناعم مترددًا متعثرًا:

«قول أنا مره..».

ومـا كان عبـورة يتحمـل أكثر من هـذا، فالتحم الجسـدان، وتشـابكت السـيقان، وترافصـت الأقـدام... ورفع عبورة رأسـه وهوى بهـا على رأس زلطـة الذي داخ... ولكن طاقة الكراهية كانت تتفاعل وتتوالد وتتضاعف، وازداد إحساسه بأن خلاص الدنيا في قتل عبورة... عبورة هذا الكبير الوجه والأنـف، والذي يـضرب الجميع، ولا يهاب أحـدًا... وانهالت لطمة من يد عبورة فوق عينه، فدمعت، وأحس لملمس الدمع براحة تسري من رأسـه إلى كل جسـده... وأراد أن يبكـي، وأحس كأن الدنيا كلهـا تكرهه كما يكره هو عبورة، وارتخت يده فترك الأذن، وأحس بالدموع تسيل... وتوقف عبورة، وابتسم في بشاعة... وقال بصوته الغليظ الخشن:

«أيوه كده عيط زي النسوان يا مره..».

ولم يـرد زلطـة... أحس همودًا في جسـده، ورأى عبـورة ينهض من فوق صـدره... وهبـت نسـمة رطبت وجهـه الملتهب، وأحـس أنه يريـد البكاء. وتحامل، وشـعر بشيء ساخن على قدمه، فمد يده ليزيحه... كان لزجًا، وكان أحمر، وكانت هناك زجاجة مغروزة في اللحم... ورفع رأسه إلى عبورة، كان واقفًـا منتصبًـا وهو يدخـن ويخرج الدخان مـن أنفه، وجرفتـه موجة حارقة

مـن الضيق، وازداد هطول الدموع، وارتعشـت يده وهـي تجذب الزجاجة، وانبثقت الدماء غزيرة وقد انفغر الجرح وانفتح كبطن قطة داست عليها عربة مسرعة. وكلما هطلت الدموع... تسربت إلى جسده راحة وخور، وزحف على الأرض، وملأ يده بالتراب، ثم وضعه فوق الجرح ليكتم الدماء، واختلطت دمـاؤه بالأتربة، وصنعت عجينة بشـعة اللون سـوداء الحمـرة، واغترف من التراب ووضع فوق الجرح... ولكن الدماء ظلت تسيل في غزارة، واجتاحته رغبة عارمة، كان يريد أن يبكي، يصرخ، يفعل أي شيء... وتأوه في استكانة ومسـكنة، ومـا لبث أن وجد عبـورة يتقدم نحوه... فرفع إليـه عينه الدامية، فانحنى هذا... وأزاح يده من فوق الجرح في عنف وهو يقول:

«إوعى إيدك!!».

ونظـر إلى الجـرح... ثم مد يده إلى الأرض وهبـش حفنة من التراب أخذ ينخلـه، ثـم ضغطها فوق الجرح في قـوة... وتأوه زلطـة، وأحس للآهة بلذة عجيبـة. ورأى عبورة يرفع طرف جلبابه ثم يمـزق منه شريطًا عرى ركبتيه، ورفـع القـدم الدامي وأخذ يلـف الخرقة حوله، وكان الألم يـزداد على زلطة، فيحس له لذة غامرة، فاسـتعذبه. واسـتعذب الحنان القاسي الذي تدفقت به أفعال عبورة، وأطلق آهة أخرى...

وانفجـر يبكي، ودفن وجهه في يده... وما لبث أن سـمع عبورة يقول في صوت خفيض:

«ما هو الحق عليك يا زلطة..».

«هو انا عملت لك حاجة..».

«قلت لك الزهر مكسور..».

«وحياة النبي كان نايم..».

«مش احنا اخوات؟».

«هم الاخوات يضربوا بعض يا عبورة..؟».

وانتهى عبورة من عمله... وزحف وجلس بجانب زلطة، وأشعل عقبًا به مد يده إليه:

«مانا معايا..».

«والله لانت واخد..».

ورفع زلطة عينيه الواسعتين الدامعتين إلى وجه عبورة... والتقتا بعينيه، وكان الألم ينشر قدمه نشرًا، ورغبة ملحة تنتابه ليواصل بكاء حارقًا... وانحدرت الدموع سريعة متلاحقة تشق طريقها خلال الأتربة المتراكمة على وجهه.

«جرى إيه يا زلطة؟ حد يعيط من اخوه؟!»

وانفجر زلطة كأنما فتحت الكلمات صنبورًا من النشيج والنهنهة... ومد عبوره يده يربت بها على كتف زلطة في حنان وقد أحس سخونة تسري في رأسه... ويميل على شعره ويقبله وهو يقول بنبرات لينة خفيضة مسكينة:

حقك علي... داحنا اخوات يا زلطة، إحنا لينا غير بعض، هي الأخوية بالدم بس، دي بالعيش والملح...».

وضـم كفـه ثـم رفعها إلى خـده ومسـح دمعة صنعـت طينًّـا خفيفًا فوق الوجه... واستجمع الكلمات المبعثرة وقال:

«دي مصارين البطن بتتعارك يا زلطة...».

وهـدأ زلطـة، وهدأ عبورة، وأشـعلا عقبـين، ومر الوقت وهمـا يدخنان في صمـت... وفي رأس كل منهـما فكرة، ومعنى يسـتكينان إليه، وعندما مد عبورة يده بعقب آخر إلى زلطة قال في صوت خافت:

«خد يا خويا..».

ولامسـت أصابـع زلطة أطراف أصابـع عبورة، وأحس بهـا ناعمة، فيها حنان انتفض له قلبه، وحلق السـكون... ومـر الوقت، وجاء بلية، ونظر إلى قـدم زلطة الملفوفة، ثم نظر إلى عبـورة... وقال بصوت رفيع كفتلة تحاول أن تصبح حبلًا:

«فيه إيه يا رجالة؟!»

وجاءه صوتاهما خافتين:

«ولا حاجة..».

وجلس بجانبهما في سـكون... ودلف فلفل، وعـوى في وهن، ثم قبع في وسطهم... وتوالت الأجساد الصغيرة القذرة من الفجوة... وتوغل الليل... ومرحـت الفئران... واكتمل الجمع. وماءت قطة. ثم قطة... وصرخ فأر... وعاد السكون... وغفت العيون... وترددت الأنفاس، وانتظمت... والليل يزحف... ثم يزحف.

الست هانم

الست توحيدة... توحيدة هانم... داخت الدوخات السبع قبل أن تعثر على خادمة... أشهر طويلة وهي مغروسة في البيت وحدها، تطبخ وتغسل وتكنس وتمسح البلاط وتلمع زجاج الشبابيك. كانت لا تستطيع الجلوس لحظة في مكانها. والبيت كبير، والأولاد كثيرون، وطلباتهم لا تنتهي! وكادت تجن، رَكَبتها الأمراض والعلل، وأصبحت لا تكف عن الشكوى... لا بد من العثور على خادمة بأي ثمن، وبأية طريقة.

لجأت إلى المخدم، فابتسم ابتسامة صفراء وقال:

«نشوف يا ست».

أغرت خادمات الجيران، بالتلميح مرة، وبالتصريح مرة. ولكنهن كن يهربن منها ولا يعدن أبدًا!

وفي الشهر ثلاثون يومًا. وفي اليوم أربع وعشرون ساعة. وتوحيدة هانم لم تعد هانم ولا يحزنون، أصبحت أم عيال، تعمل في البيت عشرين ساعة، وتحلم في الأربع الأخرى بالخادمة.

ثم وقعت المعجزة...

«البنـت صغـيرة، عمرهـا تسـع سـنين، أبوهـا ميـت، وأمهـا غسـالة... لقطة!».

وتحمست الست توحيدة وقالت:

«وماله... أعلمها واربيها ولما تكبر أجوزها».

ومصمصت أم الفتاة الصغيرة وهي تقول:

«أنا ياختي اسم الله على مقامك محتاجه لجنيه كل شهر».

وشهقت توحيدة هانم، وقالت وهي تضرب على صدرها:

«جنيه؟!!».

حقًّـا!!.. الجنيه كثير على مثل هذه المفعوصة، فهي لن تسـتطيع أن تصنع شـيئًا. لن تطبخ ولن تغسـل ولن تمسـح ولن... ولكن الست توحيدة ذكية، وهي بتجربتها مع الخدم تعلم تمامًا أن الأمر لا يحتاج لأكثر من شهر ثم ترتاح، وتصبح البنت كالعفريتة، ولن تتحرك هي يومها من مكانها، وستعوض كل الذي فات.

نهايتـه، كلمة من الوليه وكلمة من الهانم... ووافقت السـت – مرغمة – على دفع الجنيه. وأخرجت من صدرها نصفه مقدمًا، وقالت وهي تنظر نحو الفتاة المكومة في الركن، ثم تبتسم ابتسامة رياء:

«واسمك إيه يا محروسة؟!»

قالت الأم:

«خدامتك توحيدة!».

وكادت الهانم أن تشهق، بل وتصرخ في الولية قائلة... «توحيدة في عينك وعين اللي خلفوكِ»... ولكنها كظمت غيظها وهي تقول:

«بكرة يتلخبطوا فينا. أنا حاسميها توحه!!».

الأم كانــت قد انتهـت من الأمـر كلـه. فليكن اسـمها توحه أو توحيدة أو حتى عفريته، فقط شيء واحد:

«والنبي يا ست دي يتيمة وغلبانة، ودعوتها تصيب».

وقالـت السـت توحيـدة في سرها: «صابتـك عقربة»... ثـم دارت الأمر بابتسامة وضحكة. ومر الوقت، ونهضت لتغلق الباب وراء الأم.

وما لبثت أن استدارت نحو مقصوفة الرقبة، وزغرت في عينيها، وهبشت فجأة في أذنها وجرتها أمامها وهي تصرخ في غل:

«اسمك إيه يا بت؟!»

«توحيدة!».

وازداد قرص الأصابع الحديدية على الأذن الصغيرة:

«اسمك حميدة يا بت. حميدة، فاهمه.. اسمك إيه؟»

«توحيدة يا ستي!!».

كانت دموع الصغيرة تنهمر في صمت، وهي تنظر إلى الباب المغلق الذي اختفت وراءه أمها. وما لبثت صرخة أخرى أن دقت في المكان كالرعد:

«حادبحك لو قلتي لحد كده.. اسمك حميدة، سامعه؟.. حميدة!!»

«حاضر يا.. ست.. يا ستي».

«اسمك إيه؟!».

«حميدة يا ستي!».

وارتخت أصابع الهانم عن الأذن التي أصبحت في لون الدماء القانية.

وفجـأة، وبـلا مقدمات، هـوت على الوجـه الصغير صفعـة، وعلى وجه الست ارتسمت ابتسامة راضية وهي تقول:

«ده علشان ماتنسيش اسمك الجديد... غوري على المطبخ... آل توحيدة آل».

البحر

كان كل شيء يتطوح ويهتز ويتمايل، والسفينة تزحف في جوف الليل فوق السطح الهادر، تعلو وتهبط... تميل يمنة، وتميل يسرة، ترتفع إلى أعلى مترنحة، ثم تهوي في اللجة العارمة الغاضبة وترتطم بسطح المياه في صفعة حادة، وتلطم الأمواج جوانبها في دوي حاد، ثم ترتد عنها متفتتة في زمجرة عنيفة. وقد بدت الأنوار المتناثرة على السطح خافتة ضعيفة وسط الظلام الحالك الرهيب، والسحب في السماء قد تجمعت وحجبت النجوم... فازداد سواد الليل، وبدت السفينة كشبح باهت لا معالم له، يتناثر حولها رذاذ المياه صانعًا طبقة لزجة من الضباب الرقيق، وقد بدا سطحها خاليًا تمامًا، بينما كان الجرس المعلق في نهايتها يتطوح وتتمايل ذراعه وترتطم بجوانبه في دقات ثاقبة غير منتظمة كانت تصنع مع هدير الأمواج وصفير الرياح وحفيف المياه لحنًا رتيبًا مخيفًا.

وفي الداخل... كان صوت الآلات يُدوِّي ويطنُّ في رتابة مضغومة، ويتسلل عبر الممرات الضيقة الباهتة الضوء، ويصل إلى الرجال في العنبر الكبير واهنًا مكتومًا رتيبًا يُثير الأعصاب.

وكان الرجال قد تمـددوا فوق الأَسِرَّة الكثيرة المتناثرة في صفوف منتظمة حـول العنبر، وقد علـق أغلبها بسـقفه وتقوَّس خارجها مـع ظهور الرجال المددين فيها مهدهدًا إياهم في هزات منتظمة سريعة.

وثمة منضدة مسـتطيلة مثبتة في الأرض تتوسـط المكان، قد جلس عليها رجـل اعتمد رأسـه إلى كفه، بينما جسـده يتمايـل مع تمايل السـفينة، وما لبث الرجل أن تنبه إلى صوت ينبعث من ركن المكان:

«قوم بقى يا جابر.. صلي على النبي امال».

وزام جابر... وامتدت يده تشـعل سـيجارة، ثم ارتفع ببصره إلى الساعة المعلقة في صدر المكان، بينما استمرَّ الصوت في حديثه الهادئ:

«وآخرتها إيه يعني؟ ما هو من يوم ما جه وهو بالشكل ده!».

ودق جابر فوق المنضدة بقبضته، وقال في صوت حاد غاضب:

«أهو ده اللي ناقص.. آني ينقال لي الكلام ده؟!».

وسرعـان مـا ارتفعـت الأصـوات مـن كل ركـن، وأصبـح العنـبر يطن بالضجيج.

والذي حدث أن الباشريس خليل قال لجابر إنه لا يعرف شـيئًا في البحر، قال له ذلك رغم أن جابر قد لفَّ البحار السبعة، ورغم الأعوام العشرة التي قضاها فوق سطح المياه يجوب الدنيا من أقصاها إلى أدناها.

كان الباشريس خليل رجلًا لا يعرف أباه، والرجال لا يعرفون عن حياته شـيئًا، ومنذ جاء إلى السـفينة ولسـانه لا يكـف عن الفرقعـة، ولا يكف عن

الحديث، يأكل وهو يتكلم، يشرب وهو يتكلم، ينام وهو يتكلم، ويتكلم وهو يتكلم... «اعمل دي. شيل دي. ادهن دي. ساوي، نضف»... أوامر تلو أوامر، لا يكف ولا يرتاح ولا تغفل عيناه عن شيء، وكأنه آلة لا تكل ولا تمل.

ومنذ أن جاء إلى السفينة، والحياة فيها تسير وكأن سياطًا تلهب ظهرها، ولولا أن «جابر» خزى الشيطان في ذلك اليوم لحدث ما لا يعرفه أحد.

وتسلل صوت الباشريس من الباب الضيق في سقف العنبر حادًّا ثاقبًا في حشرجة متموجة، وصمتت أصوات وضحكت أصوات... وعلَّق رجل، وأطلق آخر سبة بذيئة، والصوت يهدر في أعلى... والخطوات القوية تضرب أرض السفينة في ثقة:

«آه... الشغل شغل، إنتو فاكرين الحكاية لعب، فاكرينها فاوريكة؟ دي مركب، شيل يا بحري دي، أيوه عالمخزن، دي مركب مش فاوريكة..».

ورفع جابر رأسه إلى الباب، وضاقت عيناه، وجذب نفسًا من سيجارته في ضيق، وقال أحدهم في صوت خافت:

«هو مبينامش؟!».

«ده سكران طينة».

«هو اللي زي ده بيسكر؟!».

وتثاءب رجل... وتمطى آخر، كما تمطت الكلمات في الأفواه، وأخذ السكون يزحف تدريجيًّا إلى المكان، ولطمات الأمواج تتردد مكتومة في دوي،

وكل شيء يتمايـل، وجابـر في مكانه قد استحال رأسـه إلى بـركان، وتناثرت الكلـمات، وتقاربت عقارب السـاعة، واندفعت نسـمة من فتحـة الباب... ودارت في المكان ونفذت إلى جسـم جابر فارتجف، وضم معطفه إلى صدره، وأشـعل سـيجارة أخرى، ونظر إلى عقارب السـاعة مرة ثانيـة، ثم نهض من مكانه متثاقلًا وأخذ يصعد السلم الصغير وهو يغمغـم بكلمات مضغومة.

وسرعـان مـا ارتفعت أصوات الشـخير في العنبر، وهبطت على السـلالم أقـدام محاذرة، وسـادت جلبة خافتة فترة، واشـتعل عود ثقـاب، وتوهجت سيجارة... ثم عاد السكون مرة أخرى وساد تمامًا.

وفجأة...

دوت في الظـلام صرخـة مرتعبـة، سـاد بعدهـا الصمت برهة، ثـم انبثق صفير حاد متقطع دوِّي في أرجاء السـفينة، ما لبث أن اخترق الآذان، وأطار النـوم من العيون، وتسـاءل رجـل في قلق... وهبط آخر من فراشـه مسرعًا، وسـادت الجلبة، وهبط الرجال من أسرتهم المعلقة، وخفت صوت الآلات، ثم توقف، والصافرات تدوي، وهرج ومرج، وأقدام تروح وتجيء، وصوت الباشريـس ينبعث ثاقبًا حادًّا، وتمايل السـفينة يشـتد، وصوت لاهـث ينطلق من فتحة الباب:

«غريق.. غريق..».

وجـرت الأقدام تضرب الأرض في سرعـة ولهفة.. وعلت صرخة رعب ثاقبة، وتلاحق الرجال وهم يصعدون السلم، وسطح السفينة أصبح كخلية

نحل دائبة، والأضواء الكاشفة أخذت تخترق الظلام وتلتقي بالسطح الهادر المعربد، فتنعكس على قمم الأمواج البيضاء وتلمع في الظلام الرهيب.

«مين؟.. مين اللي في الميه؟!».

«جابر.. جابر سقط من فوق السلم..».

ودوَّى صوت الباشريس في أرجاء المكان... وحملته الرياح إلى السطح الذي كان يشغي بمن عليه من الرجال، وكان يصرخ في بوق أمسكه بيسراه، يصدر الأوامر، ويصيح في رجل، وينهر آخر، يروح ويجيء، يعمل ويتكلم، والرجال قد تعلقت عيونهم بحلقات الضوء المتناثرة فوق السطح، والأيدي تعمل، وصوت الباشريس يدوي في البوق صارخًا:

«يا جابر.. يا جاااابر».

ويرتد الصدى مختلطًا بصوت المياه وارتطام الأمواج بجوانب السفينة، ودقات الجرس تساهم في اللحن بدقاتها الرتيبة المتقطعة، ومال قارب على جانب السفينة، وصرخ رجل ينادي جابر، وأخذ القارب يهبط نحو المياه بسرعة يحمل رجالًا ربطوا أجسادهم إلى السفينة بحبال كثيرة، وما كاد يلامس سطح المياه حتى حملته موجة فوق قمتها، ثم انحسرت عنه مرتدة إلى الوراء بسرعة، وغاصت مقدمة القارب في الهوة الناعمة، وزحفت موجة أخرى سريعة وانثنت مقدمتها لتبتلع القارب، ثم تنحسر من جديد لتحمله وتلقي به إلى جانب السفينة... وتحطم.

وبدا الأمر رهيبًا، والرجال يتسلقون الحبال على جوانب السفينة، وتنزلق أقدامهـم على الجـدار الصلـد، والأمواج تلاحقهـم كالكلاب المسـعورة... والظلام حالك حالك.

وأخـذ قـارب آخر يهبـط إلى الميـاه... واللحـن الرهيب ينبعـث في هدير متمـوج يصاحـب دقـات الجـرس وصـوت الباشريـس... أقـدام تجـري، وصرخـات، ونداءات، وكلـمات وهمس... أيد تعمل، وصـوت الباشريس يعـود من جديد، وصفير حـاد، والرجال ينادون ويبحلقـون في الظلام دون جدوى... وأطواق النجاة تنطلق في الهواء ثم تسـقط إلى المياه لتجذبها الحبال من جديد وتصغـي الآذان فترة، ويرتد صدى الأصوات واهنًا تحمله الرياح ثم تفتته وتفر به إلى بعيد.

وفجـأة... دوت صرخة ثاقبة، وارتجفت الأنـوار، وزحفت دائرة مضيئة فوق السطح في سرعة، ثم ارتدت مرة أخرى، وسرعان ما تكالبت الأضواء كلها لتلتقي بالقرص المضيء الذي كان رأس جابر يتوسطه فوق الأمواج!

وأمسك الباشريس بطوق نجاة، ودارت ذراعه به دورات سريعة حاذقة، وسرعـان ما سبح الطوق في الهواء كأنه قذيفة، وأخـذ يهبط فوق رأس جابر تمامًا... وما كاد يرتطم بالسطح، حتى امتدت يد جابر إليه، وانحسرت الموجة حاملـة معها الطوق إلى بعيد... واختفـى رأس جابر في اللجة، وأطلق رجل شـهقة، ودق الجرس دقة، وعاد رأس جابر إلى الظهور من جديد، وانطلقت أطواق كثيرة تسـبح في الجو وتتسـاقط حول الجسـد الذي كان يقاوم البرودة القارصة والأمواج.

ومـا كاد القـارب الآخـر يلامس الميـاه حتى توقـف كل شيء... ودارت الـرءوس نحو الباشريس الذي كان يخلع ملابسـه... وفغرت أفواه... وجاء صوت الباشريس:

«موله. بلاش القارب..».

وقال القائد في سرعة:

«حاتعمل إيه يا باشريس؟!».

«حانزل بنفسي..».

«إنت مجنون؟!».

وهمس رجل:

«مش معقول!!».

وصرخ القائد:

«متنزلش الميه..».

«لأ.. حاننزل. القارب التاني حيغرق كمان..».

«معلش..».

«والراجل يموت؟. دا صاحب عيال..».

كان الباشريس قد خلع ملابسه تمامًا... وبدا جسده وسط الظلام والرياح قويًّا... وتناثر شـعره الأبيض ثم سـقط فوق جبهته العريضة، وارتخت شفته السـفلى، وأخـذت يداه تعملان وهما تحيطان جسـده بحبل رفيع... وصوته

لا يكف عن الصياح وإصدار الأوامر، والجميع قد أذهلهم الأمر... ترتجف أجسادهم من البرد، وترتعش الأنوار فوق السطح الهادر، وتجوب عيونهم الأفق المظلم، ثم تعود لتلتقي بالجسد الذي كان ينثني ويستقيم ويعمل ويتحرك ويصدر الأوامر في سرعة وحذق وحنكة:

«خلي بالك يا محمود، خلي النور عليه، مالكش دعوه بيه، ناولني يابني القزازه... قلت له يا خد بق.. عمل زعلان مني..».

كانت العيون حائرة بين الجسد الذي يقاوم المياه، والجسد المنتصب في الظلام... وجاشت النفوس، والتقت العيون في سرعة ثم انخفضت نحو الأرض، والوقت يمضي... والهمس يعلو، والقائد قد ألجمته المفاجأة... وكأن شللًا قد أصاب الجميع... فإذا السكون يهوي فجأة ليشمل كل شيء... وترنحت السفينة، ودق الجرس دقة... وانطلقت صرخة ثانية من وسط المياه... وهوى جسد الباشريس يغوص في الظلام.

ارتفعت السفينة فوق قمة موجة، وفغرت الهوة فاهًا عميقًا، وترنح الجسد الهائل ومال إلى اليمين، ولطمت السفينة موجة من اليسار، وترنحت أجساد الرجال، وتلاعبت الأضواء فوق صفحة المياه، وبدا الأمر فوق سطح السفينة رهيبًا، كان الرجال قد حبسوا أنفاسهم... والظلام لا يزال يطوي جسد الباشريس... وانفصلت دائرة عن الكرة المضيئة، وأخذت تسبح فوق السطح باحثة عنه... وساد الصمت تمامًا، وانطلقت صرخة سرعان ما ارتد صداها وذاب في الهواء.

وبـرزت مـن الظـلام ذراع تـضرب الميـاه بقسـوة وعنف، وأطـل رأس الباشريس في الضوء، وحبس الرجال أنفاسـهم، كان الرجل يغوص بجسده داخـل المياه... ثم يعود إلى الظهور كعملاق، وكان يقترب ويقترب، وصرخ جابـر صرخـة خافتة وتهاوى جسـده فـوق الميـاه متصلبًا... وامتـدت ذراع الباشريس نحو رأسه... وجز الرجال على أسنانهم، وتململت الأقدام في قلق، وتشبثت الأيدي بالحواجز، وارتعشت الأضواء، ودق الجرس دقة، وهبطت اليـد فوق رأس جابر، وانحسرت الموجة، ومادت المياه حاملة الباشريس إلى بعيـد... وخفقت القلوب... وغاص الباشريس في المياه من جديد، ثم انبثق رأسـه، وانطلقت ذراعاه تضربان المياه في سرعة وعناد وقسوة، وأخذ جسده يقترب مرة أخرى ويقترب... وعلت موجة، ودفن الرجل جسده في سفحها ليـبرز ذراعـه ضاربًا الميـاه... وكان رأس جابر قد غـاص تمامًا عندما هبطت الكف لتقبض عليها في قوة وترفعها إلى الهواء....

وصرخ الرجال في فرح...

وشـهق جابر، واندفع الهواء إلى صدره، وامتدت يد الباشريس إلى الحبل الملتف حول وسطه... ثم عادت تحمل الزجاجة، وقبض بأسنانه على الغطاء وبصقـه في المياه، ودس الزجاجة في فـم جابر الذي أحس بالدفء يسري إلى صـدره... ثـم أحس كأن دموعًا تكـوي عينيه، ففتحها ببطء، وتسـللت إلى أذنيـه أصوات وصرخات وصفير ودوي... وبدت له الأنوار المسـلطة عليه بعيدة أخذت تخفـت وتختنق، وحجبت قطرات المياه عن عينيه كل شيء فبدا له كل شيء مائعًا، ثم سـاد الظلام تمامًا، وشـهق، ودفع المياه بقدميه، وأحس بهـما متصلبتين كأنهما قطعتان مـن الصخر، ودق قلبه بعنف فجرت الدماء في

عروقـه، وتفرقت الأصوات في أذنيـه، كانت تعلو وتخفت ثم تختفي، صوت واحـد ظـل يتردد، يـأتي من بعيـد بعيـد... كان صوتًـا أليفًا ظل يـتردد دون انقطاع:

«أ.. مـا.. ل.. لا.. زم.. تـدفى.. حـر.. ك.. إيـدك.. ده بحـر، إنت فاكره فاوريكة، إجمد يا جدع، آه، إجمد...».

وجذب جابر نفسًـا عميقًا، ثم سـعل وتنفس ملء صدره، وأخذ الظلام ينقشع تدريجيًا، وبدت له الأنوار قوية ساطعة، وأحس بدفء لذيذ يسري في كل أعضائه، واستدار برأسه في وهن.

كانـت المياه تتسـاقط مـن وجه الباشريس وشـعره. وبدا شـاربه الأبيض مرتخيًـا مبتلًا، والشـفتان تتحركان دون انقطاع، والصوت ينبعث من وسـط الهديـر قويًـا صاخبًا... ورفع جابر ذراعه ثم هـوى بها على كتف الباشريس، وبدا الرجلان في الحلقة المضيئة وسط ظلام الليل وكل منهما يحتضن الآخر.

ودبت الحياة من جديد في جسـد جابر، وأحس بكل شيء، وشمل بعينيه الوجه العريض، وجاءه الصوت واضحًا ثاقبًا مصقولًا:

«آه.. كـده كويـس.. فاكـرني بكرهـك، إنت اهبـل، البحر كـده، قاسي، ملـوش قلب، آديك شـايف، محمود مـات من كده، أيـوه كان بيلعب، ابني، في ليلـة زي دي، كان زيـك، زيهم كلهم، مات، غرق قدام عِينيَّه دول، البحر بلعه، آه، لو كان سـمع الكلام، كان زمانه.. حــ.. حي.. آه.. ت.. اما.. ل.. ده.. بحـر.. قـا.. سي.. مالوش.. قلـ.. ب.. أنا عايـز.. أعمل منك راجل.. را.. اجل..».

كان الصوت يتردد مختنقًا، مرتجفًا... وأحس جابر كأن شيئًا يوقظه من أعماق حلم، ونظر إلى الوجه الباكي، ورأى الشفة المرتعشة، وخيل إليه أن في العينين دموعًا... وثقل رأسه، وأخذ يتطوح، والأمواج تهدأ، وكل شيء يتلاعب، وذراعا الباشريس القويتان تحتضنانه، وفتح فمه... وانطلق صوته ضعيفًا واهنًا:

«يا.. با.. شر.. يس..».

«عاوز إيه.. اسكت.. بلاش كلام.. إنت غريق.. هو لعب، الشغل شغل، يا ريته سمع كلامي، ياريـ.. ته، اسكت.. إنت تعبان..».

«يا.. با.. شر.. يس».

«اسكت.. شد يا حسن الحبل كويس.. مد إيدك يا بدوي، حضروا البطاطين، والدوا، يا ابني ده بحر، فاهم، ارمي بطانية علينا يا جدع، عارف بحر يعني إيه؟ يعني ما فيش يامَّه ارحميني، فيه موج، وفيه شغل، وفيه..».

وأخذت الكلمات تنساب إلى أذني جابر قوية حلوة لا آخر لها، وجسده يتأرجح في الهواء ثم يرتطم بجانب السفينة، ويختلط الصوت بالهدير المنبعث في قسوة، صرخات ونداءات، ودقات الجرس المتناثرة، وذراع الباشريس القوية تقبض على خاصره، ورأسه يدور، ويثقل، وطنين يتسرب إلى أذنيه، والكلمات تبتعد وتبتعد، وخَوَر لذيذ يدب في مفاصله.. فاستسلم، وغاب عن الوعي.

قصة رجلين

وأخيرًا... وبعد كل هذه السنوات، أصبح علَى مدكور قبطان أن يقود السفينة. ثلاثون عامًا كاملة عاشها فوق الأمواج، وطاف فيها حول الدنيا، وخبر فيها مياه العالم شبرًا شبرًا، وبحور العالم ومحيطاته موجة موجة، وصارع العواصف عاصفة عاصفة... ورغم هذا، فهو لم يكن قائدًا لسفينة قط.

ثم يقولون له اليوم، وبعد هذا العمر الطويل، تسلم السفينة وأقلع بها... فأنت القائد.

وأصبح عليه أن يتسلم السفينة، وأن يقلع بها... فهو القائد.

ثلاثون عامًا كاملة ومدكور قبطان يشرب الخمر بلا حساب، يجرع الكأس كأنه قطرة، ويجرع الزجاجة كأنها كأس، يشرب ليلًا، ويشرب نهارًا، ولا يكف عن الشراب، ولا يفيق، ولا يغيب مرة عن الوعي.

ثلاثون عامًا كاملة ومدكور قبطان يعمل كما يشرب، يعمل في الصباح، ويعمل في المساء، يعمل في النهار، ويعمل في الليل، لا يكف عن العمل ولا يكف عن الحركة... يصادق الناس، ويصادق الرياح، ويحادث الأمواج، ويضحك للقمر عندما يطل عليه من السماء، ويعبس في وجه السحب عندما

تخفيه عنـه... يضاحك هذا، ويعابث ذاك، ويجلس مع البحارة كما يجلس مع القباطنـة، ويشرب مـع الضباط كما يشرب مع الوقاديـن... الكل أصدقاؤه، يحـب الجميع، ويحبه الجميع، ويشـهدون لـه بأنه بحار من الطـراز الأول... ورغم هذا، فهو لم يتسلم في حياته سفينة، ولم يكن في حياته قائدًا لمركب.

وتساءل الناس كثيرًا عن السبب، وثرثر البحارة في جلساتهم وهم يحكون عنه الحكايات، ويقولون إنه سكير؛ ولذلك لم يقد سفينة، وإنه لا يفيق؛ ولهذا فهو لا يستطيع أن يتحمل مسئولية!

عـلى أن مدكـور قبطان لم يفكر في هذا مع الناس، وإن كان قد فكر فيه مع نفسه. ولم يتحدث في هذا مع أحد، وإن كان قد تحدث فيه مع عبدالباسط.

وعبدالباسـط عجـوز خفيـف الـدم... قـال الجميـع عنـه إنـه ومدكـور قبطـان كأنهما فُولَة انقسـمت إلى نصفـين، أحدهما مدكـور، والنصف الآخر عبدالباسط.

وعبدالباسـط بحـار مخضرم، عمل في الآلات وقَّادًا سـنوات وسـنوات، وعمـل على السـطح نوتيًّا سـنوات وسـنوات، وأمسـك الدومـان دومنجيًّا سـنوات أخـرى وسـنوات... وجذب الحبـال والأشرعـة مـرات ومرات، وآلاف المرات، ولا يزال يعيث طول النهار في السـفينة، ويعمل في كل شيء، ولا يطلب منه أحد أن يعمل شيئًا.

وهو الآن سفرجي.

يقول للناس ساعة انبساط أو ساعة غضب، إنه وعى فوجد نفسه يركب مركبًـا، وإنه خبر كل شيء في السـفن، وعـرف مخابئهـا وأسرار قيادتها، وإنه

لـو كان في هـذا البلد إنصاف، لأصبح اليوم قبطانًا يشـار إليه بالبنان... لولا العمـر، ولولا السـنوات التي حطت فوق رأسـه فأشـعلته بالشـيب، وفوق جلـده فجعدته وهدلتـه، وفوق عينيه فأضعفت نظـره. وإنه لو كان قد وعى لنفسـه كما يفعل الرجال، لكان اليوم يعيش في قصر وينفق ببذخ، ويكتنز من الأمـوال ألوف الجنيهات وعـشرات الألوف... لولا الخيابـة وصغر العقل، ولـولا الكأس الملعونـة التي جعلته يبعثر باليمين ما كسـبه باليسـار، ويقطع حياته عن أهله، ويعمل بعد طول حياة صاخبة سفرجيًّا على سفينة.

ورغم هذا فإن عبدالباسـط ليس سفرجيًّا إلا بالاسم فقط، فكل القباطنة أبناؤه، وكل هؤلاء الضباط تخرجوا من تحت يديه، كلهم يحبونه وهو يحبهم، لا يفضـل أحدهم عـلى الآخر، لا يخدم أحـدًا، ولا يحمل طبقًـا أو صينية... اللهم سوى زجاجة مدكور قبطان والثلج، ولوازم القعدة في الليل... عندما يهدأ العجوز مدكور من دورانه وعبثه وعمله، ويحط جسده السمين العريض فوق فراشـه الصغير، وينادي على عبدالباسـط، وتصبـح الحياة وقتها حلوة. يتهامس سـاعتها العجـوزان. ويميل رأس أحدهما عـلى الآخر. ويحكي كل منهما للآخر. ولا تقرع الكئوس ببعضها، بل تقرع بالشـفاه، وتفرغ زجاجة، واثنتـان، وأحيانًـا ثـلاث، وفي بعض الأحيـان يطلع عليهما النهـار ومدكور يقول لعبدالباسـط. «أنا ميهمنيش يا عبدالباسـط ياخويا، أنا مش عاوز ابقى كومندان، إنما العدل، مفيش عدل، والإنصاف، مفيش إنصاف».

وقد تكون الزجاجـات قد كثر عددها... وليلتها ربما دمعت عينا مدكور قبطان من الألم، وربما دمعت مع عينيه عينا عبدالباسـط وهو يواسيه، ويسب

الظلـم ويقسـم إنها لا بـد أن تتعدل ذات يـوم... وإنه لا بـد أن يصبح قائدًا لسفينة.

وعبدالباسـط مؤمن أشـد الإيـمان أن القبطـان مذكور أحسـن قبطان في الدنيـا... وأنـه قـادر على أن يقود أكبر سـفن العـالم، وأنه لـولا البخت، وفي الحقيقـة، لـولا الـكأس، هذه الملعونـة التي كانت سـببًا في بلواهمـا، لتغيرت الحال وأصبحت غير الحال، ولكنه الحظ الأسود والبخت النكد.

وعلى كل، فلن يأخذ أحدهما من الدنيا شـيئًا، فلن يعيشـا قدر ما عاشـا، والآتيـات أصبحـن أقل مـن الرائحات، وليشربـا في صحة مذكـور قبطان، وفي صحة عبدالباسـط، وليقرعا الكئوس هذه المرة، ولتزحف على شـفاههما ابتسـامات واهنـة مـرة، وليقـل كل منهما للآخـر إن الصداقة هـي كل شيء في الدنيـا، وإن الصديق أحسـن من الأخ، وأحسـن من الأب، وأحسـن من الزوجة... وليتقارب قلباهما، ويقسم كل منهما إنه مستعد أن يضحي بحياته في سـبيل صاحبـه، ولتتسـع الابتسـامات الواهنـة وتصبح ابتسـامات كبيرة تشـمل الوجهين والعيون الأربعة... وسـيمضي الوقت سـاعة وراء سـاعة، ويمضي معه العمر الذي مضى أغلبه.

ورغـم هذا، فلقد كان الرجلان أول الداهشـين لهـذا الأمر، وأكثر الناس عجبًا، ولكن الدهشة مهما بلغت، فإن الحقيقة دائمًا هي الحقيقة...

وكان على مذكور قبطان أن يقود السفينة.

قـال عبدالباسـط يومهـا: «ألف نهـار ابيـض... وألف مـبروك»، ومضى في السـفينة فرحًـا مسرورًا يصفـق كطفل صغير، يداعب هـذا ويعابث ذاك،

ويقدم للرجال السجائر والكاسات، ومضى يضحك ويضحك ولا يكف عن الفرحة أو الضحك، فاليوم هو يومه، والدنيا أصبحت «عال»، وكل شيء قد تعدل... وأصبح مدكور قبطان قائدًا للسفينة.

ولكن مدكور قبطان لم يضحك، ولم يفرح، ولم يترك حجرته منذ ساعات، ولم يحادث أحدًا، ولم يضاحك أحدًا، وهز للرجال الذين هنئوه رأسه... وقال هؤلاء عنه إنه كان شاحب الوجه، صامتًا لا يتكلم؛ وإنه ليس كعادته.. و.. و.. وثار عليهم عبدالباسط، وقال إنهم كذابون، وإنه ليس شاحب الوجه، وليس صامتًا... ثم لعن الناس وألسنة الناس وحديث الناس.

حقًّا إن مدكور قبطان لم يغادر حجرته منذ أن علم بالأمر، ومنذ أن عرف أن عليه أن يقلع اليوم، ولكن ليس معنى هذا أنه شاحب... وحقًّا إن وجهه مصفر قليلًا، ولكن ذلك من أثر سهرة الأمس التي شربا فيها كثيرًا... وحقًّا إنه لم يكلم أحدًا على غير عادته، ولكنه ليس صامتًا.

صحيح أيضًا أن عبدالباسط دهش من هذا في البداية، ولكنه قال إن ذلك من أثر الفرحة، وصحيح أنه حاول أن يجعله يتكلم، لكنه كان مقتضب الحديث، وصحيح أن دهشة عبدالباسط كانت شديدة للغاية. وأنه ساءل نفسه عما اعترى الرجل... ولكن دهشة الرجال كانت أشد عندما سمعوا مدكور قبطان يصرخ في وجه عبدالباسط، بل ويطرده من الحجرة ويقول له بأعلى صوته: «اطلع بره».

وخرج عبدالباسط من الحجرة مذهولًا، وقبع فوق فراشه لا يبرحه، وحاول الرجال أن يكلموه فلم يتكلم، وحاولوا أن يضحكوه فلم يضحك،

فقدموا له كأسًا وسألوه عما حدث، فقال لهم إنه لم يحدث شيء... فقدموا له كأسًا أخرى وسألوه عما حدث فقال لهم: «مصارين البطن بتتعارك»... وقدموا له كأسًا ثالثة وسألوه أيضًا عما حدث فسهم وقال شيئًا لم يسمعوه... وأخرج أحدهم زجاجة ووضعها أمامه فعب منها... ثم حكى لهم عن الذي حدث.

والذي حدث شيء غريب... سأل عبدالباسط مدكور قبطان عما به. فقال هذا: «ولا حاجة»... وضحك عبدالباسط وقال له: «ولا حاجة ازاي... إنت مش زي عوايدك»... فرد مدكور قبطان: «سيبني في حالي»... وقدم له عبدالباسط كأسًا وهو يقول في مرح: «يحيا العدل... والنبي انت سيد القباطين»... وزجر مدكور في جفاف: «قلت لك اسكت يا عبدالباسط». وألح عبدالياسط في عشم: «والنبي مانا ساكت إلا لما تضحك وتفرفش وترقص كمان»... ولكنه لم يضحك ولم يفرفش ولم يرقص، بل صرخ فيه وسبه وقال له: «احترم نفسك»... ثم قال: «اطلع بره!!».

وأقلعت السفينة... وتهادت كالعروس وسط الميناء، ثم انطلقت بكل سرعتها إلى عرض المحيط... وخبت في المياه، وشقت طريقها... وسبحت في الوعاء البلُّوري الأزرق، وتنسم الرجال الهواء البارد ملء صدورهم، ونظروا إلى المياه الزرقاء العميقة الزرقة، وإلى السماء الصافية المرصعة بنتف السحاب فوق صفحتها اللامعة الرائقة... وتضاحك البعض، وثرثر البعض، وشرب البعض الآخر... ولكن مدكور قبطان لم يتغير، ولم يخرج عن صمته، بل هو لم يترك حجرة القيادة الزجاجية الحوائط ولا دقيقة... ومضت ساعة

وساعات، وغربت الشمس... ولما جاء الليل دلف إلى حجرته في صمت، ولم يطلب عبدالباسط، ولم يسأل عنه، ولم يجالسه، ولم يحادثه.

فحادث عبدالباسط نفسه، وحادث الزجاجة، وحادث الرجال، وقال: أهذه هي نتيجة صداقة العمر؟!... تستطيعون أن تقولوا عشر سنوات، أو عشرين، وهو لا يذكر فربما كانت خمسًا وعشرين سنة وأكثر... ثم بعد هذا يقول له: «اطلع بره».

وابتسم الرجال وهم ينظرون خلسة بعضهم إلى البعض، وقال له رجل: «معلش... الدنيا مفيهاش أمان»، وهز عبدالباسط رأسه مصدقًا.. وتركهم ومضى، مضى إلى السطح، وتمسح في حجرة مدكور، واقترب من الباب، وسعل بصوت عال عله يسمعه أو يناديه، ولكن الباب ظل مغلقًا، ولم يسمعه مدكور أو يناده... فهم بأن يقرع الباب، ولكنه عاد من حيث أتى، ووجهه المغضن محتقن... وعقله لا يكاد يصدق.

وفي آخر الليل... بكى، وهطلت الدموع من عينيه كثيرة؛ وأقسم ألا يحدث مدكور بعد ذلك، وألا يحمل له الزجاجة والكأس، وألا يستمع إليه... وأن يتركه وحيدًا كما تركه هو وحيدًا. وأخذ بعد ذلك ينشج كطفل صغير، وانكفأ على المنضدة، وظل يبكي في صمت... ثم نام في مكانه.

وفي اليوم التالي، نسي الرجال حكاية عبدالباسط، بل إنهم نسوا عبدالباسط نفسه.

وفي اليوم التالي، نسي عبدالباسط حكايته، ونسي هو الآخر نفسه.

ذلك أنه في اليوم التالي... كانت العاصفة الرهيبة قد هبت!

ولا أحـد يـدري كيف هبت تلـك العاصفـة، كانوا يعلمون أنها ستهب بعـد ذلـك بأسـبوع، وكانوا يعلمـون أنهم سـيجتازون الخليـج الرهيب بعد ذلك بسـاعات، وكانوا أيضًـا يعلمون أن الاقتراب منـه، وفي تلك العاصفة اللعينة... أمر غير معقول.

وحدث الرجال أنفسـهم، وحدث بعضهم البعض، وتسـاءلوا في دهشة كيـف هبت العاصفة؟ وكيف سـيعبرون الخليج؟... ثم مضوا يعملون وهم يفكرون ويتسـاءلون، والسـفينة تترنـح وتترنح، واسـتيقظ النائمون، وتحفز المسـتيقظون، ووقفوا يرقبون الأرض والسماء والأمواج، وينتظرون بقلوب واجفـة وصولهـم إلى الخليـج... الخليـج الـذي يبتلع له في كل عام سـفينة أو سـفينتين، والذي يحكي الرجال عنه الأسـاطير، ويقول العجائز منهم إنه مسكون بالشياطين.

لم يكـن أحدهم قـد فكر في العاصفـة، وإن كان مدكـور قبطان قد أمضى يومه وليله يحسب حسابها، ولا فكرة في رأسه غيرها.

... كان واقفًا سـاعتها في مكانه من الحجـرة الزجاجية، صامتًا لا يتكلم، السيجارة مدلاة من بين شفتيه، والكأس تتمايل بين أصابعه، وشعره الأبيض مهدل فوق جبينه، وعيناه لا تبرحان الأفق.

وسـاعة أن رأى بـوادر العاصفة مـن بعيد، أيقن أنـه كان على صواب... وأيقـن أنـه كان على حق عندما هم ألا يقلع بالسـفينة وقـت أن قالوا له أنت القائـد، وعليـك أن تقلع بهـا... وأن يقول لهم إن العاصفة وشـيكة الهبوب، وإن اجتياز الخليج أثناءها أمر رهيب. وتردد كثيرًا، وسـاءل نفسه كثيرًا وهو

ينظر إلى العمود الفضي الذي كان يهبط في مجراه الطويل منكمشًا من البرد... وساءل نفسه كثيرًا وهو يرقب المؤشر الذي كان ينوء بحمل الهواء الرهيب القادم من بعيد... ساءل نفسه كثيرًا... أيقلع أم لا؟... وساءل نفسه هل يستطيع أن يجتاز العاصفة؟ ثم ساءل نفسه عن مصير الرجال، وساءل أيضًا نفسه عما سيقولونه عنه لو أنه تردد في الإقلاع بالسفينة!... ووقتها، سأله عبدالباسط عما به، فصمت، وألح عبدالباسط عليه، فكاد أن يخبره بالأمر، ولكنه خجل، وضاحكه عبدالباسط عندما كانت الحيرة تمزق عقله... فصرخ فيه وسبه وقال له: «احترم نفسك».. ثم قال: «اطلع بره».

ومضى النهار وهو يسائل نفسه، وحان الوقت... وأقلع.

وما إن سبحت السفينة في عرض المحيط، حتى نسي كل شيء عدا تلك الفكرة المجنونة التي كانت تنهش عقله وصدره، نسي نفسه، ونسي طعامه، ونسي حتى شرابه، ونسي عبدالباسط، ولم تذق عيناه طعم النوم... وبقي متحفزًا يأكله القلق، ويأكل هو قلقه، وتمر الدقيقة وراء الدقيقة، وتحمل له الدقائق الخوف، وتحمل له الساعات نذر العاصفة.

... ثم هبت العاصفة.

.. كانت السحب السوداء تزحف من الأفق في جحافل لا نهاية لها، جحافل ثقيلة باردة، تسبقها تلك الطلائع الوحشية من الرياح... وتحملها على ظهرها متقدمة نحو السفينة في سرعة رهيبة، ومالت الرياح إلى سطح المحيط، واقتلعت منه أمواجًا كانت تعلو في الهواء كالجبال، وتصنع قممها زبدًا أبيض كالثلج، وتتقوس سفوحها إلى الداخل وتتقوس... ثم تطبق على

السـفينة فتلطمها في قسـوة وعنف، وتتفتت رذاذًا يتناثـر فيملأ الجو، وترتج السفينة وتتمايل تحت قوة الضربات المتلاحقة التي كانت تنهال عليها من كل جانـب... والرجال قـد تناثروا فوق ظهرها وفي داخلهـا ينتظرون، والرجل الواقـف إلى عجلـة الدومـان قد بدأت قدمـاه في الانزلاق مع تمايل السـفينة الشـديد... ومذكور قبطان لا يكف عـن العمل، ولا يكف عن الانثناء فوق الخريطة... ثم البحلقة في الأفق.

ومـع جحافـل السـحاب المحملة بالأمطـار والثلـوج، هبت مـن الأفق جحافـل الظلام تغزو معها الخليج الثائر... وارتفعت السـفينة إلى أعلى فوق قمـة موجـة حملتها فوقهـا وهي تزمجـر وتزحف فوق السـطح المربـد الثائر، وسرعـان ما انحسـرت الموجة وأسرعـت تذوب في الخضـم الهائل، وهوت السـفينة بـكل ثقلها إلى أسـفل، وهـوت معها قلـوب الرجـال واضطربت، وانزلقـت قدم الرجل الواقف أمام عجلـة الدومان، ومالت ذراعاه، ومالت العجلـة، وانحرفت السـفينة وهي تهوي... ثم ارتطمت بالسـطح الرهيب، وفي نفـس اللحظة انقضـت عليها موجة غضبى، وأطبقـت عليها كأنها تريد افتراسها، واهتزت السفينة اهتزازًا شديدًا، وأنَّت جدرانها...

ودوت في داخلها صرخة!

وتصلبـت الـرءوس، وجحظـت العيـون وهي تتجـه كلها نحـو مصدر الصرخة، وأرهفت الآذان، وجاء الصوت من الداخل رهيبًا فزعًا:

«المركب انفتحت...!».

وتنبـه وقتها عبدالباسـط... وضرب جبهته بكفـه، وارتجف قلبه، ورأت عيناه الجسـد السمين القصير والرأس الأشـيب ذا الشعر المهدل فوق الجبهة العريضة وهو يهرول نحو مكان العطب... وأيقن كل شيء... وتلاشى الحزن من نفسـه في لحظة، واحتضنت نظراته جسد صديقه، وارتجفت جفون عينيه كأنهـا تربت على كتفه، ثم هز رأسـه في إشـفاق وخجل كأنـه يقول لصديقه: «حقك عليَّ، أنا فهمت..».

وسـاعتها، كان مدكور ينظـر إلى الجرح الطويل في جانب السـفينة، وهو ينزُّ مياهًا كانت تتدفق بسرعة، وفكر في أن يعود بالسـفينة من حيث أقلعت، واضطرب قلبه، وعوت في رأسه أفكاره السوداء؛ أيعود من حيث أتى ويترك وراءه الأعوام الثلاثين التي قضاها في الانتظار؟... وليقولوا عنه ما يقولون، وليحرمـوه بعـد ذلك، أو ينبـذوه، أو حتى يشـنقوه... وانفرجت شـفتاه في تردد، وكاد أن يصدر أمره، وكاد أن يرجع بالسفينة، واستدار مهرولًا، ورفع عينيـه إلى أعلى، فالتقتا بعيون الرجال الكثـيرة المحيطة به... فتوقف، ونكس رأسه، وجز على أسنانه في غيظ وألم... وقرر ألا يعود.

وتحـدث رجـل، وهمس آخـر... وصرخ ثالث وهو يغلـق بابًا ضخمًا كاد أن يبـتر ذراعـه، وهرول رجـال كثيرون إلى هنـا وإلى هناك، وجـاءوا بحبال وأشرعة، ومراتب، ومضت الدقائق، وظلت المياه تتدفق من جانب السـفينة الممـزق المفغور كفـم وحش يتقيأ حممًا سـائلة... ومالت السـفينة إلى اليمين، وانحسـرت الميـاه عـن أرض العنـبر الصغـير، وانزلقت قدم رجل، فسـقط عـلى الأرض، وارتفعـت موجة عاتية، ثم هوت في صفعـة حادة فوق الجرح الطويل فازداد طولًا واتساعًا، ومالت إلى اليسار، وتدفقت المياه كالسيل من

الفتحة الرهيبة... وحملت معها جسـد الرجـل الملقى فوق الأرض، وقذفت به إلى الحائط الصلد في وحشية... وارتطم الجسد كله بالحائط، ثم هوى فوق الأرض بلا حراك.

وهرول إلى الجسـد رجل ورجلان... وهرول عبدالباسـط نحو صديقه، زاحم هذا، ودفع ذاك، وانحشر بين الأجساد، ثم أصبح وراءه تمامًا... وكاد أن يلتصق به، وكاد أن يربت عليه، ثم سمعه يصدر أمرًا... واندفع بلا وعي ينفذ أمره.

وعلـت المياه داخل العنـبر؛ وغاصت فيها الأقدام، والسـيقان. وأخذت تعلـو وتعلو، وأخـذ الرجال يحاولـون ويحاولون، وأزت في جوف السـفينة أصوات المضخات الهائلة تمتص المياه من العنبر، وزأرت الأمواج وهي تلقي إليه أفواجًا أخرى من المياه وأفواجًا.

ومضت الدقائق... ودوت في السـفينة صرخة أخرى. كانت الأمواج قد مزقـت مكانًا آخر، وتدفقت جيـوش المياه إلى السـفينة دون عائق، وأخذت تسـبح وتتسـلل إلى كل مكان فيها، كانـت تتسرب من الأبـواب والفتحات والشقوق، وأخذت تغمر كل شيء، وأغلق الرجال أبوابًا وأبوابًا، ثم أغلقوا كل الأبواب... دون جدوى!

كانت السـفينة تترنح وتتمايل في شدة، وكانت الأمواج العاتية تزداد عتوًّا وتجبرًا، والرياح تهب سريعة مجنونة، والسـحب أخذت هي الأخرى تعتصر نفسها في غيظ وتلقي إلى المحيط بأفواج تلو أفواج من الأمطار وحبات الثلج التـي أخذت تقفز هنـا وهناك وتتطايـر في الجو، وتذوب في المياه، والسـفينة وسـط كل هـذا تنهال عليهـا الضربات مـن كل جانب، فتتأرجـح وتميل إلى

الأمـام، وتغـوص مقدمتهـا في الميـاه، وتنقـض عليهـا الأمـواج، موجة تلو موجة... وتزحف لتغطي السطح، ثم لتضرب حوائط الحجرة الزجاجية بلا شفقة.

كانت العاصفة مجنونة!

وكان الرجال أكثر جنونًا...

وكانت المياه تتسرب إلى الداخل...

وكانت السفينة تغوص في اليم...

ومضت ساعة... ساعة واحدة.

والعاصفـة تـزداد عنفًا، والسـفينة تـزداد ضعفًـا، ومدكور يـزداد يقظة، عينـاه تنفـذان إلى كل مـكان، وعقلـه يعمـل، ويـداه تعملان... يهـرول إلى داخل السـفينة تارة، ويحكم إغلاق الأبواب بنفسه، ويدير المضخات بأقصى سرعتهـا، ويتوسـل إليهـا في همـس أن تمتـص الميـاه وتمتصها، ثم يهـرول إلى السـطح تـارة، ويرقب العاصفـة في ألم وتحد، ويهرول إلى الحجـرة الزجاجية تارة ثالثـة... وينكفئ فوق البوصلة، وتمتد ذراعاه إلى الدومان... والسـفينة تترنح وتترنح وتتلقى الضربات.

ووهنت الأذرع المفتولة... ودوت في الداخل صرخة ثالثة!

وعصر الذعر قلوب الرجال...

كانت السفينة تغوص في اللجة العارمة بسرعة رهيبة...

وثقبت الآذان اسـتغاثة رجل اقتلعته موجة وحملته في جوفها وهي تزغرد في وحشية، وضاع صوت الرجل وسط الظلام والهول.

ثم دوت صرخة فزعة... «المركب بتغرق»!!

كانت السفينة قد مالت نحو اليمين ميلًا شديدًا وقد حاذى سطحها سطح المياه وأخذت الأمواج تغطيها، وسرى الذعر إلى نفوس الرجال، كل الرجال. فحمل أحدهم طوقًا للنجاة وقفز... واندبت في قلب مدكور قبطان لوعة حارقة، وصرخ فيه أن يعود، وتلاه رجل آخر، وصرخ العجوز مرة ثانية، واندفع فوج من الرجال نحو قارب النجاة... وسرعان ما كان القارب يسبح بهم وسط الظلام والعاصفة... وعصر الألم قلب العجوز، واندفع نحو الرجال الفزعين، يمنع هذا، ويتشبث بذاك، ويقول في لهفة: «المركب مش حاتغرق...»، راح، وجاء، هدد، وحايل، وتوسل، ورجل يقفز وراء آخر، وقوارب النجاة تلقى وسط الأمواج فتحملها هذه إلى بعيد... وهو يصرخ، وعيناه قد جحظتا، وذراعاه قد تشنَّجتا إلى الأمام... وهو واقف عند قمة سلم صغير، تحمل الرياح صرخاته وتبتعد بها دون أن يسمعه أحد، وبح صوته من الصراخ، واستدار مترنحًا ودلف إلى الغرفة الزجاجية... وكاد أن يصعق.

كانت الحجرة خالية تمامًا...!!

وتنبه... كان دوي الآلات قد توقف. وساد السفينة صمت رهيب، وكانت الأمواج تتقاذفها وتحملها مزغردة وسط العاصفة التي كانت تزأر في الخارج.. واستدار نحو الباب، ونظر في جوف الظلام، وبانت له أشباح الرجال وهي تذوب وتختفي، وقفزت إلى ذهنه في لحظة، ثلاثون عامًا طويلة، وتداخل لحم وجهه، واستند بظهره إلى الحائط، وتمايل بشدة مع تمايل السفينة، وصعدت الدموع إلى عينيه، ثم انزلقت فوق وجنتيه واختلطت برذاذ المياه... وامتدت ذراعاه إلى الأمام... وكان يتوسل:

«ارجعـوا.. ارجعوا.. المركب مش حاتغرق، ارجعوا، ارجعوا، أنا قبطان كويس، والنبي أنا قبطان كويس...».

ولطمـت موجة جبـارة جانب السـفينة، فارتجت في عنف، وسـقط فوق الأرض... وسـكن لحظـة، مجـرد لحظـة، هب بعدهـا كالمجنـون، ودلف إلى الحجـرة الزجاجية... ونظر إلى عجلـة الدومان التي كانت تدور يمنة ويسرة بلا رابـط، وملأ الغيظ قلبه، وضاقت عيناه، وهجم على العجلة، وأمسـكها بكلتا يديه، وتشبث بها في قوة، وصرخ بكل قواه:

«المركب مش حاتغرق، مش حاتغرق...».

وامتـدت يـده إلى ذراع الآلات، وحركـه في عنـف كأنه يسـتجدي الآلة الصـماء أن تـدور، وترك الـذراع، وراح يذرع الحجـرة. كان وحيـدًا، وكان يـضرب جبهته بكفـه، وينظر في غيـظ إلى الأمواج في الخارج، وجسـده يهتز ويترنـح كأنه شرب ألف زجاجة، وعوت الأفكار في رأسـه، وعلت الضجة تطبل في كيانه، وعلا صوت الآلات ووصل إلى أذنيه... وتوقف.

ظن أنه يحلم...

وجاء الصوت من جوف السفينة مضغومًا في دوي مكتوم.

فبحلق في الظلام غير مصدق.

واستمر الصوت، واستقامت السفينة قليلًا.

وصرخ...

وهفت في رأسه فكرة...

كانـت مجرد فكرة قفز بعدها كالمجنون نحـو التليفون المعلق على الحائط، ورفع السماعة وألصقها بأذنه، ثم امتدت يده تدير الذراع القصيرة... وجاءه الصوت عبر الأسلاك:

«أيوه.. مدكور قبطان؟».

«عبدالباسط؟!.. عبدالباسط؟!».

«أيوه يا قبطان..».

وارتجفت كل خلية في جسده، وغامت عيناه، وعاد يصرخ من جديد:

«انت مجنون، اطلع يا عبدالباسط، اطلع، المركب بتغرق، اطلع يا عبـ...».

وقاطعه الصوت هادئًا:

«المركب مش حاتغرق يا قبطان، مش حاتغرق. أنا قفلت الأبواب كلها، الميه بتخش دلوقت بسيط قوي، وشغلت الطلمبات كلها.. وبتسحب جامد، والماكينات شغالة... وعندنا سولار كفاية.. و.. و..».

«عبدالباسط. انت زعلان مني؟!..».

«لأ...».

«عبدالباسط.. حقك علي، أصل أنا كنت خايف من الـ...».

«يا قبطان عيب.. داحنا إخوات..».

«عبدالباسط.. انـ.. ت.. حا.. تغر.. ق.. عبد.. الـ..».

«مش عيب تعيط يا قبطان؟!».

«عبدالباسط، مش أنا قبطان كويس؟!».

«إنت أحسن قبطان في الدنيا..».

«وحامشي المركب؟».

«أيوه...».

«وحانوصل؟!».

«لوحدينا وحياة من جمعنا سوا..».

وارتجت السفينة... وسقط مدكور فوق الأرض، وكانت الابتسامة تعلو وجهه وهو ينهض ويختطف حبلًا، ويربط جسده إلى عمود طويل... ويمسك بالعجلة المترنحة، وتستقيم السفينة، وتترقرق دموع في عينيه، وتمتد يده إلى ذراع الآلات، ويطلب، ويلبي عبدالباسط، والعاصفة في الخارج قد ازداد جنونها... وعوت الريح أكثر، وزمجرت، وهبت الأمواج كالوحوش تنقض على السفينة من كل جانب... وتشبثت يداه بعجلة الدومان... ولطمت موجة السفينة، ثم ارتفعت أخرى ولطمتها، فاهتزت، وتمايلت، وتكاثفت السحب، وازداد هطول الأمطار...

■ ■ ■

ومضت الدقائق...

وصنعت الدقائق ساعة... وساعتين...

ومضت الساعات، فأشرق الصباح...

وبزغت من الأفق سفينة ينطلق دخانها في الهواء، وكانت تسبح فوق السطح الرائق الهادئ، وفوقها كان الرجال يعملون في نشاط ومرح عندما أطلق أحدهم صيحة...

والتفتـت العيون... والتقطت صورة شـبح جاثم على سـطح المحيط بلا حراك.

وأصـدر القائـد أوامـره، ودارت السـفينة متجهة نحو الشـبح... وهبط قارب يحمل رجالًا، وأطلقت إشارات وصيحات، ومضت دقائق، ومضت ثلاثون دقيقة... وستون.

وامتدت يد قائد السفينة إلى ورقة والتقطت أصابعه قلمًا، ثم أخذ يكتب، وتسـلمت الورقة يد، وهرولـت قدمان، وامتدت اليد بالورقة فتسـلمتها يد أخرى، وسـقطت عليها عينـان، وسرعان ما أخذت أصابـع اليد تعمل على زر صغـير في حركات سريعـة، ودقات متقطعـة، وسرت الدقات في صاري السـفينة الممتـد نحـو السـماء، وانطلقت منـه في موجات سريعة، وسـبحت الموجـات تدور حـول الأرض، والتقطت آذان صفـير الموجات... وسرعان ما ترجمتها إلى كلمات.

«عثرنا على نفرتيتي. مصابة بعطب شديد. الأمل كبير في سحبها إلى ميناء قريـب. القائد كان مربوطًا إلى عمود إلى عجلة الدومان. مصاب بشـظية من الزجـاج اخترقت القلـب تمامًا. يبدو أنهـا من زجاج حجـرة القيادة المحطم بفعـل العاصفة. على السـطح عثرنا على وقاد في حالة إنهاك شـديد. يبدو أنه كان في حجرة الآلات. جار إسعافه. يهذي باسم مدكور قبطان. وضع تحت العـلاج مباشرة. الآلات متوقفـة منذ فترة وجيزة، السـفينة خاليـة تمامًا من الرجال. أدينا التحية لجثة القائد. محفوظة بثلاجة السفينة. نرجو الإفادة».

خطيبي العزيز زكي أفندي

السيد محمد إسماعيل صابر رجل معتدل في كل شيء، وهو مثلي ومثلك، مؤمن وموحد بالله، يحيا حياته في هدوء، ويرعى في تصرفاته أحكام الدين والمجتمع. لا يطلب من الدنيا سوى الستر، ويؤمن تمامًا بالحكمة القائلة إن حب الناس من حب الله... وهو حقًّا يحب الله ويسعى لحبه ما وسعه السعي إلى ذلك، يسترضيه آناء الليل وأطراف النهار، ويؤدي فروض دينه، ويصلي كل وقت في وقته... وقد يفوته فرض أو اثنان، ويصبح في عنقه دين، سرعان ما يؤديه بفوائده من الركعات الصالحات طالبًا الصفح والغفران.

وهو مثلي ومثلك قانع بما قسم له، يؤمن بأن بعضنا فوق بعض درجات وطبقات، وأن العين لا تعلو على الحاجب... فعرف قدر نفسه، وعرف أنه موظف في الدرجة السابعة بعد خدمة تسع سنوات في دواوين الحكومة... ولقد سعى جهد طاقته حتى علم أنه لم يبق أمامه سوى ألف وستمائة وخمسة وسبعين موظفًا حتى يأتي دوره وينال الدرجة السادسة!!

علـى أن مرتبـه – وإن كان ضئيلًا – فإنه كان يكفيه ويزيد منه ما استطاع أن يدخر به خمسين جنيهًا كاملة، يضعها لـه أبوه في مكان أمين لا يعلم زكي عنه شيئًا!

وزكـي لا يدخـن، ولا يسـهر بعـد العـاشرة مسـاءً بحال مـن الأحوال، فصحتـه عنده غاليـة، وهو مثلي ومثلك في هذا أيضًـا، يؤمن بأن الصحة هي عماد الحياة، وأن السهر والعبث مضر بها.

أقصى ما كان يفعله زكي عندما كان يريد الترويح عن نفسـه، أن يتمشـى قليـلًا عـلى النيـل مقزقـزًا اللـب والترمـس، وقـد يفجـر فيشـتري زجاجـة كوكاكولا!

وكان زكـي ابنًـا بـارًا مطيعًـا، وقـد لا يكون في ذلـك مثـلي أو مثلك! ما مـن مـرة في حياته رفـض طلبًا لأمه أو أبيـه، وما من مرة صنع شـيئًا دون أن يستأذنهما... عندما قال له أبوه: «شرب السـجاير مـضر بالصحة»، لم يقرب في حياته سـيجارة، ومنذ تسـع سـنوات قال لـه أبوه عندما عـين في القاهرة: «خلي بالك يا زكي من الحرام، مفيش في الدنيا أوحش من الحرام». وهز زكي يومها رأسه... وفعلًا، لم يقرب الحرام.

لذلـك... فعندما قالت له أمه: «مش نـاوي تتجوز بأه يا ابني؟!»... رفع زكي حاجبيه دهشـة، وتلعثم واضطرب قلبه بشدة، وزاغت نظراته، وابتسم في خجل كعذراء... ورغم أنه كان في السادسة والعشرين وقتها، فإنه لم يفكر في موضـوع كهـذا إطلاقًا... بل لم يخطـر بباله أنه سـيتزوج ذات يوم... وقد يبدو ذلك غريبًا، ولكن كيف يفكر زكي في أمر لم يفاتحه فيه أحد؟!

حقًّا قد يكون خياله قد شطح يومًا هنا أو هناك، ولكنه كان دائمًا ينسى تلك الشطحات، وكانت تكفي آية صغيرة يتمتم بها لسانه وهو يدفن رأسه في الوسادة، لكي تختفي تلك الخيالات من حياته تمامًا.

وككل الأبناء الطيبين المطيعين، عندما أرسل له أبوه خطابًا يقول له فيه:

«ولدنا العزيز زكي أفندي... تحية طيبة من عند الله العلي القدير وبعد... مرادنا وأملنا أنا والست والدتك، أن تحضر إلينا يوم الخميس القادم لترى العروسة التي اختارتها لك الست والدتك بمعرفتها الخاصة وبعد المعاينة والتأكد من أنها بنت حلال، وإننا لمنتظرينكم بفارغ الصبر والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

«أبوك محمد إسماعيل صابر»

اعتبر زكي هذا الخطاب أمرًا واجب التنفيذ. فشد رحاله يوم الخميس بلا تفكير... وليلتها رأى العروسة لأول مرة في حياته. واضطرب قلبه كثيرًا يومها وتلعثم، ولم يستطع أن يرفع إليها عينيه في البداية ولا في النهاية. واحمر وجهه واضطرب كثيرًا عندما ربتت حماته على كتفه وقالت عنه إنه يشبه القمر... ومر الوقت غريبًا كأنه حلم. وكادت كوبة الشربات التي قدمتها له العروس أن تندلق عليه لولا ستر ربنا...

المهم أن زكي خرج يومها وكأنه لم يدخل، وعندما سأله أبوه عن رأيه في العروسة ابتسم وتلعثم وتمتم:

«أمرك... اللي تقوله ماشي»... وانتهى الأمر عند صاحب الأمر الذي هو والده.

وفي الأسـبوع التالي مكث عشر دقائق كاملة، مرت كأنها عشر سنوات، وهـو يحاول إدخـال الدبلـة في إصبع زينات، وإلباسـها «الإسـورة» الذهبية التـي اشـترتها أمه بعشرين جنيهًا كاملة حسـب الاتفاق على الشـبكة، والتي خصمهـا أبـوه من الخمسـين جنيهًا التـي له عنـده... وأضحك عليـه ليلتها الجميع، وضحك هو كثيرًا على خيبته... والغريب، الذي تعجب له فيما بعد، أن زينات أدخلت الدبلة في إصبعه بسـهولة، ولم تسـتغرق سوى جزء صغير من الدقيقة!

ومنـذ ذلك اليوم وزكي سـعيد حقًّا... أصبح يسـافر كل يـوم خميس إلى البلدة ليزور زينات، كان ذلك في البداية، ولكن أمه في الخميس الرابع زامت وهي تقول له: «على إيه يا بني المصاريف دي كلها.. كفاية كل شـهر مرة»... وهـز زكي رأسـه واقتنع برأي أمـه... ولكن أبوه بعد الشـهر الثـاني قال له: «مفيش لزوم تيجي غير في المواسم»... وطبعًا كان أبوه على حق!!

وقد يكون ذلك قد ضايق زكي بعض الشيء، قد يكون قد حرك في صدره كوامن المعصية وارتكاب الكبيرة بمخالفة الوالدين.

ولكن كل ذلك كان كفقاعات صغيرة لم تلبث أن فجرتها ريح الإخلاص، فذابت في زوابع إيمانه وقلبه التقي.

ولكـن أبـاه لم يمنعه من التفكـير في زينات... وكان التفكـير نافذة لذيذة حلوة، أطل منها على عالم غريب... عالم جعله لأول مرة يفكر في الحب.

ورغم أن زكي لم ير زينات سوى ست أو سبع مرات، ورغم أنه لم يجلس معها منفردًا ولا مرة، فإنه أحبها فعلًا بكل قلبه ووجدانه.

والحقيقـة أن حياته منذ أن خطب زينات، انقلبت رأسًـا على عقب، ذلك أنه وجد نفسـه فجـأة موفور النشـاط والحيوية، أصبح لا ينـام قبل منتصف الليـل، وإن كان يـأوي إلى الفراش في العاشرة، على الأكثـر... والواقع أنه لم يـدر تمامًـا ما الذي كان يفكر فيه، كان يتخيل زينـات وحديثه معها وحديثها معـه، وصوتها الرنان ذا البحة التي تهز أوتـار الركب... ذلك الصوت الذي كان ينفذ إلى قلبه، لم يفارقه إطلاقًا... وطالما تصورها فاتنة رائعة الحسن، طالما تخيل وجسَّـد وصنع وخلق أشـياء وأشـياء، كانت كلها تبدو تافهة وعاجزة عندما يجلس مع زينات.

وكان للأمر الذي صدر له من أبيه بألا يسـافر إلا في المواسـم أشـد الأثر، فلقد وجد نفسه ذات يوم وقد تألبت عليه أفكاره، يقدم على مغامرة جنونية، وجـد نفسـه يكتب لها خطابًا... ظل يكتب فيه سـت سـاعات كاملة... وفي النهاية رأى أنه لم يكتب شيئًا على الإطلاق!

كان كلـما كتب شـيئًا بدا لـه تافهًا لا قيمـة له... كتب لها يـا حبيبتي ونور عينـي ومهجة فـؤادي، ولكنها لم تعجبـه ووجد أنها كلـمات مبتذلة... وبعد ذلـك لم يسـتطع أن يخط كلمـة، لم يكن يدري ماذا يقول لها، بـل ماذا يريد أن يقول لها بالضبط!

وأضنـاه الأمـر طويـلًا، وفكـر فيه أيامًـا، حتى وجـد الحل فجـأة ودون مقدمات.

ولا يدري ما الذي جعله يقول لمحسـن زميله ما قاله في ذلك الصباح، لم يكـن لـه أصدقاء... فلقد كان يعلم أن الوحدة خير من جليس السـوء، وهو

قـد اكتشـف منـذ زمن طويل أن كل الجلسـاء جلسـاء سـوء. ولكنه في ذلك اليوم كان يشعر بأن الأمر أكبر من أن يحتمله وحده، وبلا تفكير، وجد نفسه يحكـي لمحسـن قصة الخطاب الذي يـؤرق باله... واكتشـف زكي لأول مرة منذ سـنوات، أن محسن شهم، وأنه رجل ولا كل الرجال. ودهش وهو يرى زميلـه يجلس ببسـاطة ويكتب خطابًا طويلًا عريضًا قدمـه لزكي وهو يقول: «خـد يا عم حـلال عليـك...». وكان زكي يعلـم أن هذا حـلال عليه حقًّا، أليست زينات خطيبته؟!

وفي فورة حماسـه وانفعاله... وضع فوق الخطاب ورقة البوستة، وعندما ألقاه في صندوق البريد، شـعر لأول مرة من زمـن طويل بالراحة تغزو كيانه كلـه. ولكنه ليلتها لم يسـتطع النوم إطلاقًا، فلقد كان عليه أن يعد السـاعات والدقائق في انتظار الرد.

وبعد ثلاثة أيام وصله خطاب من زينات تقول فيه: «خطيبي العزيز الأستاذ زكـي أفندي محمـد... دام لنا. بعد التحية والسـلام والسـؤال عن صحتكم الغاليـة، أخبركـم بأنه قد وصلنـي عزيز خطابكم، وأحمد الله على سـلامتكم وصحتكـم الغاليـة، وبعـد... فإنني أرجـو منك ألا ترسـل لي خطابات بهذا الشـكل لأجـل أن بابا حمش وكذلك ماما، وأحمد الله أنني تسـلمت الخطاب من البوسـطجي ولم يكن أحد في البيت، وختامًا سـلامًا ويرعاكم الله من كل سوء... خطيبتكم المخلصة».

«زينات أحمد علي».

ولم يعـرف زكي ما الذي يفعله حقًّا عندما وصله الخطاب... كان سروره كبـيرًا حتـى إن أصابعه كانت ترتعد وهـو يفض الغـلاف... وأخذت عيناه تلتهمان الكلمات التهامًا، ولكنه لم يفهم شيئًا في البداية، ولما أخذت نفسه تهدأ رويـدًا رويـدًا، قرأ الخطاب مرة أخـرى، وثالثة ورابعة... وعـاشرة، وانتابته حيرة رهيبة، ولكنه عاد فابتسم في رضاء، فلقد اتضح له أن أمه عرفت كيف تختار له بنتًا مؤدبة وابنة ناس طيبين حقًّا، ولذلك لم تقبل منه هذا الغزل الذي كتب لها.

وما كاد يصل إلى هذا التفسير حتى أحس راحة غريبة للغاية، ونام ليلتها ملء جفونه.

ولكنه في الصباح وجد نفسـه أمام مشـكلة محيرة، ذلك أنه أراد أن يكتب لهـا خطابًا آخر... الخاطر العربيد أخـذ بمجامع قلبه، والمغامرة مهما ارتجفت لها القلوب لذيذة... وأمسـك زكي القلم وكتب... «خطيبتنا العزيزة الآنسة المبجلة زينات هانم أحمد علي، تحية وسلامًا من عند الله العلي القدير وبعد...» وتوقـف القلـم في يـده، وعبثًا حـاول زكي أن يخـط كلمة بعد ذلـك، وانتابه الضيق، ولم يجد مفرًّا في النهاية من أن يلتجئ إلى محسن من جديد.

وعندمـا أنَّـب محسـن على ما كتبـه في الخطاب السـابق، ضحـك هذا منه وأفهمـه أن هـذه أمـور بنـات، وأنها لا تعني حقًّـا ما تقول، وأنـه لا يجب أن يتراجع أو يتوقف عن إرسال الخطابات... وقال محسن في النهاية:

«يا أخي هي مش خطيبتك؟».

وقال زكي مؤمنًا:

«آه...».

«ومش حاتبقى مراتك بسنة الله ورسوله؟».

ورد زكي بحماس:

«آه».

«طيب خلاص فيها إيه بقى! اسمع كلامي يا عبيط... اسأل مجرب».

ثلاثـة أيـام وهـو واقـع في هـذه الحيـرة، ثلاثة أيام لا يكاد ينام أو يأكل أو يـشرب، امتصته المشـكلة تمامًا... ولم يجرؤ على أن يفاتـح أحدًا... وأخيرًا سمع كلام محسن وذهب إليه يطلب معونته.

المهـم أن محسـن كتـب لـه خطابًا آخر أشـد غرامًـا مـن الأول، ورغم أن الخطاب قد أرضاه حقًّا، فإنه تضايق مما فيه من كلام لا يصح أن يعرفه سوى زوج وزوجتـه... ولكنـه عندما ناقش الأمر، وجد أنـه من الممكن أن يحدث هذا ما دام أن نيته طيبة وسـليمة... أليسـت الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى؟!

الغريـب الـذي جعله - ولأول مـرة في حياته - يرقـص طربًا، أن زينات أرسلت له ردًّا تقول فيه... «ما دمت مصممًا على أن ترسل هذه الخطابات فلا ترسلها إلى البيت، بل أرسلها إلى صديقتي وأختي الوفية سهام السيد عبد الله المدرسة بمدرسة المعلمات الابتدائية..».

وكانت مغامرة لذيذة حقًّا، وكاد يطير من الفرح وهو يقبل محسن ويخبره بالأمر كله، وابتسم له محسن يومها وقال: «مش قلت لك...».

زكي بعد هذا كان في غاية السعادة... أصبح محسن يكتب كل يوم خطابًا، يضع عليه زكي ورقة البوستة ويرسلها باسم «الآنسة المحترمة المبجلة سهام السيد عبد الله المدرسة بمدرسة المعلمات الابتدائية... ومنها ليد الآنسة زينات..».

ومرت الأيام كالعسل، كل يوم يحمل سعادة جديدة، ويوم أن كتب محسن في بداية أحد الخطابات «حبيبتي زوزو»، رفض زكي أن يصل الأمر إلى هذا الحد الفاحش من التدليل والإباحية... ولكن نظرة واحدة من عيني محسن الماكرتين أقنعته بأن يوغل في المغامرة حتى آخرها... ولكنه عندما تسلم خطابها التالي وقرأ فيه... «لما أنت بتكتب كلام بالشكل ده يا عفريت، أمال عامل نفسك خام ليه... يا لهوي من الرجالة...»، عندما قرأ تلك الكلمات، بلغت سعادته القمة، وكاد من فرط سروره أن يأكل الخطاب أكلًا، وبالذات كلمة يا عفريت اللذيذة هذه... وزادت سعادته عندما قرأ في نهاية الخطاب، «حبيبتك المخلصة إلى الأبد.. زوزو..»، وكان ذلك فوق كل ما تصور من أحلام، وظل يحتضن الخطاب طيلة اليوم.. ونام وهو يضمه إلى صدره.

ومرت الأيام كثيرة، ما إن يتسلم خطابها ويقرأه حتى يعطيه لمحسن ليرد عليه ردًّا مناسبًا... وبدأ يعيش حياة أخرى، حياة حافلة بالمباهج والملذات، ولكنها على أية حال مباهج وملذات لم تتعد ذهنه وخياله وجدران رأسه الأربع.

ورغم أن زكي أفندي محمد كان مؤمنًا بالقضاء والقدر، فإنه كاد أن يجن عندما انقطعت فجأة خطابات زينات، وأصبح يستكتب محسن كل

يـوم خطابًـا، وفي أحيـان كثيرة خطابـين... وضايقه أن محسـن لم يعد يرحب بالفكـرة، وأصبـح يتثاقل ويتعلل، ولكنه كان يلح عليه سـاعات وسـاعات حتى يسترضيه.

وكاد أن يجـن أكثـر عندما وصله خطـاب من والده يقول لـه فيه: «ولدنا العزيز زكي أفندي، تحية مباركة من عند الله العلي القدير وبعد... نفيدكم علمًا بأننا نحمل لكم أخبارًا لا تسر عدو ولا حبيب بخصوص خطيبتكم السابقة زينات وأهلها، ونرجو منكم الحضور يوم الخميس والسلام ختام...».

«أبوك محمد إسماعيل صابر».

وطـار عقل زكـي... ووقع في حيرة أليمـة ألزمته الصلاة حتـى جاء يوم الخميس، وطار إلى البلد.

ورغم أنه عاد في اليوم التالي إلى القاهرة، وقد خلع الدبلة واسترد الشبكة. فإنه لم يستطع أن يفهم سبب ما حدث... والذي لم يكن له فيه يد.

ومـا إن سـمع ثورة أبيه وأمه، حتى اقتنع بأن زينـات لا تصلح... وما إن قال له أبوه إن أهل زينات طلبوا تأجيل الزفاف وعقد القران عن الموعد الذي حدد من قبل، والذي لم يكن زكي يعلم عنه شـيئًا... وإن والده أصر على أن يعقـد القـران في الموعد المحدد بالضبـط، وإن أهل البنت تمسـكوا ورفضوا، وكلمـة من هنـا وكلمة من هنـاك، ودخلت البنت مقصوفـة الرقبة وخلعت الدبلة من إصبعها و«الإسـورة» الذهبية من معصمها ووضعتها أمام الرجل وهي تقول:

«بصراحة دي حجة... أنا مش عاوزة ابنك».

ما إن سمع زكي كل هذا، وما إن وصل أبوه إلى هذا الحد من الحديث، حتى كانت دهشته قد بلغت أقصاها... وما كاد يفتح فمه حتى أغلقه من جديد... فلقد كان والداه يتناقشان في أمر العروسة الجديدة، كان أبوه يقترح أن يزوجه من فاطمة ابنة الحاج سيد، وكانت أمه تصر على أن سميحة ابنة الست جمالات أحسن وأفضل ألف مرة... وعندما سألاه أيهما يختار، نهض من مكانه وهو يقول:

«اللي تختاروه انتم!».

وقد ظل زكي فترة طويلة متأثرًا بما حدث، ولكنه كان - والحق يقال - مؤمنًا أشد الإيمان، والمؤمن يعلم أن كل شيء قسمة ونصيب... وسرعان ما طردت الآيات والركعات حزنه، وعاد إليه إيمانه واطمئنانه، خاصة عندما رأى سميحة خطيبته الجديدة، وتخيلها، ووجدها أحلى من خياله، وأحبها، وذهب إليها كل خميس، ثم كل أول شهر، ثم انقطع للذهاب في المواسم فقط... وقد أخذ خياله يعربد أخيرًا، وفكر في المغامرة... وأمسك القلم ليكتب لها خطابًا.

ولقد اشتد إيمانه بالقسمة والنصيب عندما رأى محسن ذات يوم يسير في الطريق وقد تعلقت زينات بذراعه... وانتابته وقتها رعدة سرت في كل جسده، ثم دهشة بالغة... وذهل وهو يبحلق فيهما للحظات... ولكنه سرعان ما عاد إلى نفسه - كأي مؤمن شديد الإيمان - ومصمص بشفتيه عجبًا لتصاريف القدر... وهمس لنفسه وهو يمضي في طريقه مطمئن النفس راضي البال:

«يا سلام... إيش جاب لجاب... صحيح، كل شيء قسمة ونصيب!!».

كلمة

لَعْلَعَ الراديـو وغنى ورقص وتحدث وأذن العصر والمغرب والعشـاء ثم قرأ قرآنًا، وراح حســن الجرسـون مئات المرات وجـاء مئات المرات، وخرج مـن المقهى عشرات ودخل إليها عـشرات، وفتحت طاولة وأغلقت أخرى، وأزيـح كـرسي ووقع آخـر، وصرخ زبون، ونادى حسـن بصـوت كالجرس الذي لا يصدأ... طوال اليوم وهو ينادي وينادي، من الصباح حتى منتصف الليل، وكل شيء كما هو... الحياة في مقهى «العهد الجديد» تسير، والماركات حمـراء وخضراء وصفراء تطرقع وترن فـوق الرخام، ويد المعلم عبداللطيف تمتد وتلقي بها في الثقب المسـتطيل الذي يتوسـط البنك الجالس هو وراءه... والدنيا تدور، الشـمس تدور من الـشرق إلى الغرب، والأرض تدور حولها، ووابـور الجاز يدور دون انقطاع، والماء المغلي يـدور في الأكواب على الزبائن مصبوغًا بالشـاي والقرفة والجنزبيل واللبن أيضًا، والجوزة تقرقع، والشيشة هي الأخرى تقرقع، والمعلم غائب عن هذا كله، غائب تمامًا عن كل شيء.

ولو عرف الناس المجتمعون في مقهاه والذين ينادونه باحترام كبير قائلين لـه: «يا معلم»، ولـو عرف الصنايعية الذين يعملون عنـده والذين بيده قطع

عيشـهم أو وصلـه، لو عـرف الناس مـا الذي يشـغله ويبعده عـن الدنيا.. . لضحكوا عليه.

والمعلم يعرف هذا تمامًا... ولذلك فقد ألقى فوق وجهه تكشيرة تبعد عنه المتطلعـين إليه من الزبائن والأصدقاء، ولكن سرعان ما أصبحت التكشـيرة حقيقية، والغم والغضب جدًّا في جد، ليس فيه اصطناع ولا تصنع.

سمع حسن الجرسون يقول للزبائن إن المعلم غضبان، وإنه طرد ابنه زكي منذ العصر وأمره بأن يذهب إلى البيت، ولا يدري أحد السبب، وسمع أيضًا الزبائن يعلقون بصوت مسموع أن كل العيال على هذا الحال، وآخرون سبوا العيال وقلة أدبهم، وقالوا إن الرجل لا يجب أن يحرق دمه بهذا الشكل.

الجرنـال في يـده محشـوًّا بالكلـمات، والكلمات كثـيرة كثيرة كأنهـا النمل، تنتـشر هنا وهناك فـوق الصفحات الكبيرة الواسـعة، تحمل معاني وتتحدث عن أشياء يتمنى المعلم عبداللطيف أن يعرفها.

تنهـد وطلب شـايًا، ثـم زفر وطلب بعـده جوزة، ثم سـعل وطلب قهوة سـادة، وجلـس يبحلق في الورقة الصغـيرة البيضاء التـي أخفاها عن الناس وراء الجرنـال... ويفلـت الزمـام منـه مرة، وتتحرك شـفتاه في بـطء، وتفتح ثـم تنطبـق ثـم تتسـع... وعينـاه تخترقانها في غيظ وشـغف واضطـراب، ثم ينتبـه فجـأة، وترتفع عيناه لتتجـولا في المقهى وتتفحصا الوجـوه، ويعود بهما مـن جديد، مضطربًـا حائرًا يبحلق في كلمة، كلمة واحـدة تمنى لو لم يكن لها وجود.

سب الأمية ومحو الأمية واليوم الذي صغر فيه عقله إلى هذا الحد.

والحكاية لا يريد المعلم عبداللطيف أن يذكرها، فهي لعب عيال في لعب عيال، وأخذ يردد بين الحين والحين بينه وبين نفسه: «بعد ما شاب ودوه الكتاب!!».

لا يريد أن يذكر شيئًا لا يريد أن يذكر أنها طلعت في رأسه فجأة وبلا مقدمات، فذهب إلى المدرسة، ووجد هناك رجالًا كبارًا مثله، ووجد أسطوات يملأون العين، وكلهم جالسون في «نحو الأمية»، تلاحق عيونهم الخطوط التي كان يرسمها الأفندي فوق السبورة السوداء بالطباشير الأبيض، ثم تعلو أصواتهم الخشنة الغليظة، وتهتز شواربهم الكثة الرمادية وهم يرددون كالعيال وراء الأفندي... ألف... ب... ت... ث... في نغمات ممطوطة طويلة لذيذة.

كتم يومها المعلم عبداللطيف ضحكة ملأت صدره وتمددت فيه بقوة، وانتفخ وجهه الأحمر، وتقلصت شفتاه، ودمعت عيناه وهو يرقب الوجوه من حوله كبيرة وعجوزة، وقد اكتست بالجد، وأخذت الحناجر الغليظة تردد الحروف وراء الأفندي العيل.

ضحك يومها المعلم عبداللطيف، ولكنه أحس سرورًا غريبًا، سرورًا تحول إلى شغف، ثم حماس وارتفع صوته فوق كل الأصوات، وانتبهت عيناه لكل حرف ولم تفته حصة واحدة... بل تحمس وعزم الأفندي مرة على الشاي، واحترمه تمامًا وقدم له الشاي بنفسه في فنجان لا في كوب، وقام بالواجب خير قيام، وأخذ يردد... من علمني حرفًا صرت له عبدًا.

ومـا لنا نحن وهـذا الكلام الفـارغ. الحق ليس على أحـد، الحق عليه هو الـذي تـرك لعقله الصغير العنـان وذهب ليتعلـم القراءة والكتابـة... وماذا سيفعل بها؟!

الحق عليه هو الذي سمع كلامهم عندما قالوا له:

«روح يا معلم نحو الأمية، ومش حاتخس حاجة».

وعـوج المعلـم الطربـوش ولبس القفطـان الجوخ المعتبر، ومسـح الحذاء حتى أصبح كالمراية وذهب ساخرًا، وخرج شغوفًا.

الولـد زكـي ابنه فك الخط منـذ عامين... يروح إلى المدرسـة ويجيء وهو محمـل بالكتـب، وجاءت شـهادته ليس بهـا ولا كحكة حمـراء، والولـد نبيه ويفهمهـا وهـي طائـرة. فهو لم يـأتِ بشيء من الخـارج، وابن الـوز عوام كما يقولون.

ولكـن هذا غير مهـم... المهم هو ما حدث في عصر ذلك اليوم، بل وقبل ذلك اليوم أيضًا، وهو لا يزال غاضبًا من قلة أدب هذا الولد، وهو يقسم بينه وبين نفسـه أن يخرجه من المدرسـة، وأن يلقي به في المقهـى ليتمرمط ويدوخ الدوخات السبع التي داخها هو حتى استطاع أن يكون له ذلك الحُقُّ الصغير الذي يضمن له لقمة العيش، وهو كل رأس ماله في الدنيا.

بعد ما شـاب ذهبوا به إلى الكتـاب. وهو الذي عليه الحق ولا أحد غيره، هو المحقوق من طقطق لسلام عليكم وليس في الدنيا أحد محقوق غيره.

لا يريـد أن يتذكر شـيئًا، فكل شيء راح لحالـه حتى «أ... ب... ت» التي حفظهـا وتعب فيها، وسـهر الليل عليهـا حتى صمها عن ظهـر قلب، حتى هـذه راحت لحالها وهـي لعبة وانقضت... وحتى الخط الذي فكه بعد ذلك، والكلمات الكبيرة المزركشـة في الكتاب الذي اشـتراه منذ شـهور، وقرأ فيه، زرع، رزق، درس، وكلمات كثيرة أخرى ولعب عيال لا أول له ولا آخر.

طلـب المعلم شـايًا جديدًا وشربه، وطلب صندوق سـجائر، واسـتغرب حسن الجرسون لأنه لا يدخن، وصرخ هو فيه أن ينفذ طلبه دون استغراب، ودارت عينـاه ووقعتا فوق الورقـة الصغيرة البيضاء التي تحوي سـبب الغم كله، وتبلبلت عيناه، وعادتا تسبحان فوق صفحة الجرنال التي تحوي كلمات كجيوش النمل مرصوصة في طوابير وراء طوابير لا أول لها ولا آخر.

كلمـة... كلمـة بنت سـتين كلـب، تدوخه وهـو الذي طلـع الأول على الفصـل كلـه؟... الفصل الذي يضم أربعين شـحطًا عمـر أصغرهم ثلاثون عامًـا!... كلمـة كهـذه تدوخه وهو الذي قـال له الأفندي: «شـاطر يا معلم عبداللطيف».

ويومهـا ازداد سروره إلى حـد كبير، تمامًا كالعيل الصغـير عندما يقول له الأفندي إنه شاطر، يومها اختلس النظر إلى كتب ابنه لأول مرة في حياته، ثم انتفخ ووضع ساقًا فوق ساق وقال بوقار:

«عامل إيه يا واد في المدرسة؟».

فقال الولد على الفور:

«وانت عامل إيه يا بابا؟!».

وصمـت عبداللطيـف تمامًا، ورغم أنه أحس بالغضب يغزو رأسـه، فإنه صهين وقال ببرود وتؤدة وكأنما الأمر لا يعنيه:

«طلعت الأول...».

فرد الولد بهدوء أكثر:

«وأنا كمان!».

الحـق عليـه هـو الذي صغـر بعقلـه وتحمل كل هـذا واسـتمر يذهب إلى المدرسـة، ولكنـه والحـق يقـال كان يحس انبسـاطًا وفخـرًا كلما تقـدم وقرأ كلـمات جديـدة... وكلما وقف أيضًا في وسـط الفصل يقـرأ... «ذهب محمد إلى الحقـل»... أو أخرجه الأفندي ليكتب على السـبورة، لقد كان أشـطرهم جميعًـا، وكانوا هم يحسـدونه، ويقولـون إن الأفندي يجلس عنـده في المقهى، ولكنهم رجال شابوا وخطرفوا، فلم يعبأ بهم وانكب على دروسه، لقد كانوا يغتاظون منه لأنهم كانوا يخطئون كثيرًا، وكان هو يرفع إصبعه الغليظ الخشن ويقول في سرعة: «أنا يا افندي».

لعـب عيال... لا يخـرج الأمر عن هذا إطلاقًا. ولـن يذهب عبداللطيف بعد اليوم إلى المدرسـة، ولن يجهد عينيه ولن يجعل نفسـه سـخرية ابنه... بل سيخرجه من المدرسة ويلقي به في السوق ليصبح رجلًا وينفع نفسه.

والحكاية بسيطة للغاية...

الولـد جـاء عصر اليـوم إلى المقهى وأمسـك بالجرنـال الـذي كان المعلم يشـتريه كل يوم منذ أن طلع الأول على الفصـل. وحكاية الجرنال هذه أيضًا

حكاية سخيفة، لقد كان عبداللطيف يحمله معه في غدواته وروحاته، وكان أحيانًا يحاول أن يقرأ فيه، ويعافر، وتسره الكلمات الكبيرة المكتوبة بالأحمر، وتضايقه الكلمات الصغيرة كالنمنمة، ولكنه كان يقرأ كلمة ويترك أخرى وينط ثالثة، وكله تمرين ومذاكرة... حقًّا كان البعض يتغامز عليه ويقولون له: «إيه الأخبار»، ولكنه كان يعلم أنهم يغيرون منه، فكان يشير إلى الراديو ويقول لهم:

«جهلة وطرش كمان، ما عندكم راديو..».

وهو على استعداد أن يتحمل هؤلاء، ولكنه ليس على استعداد أن يتحمل قلة أدب ابنه عليه. لا. لن يحدث هذا!

والذي حدث أن المعلم عبداللطيف سأل ابنه عما يفعله في المدرسة وقال له:

«خدتو لحد فين في العربي؟».

فابتسم ابن الكلب بسخرية وقال له شيئًا لم يفهمه، ولكنه هز رأسه ببطء ووقار العليم الخبير وقال:

«بس؟!».

وأمسك الولد بعدها بورقة بيضاء وسحب القلم من الدرج، ثم كتب شيئًا وهو يبتسم في سخرية وقلة أدب، وقدمها لأبيه وهو يقول:

«تعرف تقرا دي يا بابا؟».

نظر المعلم إلى الورقة، ورأى طابورًا طويلًا من الحروف، كل منها يمسك بذيل الآخر كالعيال الذين يلعبون في الحارة «يا بابور الساعة اتناشر». ولكنه نطق الحرف الأول، ثم نطق الثاني، ثم توقف ولضم الحرفين ببعض وقفز بسرعة إلى الحرف الثالث حتى لا ينسى، وكاد أن ينغمر تمامًا في المذاكرة وينسى ابنه لولا أنه سمع ضحكته التي كان يحاول أن يكتمها بكفه... واشتعل الغضب فجأة في صدره، وفارت دماؤه، وقفز إلى ذهنه القديم والجديد، وانطلق الشرر من عينيه والسباب من فمه:

«انت بتمتحني يا واد؟».

وحصل بعدها ما حصل، وجرى الولد إلى البيت خائفًا مذعورًا، وجلس المعلم عبداللطيف ينظر إلى الكلمة السخيفة في غضب، فقد كانت طويلة كقطار السكة الحديد حقًّا.

والليل يوغل، والراديو لا يزال يلعلع، وصوت الطاولة بدا ضعيفًا، والجوزة لم تعد تكركر ولا تقرقع، وحسن الجرسون ينادي ببطء وبلا حماس، وبدأ كل شيء يهمد وينهج ويتثاءب، حتى الراديو كان وكأنه أحس بالتعب قبل الموعد، فجمع حفنة من الأغاني ووضعها كلها في الماكينة لتدور وتسرسع وتدوش الدماغ.

ودقت الساعة، وقال حسن: «نشطب يا معلم؟»... وأفاق عبداللطيف ثم هز رأسه وعاد إلى الكلمة الملعونة من جديد.

وأحس بالغيظ يملؤه، وقرأ الحرف الأول، ثم خطر له خاطر... فأخرج كراسة الواجب من درج البنك الصغير الجالس إليه، ثم امتدت يده تحمل

القلم وتبلله بطرف لسانه، وفرد الكراسة أمامه، وعوج رأسه إلى اليسار، ثم استعدل عند أول الصفحة، وكتب الحرف الأول كبيرًا واضحًا، وردده في سره: «قاف فتحة قا...»، ثم نطق: «قا».

وعندما كتب الحرف الثاني، كانت الأنوار في الخارج قد انطفأت، والمقهى قد خلا تمامًا من الرجال، والمقاعد قد تكدست كلها فوق بعضها، والوابور قد كف عن الزن، والراديو صمت تمامًا، وصفير حاد في أذنيه يواصل موكب الضجة الذي استمر طوال اليوم.

وترك المعلم عبداللطيف المقهى وراء ظهره، وفي يده الكراسة والورقة والجريدة، وقد أطبقت أصابعه عليها جيدًا، وصدره يضيق ويغلي بما فيه، ويقترب من عمود النور، ويفرد الورقة الصغيرة بأصابعه، ثم يزم شفتيه، ويطوي الورقة ويعاود السير من جديد.

وعندما وصل إلى البيت، كان الليل قد انتصف منذ برهة، وكان قد صمم على أمر ما... ورأى زوجته تجلس منكمشة كالكرنبة، عيناها تتضرعان إليه ألف تضرع وتضرع، وهمست له بالتحية فلم يرد عليها، ودلف إلى حجرة النوم وجلس على مقعد بجوار الفرش، وكانت هي في ذيله تحمل المصباح الصغير الذي اسود عنق زجاجته، ثم وضعته فوق البوريه ذي المرآة الكبيرة وقالت بصوت منكسر:

«أحضر لك العشا يابو زكي؟».

كان أبو زكي يفكر في حيلة ينفذ بها ما يريد، فتنحنح ثم قال بصوت صارم وقد اكتسى وجهه بقناع غاضب:

«هم العيال نامو؟!».

«والنبـي يا خويا من بـدري، ده حتى زكي فضل يعيط لمـا اتفلق، ياخويا هو مقصدوش».

وبدأ المعلم ينفذ خطته، فصوب إليها نظرة نارية وقال في اقتضاب:

«هاتي الطبلية هنا وسيبيني أعمل الحساب...».

استدارت أم زكي وخرجت، بينما كان المعلم يستعد للنزال. أخرج من جيبه كيس النقود، وجلس فوق الشلتة بعد أن دس تحتها الكراسة والورقة والقلم، وخلع طربوشه، وألقى بالحذاء تحت الفراش، وشمر أكمامه، وعادت زوجته ووضعت الطبلية أمامه، فألقى فوقها بكيس النقود وأخرج منه بضعة جنيهات... وقالت أم زكي:

«أعمل لك شاي؟».

«لأ...».

قالها في صوت حاد، وخرجت المرأة بعد أن أغلقت الباب وراءها، وسرعان ما أزاح عبداللطيف النقود من أمامه، وامتدت يده تحت الشلتة، وأخرج الكراسة، ثم هبط بالمصباح ووضعه أمامه، وضيق عينيه في تحد، ونظر إلى الكلمة الطويلة الملتوية كالثعبان... واضطرب قلبه.

همس بعدها قائلًا وهو يفتح الكراسة وينظر إلى الحرفين المكتوبين بخطه، كبيرين جميلين... أجمل من خط ابنه بكثير:

«قاف فتحة قا، سين فتحة سا.. قاسا...».

ثم نظر إلى الكلمة وأخذ يكتب الحرف الثالث ويحسن فيه ويلضمه في سابقه وهو يردد: «قاسا، قاسا»، ثم توقف وقال مسرعًا:

«طا فتحة طا... قاساطا...».

وما كاد المعلم ينطق الحروف الثلاثة ملضومة، حتى أحس كأن هناك شيئًا في الورقة الملقاة أمامه، فانحنى نحوها وقد غرق في تفكيره، لا بد أنه نسي شيئًا هامًّا.

خيل إليه بعد فترة أن الكلمة تخرج له لسانها، وازداد غيظه، ونظر إليها بتحد، وأشعل سيجارة ونفث دخانها، ثم انكب من جديد يكتب الكلمة من الأول وهو يفكر في عمق، لا بد أن هناك شيئًا ما.

وامتدت يده إلى درج البوريه، وأخرج الكتاب الذي يذاكر فيه، ثم أخذ يتصفحه صفحة وراء أخرى عله يجد فيه شيئًا يعينه، ومضت الصفحات التي ذاكرها لينة حلوة طيبة، ثم بدأ الأمر يتعقد شيئًا فشيئًا، وأخذت الكلمات تصبح نظيفة رائقة بعد أن كانت ضخمة مزركشة... وفجأة، خبط بكفه فوق جبهته وابتسم.

بعد فترة كان المعلم عبداللطيف ينطق الحروف من جديد:

«قاسا، قوسو، قي سي، ق س، قسط...».

والوقت يمر، وهو غارق تمامًا، وذبالة المصباح تخبو، وصندوق السجائر قد أصبح فارغًا، وضوء النهار يتسرب. وعيناه مفتوحتان، وذهنه أصبح وكأنه قد طلي بمعدن براق، وجسده كله في نشوة وتعب، وفي عقله عمليات

غريبة معقدة لم يكن يحلم بها، وأخذ يكتب أمامه علامات التشكيل، الفتحة والضمة والكسرة والشدة والسكون، ثم أخذ يجرب، ينطق ويكتب ويفكر يقوده إلهام غريب ونغم للكلمة لا يدري مصدره... والكلمة تتكسر حروفها تحت ضربات ذهنه حرفًا وراء حرف، وعندما نطق المعلم:

«قسطنطين».

أحس بنشوة غريبة، وصفق بيديه كالطفل المرح حتى إنه قال «هيه»، وبرز رأس زوجته من فرجة الباب الذي انفتح دون أن يشعر، وقالت في هدوء:

«عاوز حاجة يابو زكي؟».

«أيوه... اعملي شاي».

اضطجع إلى الخلف ووجهه كله يبتسم، وصدره يتنفس في ارتياح، ولعن الخواجة قسطنطين صاحب الجراج المجاور للمقهى، وهزته النشوة وهو ينظر إلى الحرفين الباقيين بجبروت، وذبالة المصباح تخبو رويدًا رويدًا، ورأسه عار ملقى إلى أمام، ولكنه هذه المرة لم يحتج إلى جهد... وصرخ فجأة كمن عثر على كنز:

«قسطنطينية».

لا يدري المعلم عبداللطيف متى وأين سمع بهذا الاسم، ولكنه كان موقنًا تمامًا بأن هناك بلدًا اسمه القسطنطينية، لم يكن يعنيه شيء من هذا، وهز كتفيه ولعن للبلد أباها، ثم نهض من مكانه وتمطى واستمع في نشوة إلى طقطقة عظامه، واتجه نحو الباب.

كانت أم زكي مكومة فوق الكنبة وأمامها إناء الشاي فوق النار، وما إن أحست بزوجها حتى قالت بروتينية:

«أحضر لك العشا يا دلعدي؟».

«قسطنطينية يا ولية».

نطقها بسرعة وبنغمة موسيقية، ثم دلف إلى حجرة العيال بعد إن حمل المصباح في يده، واستلقى الضوء فوق الأجساد الصغيرة المتراصة بجوار بعضها، ولمحت عيناه كتب ابنه المكومة فوق منضدة صغيرة، وتبخر قسمه فجأة، وهمس وهو يستشعر دفء الحجرة وأنفاس أولاده.

«والله لأعلمكم كلكم...».

امتدت ذراعه نحو ولده وأخذ يدفعه ببطء ورفق، ورفع زكي عينيه النائمتين إلى وجه والده، وانكمش إلى الوراء، وهمهم في خوف، بينما كان عبداللطيف ينتصب أمامه منتفخ الصدر، مرفوع الرأس، ثم ألقى إليه بالورقة في استهتار، وقال وهو يبتسم ويستدير إلى الخارج وكأن الأمر لا يعنيه:

«قسطنطينية يا وله...».

كان زمان

في «قهوة عطا» كانوا جالسين... وعلى الباب، كان يجلس «عم عمر».

كان الليل يزحف، وحرارة النهار تذوب في النسمات التي أخذت تهب من الحقول. من الرجال من كان يقبض على جوزة وهو يجذب منها أنفاسًا متتابعة. ومنهم من كان يستند إلى الحائط، وقد فرد ساقيه حتى لكأنما يريد أن يمدهما إلى ما لا نهاية!

كانوا جميعًا فرحين مسرورين، علامات الرضا ارتاحت على وجوههم السمراء، وعقولهم أخذت تجتر أسماء غريبة لبلاد غريبة، بلاد كالهند ويوغوسلافيا... ولولا الراديو البطارية الذي اشتراه زوج «البنت عطا» من البندر. لما تمتعوا هذه المتعة، ولما انفتحت لهم هذه الطاقة التي تطل على الجنة.

إلا «عم عمر».

كان الرجل يلمح على وجوههم تلك الفرحة، فيتململ في جلسته وهو يسب عطا والأولاد، وزوج عطا القفا الذي لا يريد أن يقول له: «فيه إيه؟!».

كانوا جميعًا ملتفين حول الراديو، يهللون ويصفقون ويصرخون ويرقصون أيضًا. وكانت الدنيا كلها تكاد ترقص من حولهم. وقد سألهم «عم عمر» عن سبب الفرحة. وقالوا له. ولكنه رغم هذا لم يعرف «فيه إيه؟!».

وعم عمر تعدى المائة والعشرين وزيادة. ولقد كانت له أيام وحكايات... حكايـات عن عرابي وأفندينا، وناس كثيريـن وأحداث أكثر من الناس، كان يقصها على العيال الكبار الذين أصبحوا عمدًا ومشايخ وأفندية أيضًا. جعبته لم تكـن تفـرغ... ولكنـه منذ مـدة لم يعد يتحـدث، منذ أن أصبحـت أذناه لا تسمعان ولا بالزعيق.

ومـا كان الصمـم ليهُمَّ عم عمـر، وما أحس بحلوله. فلقـد أتاه تدريجيًّا. ثم سـاد الصمت من حوله. ولم يعد يسمع. وحلت الإشارات محل الكلمات والأصـوات. فلم يغضب أو يتحسر أو يهتـم. كان يفهم كل ما يريدون قوله له، وكأنهم كانوا يتحدثون إلى قلبه. فكلهم أولاده، وأولاد أولاده، قد التصق كبيرهـم وصغيرهم بقلبه. والتصـق هو بقلوبهم يمثل لهـم أصلهم وعرقهم وأرضهم السوداء.

وقد أوحشـتهم حكايات عم عمر. طالمـا زعقوا في أذنيه، وصرخوا فيهما يطلبـون منـه أن يحكي لهم حكاية. ولكنـه كان يتحدث عن أي شيء. ويقول لهـم كل شيء. إلا الحكايـات. ومرت الأيام فنسـوا جلسـات الليل، وصوته الخفيض وهو يقص عليهم أشياء وأشياء. ويحكي لهم عن آبائهم وأجدادهم. نسوا كل هذا وإن لم ينسه عم عمر.

فجأة... لم يعودوا يطلبون منه أن يقص عليهم الحكايات، ومنذ أن تخطى القرن الأول من عمره، ومنذ أن هبطت على أذنيه تلك السحابة الثقيلة فعزلته عن الدنيا، ومنذ أن أحس بتلك الوحدة العميقة... منذ ذلك الوقت، خلق لنفسه عالمًا خاصًّا، وحكايات وأشخاصًا ودنيا. وأخذ يسمع بعينيه.

ولم يتعب أبدًا في معرفة شيء، أو رؤية كلمة تخرج من فم، حتى عندما كان الرجال يسمعون الراديو قبل تلك الليلة، كان يعرف - دون أن يقترب فم من أذنه - كل ما يقوله الراديو.

إلا الليلة.

كاد أن يجن... لم يسمع شيئًا مما قالوه له وكأن عينيه قد أصيبتا بالصمم!!

رأى الأفواه تصرخ، وعرف أنها تصرخ. ورأى الأكف تصفق، وعرف أنها تصفق. وسمع بعينيه الهلولة والهيصة، فسأل العيال:

«فيه إيه يا ولاد؟!».

ولم يفهم.

ويصمت... وتظهر الكآبة على وجهه المعروق المغضن، ذلك الوجه الذي انكمش جلده وتداخل، وصنع خطوطًا كثيرة متشابكة ومتعارضة، تروح وتجيء على صدغيه وجبهته وتحت عينيه وذقنه. فتصنع الخطوط خليطًا عجيبًا من السمرة التي تزداد في أعماقها حتى لتصبح سوادًا، وتخف في أسطحها حتى تصبح كلون الليل في منتصف الشهر العربي.

ويعـود عـم عمـر بعينيه إلى الجمـع الصاخب الـذي هدأ وصمـت وبان علـى وجـوه أصحابه الاهتمام الشـديد، وقد التفـوا حول الراديـو الذي كان يتحدث.

«فيه إيه يا ولاد؟!».

ولم يـرد عليه أحد في البداية، وكأنهم قد أصيبوا بالصمم هم أيضًا، وكأن يـدًا سـحرية تجذب آذانهم إلى الراديو فتلتصق بـه أو تميل إليه. ولم يعد يطيق. وغلى في صدره الغضب. وصرخ بأعلى صوته في زمجرة عاتية:

«فيه إيه يا ولاد المراكيب؟!».

وشوح له الواد قطب. ورأى الواد عطية يصرخ فيه. والتفتت إليه الرءوس برهة ثم جذبتها اليد السحرية من آذانها فمالت نحو الراديو من جديد.

وتضايق العجوز واغتم، وكاد يبكي.

«يا ولاد فيه إيه؟!».

قالها بتوسل ورجاء.

«يا بت يا عطا!».

وجـاءت عطا. ووقفت أمامـه. ورأى فمها المفغور، ولسـانها وهو يتردد بـين صدغيها، وأحس أن الزغـرودة التي كانت تطلقها تـكاد تقتلع قلبه من جذوره العريقة. كانت عطا تضحك وتزغرد، ويضحك كل جسدها ويزغرد وسطها في رقصات مرحة. ولم يفهم شيئًا.

«فيه إيا يا بت؟!».

وألصقت عطا فمها بأذنه الكبيرة، وصرخت، وأحس عم عمر بأنفاسها. وأحس بشفتيها تكادان تلتصقان بأذنه. ولكنه لم يسمع شيئًا.

«يا بت زعقي!».

فصرخت أكثر حتى اهتزت أذنه مع ذبذبات صوتها دون فائدة. فأدار لها أذنه الأخرى، وهو يعلم، وهي تعلم، أنه لن يسمع. ولكنه كان يريد أن يسمع. أحب السمع فقط في هذه اللحظة. وافتقده. أحبه وتمناه مرة واحدة فقط.

وبلغ شوقه أقصاه. وتحرق إلى معرفة السبب. وجال بعينيه في المكان وفوق الوجوه وكأنه يتوسل. وانقض عليه شعور مباغت بالضياع والوحدة. وأحس بفراغ كبير يحيط به. وحدة وفراغ ما أحس بهما من قبل.

كان الجميع في واد. وهو في واد آخر. واد عميق، في قاع هوة أحس فيها بالفناء.

«يا ولاد.. يا ولاد نفسي أعرف!».

كان صوته ضعيفًا مرتجفًا، وكانت شفتاه تتمتمان في توسل:

«يا ولاد.. يا ولاد عرفوني.. دانا أبوكم».

رسموا له على الأرض، وحفروا بالعصي، وأشاروا إلى القنوات، ثم إلى المصرف، ولكن... ماذا يعني كل هذا؟!

«اخص عليكم.. عرفوني!».

وكاد أن يجن، صمت رهيب يحيط به. الأقدام تتحرك فلا يسمع لها صوتًا. والمقاعـد تسـقط، والمناضـد تزحف بها الأيـدي، والأكف تلتقـي، والأفواه تتحدث. ولكنها كلها كانت خرساء... لا تنطق، لا حياة فيها، وكانت مليئة بالحياة حتى الأمس فقط.

وهـو في رؤيته للـصراخ والزعيق وزغاريد البت عطـا، يحس كأن جدارًا سـميكًا قد فصله عنهم وعن الحياة كلها. وشـمله إحسـاس بالسـكون التام الهامد. سـكون فيه خمود وفنـاء كالذي في القبور. وأخـذت عيناه تدوران في المـكان، وفي الوجوه. وتتعلقان بالشـفاه. وفي رأسـه بـركان، وفي أذنيه ثورة، ثورة هائلة تعافر وتحاول أن تحطم حواجز الصمت الكئيب دون جدوى.

وأخـذت الحقيقة تطفو إلى رأسـه، حقيقة كانت راسـبة في أعماقه. ما نظر إليهــا ذات يـوم نظرة ضيق... أحـس عم عمر لأول مرة أنه أصم. أطرش. لا يسمع. فارتجف ارتجافة خوف، وهمس كمن يحدث نفسه:

«فيه إيه يا ولاد؟!».

وتوغل الليل... وشـحب نور الكلوب في المقهـى. وكان القمر يطل من السـماء زاهيًا رائقًا. والرجال كانوا قد جلسـوا أمام الباب على الأرض وعلى حصير جاءت به عطا من الداخل.

رآهـم يســمرون ويتحدثون وقد بانت على وجوههم ارتياحة غريبة. وقد غابوا في أحاديثهم عنه. خيل إليه أنهم نسـوه. لم يطلب له أحدهم شـايًا. ولم يعـزم عليـه أحدهم بنفس من الجـوزة... وأخذت عينـاه تتابعان الحديث في قلـق، كانتا كعيني صقر تتربصان لتقتنص شيئًا. وذهب الـواد فرج، ثم عاد

وفي يـده كتاب. وذهب الواد حسـين، وعاد وفي يـده كتاب آخر... وأخذت الأيدي تتناقـل الكتابين. كتاب وراء الآخر. والعيون تبحلق في الصفحات، والأفواه تتحدث. والأصابع تشـير والحماس يكسـو الوجـوه. والضحكات تـتردد... واشرأب عـم عمـر برقبتـه، وأطل عـلى الكتـاب. ولم ير شـيئًا... وهمس:

«يا واد يا فرج!».

ورد فرج. ولم يسـمع عم عمر. وانتقل الكتاب من يد إلى يد. ومن رجل إلى آخر.

«بتتفرجوا على إيه يا ولاد؟».

وناوله أحدهم الكتاب. وأشار إلى صورة. وقربها العجوز من عينيه.

«إيه ده؟!».

وردوا عليه. ولم يسمع.

«إيه ده؟!».

وزعقوا في أذنيه. ولم يسمع.

وبحلـق في الصورة. وانقبض قلبه. وتشـبثت يـداه بالكتاب. في الصورة شيء مـر بحياتـه فقربها إلى عينيه أكثر. وامتدت يد لتأخذ منه الكتاب. ولكن أصابعـه كانـت وكأنها منغـرزة في أوراقـه. كان عم عمر غارقًـا. وكان يحس كأن أصابـع طويلـة، طويلة جدًّا، ذات مخالب قاسـية تنغـرز في أعماقه. وتمتد إلى بعيد. إلى الماضي السـحيق. وأخذت تقتلع شيئًا. كانت وكأنها تخلع ضلعًا

مـن صدره. وارتجف، وما درى أحد سر ارتجافه. واضطرب. وما درى أحد سر اضطرابه.

«ما لك يابا عمر؟».

«دا عيان يا ولاد!».

«الراجل بيرتعش..».

«لا حول ولا قوة إلا بالله».

«آبا عمر!».

كانت الأصابع تتوغل وتتوغل، وتندس بين حنايا الأيام والليالي والسنين الطويلة. كانت الصورة قد بدأت تتضح، وصدره قد التهب بالانفعال. وهو قد غاص في الماضي السحيق الذي أخذت المخالب تخرج به إلى نور الوعي. وتـأوه. كان يتألم. وكان يشـعر كأن الظلام ينقشـع تدريجيًّـا... وهذا الشيء. هذا الشيء على لسـانه. هذا الماضي البعيد يظهر وتكسوه ضياء شاحبة، ضياء تخـترق أكفـان الظلام الدامـس الذي دفنته وطمسـته الأيـام والطين والزرع والقلع والحفر.

«آه يا ولاد... افتكرت، افتكرت يا ولاد، الفحت».

«فحت إيه يابا عمر؟!».

«الفحت... الفحت والخواجات!».

«الراجل بيخطرف. ما لك يابا عمر؟».

«الفحت.. والرملة.. والميه».

«لا حول ولا قوة... الراجل بيخطرف».

«الخواجة الكبير.. وأفندينا».

وهبط على الجميع صمت وسكون كانا كغلالة رقيقة أخذت تهتز مع أنفاسهم المنبهرة. واقترب منه في بطء بعض الأولاد الأفندية، كانوا وكأنهم يقتربون من شيء ثمين غال. وقال أحدهم:

«أفندينا ما له يابا عمر؟!».

«الجنا.. الجنا يا ولاد.. هي.. عرفتها.. مسكتها.. الجنا.. جناة السويس!».

ووجم الرجال وسيطر الصمت عليهم. وهمس أحدهم:

«أنت توعى لها يابا عمر؟!».

زحفت انبساطات وتقلصات شملت تجاعيد الوجه المغضن، وتجمعت الأنظار كلها فوق هذا الوجه. وكان عم عمر قد ألصق ظهره إلى الحائط. وأسند رأسه إليه. ويده قد ارتخت بالكتاب وتركته يهوي إلى الأرض. وأخذت أساريره تسرح وترتخي. ولاحت ابتسامة راضية على الشفتين الرقيقتين، وانفرجتا قليلًا لتظهر وراءهما لثة يخترقها لسان يدور حول الشفاه الجافة يبللهما، فتلمع في ضوء القمر كخطين رفيعين يعلوان الذقن الأسمر المجعد.

«يا ياولاد... ده كان زمان... زمان خالص».

قال أحدهم وكأنه يصلي:

«آبا عمر...».

«طـين. ورملـه. وخواجه اسـمه. اسـمه على لسـاني. آه. اسـمه دسـبس وعسـاكر وكرابيـج. وتـراب. دي غويطـة. غويطة جـوي. غويطة خالص. والميـه مالحة. مالحة. وبتجري. وتاخد الرجـال معاها. وتاكلهم. وفي الرديم اندفنوا كتير».

وصمت عم عمر. والتقط أنفاسه التي أخذت تهدأ، وكان الرجال واجمين أمامـه، كأنهم في معبد يسـتمعون إلى كاهنه. ويخرج صوتـه مرة أخرى عميقًا أشد العمق. خفيضًا كأنه الهمس:

«بترقصـوا ليه؟ بتزغرتـوا ليه؟. ما لكم ومالهـا؟ دي كانت محزنة ياولاد. فرحانين على إيه؟ اسألوني أنا أحكي لكم».

وصمت مرة أخرى. وساد السكون.

«آه يـا ولاد. آه يـا ولاد. الجنـا. في السـويس. الكرابيج السـودة الطويلة قطعـت جتتنـا. والميـه العكـرة سـمت رجالـه كتـير. كان لازمتـه إيـه بس. والخواجـات. وبعدهـا جت ملكة خواجايـه. والخلق كانـوا زي الحصا اللي في الرملـة واكـتر. إيه اللي فكركم؟ وإيـه اللي عرفكم؟! آني ياما قاسـيت من الضرب والذلة. ياما شـفت أيام سـوده وليالي كحلي. آني عارف كل حاجة. كنتم لسـه في عالم الغيب. آه من اللي شـفناه وقاسـيناه... لو... حد... منـ... كم... كا... ن... شا... شا... ف».

كان عـم عمر يبكي، وصوته يصـل إلى الآذان مغرورقًا بالألم المر، مرتجفًا كورقة على فرع شجرة في الخريف. وأحس كل منهم أن آلام الرجل تتسرب

إلى جسـده فتهـصره هصرًا لا رحمـة فيه. ودمـوع العجوز تترقـرق في عينيه، وتلمع في ضوء القمر، ثم تسيل في بطء وهدوء، وتصعد وتهبط مع الأخاديد التـي صنعهـا الزمن في وجهه. وقد تتجمع في جرح التأم منذ زمن بعيد، وقد تصنع بحـيرة صغيرة في أعماق أحد الندوب، ولكنهـا كانت تفيض وتنحدر مرة أخرى، وتنزلق دمعة وراء دمعة، في طابور طويل، وكأنها جنود تسـير في جنازة الذكريات السود.

ونظـرات عم عمر أصبحـت تائهة. كان الرجل يـرى الوجوه من خلف غلالـة الدمـع فلا يفسرها. الـرءوس متقاربة متقاربة، تكثـر وتكثر وتتوالد، والجميع يجلسون في صمت دون أن ينبس أحدهم بكلمة.

ويعـود عـم عمـر إلى الحديـث مـن جديـد، ويدغـدغ صوته أجسـادهم ويخدرهـا، ويملأ نفوسـهم بالمشـاعر والأحاسيس، ويحملهم في بسـاطة في حلم عبر التاريخ.

رأوا ليلتها حكايات عرابي أشـد واقعية، وأشـد ألمًا ونخسًـا في القلوب. وأصبح الماضي حيًّا، أصبح الماضي يمشي ويصرخ:

«اتعذبنا قوي يا ولاد!».

ثم صمت عم عمر. وطال صمته.

«آبا عمر... آبا عمر!».

«مالكم ومالها... فرحانين على إيه... ده كان جتل... جتل والله ياولاد... بالحزمة... لكن جولوا لي... مالها؟!.. مالها جناة السويس؟!».

وهبت الأصوات فجأة... كانت كأنها تنتقم وتثأر. ولاحت له الإشارات، وتطوعت أكثر من يدين. وهزت الرءوس. وفتحت الأفواه، ولعبت الألسن.

وكأن دمع الرجل قد أذاب الحاجز الذي وضع بينه وبين العالم.. وفهم عم عمر.

وفغرفاه وعينيه. وساد الصمت من جديد، بدا وكأنه يفكر في مشكلة عويصة، وأخذت الدموع تجف من فوق وجهه، وتتطاير مع نسمات الليل. ويعود صوته من جديد. فتكف الأصوات التي كانت قد بدأت تثرثر. كان صوته لينًا رائقًا. وكان مستقيمًا مترابط الكلمات. وانتظمت أنفاسه. وظل عم عمر يحكي ويحكي ويحكي. يبتسم تارة في مرارة. ويضحك تارة للألم. ودارت أكواب الشاي. وشرب عم عمر. ودارت الجوزة. ودخن عم عمر. وحلا القمر والحديث.

غير أن عم عمر توقف فجأة عن الحديث، وبحلق في الوجوه... ثم قال في غضب:

«انتو ياولاد بتضحكوا علي. بتقولوا إن الجنا بقت بتاعتنا.. أما غريبة. أمال هي كانت بتاعة مين؟!».

الصديقتان

منذ اليوم الذي التحقت فيه فردوس بالخدمة في بيت سهير، نمت بينهما صداقة وطيدة، وتآلفت روحاهما، واطمأنت كل منهما للأخرى كل الاطمئنان، وأحبت كل منهما الأخرى حبًّا جمًّا.

وفردوس رغم هذه الصداقة الوطيدة... ورغم تعلق سهير بها، ورغم أن سيدتها الصغيرة أشركتها معها في لعبها وألعابها، وأشركتها حتى في كراسات مدرستها الصغيرة المليئة بالرسوم والكلمات وأنصاف الكلمات والحروف الكبيرة... ورغم أنها أشركتها معها في حجرتها، وأفردت لها مكانًا بجوار فراشها الصغير... رغم كل هذا، فإن فردوس كانت تقوم بعملها على خير وجه... كانت تعمل منذ الصباح وطول اليوم حتى يوغل الليل... كانت نشطة ذكية لا تهدأ، ولا تتعب، ولا تكل، ولا تدع صديقتها في حاجة إلى شيء.

إذا أرادت سهير شيئًا فعلته فردوس قبل أن تطلبه، وإذا احتاجت لشيء، قامت به فردوس من تلقاء نفسها وكأنها تقرأ أفكارها.

وكلما مرت الأيام، تعلقت سهير بفردوس تعلقًا شديدًا... وأصبحت لا تنام إلا إذا سامرتها فردوس، ولا تأكل إلا إذا قدمت لها

فردوس طعامها، ولا تدخل الحمام إلا إذا شاركتها فردوس فيه... ولا تذوق فاكهة أو حلوى إلا إذا رأت فردوس وفي يدها نصيبها منها.

وأحبت فردوس سهير، أحبتها حب عبادة، وأصبحت الحياة في خيالها الحاد عالمًا ليس فيه سوى سهير.

ولذلك... فيوم عيد ميلاد سهير، كانت فردوس أكثر الجميع سعادة، وأكثرهم اضطرابًا وفرحًا، وأكثرهم نشاطًا.

وليلتها لم تنم فردوس.

كان قلبها الصغير يخفق في انفعال شديد، وسرت في جسدها رعدة نشطة، ولكنها حارت فيما ستقوله، وفيما ستفعله، ولما سألت سيدتها الكبيرة قالت لها أم سهير وهي تضحك في مرح:

«قولي لها كل سنة وانت طيبة.. وعقبال ميت سنة».

وكانت فردوس تعرف كيف تقول «كل سنة وانت طيبة»، ولكنها نسيت في البداية «عقبال ميت سنة»... ثم تذكرتها، ثم ظلت ترددها طوال اليوم، ثم أخذت ترددها في سرها دون توقف... رددتها وهي تغسل الأطباق، ورددتها وهي تكنس الأرض، ورددتها وهي تنظف حذاء سيدتها وحذاء سيدها وحذاء صديقتها الصغيرة... ثم رددتها وهي تأكل، وأخذت ترددها بعد أن نام الجميع، وألقت بجسدها الصغير فوق فرشتها المكونة من لحاف قديم ووسادة وغطاء يقيها البرد... وكان جسدها مكورًا فوق الأرض بجوار سرير سهير، وعيناها مفتوحتان، ونظراتها معلقة بالظلام العميق الذي

كان يسـود الحجرة، وأذناها تتسمعان أنفاس سيدتها الصغيرة وهي تتردد في سكون الليل، وشفتاها تتمتمان بلا توقف:

«كل سنة وانت طيبة يا ستي سهير.. وعقبال ميت سنة».

كانـت تريد أن تكون أول من يقولها... ولذلـك قاومت النوم، وقاومت جفنيها وهما يثقلان ويسقطان فوق عينيها... وكانت تنتظر طلوع النهار.

ولكن النوم انتصر عليها...

وحملتها الأحلام متهادية... ثم هبطت بها في حفل بهيج، كان حفلًا صاخبًا زاهيًا حلوًا... زينات وموسـيقى وضحكات وناس... ناس كثيرون، أشكال وألوان... ورأت في المنام أمها مع الناس تلبس فستانًا فاقع اللون، وفي قدميها حـذاء لامـع جميـل، وفي يدها حقيبـة يد مليئـة بالنقـود... نقود فضيـة براقة، كانـت تتلألأ وتضـوي فتخطف الأبصـار... وفتحت أمهـا حقيبتها وغرفت مـن النقود الفضيـة البراقة وأعطتهـا... وأخذت فردوس تمـلأ جيوبها، وكان فستانها مليئًا بالجيوب، جيوب كثيرة كثيرة امتلأت وفاضت... فملأت حقيبة يدهـا الصغـيرة، حقيبة كتلـك التي تملكها سـهير تمامًا، وامتـلأت الحقيبة هي الأخـرى... وفاضت، فتركت أمها وعدت تسـابق الريح وتبحث عن سـهير حتى وجدتها، ورأتها جميلة جميلة، صغيرة رقيقة... فأخذت تغترف من النقود الفضية وتعطيها، وضحكت سهير، وضحكت هي معها، وضحك الناس... ألوان وألوان، وموسيقى وبهجة... ونادت سيدتها على سهير، فسارت بجوار صديقتهـا... ثم امتدت يد... يد خشـنة هائلة ضخمـة... وجذبتها بعيدًا عن صديقتها، فصرخت، ولم تسـمعها سـهير ومضت فرحة نحو أمها التي كانت

تبتسم لها، وصرخت فردوس ثانية، صرخت بكل صوتها، ولكن صوتها اختنق وضاع ثم تلاشى، وابتعدت عنها سهير... وابتعدت... وابتعدت، وصرخت هي... وصرخت... وصرخت، ثم همت جالسة في مكانها وقلبها مضطرب يدق في عنف، ودموعها تسيل على وجنتيها، والعرق البارد يغرق جسدها.

كان الظلام حالكًا في الحجرة... وكانت أنفاس سهير تتردد في هدوء وانتظام، وكانت فردوس ترتجف بشدة، وذراعها النحيلتان مضمومتان إلى صدرها، ودموعها تنهمر بلا انقطاع، ورأسها ثقيل ثقيل، وخدر عنيف يتسرب إلى جسدها الضئيل، فأمالت رأسها ووضعته فوق الوسادة... وراحت في سبات عميق.

■ ■ ■

ولكنها استيقظت مبكرة.

وعندما استيقظت كان النور قد تسلل إلى الحجرة خافتًا شاحبًا، وكانت متعبة مكدودة، ودارت ببصرها في الحجرة، ووقعت عيناها على جسد صديقتها الممدد في الفراش الصغير، وكانت سهير قد ألقت غطاءها عن جسدها كالعادة وعرت ساقيها الناصعتين البضتين... فنهضت فردوس على عجل، ودثرت سهير بالغطاء من جديد، وانطلقت خارج الحجرة...

ومر الوقت بطيئًا.

كانت الصغيرة قد نفضت عن عينيها وجسدها غبار النوم، وراح حلمها البغيض في طيات النسيان العميق، وأخذت تردد من جديد ما كان عليها أن تقوله في ذلك الصباح... وكانت تعمل في المطبخ عندما صك سمعها صوت صديقتها

الرقيق، فهرولت لا تلوي على شيء، وقلبها يضطرب في صدرها بعنف، واندفعت إلى الحجرة كالسهم، وهمت أن تلقي تحيتها عندما اصطدمت عيناها بسيدتها وسيدها وهما يضاحكان سهير ويلاعبانها... وتوقفت فجأة، واضطربت أنفاسها، وترددت برهة، وعم السكون... وتحولت إليها العيون في بشر.. ثم.. ثم قالتها:

«كل سنة وانت طيبة يا ستي سهير.. وعقبال ميت سنة!». قالتها دفعة واحدة دون أن تتوقف، وابتسم سيدها، وابتسمت سيدتها... وقالت لها سهير:

«وانت طيبة يا فلدوس».

كم تحبها...

كم تحبها عندما تقول لها «يا فلدوس» فهي لا تزال صغيرة لا تعرف كيف تنطق اسمها صحيحًا وتقول «فردوس».

ومضت الساعات...

وعلقت الزينات...

ومضى النهار...

كان الجميع في فرح... والبيت كله قد انتابته حمى لذيذة من السعادة، سعادة كانت تغمر كل شيء فيه، وكانت فردوس أكثر الجميع سعادة، لم تذهب صديقتها يومها إلى المدرسة، وبقيت معها، وشاركتها في العمل، وجهزت معها حجرة المائدة، تلك المائدة الطويلة التي كانت فردوس تسير بجوارها وتدور حولها خطوات وخطوات حتى تنظف سطحها.

وحفلت المائدة بالحلوى... أشـكال وألوان، أشـكال عدة وألوان زاهية، ورائحـة تنبعث منها فيسـيل لهـا لعاب فردوس، بل جعلتهـا تهم بأن تغترف بإصبعهـا الصغير قطعة طرية بيضاء، ثم تضعها فوق لسـانها وتوقف جريان لعابها، ولكنها تذكرت النار التي حدثتها عنها سيدتها، والتي ستشوي جسد السارق يوم القيامة... ولن تسرق فردوس، وهي لم تسرق أبدًا، ثم هي تخاف النـار وترتعب منها... وانكمـش أصبعها فجأة والتوى داخـل كفها، وارتد ذراعها إلى بعيد، وظلت ترقب تلال الحلوى من بعيد.

وعندما ارتدت سـهير فسـتانها الجديد، وحذاءها الجديد، وأمسـكت في يدهـا حقيبتها الصغيرة الجديـدة... ارتدت فردوس فوطـة صدرها البيضاء الناصعـة، ثم دسـت قدميهـا في حذاء سـهير القديـم، وبدت وقتهـا حلوة، واختلسـت النظـر إلى المرآة لبرهة، مجرد برهة، مـرت فيها بكفها الصغير على شعرها الذي مشطته لها سيدتها... ثم ابتسمت عندما ظهرت سهير بجوارها في المرآة... وتضاحكت الصديقتان في سعادة ومرح.

وتوافد الضيوف...

أطفال كثيرون كثيرون، كانوا جميعًا يضحكون ويلعبون ويصرخون ويقبلون سـهير ويقولون لها «كل سـنة وانت طيبة يا سوسـو»... ورجال ونساء... كانوا يرفعون سـهير بين أذرعهم ويقبلونها ثم يقدمون لها الهدايا، هدايا كثيرة، ولعب حلوة بهيجة، ورقص قلب فردوس من الفرح، فلسوف تشارك سيدتها فيها بعد انصراف الضيوف... باكر... وبعد باكر... وطول العمر... وغمرتها السـعادة، وأخذت تلبي طلب هذا وتجري نحو تلك. وتحمل أكواب الماء وفناجين القهوة،

وتـروح وتجيء ولا تهمد، وتمتـص كل ما يحدث دون أن تفوتها ضحكة أو حتى ابتسامة... وكانت تضحك مع الضاحكين... وتبتسم مع المبتسمين.

ثم أضيئت الشموع...

وأطفئت الأنوار...

وهلل الجميع وصفقوا...

وهللـت فردوس وصفقـت، وانتابتها رعدة عنيفة، وتشـابكت أصابعها في انفعـال واقشـعر بدنهـا... فانكمشـت في ركنهـا... وسـبحت الحجرة في الضوء، ودوت الضحكات والتهاني، وقال الجميع: «كل سـنة وانت طيبة يا سوسو..»، وقالت فردوس: «كل سنة وانت طيبة يا ست سوسو..»، ولكن سـهير لم تسـمعها، فقالتها مرة أخرى، ولم تسمعها سهير... فزاحمت السيقان الطويلة الطويلة، ومدت يدها فجذبت ذيل فسـتان صديقتها، والتفتت إليها سـهير، وانفرجت السـيقان الطويلة توسـع لها مكانًا في دهشة. وفي لحظة... جالـت فـردوس بعينيهـا عـلى كل العيـون التـي انصبـت فوقها مـن عل... فأصابتهـا رعدة، وسرت البرودة في جسـدها، وتلعثمـت... وتلجلجت... وحاولت أن تنطق، حاولت جاهدة أن تقول شيئًا... دون جدوى.

فولت الأدبار... وهربت خارج الحجرة.

وسرعـان مـا علت الضجـة من جديـد، ووزعـت الحلـوى، وملئت بها الأفواه، وقالت سهير لأمها:

«وفلدوس يا ماما.. وفلدوس».

وقالت لها أمها وهي تقدم لها طبقًا مليئًا:

«بعدين يا سوسو، بعدين».

وعندما قالت لها أمها: «عاوزه شاي يا سوسو؟» قالت سهير في قلق:

«ومناب فلدوس يا ماما.. ومناب فلدوس؟!».

وهمست أمها في أذنها:

«بعدين يا حبيبتي.. بعد الضيوف».

وعندما رأت سهير الأفواه الكثيرة تلتهم الحلوى فتختفي تلالها من فوق المائدة، جذبت ذراع أمها وهي تقول بقلق:

«وفلدوس يا ماما.. فلدوس مخدتش».

وكانت فردوس ساعتها سعيدة، سعيدة للغاية، عيناها تلتهمان الوجوه في دهشة، ولعابها يسيل في فمها المطبق فتحس له بمذاق الشهد... وكانت تضحك ملء قلبها عندما سمعت سهير تناديها.

كانت صديقتها تمد لها يدها بقطعة كبيرة من الحلوى وهي تقول في فرح: «خدي يا فلدوس منابك..»، ولم تتردد فردوس، واندفعت تمد يدها إلى صديقتها، وما كادت أصابعها تلمس قطعة الحلوى حتى سمعت صوت سيدتها الكبيرة:

«ميه يا فردوس.. هاتي ميه!».

وانطلقت فردوس بلا وعي تحضر المياه... وعندما عادت كانت سهير قد نسيتها!!

وأحزنها هذا الفترة... ولكنها كانت فترة وجيزة غرقت بعدها بين أقدام الضيوف... تلبي طلب هذا، وتسرع إلى ذاك، وتحمل المياه وتصنع القهوة... ولا تكف عن العمل.

وأجهز الضيوف على الطعام كله.

ذلك أن فردوس عندما انصرفوا، نظرت إلى المائدة فلم تجد أثرًا لشيء، كانت تلال الحلوى قد اختفت، وكانت الأطباق ملقاة في إهمال... فارغة.

وسرعان ما نشطت للعمل.

وأخذت سيدتها تجمع الفتات في طبق واحد، وسرعان ما تسلقت فردوس المقعد الصغير أمام حوض المطبخ، وفتحت الصنبور... وبدأت العمل في نشاط وحنكة... وأكوام الأطباق القذرة تتناقص، ثم تصف في الناحية الأخرى نظيفة لامعة.

كانت فردوس غارقة في العمل... وكانت الدقائق تمضي وتحمل لها في ذهنها ذكرى الحفل الجميل... ولكنها عندما انتهت من عملها... كان الظلام يسود البيت كله... وكان الجميع قد ناموا.

تسللت فردوس إلى الخارج... وأحست فجأة بالسكون عميقًا عميقًا، فوقفت حائرة، لا تدري ماذا تفعل... كانت حيرتها شديدة، ودهشتها أشد من حيرتها... وتحركت في النهاية قدماها الصغيرتان... وعادت إلى المطبخ من جديد.

وجالت عيناها في المكان... وعندما اطمأنت إلى أن كل شيء في مكانه، امتدت يدها إلى طبق الفتات، وضمته إلى صدرها في رفق... ثم زحفت إلى ركن المكان وتكورت فوق الأرض العارية... وأخذت تلتهم ما فيه.

■ ■ ■

ولم تشعر فردوس وهي في جلستها تلك بالشبح الصغير الذي كان يتسلل في الظلام في خفة القط.

كانت سهير تخترق البيت حافية القدمين، وكانت في لهفة من أمرها تسرع إلى حجـرة المائدة دون أن تتحسـس طريقها المظلم... وتسـللت إلى الحجرة، ودارت حول المائدة الطويلـة، وتفادت مقعدًا... ومقعدين، ثم توقفت أمام الدولاب، وركعت على ركبتيها العاريتين... وامتدت يدها في الظلام تبحث عن شيء... وسرعان ما عثرت أصابعها على الكنز المخبوء... فأطبقت عليه، وضمته إلى صدرها بحنان، وعادت تتسلل من الحجرة واتجهت إلى المطبخ.

رفعت فردوس عينين دهشـتين وقد انتابها اضطراب مفاجئ عندما رأت صديقتها، وتقدمت منها سـهير في سرعة، وقبعت بجوارها، والتصقت بها، وانكمش جسـداهما الصغيران، ووضعت سـهير قطعة هائلة من الحلوى في طبق الفتات أمام فردوس وهي تقول:

«خدي يا فلدوس.. أنا خبيت لك منابك!».

ودهشـت فردوس لبرهة، مجرد برهة، ثم ابتسـمت، ثـم امتدت أصابعها فانغرزت في قطعة الحلوى بشـهية، وسرعان مـا أخذت تلتهم منها في سرعة وكأنها تخاف أن يختطفها منها أحد... ونظرت كلتا الصديقتين إلى بعضهما... وتلاقت عيونها في سعادة... ثم انفجرتا في الضحك.

رحلــة

كان اليـوم مـن أوله قاتمًـا، لا رزق فيه ولا قرش. السـحب السـوداء قد تجمعـت وصنعت سـتارًا كثيفًا ظلـل الدنيا بلـون غامق كئيـب، وبين الحين والآخـر، كانـت ذرات المطـر تتسـاقط فتغسـل حجـارة الرصيف السـوداء العريضـة. وتهـب الريـاح فيتطـوح كل شيء ويهتز. وسـطح الميـاه يتلاعب بالقوارب الخالية المتراصة في طابور طويل هامد لا حياة فيه، تترنح صواريها العالية في الهواء، وتحتك جوانبها في أزيز متقطع كأنه أنين.

وبـدا الرصيف خاليًـا من الرجال تمامًا. وثمة أصـوات تنبعث من داخل المقهـى القابـع في ركن المـكان... حيث تناثـر الرجال حول الموائد الخشـبية الحائلة اللون، وأخذوا يثرثرون بكلمات ممطوطة متكاسلة، تخرج من أفواههم لتذوب وسط الكسل الدافئ الذي غلف كل شيء.

ثمـة رجلان هنـا، وثلاثة هنـاك، وجماعة قد التفت حول أكواب الشـاي والقرفة الساخنة، والدخان يتصاعد من الأنوف والأفواه وأطراف السجائر وأحجـار الجوزه... والكلمات تتناثر هنا وهنـاك، ويتنقل الحديث من فم إلى أذن، ومن منضدة إلى أخرى... وزعق رجل، ورد عليه آخر، وفتح الصامتون

أفواههم، وبحلق الذي كان النوم قد أغلق جفنيه، وانتفض الكسـل ثم ذاب تمامًا وسط ضجة النقاش الذي احتدم فجأة فبعث الحياة في المكان. وبدا الأمر وكأن هناك خيطًا يلضم الكلمات كلمة وراء كلمة، وإذا الجميع يتحدثون فيما جرى ذلك الصباح.

والحقيقـة - رغـم احتدام النقاش وانقسـام الرجالة إلى معسـكرين - أن أحـدًا منهم لم يكن يدري ما الذي حـدث على وجه الدقة، كل ما يعرفونه أن عم عطية ثائر مغتاظ... وأن رومه قال له:

«إنت متقدرش تجدف لحد رصيف المورس!».

وسألوا سلامة الجرسون، وقال سلامة إن الأمر بدأ مزاحًا في مزاح... ثم انقلب إلى جد ولا يدري كيف، وإن عم عطية كان يشرب شاي الاصطباحة مـع رومـه في أمان الله، وفجـأة، رآه ثائـرًا هائجًا يسـب آباء رومـه وأجداده والذين خلفوه.

وبدا الأمر للرجال ماسخًا لا طعم له... إن رومه يعرفه الجميع ويعرفون قلـة أدبـه ولسـانه الطويل. وعـم عطية رجل عجـوز تجاوز السـبعين، خلقه ضيق، ولا يحتمل أن يعارضه أحد في رأي، أو يقول له أحد «بم».

قـال البعض إن رومـه عليه الحق، وإنـه غلطان. وقـال البعض الآخر في استهانة: «وفيها إيه يعني؟!»... وانبعث صوت عم عطية - وكان حاضرًا - من ركن المقهى يسـب الجميع ويلعن للجميع آباءهم. وبدا الغضب واضحًا على وجه العجوز، بدا في عينيه الحمراوين وعروق رقبته البارزة، وارتعاشـة

كفه التي كان يطوحها في وجوههم منذرًا محذرًا، ثم يدق بها فوق ركبته وكأن شياطين الأرض قد ركبته وهو يقول:

«آني منقدرش نروح للمورس تجديف؟!.. آني ياولاد الكلاب.. آني؟».

ثم يصمت مليًّا، ويعود ليضرب كفًّا بكف في قوة كأنه يصفع بها أحدًا... ثم يستطرد في حرقة:

«والله زمن أغبر يا قواربية... معادش في البلد رجاله!».

وقال رجل بصوت هادئ يحاول أن يهدئ به ثورة عم عطية:

«معلهش يابا عطية.. الطيب أحسن..».

ولكن رجلًا آخر أبى إلا أن يتفرج على ثورة عم عطية، فغمز جاره بعينيه ولكزه بكوعه وصاح وهو يداري وجهه:

«هو يعني رومه كفر؟!.. والا يعني رومه كفر؟!».

وازدادت ثورة عم عطيـة... وهم العجوز واقفًا وأخذ يصيح في الرجال في هستريه أذهلتهم. ووقتها فقط. أحسوا أنه غضبان حقًّا، وأن الأمر بالنسبة إليه لم يكن هينًا. فنهض الريس زيد من مكانه متجهًا إليه... وربت على كتفه في حنان وقال:

«حقك علي أنا يابا عطية... امسحها في انا».

وجلس عم عطية فوق المقعد، وزفر في غيظ. وعاد الريس زيد يسـأله في حنان:

«نجيب لك واحد شاي يا معلمي؟».

وقال عم عطية في صوت مختنق:

«بعـد العمر ده كله يا زيد؟.. آني يا زيد، مش عيب برضه.. آني منقدرش نروح المورس تجديف؟.. بعد الـ.. ـعـ..».

واختنق صوت العجوز، وارتعشـت كلماته فوق لسانه... وحط السكون على المكان فابتلعه، حتى كركرة الجوزه كفت، واستدارت كل الرءوس نحو الجسد الذي قبع في ركن المقهى وقد دفن رأسه في كفيه... وأخيرًا جاء صوت الريس زيد:

«آبا عطية.. وحد الله امال، رومه زي ابنك برضه!».

وسرعـان مـا ارتفعـت الأصـوات وكأنها تطـارد الصمت بلا هـوادة... وتحمس رجل وسب رومه ولعنه، ونهض آخر وقبل رأس عم عطية. ودلف رومه من باب المقهى وهو يدثر رأسه بشال صوفي، والتفتت إليه كل الوجوه، وغمزت له أكثر من عين، وسـبه رجل عجوز، وتشـابكت الكلمات، وسـاد الهـرج... وعـم عطية صامت لا يتحدث. ترتجف السـيجارة التـي قدمها له أحدهـم بين أصبعيـه... وتتسرب عينـاه خلال الزجـاج إلى حيث الرصيف الخـالي الممتد، والقـوارب المترنحـة الفارغة، والميـاه المتلاعبة، وتـدور عيناه وتدلفان إلى الداخل، وتسقطان فوق وجوه الرجال... وكل شيء يبدو باهتًا لا لون له. وفي عقله دوامات تدور وتدور. وأنفاسـه تتردد في صعوبة، وثقل مخيف يجثم فوق صدره... وجاء رومه وقبل رأسه واحتضنه وقال له: «حقك عـلي»... وكانت أفكاره في تلك اللحظة قـد وجدت بؤرتها فتركزت حولها، وانبثق من عينيه بريق خاطف، وتصلبت ملامحه وهو يردد:

«معلش.. معلش.. ربك يسترها!».

ونهض على الفور من مكانه... وتابع الرجال جسده النحيل وهو يغادر المقهى إلى الرصيف، وعبثت الرياح بملابسه، وكادت تتلاعب بجسده... كانت كتل السحاب قد تمزقت وتفتتت فوق صفحة السماء. وأطلت الشمس بقرصها الدافئ وألقت إلى الأرض بشعاع واهن. وسار عم عطية إلى حيث تكوم بجوار الحائط، واعتمد رأسه بين كفيه. وأخذت عيناه تحملقان في سطح المياه المتلاعب، ثم ترتفعان إلى حيث كان يبدو له ظل رصيف المورس وقد نهض وسط المياه كعملاق أسود ضخم... وعربدت الخواطر في رأسه، ثم انزاحت وتركت وراءها خاطرًا عربيدًا ظل يكبر ويكبر ويضغط على رأس العجوز حتى كاد ينفجر.

ساعة وراء ساعة، وعم عطية لا يبرح مكانه، تفر منه عيناه رغمًا عنه إلى ظل الرصيف، والرياح تشتد ويعلو صفيرها وزئيرها... والجو أصبح رهيبًا، والأمواج تكاثرت وتلاحقت قممها الحادة فبدت كأسنان وحش أسطوري.

وكان عم عطية يتعذب.

وكان أكثر ما يعذبه هو ذلك الخوف الذي كان يتسرب إلى قلبه كلما خطر له ذلك الخاطر، وأخذت عيناه الضيقتان الخبيرتان تجوبان السماء وتنزلقان إلى المياه وترقبان الأمواج. وما إن يتملك منه خاطره، ويهم من مكانه حتى يشعر وكأن قيدًا يشده إلى الأرض.

ويلح عليه الخوف عربيدًا قاهرًا، حاول أن يقنع نفسـه بأن الأمر لا يعدو أن يكون مزاحًا. وحاول أن يقنع نفسه بأن رومه قال له «حقك علي». وحاول أيضًا أن يقنع نفسـه بأن الرجال يعرفونه ويعرفون مقدرته ومكانته... ولكن الخاطر الرهيب كان دائمًا أقوى منه. كان يتمطى ويكبر ويسيطر على مشاعره وينهشه بلا رحمة. وكان الأمر يبدو مستحيلًا في جو كهذا.

وعندما مالت الشمس نحو الغرب. وأخذ ضوء النهار يشحب... كانت رأس عم عطية تغلي كبركان. وكان يدخن ويزمجر ويتنهد، ويتحسس ذراعيه بكفيـه، ويزم شـفتيه في قوة... ثم انفجر الخاطـر... وبرقت عيناه. وزفر كأن حملًا ثقيلًا قد انزاح من فوق صدره. وتطلع إلى صف القوارب أمامه.

ونهض.

وخطا إلى الأمام خطوة.

وارتعشـت سـاقاه. وأحـس بقدميه ضخمتـين كبيرتين وقـد سرى فيهما التنميل. ثم أخذت الحرارة تدب في أوصاله. وخطا خطوة أخرى. وأخذت قدمـاه تضربـان الأرض، خطـوة وراء خطـوة، والمقهـى يبتعـد مـن ورائه، والقوارب تفر من جانبه، ثم توقف أمام قاربه.

وعندمـا انحنـى ليفك الحبل الـذي يربط قاربه بالرصيـف، عوت الريح ودفعته بشـدة، فمال جسـده وترنـح، وتمايل القـارب وترنح. ومـد العجوز قدميه إليه، ثم قفز.

وامتدت يـداه إلى المجدافين الراقدين في قاع القارب، وأخذتا تعملان في سرعة... وما هي إلا برهة وجيزة، حتى كان القارب ينزلق على سـطح المياه الواسع الممتد إلى بعيد.

وبدأت الرحلة.

دق قلبه بعنف، وتدفقت الدماء في عروقه، وانبهرت أنفاسه، وسهمت عيناه برهة، وتمايل قارب كبير كان يمر بجانبه، وتطوح الصاري فرسمت نهايته المدببة خطوطًا متشابكة في السماء، وتقلص قلبه فترة، ثم نبض نبضة قوية، واستوت يداه فانفرد المجدافان على جانبي القارب كجناحين عاريين بلا ريش، ودارا في الهواء بنظام تحكمت فيه كفاه الخبيرتان، ثم هبطا في وقت واحد نحو سطح المياه وغاصا فيه. ثم ارتفعا من جديد وقطرات المياه تنزلق منهما في نغمة متآلفة منسقة دفعت بالدفء إلى قلبه... وأخذ جسده يميل إلى الخلف فيندفع القارب ثم يعتدل ويدور المجدافان في الهواء، ويميل جسده مرة أخرى، ويضرب المجدافان سطح المياه... والقارب ينزلق في يسر، وذراعاه قد سرت فيهما رعدات خفيفة لذيذة... وانتشت نفسه وأخذ يعمل بكل قواه.

كان الصمت يسود كل شيء، والقارب أخذ يترنح في سيره فوق الأمواج الصغيرة وقد بدت ككثبان متتالية لا نهاية لها، وعندما استدار ليواجه صفحة الميناء المتسعة المترامية، كانت الرياح تندفع في قوة قاهرة، وقد بدا له صف القوارب في ضوء الأصيل كأشباح تتلاعب في الفضاء، والضوء قد انبعث من المقهى شاحبًا. وقرص الشمس يغوص في الأفق... والقارب ينزلق فوق المياه كأنه يعرف الطريق.

كان الرجال في ذلك الوقت غارقين في ثرثرتهم وكسلهم... وأوراق اللعب تصفع أسطح المناضد صفعات متتالية حادة، والضحكات تختلط

بالكلـمات، ورجال أغمضت عيونهم وراحـوا يغطون في نوم قلق، وآخرون قـد تحلقوا حـول إحدى المناضد وأخـذوا يثرثرون، وصـوت الراديو ينطلق فيحدث مع الأصوات نشـازًا هادرًا، وضوء المصباح بدا خافتًا ضعيفًا وسط الدخان الكثيف السابح في جو المكان.

وفجأة... مزقت السكون صرخة حادة.

وتوقـف كل شيء تمامًا. الأيدي والألسـنة والعيون والرءوس وأصوات الجوزه. وصمت الراديو دون أن يمســه أحد. ثم اندفع رجل من الباب وقد تهدلت لاسته وبان على وجهه الذعر:

«عم عطية.. عم عطية...».

تعلقـت العيـون بوجـه الرجـل المذعور، وأصبعـه التي كانت تشـير عبر الزجـاج إلى حيث كان القـارب يترنح ويتمايل والرياح تتلاعب به. وسرعان مـا اندفع الرجـال إلى الرصيف تلفح وجوههم برودة الهـواء الرطب اللزج، وانطلقـت أقدامهم تنهب المكان في سرعة، وعيونهم تمسـح الصفحة الهادرة اللامعـة تحـت الضوء الأحمر الـذي تركته الشـمس وراءها بعـد أن غاصت تمامًا... وجاء صوت خفيض من وسط الرجال:

«الريح جامد.. مش حايوصل!».

وصرخ آخـر بـكل قواه ينـادي عم عطيـة، وتكلم ثالـث، وصرخ رابع، وامتـلأ الفضـاء بالصيحات التـي كانت تتمدد وتتمدد كأنها حبال تسـبح في الهواء ثم تتهاوى حول القارب الذي كان يبتعد في بطء حاملًا عم عطية.

كانـت أنفاس العجوز قد بـدأت تتردد بصعوبة، وأحـس بقطرات عرق تنبثـق فوق جبهته، وعيناه كانتا تدوران في كل مكان، والمجدافان يرتفعان في الهـواء ثم يدوران دورة ويهبطان إلى المياه ويغوصان فيها. وتبرز عروق رقبته غليظـة ممتلئة، والرياح الباردة تلفح وجهه في قسـوة، وتنفـذ من فتحتي أنفه المتسعتين... ثم وهنت ذراعاه، وتطوح المجدافان بلا نظام، هبط أحدهما إلى المياه واسـتلقى الآخر فوق سطحها كخرقة مهملة. ومقدمة القارب تنحرف عن طريقها... والأصوات والصيحـات والنداءات تملأ المكان من حوله... ويلتفت هو إلى الوراء ويرى شبح الرصيف هائلًا، ويرن في قلبه دبيب ذهبي صداح، وتتمتم شفتاه المرتجفتان:

«الرصيـ.. ف.. حا.. نو.. صل..».

وكأن قـوة هائلة قد نفخـت في ذراعيه، فإذا المجدافان يتوازيان ويشـقان سـطح الميـاه في قـوة، والريـح تزمجـر، وطـرف القـارب يميـل نحـو اتجاهه الصحيـح، ويعتدل القارب، ثم يدور ببطء شـديد... ثـم تتجه مقدمته نحو الرصيف تمامًا.

والأصوات تعلو وتقترب:

«يا با... عطيا !!!!».

يتردد صداها في أرجاء الميناء الساكن، وتسبح مع الرياح فتحملها إلى كل مكان، ثم تخترق أذنيه الكبيرتين، وتتردد أنفاسه لاهثة متقطعة:

«حـا.. نو.. صل.. أنا.. بنـ.. ـجد.. ف.. لسـه.. لسـه.. بعافيتي.. حا.. حا..».

وتحمل إليه الرياح رذاذًا باردًا كالثلج، وتضرب وجهه، ويداه لا تكفان عن العمل وقد أحس فيهما دبيب الخور، والرصيف يقترب، وعيناه تغشاهما طبقة ندئية، والقارب يتحرك في بطء.

وذاب احمرار الشمس في المياه، فاكتست الدنيا بضوء رمادي خافت، وصفحة السماء أصبحت صافية لامعة، ولا شيء حوله سوى السكون تقطعه أصوات المجدافين وحفيف الرياح، والنداءات قد كفت، وتباعدت. وذراعاه تخوران، وثمة تقلصات حادة يحس بها تمزق صدره، ويسعل، فتكتم شفتاه سعلته لترتد إلى صدره كسكين حامية، والرصيف يقترب ويقترب، وبانت حجارته العالية العريضة الصفراء، وظهر له الفنار الصغير يقبع كالطفل فوق مقدمته... ورأت عيناه كل شيء... الحشائش الخضراء اللزجة وهي تتموج فوق سطح المياه ملتصقة بحجارة الرصيف. والريح تدفع بالقارب، وذراعاه تعملان، والأصوات تقترب من جديد... وضربات المجاديف الكثيرة تمزق السكون وتبدده... ونظر، فإذا القوارب متناثرة كثيرة كثيرة، ونظر وراءه فإذا حجارة الرصيف الشامخة تقترب منه عالية كبيرة صلدة، وذراعاه أصبحتا لا تقويان على العمل، وجاءت إليه الأصوات متوسلة... وغاظه ذلك. فترك المجدافين ونهض في مكانه، وترنح جسده وسط القارب، وصرخ بكل قواه:

«آني منقدرش ياولاد الكلب... الرصيف أهه.. حانوصل.. حا.. نو.. صل..».

واختنقت الكلمات في حلقه، وقفزت إلى عينيه الدموع، وعاد إلى مكانه في عصبية. وشهق في ألم وهو يكتم دمعة، وامتدت يداه مترتجفتين إلى المجدافين وأخذ يعمل بكل قواه.

كان الهواء يندفع من جانب الرصيف بسرعة وقوة، والقارب أخذ يتمايل مع مد المياه وجزرها بالقرب من حافة الرصيف صانعة تلك الأمواج الواسعة الكبيرة... وانتشر الألم في ذراعي العجوز رهيبًا. وامتد منهما إلى كتفيه، وأحس بكفيه تتقلصان ولا تقويان على العمل. وخارت قواه تمامًا.

كانت المسافة قريبة وصدره تمزقه سعلات سريعة جافة، وأحس كأن قبضة هائلة تنغرز أظافرها في صدره وتنهش قلبه بلا رحمة. وتردد صوته ضعيفًا يهمس في رجاء: «يا معين!». ونظر وراءه، ثمة خطوة، خطوة واحدة... وانغمس طرفا المجدافين في الماء، ثم انزلقا في وهن وتعب وطفيا على السطح، وأحس الرجل أن جسده كله يخور، وشعر برغبة في أن ينام. كان القارب يترنح بلا حول ولا طول. والرصيف قريب قريب... والأصوات تقترب. وهي خطوة. واندفعت الدموع إلى عينيه، وسقطت فوق وجهه واختلطت برذاذ المياه وجز على أسنانه في غيظ، وبدأ صدره يجيش، ويشهق، ويهوي بالمجدافين إلى المياه، ويطلق من أعماقه صرخة... «يا رب...».

وهوت من عينيه دمعتان، ثم دمعة، وشدد على المجدافين قبضتيه الواهنتين... وتمتم في حرقة:

«لا.. لاز.. لازم.. لا..».

وتحـرك القـارب في بطء شـديد، وانزلق فـوق السـطح، وانحسرت عن الرصيـف موجـة أخـرى فحملته، وسـبح القـارب معها في يـسر... وما إن ارتطمت مقدمته بالرصيف في دقة مكتومة، حتى دق قلبه دقة عنيفة. واندفع الدمع يغرق عينيه، وتحولت أنفاسـه إلى شـهقات باكية، وترنح جسـده وهو يستدير ويخطو داخل القارب نحو الرصيف.

ومن خـلال غلالة الدمـع التي غطت عينيـه، ترقرقت الحجـارة الداكنة الملسـاء، وامتدت أصابعه المرتجفة تتحسسها، وترنح القارب، وتسرب شبح ابتسـامة إلى الوجه المغضن، وعلت الأصوات وهي تقترب وتقترب، وما إن تشـبثت كفاه بالحجارة... حتى انهمرت الدموع تغرق وجهه... ودفن رأسه بين ذراعيه، وأجهش للبكاء كطفل صغير.

النـــاس

... وأصبـح عليـه أن يقف أمام النـاس. كانوا كثيريـن منثورين كحبات الرمل، رءوسهم متجاورة، وعيونهم مبحلقة، وأكفهم مرتخية... أكفهم التي تسـتطيع أن تصعد به إلى السـماء، أو تهوي به إلى الأرض. دق قلبه دقة عنيفة شـديدة كاد يتطايـر بعدها أشـلاء، ثم دق دقـات سريعة متلاحقـة، وبردت أطرافه. وارتعشت أنفاسه، وغامت عيناه... وكان عليه أن يغني.

وتصاعـدت سـحب الدخان مـن الأفواه تتلوى كأجسـاد شـياطين. ثم انعقدت فوق الرءوس... وجمرات السـجائر تروح وتجيء كالشـهب، تهوي ثـم ترتفع لتتوهج، ثم تهـوي من جديد... واختلط الضوء بالظلام. وصراخ الأطفال بحديث الكبار، وضحكت امرأة ضحكة عالية. واستدارت نحوها رءوس. وزاد دوي الأصـوات والهمهمة... وكانـوا جميعًا في فرحة. وكانت هذه حفلة... وكان عليه أن يغني.

تمامًـا كـما غنـى في المـرات السـابقة. كانـوا فيهـا يضحكـون ويقهقهـون ويتحدثون ويقزقزون اللب ويشربون شـايًا وقهوة وأشـياء مثلجة، ويذوب صوته في أصواتهم وشفطاتهم وقزقزتهم... وتنطلق فجأة صرخة طفل يبكي

لتبتر صوته. ويضج الناس بالضحك. ويغرق جسـده العرق... ولا يعيرونه اهتمامًا. كانوا ككل مرة وقف أمامهم فيها. ولكنه لم يكن ككل مرة وقف فيها أمامهـم. كان هـذه المرة متعبًا مكدودًا. يحمل في قلبـه غصة. وصدره ينوء بما فيه من مرارة... وكان قد أيقن أنه لا يصلح. وأنه فاشل.

قالـوا لـه لا تيئـس. قال: النـاس لا يريدوننـي. قالوا له أنت فنـان. قال: الناس تقول مهرج.

الستار مسـدول، والناس من ورائه ينتظرون... والدقائق تجري وتسرع. وكان عليـه أن يبـدع. وكاد أن يرجـع، يعود من حيث أتى... يدفن نفسـه في صوته، ويغرق حياته في لحنه.

كيف غنى؟... ولم غنى؟

طالمـا غنـى، وطالما لحن وطالما قـال أصدقاؤه «الله»... وكثـيرًا ما قالوا له «غنـي»... فغنى وغنى وغنى... وأصبحـت حياته ألحانًا. وامتصت الألحان عمره. وذاب عمره في الأنغام.

وتـرك كل شيء ليغنـي. فر من أمه وأبيه. وبكت أمـه. وثار أبوه... وقال قليلون سوف ينجح. وقال كثيرون بل سيفشل، وآخرون قالوا مجنون. فقال للجميع «ولو!!»... قالوا له: الطريق شاق. قال: أعلم هذا. قالوا: ستفشل. قال: يومها سأعود.

وفي تلـك الليلـة، كان قـد قرر أن يعود... السـتار مسـدول، والناس من ورائه ينتظرون... والفرقة تدخل المسرح، وفي وسـطها عجوز أشـيب، فنان مدرب، أخذ يصلح الأوتار وهو يبتسم له من بعيد ويقول بحنان:

«ازيك يا أستاذ».

لم يدر كيف كانت ابتسامته، ولكنه أراد أن يبتسم، والذي حدث أن وجه العجوز غمرته ضحكة أنيسة، وقال بصوت مرح:

«انت خايف والا إيه؟!».

واقترب هو منه، كانت أنفاسه منبهرة، وكان يكاد يبكي، وصدره كان يغلي، وعيناه ينبثق منهما وهج، وقال في همس:

«عاوز الحق. خايف قوي..».

«ولا يهمك..».

ومد إليه أصابع مرتعشة، وقال في سرعة: «معاك ولعة؟..».

ورفع العجوز عينين دهشتين وقال بعجب: «سيجارة؟ الستارة حاترفع..».

«معلش..».

وقال أحدهم ساخرًا: «مالك يا أستاذ؟».

لم يرد على الصوت الذي لم يعرف صاحبه، وخطا إلى بعيد وهو يجذب أنفاسًا شرهة. خطا خطوات، وزفر، وعصر السيجارة بين أصابعه، ثم سحقها بقدمه.

ودقت الدقة الأولى... ودق قلب بعنف، وأخذ يضرب بنبضاته جدران صدره، والتفت إلى الخلف، كان الجميع قد أخذوا أماكنهم، والآلات ذات الأوتار بين أيديهم، وكلهم يبتسمون في ثقة ومرح...

ودقـت الدقة الثانية... وسـمع صوتًـا يقول: «يألله يا أسـتاذ»، ولم يعرف صاحب الصوت، ولكنه استدار وخطا نحو المسرح، والستار لا يزال مسدلاً، وركبتاه وهنتا وارتجفتا.

ودقـت الدقة الثالثة... وتحرك السـتار، وصافحت عينـاه مئات الوجوه، متجاورة متجاورة، ومئات العيون، مبحلقة مبحلقة، وسقط قلبه إلى قدميه.

هدأت الضجة قليلًا، وأطفئت الأنوار، وصفق رجل بملل، وصفق آخر مدة ثم عدل، وانصبت عليه كل العيون، عيون براقة، تلمع في الظلام، وبدأت الهمهـمات من جديد، أخذت تعلو وتتكثـف وتختلط في أذنيه بصوت اللحن في بدايته متناثرًا غير منتظم، ثم انتظم اللحن، ولم ينتظم صوت الناس.

وكان عليه أن يغني.

خيـل إليـه في لحظة أن يتركهم ويهرب، يجري، يفـر، يعود من حيث أتى، ولكنهـا كانت مجرد فكرة... ثم خيل إليـه في اللحظة التالية أن يقول للناس: «في عرضكم اسمعوني»... ولكنها أيضًا كانت مجرد فكرة، وفي اللحظة التي تلـت هذه خيل إليه أن يصرخ فيهم وأن يسـبهم ويلعن لهـم أذواقهم البليدة وقلوبهم المتحجرة، وأن يقول لهم أنتم قساة، ولكنها هي الأخرى كانت مجرد فكرة.

وماج اللحن، وسبحت أنغامه في جو المكان، وانتهى المقطع الأول، وكان عليه أن يبدأ... ولكنه لم يبدأ.

والناس سادرون في أحاديثهم... تميل رءوسهم على بعض، ولا تتزحزح عيونهم عنه، وقهقه رجل ولم يقل له أحد «هس». وأنَّ صدرُه بما فيه، وكاد يصرخ من الغيظ والألم، عندما صرخ أحدهم ساخرًا:

«الله يا أستاذ.. كمان والنبي!».

وضجت الحناجر بالضحك، وضاع اللحن وسط عاصفة القهقهة، ولم يخرج صوته، واحتبس في حلقه، وكاد أن ينفجر رأسه.

وعاد اللحن من جديد... وخرج صوته، وتعثر وضاع وسط زحام الثرثرة التي ملأت الجو، ولكنه استمر يغني، وقال: «آه...» وكأنه يقطع من اللحن قطعة من قلبه، وانبثق من الظلام صوت يقول:

«جتك أوه...».

وضحك الناس...

وتوقف هو عن الغناء، وصعدت إلى عينيه دموع كثيرة. دموع غيظ يغلي في صدره حتى كاد أن يحرقه، وأراد أن يصرخ فيهم حقًّا، هؤلاء الوحوش... ولكنه ما كاد يفتح فمه، حتى سمع صوتًا آتيًا من خلفه... كان صوتًا حانيًا رقيقًا:

«مالك يا أستاذ.. ما تغني!».

وعندما نظر وراءه، التقت عيناه بعيني العجوز... كانتا تضحكان وتبتسمان في سماحة، وكانت الأصابع الماهرة تلعب على الأوتار بحذق... وهمس من بين شفتيه في مرارة:

«أغني؟.. أغني لمين يا أستاذ؟!».

«غني لنا، غني لنفسك انت، مالك ومالهم، غني، غني...».

كان الصـوت حنونًا، وكان هادئًا قويًا مسـتقيمًا، وأحـس في لحظة بدفء يغمر أوصاله. وقال لنفسه دون أن يفتح شفتيه: «أغني لنفسي؟!».

وفي لحظة كان قد قرر أن يغني لنفسه.

وبـدأ اللحن... ولم ينظـر إلى الوجوه الكثيرة السـاخرة، وأغمض عينيه. وتـردد. تردد كثيرًا، وكاد أن يعدل، ولكن اللحن كان يـسري عاليًا متدفقًا. اختلط في صدره بفورة تحد، وذاب اللحن في آلامه، وذابت آلامه في اللحن، وتنحنـح، وأحس وهو يـرى الظلام من وراء جفونه كأنـه في حجرة مغلقة، ولم يعد للناس وجود، ولم يعد للدنيا وجود، وحلق قلبه المضطرب ورفرف، ثم اسـتقر وانتظمت دقاته، وعندما خرج صوته، اكتملت في نفسـه النشـوة، وتصلبت ذراعاه، وتقلصت أصابعه، وجسده كله كان كأنه مشدود إلى حبال كأوتار آلة من السـماء، وغنى، غنى بقلبه، وسـكب في اللحن كل دمائه التي كانـت تنزلـق في عروقـه في سرعة... وغـاب، غاب تمامًا عـن كل شيء، عن الدنيا، عن أهله الذين سـخروا منه، عن أصدقائه الذين شـجعوه. فر بكليته إلى النغـم الذي كان ينسـاب ليغلف كل أحاسيسـه، وغنـى، وأطاع اللحن، وأطاعه اللحن، فتح عينيه ولم ير أحدًا، وأغمض عينيه ولم ير شيئًا، لا ظلام، ولا نـور... ثمـة ضوء هادئ هادئ، وسـكون عميق عميق، وسـكينة هادئة ناعمة، وصوته ينساب منغمًا متثنيًا ومستقيمًا، يعلو ويترنح ويميل وينتفض...

وأحس كأن جسده كله يغني، يداه تغنيان، ورأسه يغني، وجفناه يوقعان مع اللحن.

كان يتمرغ في أحضان شيء يغمسه غمسًا، لا هو بالمبتسم ولا هو بالضاحك، بل ثمة بِشْر يفيض على وجهه... والوقت يمضي، وهو غارق... غارق تمامًا، تائه وكأنه يسبح فوق السحاب.

ثم طاوع اللحن، ولم يكن يريد أن يطاوعه، ومال معه، وارتفع في رفق، ثم هدأ في لين، ثم انخفض وهمس... وانتهى اللحن. وانتهت الأغنية.

وأفاق..

وكاد أن يستدير ليمضي، ولكنه توقف فجأة، فقد أحس وكأن السماء تمطر تصفيقًا، فتح عينيه المفتحتين، ودار إلى الناس... كانت الأكف ملتهبة، والأيدي تلوح، والأصوات تكاد تخلعه من مكانه، ولم يصدق، ونظر وراءه والتقت نظراته بابتسامة على الوجه العجوز، ثم انحدرت إلى حيث كانت الأصابع العبقرية ساكنة فوق الأوتار... والأصوات من حوله تدوي، والناس يقولون: «أعد.. أعد.. أعد»، وكاد يتساءل، لمن يصفقون؟!. واستدار إلى الوجه العجوز من جديد، ولكن العينين الهادئتين أومأتا إلى الناس، فاستدار طائعًا، وانحنى، ثم استقام، واخترق التصفيق أذنيه كأحلى ما سمع من نغم، وطفرت إلى عينيه دموع ترقرقت فيهما قليلًا، ثم انحدرت في بطء وتركها تبلل وجنتيه...

وبدأ لحن جديد... وأغمض عينيه، وأخذ يغني.

إلى تلك السنوات

العامرة بالأمل.. إلى الستينيات

«صالح مرسي»

حــــب للبيـــع

- 1 -

ساعات الأستاذ فهيم، هي ساعة استيقاظه من النوم... وأسعد لحظات هذه الساعة، هي آخرها.. عندما ينتهي من غسل وجهه، وتصفيف شعره، وتناول إفطاره، وشرب فنجان قهوته..

في تلك اللحظات يقف أمام المرآة، وينظر إلى تقاطيعه النبيلة، ويحملق في نظرته الحنونة بشغف، ويسوِّي شاربه الأنيق، ويمر بسبابته فوق حاجبيه من اليمين إلى اليسار، ومن اليسار إلى اليمين.. كان - في تلك اللحظات - يبدو جميلاً للغاية، حبيبًا لكل عين تراه.. وأكثر العيون حبًّا لوجهه هما عيناه!

وينطلق فهيم من بيته بعد أن يلاعب ابنته «صفاء» ويضاحكها، ويقبل زوجته « هناء» ويناغيها بكلمة أو كلمتين .. ينطلق وقد فاض قلبه بالحب، ليستقبل الناس وعلى لسانه تلك الكلمات التي ظل طوال عمره يطهيها من عجين الإخلاص والمودة والوفاء.

الناس هم دائمًا شغله الشاغل.. لم يفكر مرة في نفسه قدر تفكيره في واحد من أصدقائه أو زملائه أو رؤسائه.. هو لايفكر - أبدًا - إلا إذا غادر البيت،

وسـار في الشارع الطويل على مهل - ولا يسير فهيم إلا على مهل - يهز رأسه يمنة ويسرة في دلال فطري، ويرفع قدمه كإوزة تتبختر، ويضعها بخفة حمامة تحط على الأرض.

في تلك الساعة، كان فهيم يفكر في الناس .. فيمن عليه أن يقابل أولاً، ثم من يقابل ثانيًا، ومن يرجئ مقابلته، ومن يفاجئه بزيارته.. ولا يفكر الأستاذ فهيم في نفسه إطلاقًا!

على أن الأمر في ذلك الصباح المشرق كان محيرًا.. فما إن خطا فهيم في الشارع خطوة حتى توقف.. كان أمامه طريقان عليه أن يسلك أحدهما.. طريق في الشرق، وآخر في الغرب.. وكيف يختار الإنسان بين نقيضين كلاهما حبيبٌ إلى قلبه؟!

لم يكن في الأمر مغنم شخصي، ذلك أن الناس كلهم عنده سواسية.. وهو يعرف كيف يحبهم أجمعين.. وكيف يقبل عيوبهم بنفس القلب الذي يستقبل به محاسنهم.

ورغم أن سعيد بك - طريق الغرب - به ما به من عيوب، فإنه إنسان يعرف كيف يقابل الناس، وكيف يحتفي بهم وينفعهم، وكيف يأخذهم على راحتهم.. لذلك ، قرر فهيم أن يسلك طريق الغرب، وأن يقابل سعيد بك.. وبالتالي، كان عليه بعد أن قرر ذلك، أن يقول لنفسه إنه لا بد مما ليس منه بُد، لا بد من تأجيل مقابلته لعثمان بك مدير الشركة المنافسة لشركة سعيد.

- 2 -

فهيم يعلم تمامًا في أي مكان يضع قدمه، وعلى أي جدار يستند.. فهو بفطنته وحبه لهؤلاء الناس، يعرف أن سعيد عبد المتجلي - مثلاً - لا يشغل رأسه إلا بنفسه.. ففي المرة الأولى التي زاره فيها - للتعرف لا للعمل - استطاع أن يحصي في أول دقيقة، ثلاث مرات قال الرجل فيها «أنا ..»، وفي الدقيقة الثانية أحصى فهيم أربع مرات.. وما إن نهض - دون أن يفوه بكلمة كعادته - حتى كان عدد «الأنات» قد تضاعف وتضاعف، ولم يعد الإحصاء في حد ذاته بالأمر المهم.. كان المهم أن يضع فهيم في ذهنه، وأمام خانة سعيد بك عبد المتجلي مدير شركة المعاملات التجارية، كلمة «الرجل الأنا».

وأصبح الأمر بعد ذلك في منتهى البساطة..

فلكي تحب الناس حقيقة، فعليك أن تعاملهم بما تحب أن يعاملوك به.. وأنت لا بد أنك تحب أن يعاملك الناس بما يرضيك ويشبع رغباتك.. لذلك، فعندما زار فهيم سعيد بك في المرة الثانية، حرص على أن يرضي رغبة الرجل الوحيدة، فلم يكف عن ترديد «سيادتك، مشاريعك، حضرتك، أعمالك..» وأي كلمة لا تنتهي بكاف، أغفلها قاموس لغة الأستاذ فهيم تمامًا في حضرة سعيد بك.

وجاء الحب بما كان منتظرًا منه..

فبعد مقابلتين فقط، استطاع فهيم أن يحقق لشركته صفقات لم يحلم بها واحد ممن في مثل مركزه.

على أن الأمر - في ذلك الصباح المشرق - كان مختلفًا، فالصفقة التي كان فهيم يسعى لإتمامها، صفقة هائلة... وكان عليه - هو - أن يتحدث هذه المرة، وكان على حديثه أن يكون سلسًا منطقيًّا ينفذ إلى قلب الرجل مباشرة.. ولم يكن هذا بالأمر الصعب، فبعد أن شرب فنجان القهوة، ودخن نصف السيجارة، راح يتحدث بهدوء، ويبتسم في نبل، ويسير في الطريق المستقيم نحو قلب الرجل، متعكزًا على «سيادتك وأعمالك..» التي راحت جدران الحجرة الفاخرة ترددها بين كل كلمة وأخرى.. ومضت الدقائق، ووقَّع سعيد عقد الصفقة الابتدائي.. وغادره فهيم وهو أشد ما يكون سعادة ورضًا عن نفسه.

- 3 -

الشيء الذي قلل من سعادة فهيم ورضاه عن نفسه، هو مقابلته لعثمان بك مدير الشركة المنافسة.. كان ذلك مصادفة وهو يعبر الطريق، لمحه الرجل وهو في سيارته الصغيرة المتواضعة، فنادى عليه.. وكان على فهيم - بحبه الشديد لكل الناس، وحرصه الأشد على أحاسيسهم ومشاعرهم ومصالحهم الخاصة - أن يقابل الترحيب بالترحيب، والتحية بالتحية، والابتسامة بضحكة كبيرة تصدر من أعماق الحلق!

فهيم يعلم ما بين الرجلين من صداقة وعداء فهما لا يفترقان في المساء، حتى إذا طلع الصبح، استل كل منهما لسانه مسفهًا الآخر وأعماله، وهو يعلم أيضًا مقدار ما بينهما من تناقض.. ذلك أن عثمان بك عبد السلام - على

النقيض من سعيد - حذر كل الحذر، لم يسمعه أحد يقول «أنا..».. وهو - وهذا هو الغريب - يحب الحق، ويقف مع المظلوم، فلا بد أن يحب فهيم الحق في حضرة عثمان، وأن يقول إنه أسمى فضيلة، والتمسك به أعظم خصال الرجال.

وبالرغم من مضي شهور طويلة منذ زار فهيم عثمان - للتعرف لا للعمل - فإن هذا لم يوقِّع معه عقدًا، أو يعهد إليه بعمل .. ولم يمنع هذا التصرف (فهيم) من زيارته أسبوعًا واحدًا.. فهو يؤمن دائمًا، أن الود بين الناس، نار تذيب جليد مقاومتهم.

لكن الغريب - الغريب جدًّا - أن مقاومة عثمان لم تذب إلا في ذلك الصباح المشرق - أي مأزق هذا؟ - حمله الرجل في سيارته وطار به إلى مقر الشركة.. وبعد ثوان، وقبل أن يطلب فنجان قهوة أو يقول كلمة تحية، دخل في الموضوع مباشرة، وقدم عرضًا للصفقة - نفس الصفقة - ووقع عقدًا ابتدائيًّا.. وقدمه لفهيم.

زيادة الخير خيرين.. وعقدين أفضل من عقد واحد.. ولا يزال فهيم يملك ناصية الأمر.. توقيع مدير القسم على أحد العقدين يجعله ساريًا، ويبطل مفعول الآخر. ولكن كيف يختار الإنسان بين نقيضين كلاهما حبيب إلى قلبه ؟! آآ مصالح عثمان تتعارض مع مصالح سعيد، وكلاهما في جيب سترته الداخلي، فكيف يوفق بينهما، وكيف يحتفظ بكليهما؟!

- 4 -

كان عـلى فهيـم بعد ذلـك أن يذهـب إلى عملـه.. وعليه أن يقابل أناسًـا متطاحنـين متنابذيـن متشـائمين.. أكثر ما يسـعده في مثل هـذه الأوقات هو مراقبتـه إياهـم.. فهـو يحبهم بدرجـة واحدة، أكثرهـم قربًا إلى قلبـه هو نبيل المجنون – فهكذا يسـميه – باندفاعه وحيويته وسرعته وخفته وعدم حذره، يكـره فيـه – دون أن يذكر له ذلك – عدم كياسـته، وتهمه التي كان يلقيها في وجه الناس جُزافًا، وربما كان على حق.. ولكن، من منا بلا عيوب؟

رأى نبيل – في ذلك الصباح المشرق – مهمومًا.. ابتسم في وجهه بكل ما يحملـه قلبه من حب، ثم سـأله عما به .. فقال نبيـل: «ولا حاجة!»ولاذ فهيم بالصمت، الإلحاح على نبيل سـبيل إلى عناده، وتجاهله أحسن وسيلة لابتزاز ما يفور في صدره.. وصدق ظن فهيم، فما إن مضت دقائق، حتى اندفع نبيل يشكو له المدير..

وهنا نقطة الضعف في حياة الأستاذ فهيم.

ذلـك أن مديرهـم رجل غريـب، بغزالة كـما يقولون.. يـوم عابس، ويوم ضاحـك.. وكان فهيـم يكره عبوس المدير إلى حد المقت، ويحب ابتسـامته إلى حد الوله.. وكان يعلم أن نبيل يحب المدير بعبوسه وابتسامته.. أليس مجنونًا!

حكـى نبيـل قصة خلافه مـع المدير.. وأيقـن فهيم منذ الوهلـة الأولى أن المدير هو المخطئ.. ولكن من الأقوى، المدير أم نبيل ؟!

وجه فهيم لنفسه هذا السؤال.. وكان الجواب حاضرًا.. فاندفع – من أجل مصلحـة نبيـل فقط – يسـفه كل ما فعله، حقًّا إن نبيـل على صواب، صحيح

أن الحـق بجانبـه، ولكن كيف تعلو العـين على الحاجـب؟.. و.. «يا نبيل ما تبقاش مجنون، إنت غلطان!».. قال ذلك ونهض قبل أن يسمع منه ألف اتهام واتهام.. وكانت وجهته مكتب المدير.

تمتم: «يارب استر».. ثم دخل.

- 5 -

أهـم شيء لديـه أن تبقـى علاقته بكل النـاس طيبة.. الحـب الحقيقي هو الذي يربطك بكل مخلوق، وحب فهيم حقيقي.. والمدير كان في حالة غضب يرثـى لها، كان ثائـرًا مهتاجًا مقطب الوجه.. ورغم ابتسـامة فهيم التي حملها كل حبه، فإن الرجل لم يبتسم، قال: «اقعد يا فهيم، أنا عاوزك!».

سـبح فهيم في هـواء الحجرة على أطراف أصابعه.. ثـم حط في خفة فوق مقعـد بعيـد.. وما إن هم المديـر بالحديث حتى قال فهيم وهـو يفرك كفيه في ولاء، وصوتـه يـرق ويلين حتى يصبح كالهمس: «بس ما تزعلش نفسـك يا سعادة البيه.. نبيل حكى لي الحكاية كلها، وانا قلت له إنه غلطان!».

لمح فهيم الدهشة تأخذ طريقها إلى وجه المدير، وكان – بحبه الشديد لكل النـاس – يعرفه تمامًـا، ويعرف أنه كثيرًا ما يراجع نفسـه، ويضع كل شيء في مكانه، ويعيد الحق إلى نصابه.. وكانت دهشة المدير علامة مأزق انزلقت إليه قدم فهيم دون وعي، فسرعان ما أعمل ذهنه، وسرعان ما وجد الحل.

فمهـما كان الأمر، فنبيل هو المرءوس والديمقراطية في العمل لها حدود.. حقًّا إن سـيادة المدير لم ينتبه في لحظة انشـغال إلى أن الخطأ صدر عنه، حقًّا إنه

- لكثرة مشـاغله - لم ينتبه إليه، لكن واجب نبيل هو إطاعة الأمر في هدوء، ثم الرجوع إلى المدير بعد ذلك.. ولو فعل، لما حدث ما حدث!

عـين الحب التي هـي عين فهيم كانـت ترقب بفخر تغير وجـه المدير من التقطيب إلى الانبساط.. وعين الحب التي هي عين فهيم أيضًا كانت ترى أن نبيل سـوف يخطئ بجنونه أكثر.. لذلك، فما إن طلب منه المدير أن يسـتدعي زميلـه لينهـي معه الأمر، حتى قـال في حب صادق: «خلي عنـك وعنه، هوه دلوقت متنرفز، أعمل انا الشغل النهارده!».

وكان كلامـه معقولاً.. فوافق المدير على الفـور.. وأعطاه - لفرط راحته - ثقته.. فعندما قدم له عقدي سـعيد وعثمان، قال وهو يقلب أوراقًا أخرى: «اتصرف انت وهاتهم لي على التوقيع!».

وجن جنون نبيل!

مـا إن رأى (فهيـم) يقوم بالعمل حتـى صرخ كالمذبوح: «ما دام أعطاك الشغل يبقى مش عاوزني!».. ولم يكن من الضروري أن يقص عليه ما حدث بالداخـل.. لكنه كان من الضروري أن يقول له بعشـم: «إنت مجنون يا بني، إعقل شويه».. وازداد جنون نبيل، فكتب استقالته - بكل اندفاع - وأرسلها مع فراش - أية إهانة - إلى المدير.. وخرج.

- 6 -

كان من الممكن أن ينتهي اليوم عند هذا الحد.. كان من الممكن أن يستمع فهيم - بحب - إلى الذين يكرهون نبيل وهم يسلقونه بألسنتهم، فلا يزيد على أن يبتسم قائلاً: «أصله مجنون..» وقائلاً لنفسه: «هم أحرار، يكرهوه زي ما هم عاوزين، هو فيه حد من غير عيوب؟!».. وكان من الممكن أن ينتهي اليوم عند سماعه لأصدقاء نبيل وهم يلعنون المدير، ويدافعون عن نبيل بحرارة فيقول لهم مبتسمًا: «أنا قلت للمدير كل الكلام ده».. ويقول لنفسه: «هم أحرار، يقولوا كل اللي عاوزين يقولوه.. أصلهم مجانين!».

كان من الممكن أن ينتهي اليوم عند هذا أو ذاك.. لكن فهيم تذكر فجأة أن المدير لا بد يعاني من إهانة نبيل، لا بد أنه يغلي بالغضب لأن هذا أرسل استقالته مع فراش.. وعين الحب ساهرة، كذلك عين فهيم.. نهض على الفور، ونقر في خفة على الباب، ثم دلف إلى حجرة المدير طائرًا على أطراف أصابعه.. و .. «سيادتك مش لازم تزعل، إنت عارف نبيل كويس، أنا متأكد إنه لايمكن يقصد العمل الفظيع إللي أقدم عليه، نبيل عاقل.. بس هو اللي مجنون!.. أنا مش مصدق نفسي، إزاي يعمل كده؟!».

وصمت فهيم قائلاً، ويتمزق قلبه لمنظر المدير وهو يتألم ثم يقول في حنان: «على فكرة يا بيه، أنا وجدت غلطة في الكشوفات - وكان يعلم أنها سبب المشكلة - ولكن هل تجرح عين الحب إنسانًا بنظره؟ - وأنا تلافيت الخطأ.. وفيه كمان..».

راح فهيم يتحدث بكل قلبه وكل حبه للرجل المسكين الذي يغلي بالغضب وراء مكتبه.. وكان يسير في الطريق إلى قلبه مباشرة.. لكنه - أبدًا - لم يظن في يوم ما أن الطريق قصير إلى هذا الحد.. فقد فوجئ بالمدير يعهد إليه بكل مسئوليات نبيل، ويشكره - وقد قوى هذا إيمانه بالحب - بل، ويخبره أنه طلب له علاوة.. ووصل إيمان فهيم بالحب إلى ذروته!

- 7 -

لا يعرف السعادة إلا من ذاق طعم الحب.. وكان فهيم سعيدًا غاية السعادة وهو جالس إلى مكتبه، عندما فوجئ بورقتين أمامه.. وضعهما متجاورتين، وأسند ظهره إلى المقعد، وغرق في التفكير..

إحدى الورقتين عليها إمضاء سعيد بك، والأخرى عليها إمضاء عثمان بك.. وعليه أن يخرب بيت أحدهما.. أو على الأقل، يضيع عليه صفقة هائلة.. فماذا يفعل؟!

لم يكن أمامه سوى الحب..

أزاح الورقتين من أمامه.. وأزاح المستندات والتقارير، وراح يفكر في عنف ويجيب في صدق!

عثمان بك رجل دغري.. يعرف كيف يوقف كل إنسان عند حده، ويعرف كيف ينسب الفضل لأصحابه.. هذه أولى خصاله..

وامتدت يد فهيم إلى التليفون، رفع السماعة، وأدار القرص.. وسرعان ما سرى إليه صوت عثمان.. كان صوتًا هادئًا واثقًا: «طبعًا يا فهيم العملية لازم

تكـون من نصيبنا، إحنـا – على ما أعتقد – قدمنـا شروط ممتازة – وكان هذا حق – وشركتنا في حاجة إلى مساندة ومساعدة لأننا لازلنا جداد في السوق.. وعمومًا أنا واثق من ذمتك.. السلام عليكم».

وابتسـم فهيم.. وأدار القرص دون أن يضع السـماعة.. وسرعان ما جاء إليـه صـوت سـعيد «أنا عارف انك زكي يـا فهيم بيه – بيـه ؟! – وانا عارف ومتأكـد.. إنك فاهم كويس إن مصلحتك في الوقـوف بجوارنا، إحنا شركة قوية ولنا فروع في كل مكان.. آه على فكرة.. إنت حاتسهر فين الليلة»؟!

ارتجـف فهيـم.. وابتسـم غير مصـدق لو لم يحب هـذا الرجـل، رغم كل عيوبـه، لما واتته الفرصة – فرصة العمر – بهذه السرعة.. إنه يدعوه للسـهر، سـيقفز فجأة من مجرد موظف إلى مركز المديرين.. ولن يكون الطريق طويلاً بعـد ذلك.. مرت صفاء وهناء بذهنه بسرعة، ثم طواهما صوت الرجل وهو يهدر عبر سـماعة التليفون: «أنا كنت سـهران امبارح مع جوز بنت مدير عام شركتكـم، المدير العام مش مدير القسـم.. وانا اتكلمت عنك كتير، صحيح أنـا ماقلتلكش الصبح، لأني انا ما احبش اتكلـم عن نفسي كتير، إنما انا قلت مافيه الكفاية.. ثم انا منتظرك الليلة إوعى تتأخر.. أنا ..».

بلا تفكير.. وقعت عين الحب على ورقة سعيد!

- 8 -

لكي تحب الناس كما يجب، فلا تتركهم وقت المحنة..

وفهيم يحب عثمان كما يجب؛ لذلك سارع في المساء قبل أن يذهب إلى سعيد لزيارة عثمان.. وبلسان الحب تكلم.. قال لعثمان كل ما استطاع لسانه المحب أن يقول.. وفهيم موظف.. مجرد موظف.. والكلمة الأخيرة للمدير.. وعلى عثمان أن ينتظر، فالفرص كثيرة، وفهيم – على أي الأحوال – في الخدمة.

وانتهى اليوم في محل عام.. سعيد بك بجلالة قدره على يمين فهيم، وفهيم علـى يسـاره – بجوار القلب – والجـو مليء بالحياة والصخـب، وكأس وراء كأس، وضحك سـعيد من عثمان وسـخر منه، وضحك معه فهيم وسـخر.. فهذه ساعة انبساط، والدنيا هموم.. وليفرج كل منا عن همه!

وانتهـت السـهرة.. وركب فهيم سـيارة سـعيد الفاخرة، وودعـه – أمام بيتـه – في حب، وواعده في حب.. وما كادت السـيارة تنطلق، وما كاد فهيم يدلـف إلى باب العمارة، حتـى برز من الظلام شـبح.. واضطرب فهيم، كان نبيل يرتجف من البرد عندما تقدم إليه وهو يقول:

«إنت كنت فين يا أخي، أنا منتظرك من اربع سـاعات».. ورغم أن فهيم علم على الفور سر انتظار نبيل، فإنه في لهفة وحب: «خير يا نبيل»؟!

وكان خيرًا.. نبيل نادم – مجنون! – يريد العودة إلى العمل..

احتـار فهيـم.. كان يعلم أن نبيل لن يجد له مكانـًا في الشركة.. فقد انتهى أمره، وقبلت الاستقالة. ولكن لا بد من الوصول إلى حل، لا بد أن يجد حلًّا،

حتى لو أصبح نبيل مرءوسًا له.. إنهما صديقان، والأصدقاء أحباء، وليس بين الأحباء رئيس أو مرءوس..

قال فهيم ضاحكًا: «ودي حكاية يا شيخ.. تعالى بكره.. دا الراجل بتاعنا طيب قوي»!

- 9 -

وعندما فتح فهيم باب شقته، وأطل على الظلام في الداخل.. ولفته أنفاس صفاء وهناء الدافئة المنتشرة كالعطر في أرجاء المكان.. كان يحس بمنتهى الرضاء عن نفسه.. وكان يبتسم في سعادة حقيقية وهو يدلف إلى حجرته الصغيرة في هدوء.. أضاء النور.. وراح يبدل ملابسه وهو يدندن..

لكنه، وقبل أن يأوي إلى الفراش. اتجه نحو المرآة.. لم يكن من عادته أن ينظر في المرآة أثناء الليل، لكنه لفرط سعادته، ذهب إليها وقلبه يرقص بالحب والسعادة والنشوة معًا.. على شفتيه ابتسامة واسعة أراد أن يستقبل بها وجهه الجميل.. خطوة وأخرى.. ووقف أمام المرآة.. واضطرب..

في العينين احمرار كأنه لهب.. في الشفتين انطباقة لا تتم.. وكأن بينهما أنيابًا، في الجبهة تقطيب شرير.. في الذقن حدة غير عادية، حتى الأنف الجميل كان يفح هواء ساخنًا، كأنه نار..

لم يذعر فهيم ولم يخف.. كل ما حدث أنه لم يصدق عينيه.. همس وهو يستدير مبتعدًا عن المرآة: «ياه.. دانا باين عليَّ سكران خالص»!.. وخطا نحو الفراش.. وأطفأ النور.. ونام مرتاح الضمير..

الرجـــل والحـــصــــان

- 1 -

لايـدري أحـد لمـاذا توقف الحصـان فجأة عن المسـير.. لم يكـن المطر هو السـبب فقد كان يتسـاقط منذ نصف سـاعة أو يزيد... ولم يكن المطر غزيرًا، بل كان رذاذًا ربيعيًّا دافئ القطرات..

وعندما توقف الحصان فجأة عن السـير صاح بـه الرجل كمن يتيقظ من النـوم لتـوه: «شي...»... قالها ممطوطة رتيبة النغم، لكن الحصان لم يسـتجب للنداء، ظل واقفًا مكانه وقد تدلَّى رأسـه وسكنت حركته تمامًا.. وهز الرجل يده بالسوط وهو يعاود الصياح من جديد: «شي!».. ثم رفع رأسه إلى السماء وراح يرقـب قطـرات الـرذاذ المتسـاقطة، وتحركت يـده بالسـوط نحو ظهر الحصـان: «شي يابن المديوبه!».. قالها وانتظـر لثوان لكن الحصان لم يتحرك، ولم يبد عليه أنه ينوي الحركة.. فتململ الرجل في جلسـته ونظر إلى الخلف.. إلى قضبان الحديد الطويلة التي كانت تجثم فوق ظهر العربة.. وهوى بالسوط مـرة أخـرى على ظهر الحصان، فهـز هذا ذيله كمن يطرد عن جسـده ذبابة.. وظلَّ رأسه مدلًّى، وبدا أنه أغمض عينيه وراح في سبات عميق!!

في تلك الســاعة من اليوم، كانت السـيارات التي تمـر بالطريق عادة تكاد تنعـدم.. كان الطريـق خاليًا لامعًا تترقـرق على صفحته خيالات الأشـجار والأعمـدة والعـمارات القريبـة، لذلـك.. كان لا بد للرجـل أن يلحظ تلك السـيارة الآتيـة من بعيد، والتـي مرقت بجواره مسرعة وهـي تنثر من حولها رذاذًا يحمـل تـراب الشـارع في مائـه.. وكان الرجل يهبط ســاعتها من مكانه فأصابه الرذاذ.. رغم أن لون جلبابه لم يكن غريبًا على لون الشارع، ورغم أن رذاذ السيارة لم يزد من ابتلال قدميه الحافيتين أو ذيل جلبابه المبتل، فإنه لاحق السيارة بسيل من الشتائم المقذعة وهو يلاحقها بنظرات شديدة الغضب.

وبالرغم من أن الرجل كان يصرخ بجوار أذن الحصان بشتائمه، وبالرغم من أن صوته كان يكفي لإيقاظ جبل نائم، فإن الحصان لم يتحرك.

واختفـت السـيارة في منعطف بعيد، فاشـتد غيظ الرجـل، والتفت نحو الحصان وكشر عن أنياب شديدة الاصفرار، وهوى بكفه فوق عنق الحصان وهو يصيح: «كله منك يابن المديوبة.. شي .. شي!!».

لكـن الحصـان لم يتحرك ولم يرفع رأسـه إلا عندما جـذب الرجل اللجام وراح يحـاول دفعـه إلى السـير.. وتلاحقت شـتائم الرجل وسـبابه.. ثم ترك اللجام وجمع أطراف ثوبه في فمه وخبط كفًّا بكف وهو يصيح: «ما انت لسه طافح من شوية.. عايز ايه تاني؟!».

ولم يـرد الحصان.. وعاد رأسـه يتدلَّى مـن جديد، وبدا أنـه أغمض عينيه وراح مرة أخرى في سبات عميق.

وسار الرجل حول العربة وفحص عجلاتها الأربع.. وتأكد من قوة الحبال التـي تربط الحديد بالعربة.. ورمق حصاة صغيرة أمام إحدى العجلات، ولم يصدق أنها السبب في توقف العربة، فأكمل دورته حولها وأصبح على الجانب الآخر للحصان، وكان يبدو أنه يحدث نفسـه عندما قال: «وبعدها لك بقى؟ .. ما تقول يا مسا خلينا نخلص!!».

ولم يتحرك الحصان.. ولم يجب!

ربـت الرجـل عـلى ظهـره بكـف حانيـة، ومسـح عنقـه الطويـل وأخذ يتحسسـه.. عندها فقط، هز الحصان رأسه ونفر بأنفه في صوت مسموع، ثم ضرب ا لأرض بحافره.

«المخزن حايقفل .. نودِّي الداهية دي فين؟!».

وهـم الحصان برأسه كمن يتأهب للسير، وبذل جهدًا تقلصت له عضلات جسـده كلـه ولمعت تحت أضـواء المصابيح التـي كان نورها يـزداد لحظة بعد لحظة داخل ستارة الرذاذ الشفافة.. وتقلصت ساقا الحصان الخلفيتان، ومال جسد الرجل إلى الأمام وهو يجذب اللجام بكل قواه، لكن العربة لم تتحرك.. وعاد الحصـان إلى وقفته الأولى من جديد، وعندما ترك الرجل اللجام، تدلَّى الرأس، وسكنت حركة الحصان تمامًا!

كان الرجل يسـير وما زال طرف ثوبه بين أسـنانه وساقاه عاريتين، وصل إلى نهاية العربة وحرك الحصاة بعيدًا عن العجلة، ثم نظر إليها قليلًا وأمسكها بأصبـع قدمه اليمنى وطوح بهـا إلى بعيد.. وتوقفت في تلـك اللحظة بجوار الرجل سيارة أنيقة.. «تلزم خدمة يا عربجي؟!».

وكان الصـوت رقيقًـا ناعمًا كأنه يصدر عن آلة موسـيقية.. ورغم حلاوة الصوت وجمال الوجه الذي كان يطل على الرجل من نافذة السـيارة الأنيقة، فإن أعصاب الرجل ثارت، فطلب من الفتاة خدمة فاحشـة.. بصق الكلمات في وجههـا بِغلّ فتعالت ضحكة الفتـاة مغلفة بضحكات أخرى تتصاعد من الداخـل في نغم متناسـق.. وعلا صوت السـيارة وصرخـت عجلاتها وهي تندفع كالصاروخ مبتعدة، يلاحقها سباب الرجل كمدفع سريع الطلقات..

- 2 -

كان الحصـان مازال سـاكنًا في وقفته، فصاح الرجل فيـه وهو يهوي عليه بكفيه في غيظ شديد:

«عاجبك كده يا بن المديوبة؟ ... شي ... بقولك شي!».

ثم وقف كلاهما تجاه الآخر.. كان الرجل ينظر إلى الحصان في حيرة..

لكـن الحصـان لم يكن ينظر إليه، كان رأسـه قد عاد يتـدلى، وعضلاته قد ارتخت، وحلت محلها نتوءات عظامه..

لم يكـن الحصـان أعجف، لكنه لم يكـن ممتلئًا بالقدر الذي يبرز جسـده.. وهـوت كـف الرجـل فجأة عـلى صدغ الحصـان الأيمـن في صفعـة مهولة، وارتج الرأس قليلًا، لكن الحصان أمال لصاحبه صدغه في سكون.. وكانت هـذه هي الحركة التي قام بها، والتـي أدت إلى جنون الرجل فراح يهوي فوق جسـده بالسـوط حينًا وبيديه حينًا آخر.. وكانت الضربات مجنونة متلاحقة،

لكـن الحصان لم يتحرك، وإن ازداد لونه اسـودادًا، وبـان جلده أكثر ارتخاء.. وكان هياج الرجل قد بلغ ذروته وهو يدور حول العربة، كان يسـب ويلعن ويقـذف من فمـه بأقبح الألفاظ، ثـم توقف فجأة واسـتدار صارخًا في وجه الحصان:

«يعني اجرها انا ؟ .. أجرها انا يعني؟!».

وراح يحاول من جديد..

انثنى على إحدى العجلات وراح يحاول تحريكها.. وخف تساقط الرذاذ.. وازداد تسـاقط العرق من وجه الرجل وصدره... وصفت السماء فجأة فبان لونها الأزرق من خلف سحابات داكنة، وازداد لمعان أرض الشارع، ومرقت أكثر من سيارة.. لكن الحصان لم يتحرك!

أصبح جسد الرجل كله مرتجفًا بالانفعال والغضب والتعب جميعًا.. سار بخطـوات مترنحـة حتى جلس عـلى حافة الرصيف، وجاءت جلسـته تحت رأس الحصان تمامًا.. فرفع ذيل جلبابه المبتل ومسـح به وجهه، ثم أخرج من جيبه سيجارة، أشعلها وهو يقول في نبرات يائسة:

«زمان المخزن قفل.. إنت مش ناوي تمشي الليلة يعني؟!».

وهز الحصان رأسه هزات غامضة بلا معنًى.. ثم عاد فسكن من جديد.. فعاد الرجل إلى الحديث وكان صوته متهدجًا:

«التبـن ابـو بريـزه وأكلتـه كُلُّـه.. هو انـا يعني كنـت أكلت ببريـزة طول النهار؟!».

ضرب الحصان الأرض بحافره، ونفر بأنفه!

«ما بقاش معايا إلا سبعة صاغ، إنت بشلن تبن، وأنا اتعشى بنص فرنك.. وما بقاش فاضل معايا إلا سيجارتين!!».

جذب نفسًا من السيجارة ثم عاود الحديث في ضجر:

«وآهو المخزن زمانه قفل، يعني مفيش فلوس الليلة!».

- 3 -

عاد الرذاذ إلى التساقط من جديد، واشتد ظلام السماء، وبدأ عدد السيارات يـزداد.. وراح الرجـل يرمق وهـج سـيجارته بإمعان.. كان صـدره قد هدأ، وملامحه قد ارتخت، وظل ابتسامه يطوف بوجهه ثم يستقر فوق شفتيه...

«إنت زعلان مني؟!».

وساد السكون بينهما لثوان..

«مـا هـو ماحـدش بياكلهـا بالسـاهل.. هو انـا يعني لمـا اضربـك بابقى مبسـوط؟... وعـزة الله الـضرب بيوجعنـي انـا!».. داس السـيجارة بقدمه الحافية، ثم نهض وراح يتحسـس عنق الحصان بيده، ثم احتضن رأسـه فجأة ورفعها إلى أعلى.. وقبل الحصان في فمه!

«ولا تزعل.. حقك علي!».

وتحـرك الحصان فجأة في قفـزة انزلقت لها قدماه الخلفيتان فسـقط جزؤه الخلفي على الأرض!

بان الذعر على وجه الرجل..

«كده برضه تعمل في نفسك كده؟!

وفي قفزة واحدة كان عند مؤخرة الحصان.. «استنى خليك زي ما انت!».. انحنى وبرك على يديه وركبتيه، وحَبَا حتى أصبح تحت بطن الحصان تمامًا.. «طَوِّل بالك الأرض مبلولة والحدوى جديدة!»... وبدأ الرجل يرتفع بجسده حاملاً جسد الحصان على ظهره: «انهض معايا يا بن المديوبة.. انهض».. وتحركت ساقا الحصان الخلفيتان في محاولات.. بدأ العرق يتساقط من وجه الرجل وبرزت عروق رقبته.. وراح الحصان يضرب الأرض بحوافره ضربات متتالية، مرة بعد مرة، الرجل يصيح، والحوافر تطلق ساقي الحصان فجأة، وارتفع جسده وانتصب واقفًا..

وعندما خرج الرجل من تحت الحصان كان جسده كله ينتفض، وكان العرق المتساقط قد ازدادت غزارته.. لكنه لم يتوقف، بل مال على عريش العربة وراح يدفعه إلى الأمام.. «يالله معايا!».. وبدأت حوافر الحصان تضرب الأرض مرات بعد مرات، ودار الرجل حول العربة من جديد، وارتمى فوق العريش وزعق بكل صوته: «معانا يانبي!».. وتحركت قوائم الحصان فخطا خطوة أخرى.. وبدأت العربة تسير ببطء، كان يسرع لحظة بعد لحظة...

كان الرجل يسير بجوار العربة وأنفاسه تتلاحق وصدره يعلو ويهبط في حشرجة مسموعة، فراح يسعل، وراح يجري، واشتد سعاله، وأسرعت خطواته بجوار العربة، وعندما بصق على الأرض بدا أنه أحس بالراحة،

فرفع ذيل جلبابه ومسح قطرات العرق عن وجهه وصدره.. وكان قد أصبح يعـدو ليلحـق بالعربة.. والحصان مشرع الرأس، تـضرب قوائمه الأرض في نغم كان يملأ سكون الشارع الطويل.. وتحت المصابيح المضيئة اللامعة، كان الرجل يقفز إلى مكانه وهو يمسك باللجام في يد، والسوط في اليد الأخرى.. وكان يبتسـم، ثم نهض واقفًا في مكانه، وشـق الهواء بالسـوط في فرقعة دوِّي صوتها كالجرس، وصاح في مرح شديد:

«عايزين نلحق المخزن.. يمكن نلحقه ونتعشى الليلة!

وراح الحصان يعدو بكل قواه!

وكان في غاية الرضا عن نفسه

دهمني الخوف على غير انتظار أو توقع، رغم أنه لم يكن هناك ما يدعو إلى الخوف إطلاقًا!

فتحت باب السيارة وألقيت بنفسي في المقعد الخلفي ونطقت باسم الشارع فلم ينبس بكلمة.. دار موتور السيارة بعنف فانتبهت قليلاً، وإذ بهزة عنيفة تلصقني بالمقعد والسيارة تندفع إلى الأمام، ورفعت عيني إليه، ورأيته لأول مرة.. فدب الخوف في قلبي!

كان عملاقًا، هائل الحجم، عريض الكتفين، غليظ الرقبة، كبير الرأس.. كان يملأ كل الفراغ من خلف عجلة القيادة، ولم يكن حجمه الضخم يتناسب مع السيارة الصغيرة التي كانت تنهب الأرض، وتطوي الشارع - رغم ازدحامه الشديد - طيًّا!

حدث كل شيء وكأنه قضاء وقدر!

واستسلمت للخوف عندما شدتني رقبته الغليظة فلم تبرحها عيناي.. كانت السيارة تفسح لنفسها الطريق وسط أمواج من الناس في سرعة جنونية.. وكان صاحبنا يضغط على آلة تنبيه غليظة الصوت تصلح لقطار..

وبقـدر ما كان حجم السـيارة صغـيرًا، بقدر ما كان صوت آلـة التنبيه رهيبًا، وعاليًا، وصاخبًا، وغاضبًا كأنه يشتم الناس جميعًا!

ما الذي كان يحدث وقتها؟!

كـذاب أنا لـو قلت لكم إني أعرف عن يقين.. كانـت المرئيات تتطاير من حولي تطايرًا.. ولم أكن في عجلة من أمري، وكدت - ذات لحظة - أن أطلب منه السـير على مهل، وبالفعل هممت في مقعدي، وملت إلى الأمام، ومددت ذراعـي نحوه لأنبهـه، ثم التقت عيناي بعينيه في المـرآة، فتوقفت الكلمات في حلقي!!

دهمني الخوف أكثر، كانت نظرة العينين غريبة، آمرة، تقول: «اسكت!».. ولم يكن أمامي إلا السكوت!

كان الشـارع طويـلاً طويـلاً.. والزحام شـديدًا، والناس تفـر من طريق السـيارة في ذعر، وتتقافز أجسـادهـم ذات اليمين وذات اليسار، وصوت آلة التنبيه يفزع الآمنين منهم، وسـباب العملاق يلاحقهم.. ورغم أن جلسـتي كانت مريحة، فإني كنت أشعر وكأني في سجن!

وعلى البعد لاحت رقبته لعيني فشدت نظراتي في توجس.

كانـت رقبته تبدو مثل جذع غليظ ثابـت بجذور تضرب في أعمق أعماق الكتفـين، بجـوار الجذع لاحـت على البعـد تلك العربـة الصغـيرة بحمارها الهزيل.. كان الحمار يفارق حارة جانبية في ذلة المتعب المكدود، رأسـه منكس إلى الأرض، جسـده ضامر نحيف بارز العظام، جلده على البعد يبدو خشـنًا مليئًـا بالبثور ووخزات العصا، سـيقانه ترتجف مع كل خطـوة.. على جانبيه

تمتد ذراعان مسـلولتان تنتهيان بذلـك الهيكل المتداعي الذي يئن مع الحركة. تـكاد مفاصله تتهاوى، عجلاتـه تبتلع حجارة الطريق مع كل دورة، الموكب كلـه يتمايل ويترنح مفكك الأوصال متداعـي الملامح.. حتى الطفل الصغير المعلق عند مقدمة العربة خلف الحمار، كان يبدو كهيكل ألقي في نفس المكان بإهمال، ثم نسيه الناس هناك زمنًا!

انتابنـي الفزع فارتدت عيناي إلى الجذع الهائل، لكنهما لم تجسرا على النظر إلى الرأس، حتى من المنتصف!!

كان كل شيء فيـه هادئًـا شـديد الهـدوء، واثقًا شـديد الثقة، ثابتًا شـديد الثبات.. وكان السباب من النافذة ينهمر على الناس في الطريق، الذين كانوا يعترضونه والذين لا يعترضونه على السواء.. غير أن الموكب المفكك الأوصال كان يتقدم، وكانت السيارة تندفع نحوه بجنون، وتعالت في الشـارع بعض الصيحات تحذر، ويزداد انهيار السـباب من النافذة مع كل صيحة، ويتحول خوفي إلى رعب فترتعد أوصالي، ويلتصق لساني بسقف حلقي، وأنكمش في مقعدي، ويضيع إحسـاسي ويتبدد.. فراغ سقطت فيه فجأة، وسبح جسدي مع أفكاري في بلورة من الذعر، وعندما خطفت عيناي نظرة من المرآة، سقط قلبي بين ضلوعي، وعجزت عن ابتلاع لعابي!

كانـت العربة قد انتصفـت الطريق تمامًا، والطفل الجالـس فوق مقدمتها خلـف الحمار يفزع فجـأة على الصيـاح، وانتفضت عظامه مـن الهول، فلوح بذراعين محشوتين بالقش في كل اتجاه وكأنه يتقي غولاً.. ثم راح كل شيء فيه يلوح، سـاقاه وجذعه وكتفاه ورأسه وذراعاه في حركات لا علاقة لكل منها

بالأخرى.. كان يبدو أن الطفل قد تناثر في الهواء.. وعندما اندفعت السيارة من أمامه كان رأس الحمار قد تعدى منتصف الطريق، وانحرفت السيارة قليلاً إلى اليسار، وصفعت رأس الحمار صفعة دوت في جنبي الأيمن.. وتعالت في الشارع الصيحات، وامتد من بين الأصوات خيط رفيع نبع من حلق الصبي، خيط مرتجف يصيح:

«البهيمة!!».

بعدها.. ارتج بي الكون كله، وصرخت عجلات السيارة، ثم توقفت تمامًا، وكانت الشتائم قد ازداد انهمارها، لتسب الدنيا من أولها حتى آخرها، حاضرها وماضيها، جدود الأجداد وأجداد الجدود، وفتح باب السيارة، وغادرها العملاق وصوته يدوي، وقد سكت الناس تمامًا في الخارج.

لا بد أني سقطت في غيبوبة؛ اذ إنني أفقت على جسدي وقد التوى إلى الخلف ملتصقًا بالمقعد أكثر، وانتابتني رغبة جامحة في الفرار، وتحسست يدي مقبض الباب، حاولت الحركة فلم أستطع، حاولت الفرار لكنني لم أفر، انتابني الخوف أكثر.. غزاني تمامًا، شلني.. كبلني، استولى علي ثم احتلني!.. فبقيت مكاني لا أبرحه!!

وجاءتني الأصوات في الخلف فاستدرت.. كان الحمار يقف وحيدًا في ذلة، رأسه منكس والدماء تنزف من جبهته، وأقدامه ترتجف، والعربة من الخلف خالية.. وخلف العربة كان الناس قد تجمعوا في كرة من الحركة والكلام في وسط الكرة كان العملاق هناك، يرفع في الهواء قبضة فولاذية تعلق بها الطفل من جلبابه وانزلق جسده النحيل داخل الجلباب فاختفى

فيـه، وكان الجلباب يهتز من الداخل، ومن الداخـل كان الخيط الرفيع النابع من حلق الصبي يصيح: «البهيمة.. دي البهيمة!».

وهـدأت حركـة الكـرة البشريـة، وانتظمـت الـرءوس في سـياج أحاط بالعمـلاق والصبي.. وخرجت مـن الأفواه عـشرات التعليقات، وصنعت الأصوات سحابة داكنة وكثيفة، وفم العملاق ما زال ينهمر بالشتائم والسباب وتشتد قبضتي على مقبض الباب دون أن تجرؤ على تحريكه والتصقت ركبتاي وتخشـبتا.. كف العملاق يهوي على وجه الصغير بالصفعات، يمينًا ويسارًا، في انتظام، بوجه الكف وظهره، بلا مجهود يذكر، هي فقط تتحرك كذراع من حديـد، وفي حركتها البندولية ترتطم بوجـه الصغير، وخيط الصوت الرفيع ينساب منتعشًا مع كل صفعة: «البهيمة.. البهيمة.. البهيمة.. البهيمة!».

ثـم تنفـرج القبضـة، ويسـقط الجلبـاب مكومًـا عـلى الأرض وفي داخله الصبـي الصغير، ومـا زال بالخيط الرفيع يردد: «البهيمـة.. البهيمة.. يا خلق زي البهيمـة!».. ولم يلبث الجلباب أن تحرك، وبـرز رأس الصبي من فتحته، وترنحـت سـاقاه عندما وقف، ورفـع ذراعه في الهواء نحو فمه ليمسـح عنه الدم السـائل، وكان أنفه الصغير شديد الاحمرار، ثم مشى نحو العربة مطرقًا واقـترب من الحمار وراح يمسـح الدم عن رأسـه المجروح، ثـم احتضن كل الرأس بذراعيه، وراح يربت عليه في حنان.. وعندما رفع رأسه للناس كانت في عينيه دموع، وارتجف صوته وهو يقول: «دي البهيمة.. البهيمة!».

وتلوى جسـدي وأنا أعتدل في جلسـتي بسرعة.. كان العملاق يعود إلى السيارة، وكان يفتح البـاب ويدلف إلى الداخل، وما زالت قبضتي متشـبثة

بالمقبض بجواري، وشـد الجذع الهائل عيني، وزأرت السيارة ولساني لا يزال ملتصقًا بسقف حلقي.. وإذ بهزة عنيفة تلصقني بالمقعد أكثر والسيارة تندفع إلى الأمـام، وصـوت آلة التنبيه يزعـق في الناس، ويفزعهم .. وما زال سـيل الشـتائم ينهمـر من النافذة فـوق كل الرءوس عـلى السـواء، وكان الصوت الخشـن يبدو سعيدًا، وكانت نظرة خاطفة إلى المرآة، كافية لأن تظهر: إنه كان في غاية الرضا عن نفسه!

جدتي

كانت جدتي دائمًا مريضة.. تجلس في فراشـها وتسرسـع بصوتها الرفيع.. وتتوجع وتشـكو - وكنـت كثيرًا ما أجلس بجانبها أرقـب وجهها المنكمش الصغير.. والتجاعيد التي ملأته.. حتى أصبح كورقة بيضاء عبث فيها طفل بالقلـم عبثًـا لا هدف لـه.. وبشرتها الناصعـة التي لم تكن تنسـى أن تدعكها بالجلسرين كل ليلة.. حتى لتراها لامعة دائمًا.

ولم تكن تنهض من فراشـها إلا لتؤدي الصلاة.. تلك الصلاة التي ظلت سـبعين عامًـا تصـلي - من اللي عليهـا !! - .. ذلك أنها لم تبـدأ الصلاة إلا في سـن الخامسـة عشرة!! عندما أنجبت عمي الكبير.. ورغم هذا المرض الذي كانـت تدعيه كانت تنهض كل ليلة في الفجـر.. فتتوضأ بالمياه الباردة كالثلج - وتجلـس في ركـن الحجرة فوق سـجادة الصلاة التي صنعتهـا من الملابس القديمة.

وحتـى في صلاتها لم تكن «تبطل» الشـكوى فهي تقطـع الآية لتقول: «آه ياني»ثم تستمر في القراءة..

وكان يلذ لي أن أرقبها وهي تجلس في فراشـها وقد تدثرت بأشـياء كثيرة؛ مـلاءة وطرحة.. وجلبـاب قديم.. وبطانيـة.. ولايظهر منها سـوى وجهها

المكرمـش الأبيـض اللامع كأنـه نقطة بيضاء في إطار صنعه الشـال الأسـود الـذي تـصر عـلى أن تضعه فـوق كل هـذا.. وذات يـوم سـافرت والدتي إلى الصعيـد في زيارة لأختها.. وأصبحت جدتي هي ربـة البيت.. وحار والدي مـاذا يفعل في أمر الطعام - وكان واضحًا أن سـفر والدتي هذا سـوف يربك حالة البيت فترة غيابها.. واسـتعد كل منا لتلك الفترة في صمت فليس هناك من يقوم بالعمل سوى خادم صغير يدعى عبد الشافي وجدتي لن تستطيع في مرضها أن تفعل شيئًا..

وفي صباح اليوم الأول قال لها والدي:

«حانتغدى إيه النهارده يانينة»؟..

«أنا عارفة»!!

«طيب.. خدي ابعتي عبد الشافي يشتري أي حاجة».

«حاجة إيه»؟!..

«أهو اتصرفي انتي بأه..».

وكان واضحًا كل الوضوح أننا لن نأكل إلا أشياء خفيفة ولكن .. في ذلك اليوم علت وجوهنا جميعًا دهشة بالغة عندما عدنا من الخارج ووجدنا جدتي تقف وسط الصالة مشمرة عن أكمامها وقد رفعت ذيل جلبابها وخلعت كل مـا كانـت تضعه فوق رأسـها عدا منديـل صغير، وظهر لأول مـرة منذ زمن طويل شـعرها الأبيض اللامع، وكان عبد الشـافي يعمل بهمة ونشـاط وهي تأمـره أن ينظـف هنا وهنـاك.. ودخلنا إلى الحجرات ولم نسـتطع أن نبارحها

خوفًا من صراخها الرفيع العالي ورحنا ننظر إليها من خلال أبواب حجرتنا ونحن مشفقون عليها وقد نسينا الطعام والجوع لقد كان منظرًا غريبًا حقًا. وقلت لها:

«بعدين تتعبي يانينة».

«اخرس انت.. همَّ ستات اليومين دول ستات»؟

وضحكت وأنا أقول لها:

«يعني انتم بس اللي كنتم ستات»؟

«تعال شوف طلعت إيه من الشقة».

وكانت تشير إلى أتربة جمعتها في صفيحة قديمة..

وفي الحقيقة أن البيت أصبح في غاية النظافة.. وكانت جدتي نشطة سعيدة.. ليس بها مرض.. ولم تشك تعبًا.

وتناولنا الغداء في ذلك اليوم مع غروب الشمس.. ولكن أحدنا لم يستطع أن يتفوه بكلمة واحدة.. كان الطعام لذيذًا فعلًا.. والبيت نظيفًا ومرتبًا كأنه جنة!!

وسارت الحياة على هذا المنوال - تقف جدتي في منتصف الصالة.. عاقدة يديها خلف ظهرها.. تروح وتغدو كالقائد وسط المعسكر - وصوتها ينطلق مسرسعًا رفيعًا يأمر وينهي.. وكلنا نطيع في صمت.. ورضًا..

وكان واضحًا جدًّا.. أنها شفيت من مرضها تمامًا.. وأنها أصبحت في قوة الحصان..

ومـرت الأيام.. وعادت والدتي.. وجلسـنا نضحك وجدتي تقص عليها مـا صنعته بالبيـت.. وما أخرجت مـن أتربة من تحـت الدواليب والأسرة.. وتستشـهد بنـا.. ونظـام الطعـام.. وقلـة المـصروف.. التـي عدتهـا مفخـرة المفاخر.

كانـت تتكلـم في قـوة وتفخر كأنهـا انتـصرت في معركة هائلـة وقلت لها
- طيب يانينة.. ما تمسكي انتي المصروف والبيت..

ونظرت إلي بعينيها الصغيرتين.. ثم مصمصت بشفتيها وقالت..

- أشـتغل انا.. وترتـاح امك اظن.. ومدت يدها إلى ظهرها تتحسسـه.. وخفت صوتها في الحال.. وتحشرج وتقطع وهي تقول في أنين بالغ..

- آه ياني .. ياوسطي..

وعادت جدتي مريضة من جديد.

لقمة

كانت مشكلة... إنه لايدري إلى أين يذهب..

وكان يجوس بعينيه الخبيرتين خلال الظلام.. وصوت المعلم الأجش الخشن لا يزال يطن في أذنيه مرعبًا مخيفًا.. وقدماه الصغيرتان تتحسسان الأرض المبتلة.. والطين ينفذ من بين أصابعه الدقيقة.. ويضع لطعتين كبيرتين تحملهما قدماه المتجمدتان.. وتبعثان في جسده من خلال ساقيه الرفيعتين.. قشعريرة قاسية..

وعندما كان يدلف إلى زقاق مظلم شديد الظلمة.. كان جسده الممصوص يرتجف في شدة.. ولمعت عيناه في نهاية الزقاق.. وتحت النور الخافت رأى شبحًا بدا له ضخمًا طويلاً.. مرتديًا معطفًا ثقيلاً وعلى كتفه بندقية.. وهو يتململ في وقفته.. ويدور بعينيه في المكان كأنه يبحث عن شيء تاه منه..

وأحجم هو في أول الأمر.. وكاد يعود أدراجه باحثًا عن مكان آخر.. ومر بخاطره دعاؤه وتوسله قبل أن يذهب إلى المعلم.. وحقًا هو لم يسرح طول اليوم.. كان يشعر في الصباح بتعب يهد جسده الصغير.. ولم يستطع أن يسرح وراء أعقاب السجائر.. وحلاوة شمس النهار.

وطرده المعلم.. وحرم عليه المبيت في الوكالة.. وقال له بصوته الأجش

«روح نام عند أمك».

ولكنـه لم يكن يعرف له أمًّـا ولا أبًا.. وقصته لا يدريها.. وهو لا يعرف في الدنيـا سـوى الوكالة ومن فيهـا.. وكادت ذراعاه تهبطـان إلى جانبيه في يأس لـولا تعلقـه بالأمـل وموجة الـبرودة التي سرت في جسـده حتـى وقفت لها شعيراته الصغيرة الصفراء.

- يارب اعمي عينيه عني.. يارب .. بحق جـاه النبي.. يارب.. وما كاد ينتهي من دعائه حتى غلبه البكاء.

واسـتند إلى الحائـط الخشـن المبزبز برهـة.. وتـألم ظهره المعضـم.. وكان الشبح في تلك اللحظة يطلق سعلة قوية هائلة انتشرت في ا لسكون وتمددت وتعددت وانتفض وأخذ يجوب بعينيه من خلال دموعه في المكان.. ثم خفق قلبه.. وتحرك في بطء وحذر فوق الطين الأملس البارد.

وخلف صندوق القمامة الكبير الهائل الذي يتسع لعشرة من أمثاله جلس ملتصقًا به في خوف وكأنه يحتمي بالجماد من الإنسـان ومضى الوقت.. وساد الصمـت.. واطمـأن عندمـا خفت حركـة العسـكري وسرى الاطمئنان إلى نفسـه وحاول أن ينام دون جدوى.. كانت أمعاؤه تتلوى من الجوع وقد بدأ يزحـف إلى فكـره في وضـوح بعد ذهاب خوفـه. وأخذ يجول خـلال القمامة بعينيـه.. وكاد يمـد يـده مرات لـولا خوفه في تلـك الرجفة اللعينـة.. وأخذ يسـحب يده في بطء من تحت إبطه.. ثم توقف.. ثم سـحبها في بطء شديد.. ثـم توقف خوفًا من الرعدة.. وظل مدة مسـمرًا لاهث الأنفاس.. وأخيرًا.. خرجـت يـده.. ومدها إلى القمامـة الطافحة من الصندوق وأخـذ يعبث فيها

بيده ويجوس خلالها.. ثم لم يجد بدًّا ففرد ذراعه الثانية وهو يطلق أنَّة مرتعشة مرتجفة.. ثم انحنى على الكوم الرطب المبلل.

وفجـأة.. سـمع صوتًـا خفيفًا خفيضًـا يقترب ويقـترب وانتفض قلبه في عنف وخوف.. وتسمر لا يسـتطيع الحركة واقترب الصوت.. وعندما ظهر شـبح الكلـب الأعجف أمامـه.. كاد يطلق صرخـة ثانية.. وسـقط قلبه بين ضلوعه من الهلع.. ثم اسـترد أنفاسه بعد لأيٍ.. والتقت عيناه بعيني الكلب اللاهث المزمجر.. وظل كلاهما يسـتفز صاحبه.. كان لسـان الكلب متدليًا.. وأسنانه بارزة قبيحة.. وصوته يخرج من جوفه لاهثًا صاخبًا.. وذيله متقلص ملتصق بفخذيه.. والتصق هو بالصندوق.. وقعت عيناه على لقمة.. وعندما مد يده إليها.. زمجر الكلب وهو ينظر إليه محذرًا بنظرة نارية.. وسحب يده.. واطمأن الكلب وعاد إلى البحث من جديد.. وكان يعلم أن الكلب سيشمها ويجدهـا.. ولكـن الكلب ابتعد عـن مكانها.. واسـتدار في اطمئنان إلى مكان آخـر. وانتهز هو هذه الفرصة.. ومد يـده بسرعة واختطف اللقمة.. وأحس به الكلب.. وتقلص ذيله والتصق بفخذيه في تحفز.. وكشَّر عن أنيابه.. وظل يزمجر برهة.. ثم اسـتدار يبحث من جديـد.. واطمأن هو قليلًا.. ورفعها إلى فمه وقضم منها في بطء وحذر.

وكان الكلـب قـد بدأ يصـدر أصواتًا خافتة يائسـة.. واسـتدار ينظر إليه كأنـه يطلب معونة.. وكان هو يمضغ في ذلك الوقـت لقمة يلوكها في فمه.. وتعلقـت عينا الكلب به.. وظلا كلاهما ينظـر إلى الآخر برهة.. كان أعجف معضمًا مثله تمامًا وأخذ الكلب يقترب في مودة.. وذيله يتطوح في سلام آمن.. ولكنه أشـاح عنه.. وظل يمضغ وأحس بقوة تجذبه للنظر إلى الكلب.. وهو

قد تعود أن يشيح عنه الجميع وما تعود أن يشيح عن أحد.. والتقت عيونهما من جديد.. ووقفت اللقمة في حلقه.. وتوقف برهة.. ثم مد يده الأخرى واقتطع لقمة ألقى بها إلى الكلب الذي أخذ يلتهمها في شراهة.

واقترب الكلب في بطء.. وهو يرقبه في غير اكتراث. ثم أسند رأسه إلى الصندوق.. وارتعش.. وأخذ الكلب يقترب.. ورآه يمد بوزه الأسود الطويل.. ثم أحس بلسانه الساخن يلعق قدمه الصغير.. وشعر لملمس اللسان بدفء لذيذ.. تسرب كخيط رفيع أخذ يمتد إلى كل جسده.. وابتسم.. ورفع الكلب رأسه.. والتقت عيونهما من جديد وكان الكلب يهمهم وهو يلعق الكف الصغيرة التي امتدت بلا رعشة تمسح على رأسه وتحتضنه وذيل الكلب لا يكف عن الاهتزاز أكثر وأكثر.. وضحك هو ضحكة خافتة.. ثم قال وهو يربت على رأس الكلب:

«أنا اسمي بلية.. وانت اسمك إيه؟».

ودفن الكلب رأسه في حجر بلية.. الذي أسند رأسه هو الآخر إلى الحائط.. ونام.

أنـــا عايـــزاك إنـــت

حقًّا لقد اختلفنا كثيرًا - سوسن وأنا - في السنوات الأخيرة، لكنها كانت خلافـات طبيعية تحدث في كل بيت وبين كل اثنين اختارا - بمحض إرادتهما - أن يعيشـا معًا في بيت واحد وتحت سـقف واحد في شركة مقدسة يطلقون عليها اسم الزواج!

وأنـا لا أذكـر أنني أحببـت «سوسـن»- زوجتي - هذا القـدر من الحب الـذي يدفعني إلى مغامرة الزواج.. فالزواج عندي في البداية والنهاية أمران، مغامرة ومسئولية!!

مغامرة، لأنني فتحت عيني على الدنيا لأجد أبي يكدح منذ الصباح حتى المساء في عمل متواصل وشاق.. حتى يوفر لنا - أمي وأمه وإخوتي الخمسة، ثـم انضمت إلينـا فيما بعد عمتي وولداها بعد أن تـوفي زوجها - لقمة عيش كريمة، كان كل همه في الدنيا أن نأكل جيدًا حتى ولو كان الأكل «قرديحي»بلا لحـم، وأن نرتـدي ملابس لائقة، حتى ولـو كنا نرتديها بالتبـادل أو التقادم، فملابس الكبير تئول إلى الصغير في العام التالي وهكذا..

لم نكن نراه إلا في الصباح الباكر قبل ذهابه إلى عمله، وهو يسـأل كلًّا منا عـن أحواله وعن مدرسـته وعما ينقصـه، لا فرق بين واحد منـا وبين ولدي عمتي اللذين انضما إلينا بعد وفاة والدهما.

كان الـزواج مـن وجهة نظري مغامرة لهذه الأسـباب.. فالذي يختار حياة كالتـي عاشــها أبي، لا بد أن يكون مغامرًا.. وهو مسـئولية لنفس الأسـباب، فعندما توفي زوج عمتي، انتقلت مع ولديها إلى بيتنا في هدوء وبشـكل طبيعي ودون مناقشة.. كانت هذه مسئولية أبي، فراح يؤديها في صمت ودون كلام!

لست أبغي بهذا اللغو أن أصدع رءوسكم بقصة حياتي، ولكنني فقط أريد أن أقول: إنني عندما تزوجت سوسـن، انتقيتها من وسـط عشرات الفتيات اللـواتي مـررن في حيـاتي.. ولقد كانت صـورة أمي – دون شـك – ماثلة في ذهني وهي تكدح، هي الأخرى! منذ الصباح المبكر حتى يعود أبي في سـاعة متأخـرة مـن الليل، فيما بين غسـيل وطبيخ ورفو جـوارب وتفصيل قمصان وجلابيـب وبيجامات وكي ملابس إلى آخـر كل هذه الواجبات المنزلية التي اندثرت في جيلنا هذا ولا أدري كيف ولماذا؟!

على كل الأحوال، فأنا أعتقد أن سوسن هي الأخرى لم تحبني ذلك الحب الذي يجعلها تضحي بأي شيء من أجلي.. كنت عريسًا ملائمًا من كل الوجوه فقبلني أهلها كما قبلتني هي وتزوجنا وكنا سعيدين تلك السعادة الفاترة التي لم تقرأ عنها في القصص ولم تشاهدها في الأفلام أو المسلسلات!

كنـا سـعيدين دبرنا أمورنـا منذ البداية تدبـيرًا جيدًا، وضعنـا النقط فوق الحروف، كما وضعنا راتبها فوق راتبي.. ورتبنا حياتنا بدقة، وعشنا في قناعة

مثلنا مثل غيرنا من الناس، نسعد بتلك الأشياء الصغيرة التي إذا ما وجدت في حياتنا جعلت لها طعمًا خاصًّا.. وعندما أنجبنا سامي - طفلنا الأول - ازدادت بالطبع سعادتنا.. بل إني أستطيع أن أزعم، أن سامي أضاف إلى هذه الحياة رونقًا جديدًا، دفعنا إلى التطلع بعض الشيء نحو تحسين مستوانا الاجتماعي. وكان هذا الأمر قبل مجيء سامي لا يشغل بالنا كثيرًا.. فلقد فكرت سوسن - مثلًا - أن الولد لو تعلم في مدرسة أجنبية، فلسوف تفيده اللغة في المستقبل، خاصة أن الزمن أصبح غير الزمن، والدنيا لم تعد هي دنيانا التي عرفناها.. كان المجتمع يتغير من حولنا بعنف أصابنا في البداية ببعض الارتباك.

ودخلت حياة الناس - ونحن منهم - أشياء جديدة لم تكن موجودة من قبل.. وأنا لا أستطيع أن أنكر أنني أحسست بالزهو لأن ولدي سوف يلتحق بمدرسة أجنبية.. بل إني رحت أذكر هذا بين زملائي وزميلاتي في العمل، مدعيًا أني آخذ رأيهم في الموضوع، بينما كنا - سوسن وأنا - قد اتخذنا القرار بالفعل.. ولم يكن حديثي عن الموضوع إلا لإعلام الزملاء والزميلات أني أصبحت أبًا لطفل يتعلم في مدرسة أجنبية وبالتالي فهي مدرسة خاصة، وأن مصاريفه التي تبلغ كذا ترهقني، وأن كتبه التي دفعت فيها كذا تبدو رائعة، وملابس المدرسة كلفتنا الشيء الفلاني.. و .. وليس عيبًا أن أعترف أني كنت أشعر بلذة حقيقية وأنا أتحدث في الموضوع، وكان الولد سوف يشدني معه إلى حيث ما أتمناه ولا أدريه!!

كنت واعيًا تمامًا، كما كانت سوسن واعية، إلى تلك العقدة التي ترسبت في نفسي من حياتي في بيت أبي، وازدحام البيت بالأطفال، وذلك الحرمان

الطبيعـي والمنطقـي الـذي فـرض علينـا.. بـل إننـا كنـا نناقـش الأمـر معًا، ونضحـك منـه وعليه وأنا أحكي لها نوادر من حيـاتي في بيت أبي الذي نجح في تربيتنـا جميعًـا، وتعليمنا جميعًا.. ثـم ماتت جدتي وبعدهـا عمتي وتخرجنا واحـدًا إثـر الآخر، وتفرقنا في دروب الحياة ولم يبق معه في البيت سـوى أمي وأختـي الصغرى فاطمة التي كانت تسـتمع لما كان يحـدث في حياتنا الماضية في دهشـة ممزوجة باحتقار كان يضحكنا منها، ذلك لأن فاطمة عندما شـبت عـن الطوق، كان فينا من تخـرج ومد يد المعونة إلى أبينـا، وكان فينا من يحبها - لأنهـا آخر العنقود - إلى حد التدليل المفسـد.. وكانت الحياة بالنسـبة لأبي قـد أصبحـت أكثر ليونـة وأقل تعبًـا، بالرغم من أنه لم يكف عـن العمل منذ الصباح حتى المساء!

وما علينا من كل هذا، فإن المشـاكل بيني وبين زوجتي سوسـن لم تتفاقم إلا بعد أن أنجبنا طفلتنا الثانية شرين!

فجأة ازدادت مسئولياتي!

الولـد في مدرسـة أجنبية وهذا شيء كانت له أولويـة خاصة عندي - ولم تكـن هـذه جريمـة على كل حـال - فإن قليلًا مـن التطلع وسـط مجتمع كان التطلـع قد أصبح سـمة من سـمات أفراده، أمر مقبول ولا غبـار عليه.. لكن البنـت ولدت ضعيفة وفي حاجـة إلى رعاية دائمة، وكان أجر الطبيب قد قفز من جنيهين في الزيارة إلى عشرة جنيهات.. والتهبت الأسعار فجأة كما تشب النـار في كومـة من القش.. ووجدنا أنفسـنا - سوسـن وأنـا - كمن تحيط به «حريقة» مـن كل جانب.. حقًّا كان راتبي وراتبها قد زاد قليلًا، ولكن، ليس

بنسبة تلك الزيادات التي أربكتني رغم أني منظم وأعرف كيف أضع القرش في مكانه.. غير أني استطعت - بمساعدة سوسن - أن أعيد التوازن إلى حياتنا بشكل أو بآخر، ولكن.. أي توازن هذا؟!

كان كل شيء من حولنا يتغير بسرعة مجنونة، وكانت احتياجاتنا تتزايد يومًا بعد يوم، ومصاريف الولد وطلباته واحتياجات المدرسة وأجر الأتوبيس تقصم الظهر، وبدأنا نفتقد - هي وأنا - هذا السلام الذي رفرف طويلاً في سماء حياتنا، والذي يطلق عليه الناس اسم «راحة البال».. ولكن الأمر لم يكن معضلة على كل الأحوال، فلقد أصبحت مسئولًا الآن عن عائلة، وكان لا بد لي أن أتدبر الأمر وأتحمل مسئوليتي.. وهكذا قررت ذات يوم أن أبحث عن عمل إضافي!

ولا بد لي من الاعتراف بأني لم أتخيل أن الأمر سيكون بهذه السهولة، وعندما طرحت الفكرة على سوسن، أطلت عليَّ من عينيها نظرة كانت تستغيث،فلأنها مسئولة عن مصروف البيت فلقد كانت تعاني معاناة صامتة وإن كنت أسمع صرخاتها في النظرات المتوسلة حينًا، المتحسرة أحيانًا.. وعلى سبيل المثال، فلقد عجزنا ذات شتاء عن شراء «بلوفر» جديد لسوسن بعد أن تهدلت البلوفرات الثلاثة التي تملكها.. كل ما قالته هي أنها خائفة عليَّ من التعب، ثم ابتسمت وهي تقول:

«علشان تحرم تعايب على أبوك!».

وعندما وجدت عملًا في إحدى الشركات الجديدة، بدا لي الأمر مبهرًا حتى أقصى درجة.. فالمكاتب كانت جديدة، والحيطان نظيفة، وكل منا على

مكتبـه تليفون، لكن الأهـم من هذا كله، أن السـعاة كانـوا يعاملوننا باحترام ويلبـون طلباتنا بسرعـة.. وكان الراتب الذي عرض عـليَّ - كبداية - يفوق راتبي بعشرة جنيهات، رغم أن ساعات عملي كانت «بعض الوقت»- وهذه هـي الترجمة الحرفية للتعبير الإنجليزي الذي يسـتعمل في مثل هذه الحالات - وكانت ساعات عملي بالتحديد، من الخامسة حتى التاسعة مساءً، وما زاد على هذا من ساعات، فهناك أجور إضافية!

الحق أقول لكم أني شـعرت بزهو شـديد وكان ولدي قد التحق بمدرسة أجنبيـة للمـرة الثانيـة.. غير أنني إلى جانـب هذا، داخلني إحسـاس غامض بتأنيب الضمير. وهو إحسـاس كان يعكر زهوي وسعادتي لوقت، فقد كنت أشـعر بالزهو؛ لأنه مع تدبير سوسـن وخلو حياتي من المكيفات والسهرات ومـا إلى ذلك جعلني أوازن، وبسرعة غير متوقعة، حياتي الاقتصادية.. ليس هذا فقط، بل إننا في خلال ثلاثة أشـهر - وهو زمن قصير في عمر العائلات - اسـتطعنا أن نشـتري «الملون»بالتقسـيط - وكلمـة الملـون هـذه كناية عن التليفزيـون الملـون الـذي انتشر فجأة وأصبـح حديث النـاس في تلك الأيام - ولم يعـد حديثي مقصورًا على الولد ومدرسـته الأجنبية والمصروفات التي أدفعهـا له، بل امتـد إلى «الملون»الذي يضيف إلى المسلسـلات بهاءً ورونقًا.. هـذا، بالرغـم من أننـي - بصراحـة - كنت أسـتمتع أكثر إذا ما جلسـت في غرفة الولد والبنت حيث نقلنا التليفزيون الأبيض والأسـود، لمشاهدة أفلام السـهرة، خاصـة الأجنبيـة منهـا حتـى أدرب نفسي عـلى اسـتعمال اللغة مع الأجانب الذين يعملون في الشركة أو يتوافدون عليها!

كانـت هنـاك أشـياء كثـيرة تبعث عـلى الزهـو والتباهـي، منها مثـلاً أني استطعت أن «أفكـر»– بعـد الشـهر الخامـس – في شراء سـيارة صغـيرة... ذلـك أن الشركة كانت تعمل في كل اتجاه ممكن، وكان مديرها المصري رجلًا كالقشـاط، ما إن يدخل في عملية حتى نشـعر أن ثمة سوطًا يلهب ظهره كي يفوز بها، فكان يجندنا جميعًا لدراسـتها والعمل فيها.. لم يكن يعنيه أن نسـهر أو نقبـض «أوفرتايم»، كان كل مـا يعنيه أن يحصل على نتائج سريعة ودقيقة، لأنه هو نفسه كان يحصل على نتائج باهرة، تدفعه لأن يوزع علينا «بونص»– مكافأة – وصلت ذات مرة إلى مائتين من الجنيهات لكل منا!

ثـم اسـتدعاني المديـر ذات يوم وقـال لي باختصـار ودون لـف أو دوران وبصوت شـديد الخفوت، إن العمل في الشركة أصبح يحتاج إلى جهدي «كل الوقـت» لا «بعـض الوقت».. وإن علي – في خـلال يومين لا أكثر – أن أفكر وأن أختار، وإلا.. فلسوف يصبح في حل من توظيف غيري!

وهكذا وجدنا أنفسـنا – سوسن وأنا – في مأزق.. كنا قد استطعنا بالكاد أن نلتقـط أنفاسـنا خـلال شـهور ثمانية مـرت منذ أن تسـلمت هـذا العمل الإضـافي، بل الحقيقة أننا كنا قد تعودنا على اسـتعمال أشـياء لم تكن موجودة في حياتنـا.. ومع اعـترافي الكامل بأنها في غالبيتها العظمـى كانت كمالية، إلا أني كنـت قد أصبحت أراها ضرورية.. فأنا رجل يتعب ويكدح حتى سـاعة متأخرة من الليل.. وكان من حقي وحق أولادي وزوجتي أن نسـتمتع بثمار هذا الكدح والتعب!

وهنا، وفي المهلة الأولى التي حددها لي المدير بيومين، بدأ ذلك الإحساس الخفي بتأنيب الضمير يتضح أكثر، ويفرض نفســه، ويبرز ويشــكل في حياتي مشكلة حقيقية.

لســت أريد أن أدعي أني مثالي أو وطني متحمس أو أيٍّ من هذه الألفاظ التي كنت أقرؤها في الصحف، ولكني كنت أواجه حقيقة بدت لي مؤسفة.. وهي أن كل الذي أعطيه لهذه الشركة، قد تعلمته من عملي الحكومي.. كانت الحكومة وهي تعطيني راتبي كل شــهر، تعلمني أشــياء كثيرة حتى أصبحت «خبيرًا» في الفرع الذي تخصصت فيه.. وأنا لم أسمع عن نفسي كلمة «خبير» هــذه إلا في الشركــة التــي التحقت بها.. ســمعتها من المدير ذات مســاء وهو يقدمنــي لواحــد مــن رجال الأعــمال الأوربيين اللامعــي الوجــوه الذين كنا نراهم كثيرًا عندنا.. ولقد ظننت في البداية، أن الرجل يجاملني، ثم اكتشــفت أني أعامل بالفعل، ومع الجميع، كخبير.. فعرفت قيمة نفسي لأول مرة!

ودون إطالة في الحديث، لقد اتخذت القرار بأن آخذ الإجازة بدون راتب كــي أعطي جهدي كله للشركة.. مــن الثامنة صباحًا، وحتى ما بعد منتصف الليل بساعة أو أكثر!!

ومر عامان!

عامان من عمر الزمن، لكنهما كانا قرنين في عمر حياتي مع سوسن!

كنا قد اشــترينا الســيارة وانتقلنا إلى شــقة مرتفعة الإيجار دفعنا فيها خلوًّا وصــل إلى رقــم لم أحلــم في حياتي - قبل هذا - أني ســأراه مرة بعيني رأسي.. ثم غيرنا أثاث البيت، وأصبح لســامي غرفة خاصة، ولفاطمة غرفة أخرى..

واشـترينا الفيديـو، ثـم توجنـا كل هـذا، بشراء سـيارة خاصة لسوسـن لأن توصيلي إياها إلى مقر عملها في الصباح، كان قد تحوّل إلى أزمة!

كان كل شيء في حيـاتي يبـدو كأنـه منضبـط مـع إيقاع العـصر! حتى إذا كانــت ليلة عــدت فيها من عملي لأجد سوســن مكتئبة، وعندما ســألتها عما بها، سألتني بدورها.

«طب وبعدين؟!».

لم أفهم ما الذي كانت تقصده بسـؤالها، كنت متعبًا مجهدًا أفكر في الصفقة الجديدة وذلك الاجتماع الذي سيعقد في السابعة على مائدة الإفطار في واحد من أفخم فنادق القاهرة، مع بعض الخبراء الأجانب لاتخاذ قرار نهائي في أمر هذه الصفقة التى ستدر على الشركة أرقامًا فلكية!

ولقــد تركتنــي سوســن ليلتهــا بعــد أن أحســت بتعبــي.. غير أننــي بعد ذلـك، وكلـما عدت إلى البيت، كنت أجدها في انتظاري، وعلى شـفتيها نفس السؤال:

«طب وبعدين؟!».

وكان لا بد أن نناقش الأمر كما هي عادتنا.. ولكنني قبل أن أبدأ المناقشـة اكتشـفت شـيئًا غريبًا، هو أنني خـلال العامين اللذين انقضيـا منذ التحقت بهذه الشركة، لم أكن قد جلست إلى سوسن لمناقشة أي أمر من أمورنا. وأنني كنت أتخذ القرارات بسرعة وحسـم.. ثم أنني تذكرت أنها – بالنسـبة لبعض قـراراتي – كانت تحاول المناقشـة، ولكن حججي كانـت دائمًا جاهزة كمدفع رشاش يسكتها تمامًا وإن بدا عليها عدم الاقتناع!

في تلك الليلة قالت لي سوسن: إنها لم تعد تراني، وإنها لم تجلس إليَّ منذ أن عرفت الطريق إلى هذه الشركة، وإنها تشعر - وكذلك الولد والبنت - بفراغ ووحدة مخيفة، وإنه لا بد من وضع حدٍّ لكل شيء.. لا بد وأن نعيش معًا!!

حقيقة لم أفهم!!

فما الذي كانت تريده مني أكثر مما قدمت لها وللطفلين؟!

صاحت سوسن!

«أنا مش عاوزة عربيات ولا فيديو ولا ملون.. أنا عايزاك انت!».

مرة أخرى لم أفهم!

الغريب في الأمر، وهذا ما لم أصل إلى سبب مقنع له، أنني فوجئت بالمناقشة بيني وبين سوسن تتخذ طابعًا عصبيًّا للغاية، لدرجة أن صوت سوسن كان يعلو فيستفزني، ليعلو صوتي فوق صوتها فيستفزها، ثم اشتبكت كلماتنا وتصارعت، وهي لا تقول شيئًا كلما عددت لها ما فعلته سوى:

«أنا مش عاوزه ده».

«أمال عاوزه إيه؟!».

«عاوزاك انت!».

«طب ما نا أهوه!».

«إنت فين؟!».

«إنتي اتجننتي.. ما انا قدامك أهو!».

«أيوه.. بس انت مش موجود!».

ولقد تعبت كثيرًا، فأنا رجل مخلص، لم أعرف في حياتي امرأة غير زوجتي، وأنا لا أزال والحمد لله بلا هوايات ولا أهواء وليست لي حياة خاصة.. وكنت إذا ما قلت هذا، تعود إلى الصراخ في هستيريا مؤكدة:

«مش ده.. مش ده!».

«أمال إيه بس ياسوسن؟!».

«إنت .. إنت.. أنا عاوزاك انت!».

وهي، وحتى اليوم، ورغم مرور الشـهور لا تـزال تطالب بنفس الطلب وما زلت أصيح فيها كلما سمعت صراخها:

«طب ما نا أهو!!!».

البنـــدول

استيقظ حسين على صرخات زوجته.. كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة صباحًا بدقائق.. رآها تتململ في رقدتها، بطنها المنتفخ عاليًا كالقبة فوق جسدها، غمغم وهو لا يزال بين اليقظة والنوم:

«ما لك يا سناء؟!».

قالت سناء بصوت متقطع:

«يظهر المرة دي الحكاية بصحيح يا حسين!».

استدار بوجهه إلى الحائط وهو يقول: «ما تعقلي يا سناء.. الدكتور قال لسه بدري!».

«لا يا حسين.. المرة دي غير المرة اللي فاتت».

لا فائدة من النقاش.. لن يستطيع أن يقنعها أن موعد الوضع لم يقترب، وأن الولادة لن تتم إلا بعد أسابيع.. قال وهو يتقلب، ويواجهها بعينيه نصف المغلقتين:

«وإذا كان لسه يا بنت الناس؟!».

ردت عليه سـناء بصرخة طويلة.. تمامًا كما حدث منذ أسبوع.. أيقظته في منتصف الليل، وظلت تـصرخ وتصيح وتتوجع حتى غادر البيت.. وسـار مشـوارًا طويلًا، من البيت المدفون في حارة عبد المنعم إلى الميدان الذي يصل إليه الراكب بعد خمس دقائق.. وهو يومها لم يركب، لم تكن هناك مواصلات، فسـار، وفرد ساقيه بكل ما فيهما من طول، وجرى خطوات.. وعثر على بائع سـجائر مـازال يبيـع لزبائن آخـر الليل.. ومن هنـاك تحدث مـع الطبيب في التليفون:

« ألا بتولد؟ .. طبعًا يا دكتور دي حالتها وحشة جدًّا..»..

وصدقه الطبيب، وجاء بعد دقائق، كانت سناء مازالت تصرخ.. وكشف عليهـا ضغـط بيديـه على بطنهـا.. عبث بأصابعه في جسـدها.. ثم هز رأسـه وقال:

«لسه بدري.. لسه تلات أسابيع على الأقل!».

غرق حسـين ليلتهـا في عرق الخجل.. لم يـرد، فماذا يقـول للطبيب الذي غـادر البيـت دون أن ينطـق بكلمـة؟ كان غاضبًا ولا شـك.. دلع سـتات.. وسناء نامت بعد ذلك، ولم تتوجع.. ولم تلد..

«يا حسين المرة دي بصحيح!».

«يا شـيخه اعقلي.. نامي.. نامي». لكنها لم تنم.. ظلت تتوجع، وتصرخ، وتصيح.. وهو حائر.. هل ينادي الطبيب، أم يصبر قليلًا؟! المشـكلة بالنسبة إليـه عويصـة.. عويصة جـدًّا.. إنه ليس طفلًا، وليس شـابًّا غريـرًا مندفعًا..

والطبيب ليس لعبة في يده، تعال يا دكتور، روح يا دكتور.. الساعة الثالثة صباحًا.. هل يوقظه من النوم؟!.. غير معقول..

سناء تصرخ.. تزداد صرخاتها.. المصيبة أنهم غرباء.. ليسوا في بلدهم، لا أهل لهم في العاصمة ولا حتى قريب.. وليست عندهم خادمة قالوا له: «خدامين مصر ماشيين على كيفهم!».. ومنذ أن نقل من بلده إلى القاهرة.. منذ عام وأكثر قليلًا، وهو متردد.. هل يجازف.. يستدعي الطبيب ويحدث ما حدث في المرة الماضية، أم يصبر قليلًا حتى يتضح الأمر أكثر؟!

كان رأيه في البداية أن يستدعيه.. لذلك نهض من الفراش.. وربت على كتف سناء.. وتمطى.. ثم خرج إلى الصالة وأضاء النور..

وتعلقت عيناه بساعة الحائط، والتي أهداها له أبوه.. كانت الساعة بالضبط بالضبط.. الثالثة وتسع دقائق.. وكان البندول يروح ويجيء إلى اليسار وإلى اليمين، لا يستقر على وضع أبدًا.. منذ أن وعى وهو يراقب هذا البندول.. تيك تاك.. تيك تاك.. هل يستدعي الطبيب، أم ينتظر حتى يتضح الأمر أكثر؟!

العاقل من صبر.. والطائش من اندفع..

- آآآه... يا حسين.. الحقني.

اندفع إلى الحجرة في قفزة..

- ما لك يا سناء؟

- تعبانة.. تعبانة يا حسين..

في عينيها نظرة مخيفة.. فيها توسل وألم.. فلماذا ينتظر؟!..

- حالًا يا حبيبتي.. حالًا..

وغادر الحجرة مسرعًا .. مر بالساعة ولم ينظر إليها، لتكن الثالثة أو الرابعة.. هذه وظيفة الطبيب، إنه يتقاضى أجرًا عن عمله هذا.. ليس هناك مجال للتردد إذن..

وضع رأسه تحت الصنبور، وترك المياه تتسلل إلى شعره ووجهه.. وأفاق.. واختطف الفوطة ولف بها رأسه.. وغادر الحمام..

في طريقه إلى الحجرة.. مر بالصالة.. وفي منتصف الصالة، وقف كعادته يجفف رأسه ووجهه.. أمام الساعة التي كانت تشير إلى الثالثة واثنتي عشرة دقيقة بالضبط بالضبط بالضبط.. والبندول يروح ويجيء ولا يستقر على حال..

ماذا لو استدعى الطبيب كما حدث في المرة الماضية.. هل يحتمل نظرة الاستنكار التي رماه بها وهو يغادر البيت؟ هل يثور عليه لو فعلها اليوم؟.. هل يلقنه درسًا في الأخلاق والرحمة و..؟ ولكن الطبيب لم يفعل شيئًا.. إنها مجرد نظرة.. أين الخطأ؟ وأين الصواب؟!

شيء محير حقًّا!.. جلس على المقعد وتعلقت عيناه بالبندول.. تيك تاك.. تيك تاك.. لا.. لا يجب أن يطاوعها.. قال الطبيب في المرة الماضية إنها لن تلد قبل ثلاثة أسابيع.. ولم يمر سوى أسبوع أو أقل من أسبوع.. لا.. لتصرخ نصف ساعة.. ثم تنام كما نامت المرة الماضية.. وستخجل من نفسها لأنها أيقظته في تلك الساعة..

المفروض أن يستأجر خادمة.. في وقت كهذا كان يستطيع أن يترك معها الخادمة، لكنه الآن لا يستطيع أن يخرج.. كيف يتركها وحدها في البيت وهي في هذه الحالة.

- يا حسين.. يا حسين اتحرك شوية.. أنا خلاص..

انتفض واقفًا.. ودخل عليها الحجرة.. ثم قال لها وهو يرسم على شفتيه ابتسامة: «مش نستنى شوية يا سناء.. يعني لو..».

ولم يكمل كلامه حتى عادت إلى الصراخ من جديد.. كان وجهها شاحبًا شاحبًا.. وعيناها واسعتين، أوسع مما كانتا دائمًا.. ولكن هذا حدث في المرة الماضية.. تمامًا نفس الصرخات ونفس الشحوب.. وقال الطبيب: «دي شوية تقلصات بسيطة، إنما مافيش وضع.. لسه بدري.. لسه ثلاث أسابيع!».

- الدكتور قال المرة اللي فاتت إن..

وعادت تقاطعه بصرخاتها.. كانت تتلوى في الفراش..

- انده لي حد يا حسين.. شوف لي حد..

هذا هو الحل.. لماذا لا يوقظ جيرانهم، ويطلب من سلطان أفندي أن يرسل زوجته لتقف معها.. إن سلطان أفندي أب لستة أولاد.. وضروري ضروري ضروري أن تكون زوجته ذات خبرة في مواضيع كهذه..

- حاضر.. يا سناء.. حاضر..

غـادر الحجـرة، وكالعـادة، كالعادة فقـط تعلقت عيناه بالسـاعة.. كانت الثالثـة والربـع تمامًا تمامًـا تمامًا.. الثالثـة والربع يعني قبل الفجر بسـاعة على الأقل، فهل يوقظ الناس من نومهم؟! مشكلة!!

مشـكلة لأنه منذ أن جاء إلى القاهرة ومنذ أن سكن هذا البيت.. ومنذ أن رأى سـلطان أفندي لم تتعد علاقته به سـلام عليكم عليكم السـلام، فقط.. حتـى العائـلات لم تتـزاور.. كانـت أمـه تقول له إن سـتات مـصر لهن طابع خاص.. متحررات.. مكشوفات.. و .. «وياما البيوت بتلم بلاوي»..

لم يكن عنده مانع من أن يزوره سلطان أفندي مع الست حرمه.. ولم يكن عنـده مانع من أن يأخذ سـناء ويعبر بها الدهليـز الصغير، ثلاث خطوات أو أربع، ويصبح في مسـكن سـلطان أفندي.. والجار للجار مهـما كان.. ولكن لنفرض أن الست حرم سلطان أفندي كانت مثلًا مثلًا مثلًا، لتاتة.. من ذلك النوع الذي يقول: «فلانة قالت وعلانة عملت..»وما له هو وهذه المشاكل؟ حقًّـا لم يحـدث من هؤلاء الناس شيء منذ أن جاورهـم.. ولكن من يضمن له أن البيوت لا تلم بداخلها البلاوي؟!

هـل يوقظ الناس من نومهـم في مثل هذا الوقت؟!.. ومـاذا يقولـون عنه سـيقولـون: «لما احتاج لنا جه يزحـف ويقول في عرضكم»!.. ولنفرض يعني لنفرض أن سلطان أفندي رماه بنظرة كالتي رماه بها الطبيب ماذا؟!

انقطع حبل أفكاره، قطعته صرخة سناء الحادة كالسكين، ومازال البندول يتردد، تيك تاك، تيك تاك.. لا يستقر على حال..

- يا حسين.. يا حسين!

عاد إليها مرة أخرى.. نفس الشحوب.. لكن في العينين نظرات مختلفة.. فيها خفوت.. فيها ذبول.. إذن ستنام.. كان معه حق..

- حسين أنا دايخة ياحسين.. أنا تعبانة..

اندفع نحوها بقلب متمزق.. اندفع كالمجنون وأحاطها بذراعيه.. جسدها ساخن.. ساخن جدًّا..

- ما لك ياسناء؟

- الحقني يا حسين.. الحقني بالدكتور..

هذا هو الحل.. ليس هناك حل سوى هذا..

- حاضر يا سناء.. حالًا..

خلع البيجامة.. وألقاها على طرف الفراش، وفي ثوان كان يرتدي القميص والبنطلون.. ويدس قدميه في الحذاء.. ويعبر الصالة كالصاروخ دون أن ينظر للساعة.. ويفتح الباب.. ويغلقه وراءه.. ويهبط الدرج مسرعًا.. ويندفع إلى الحارة.. ومنها إلى الشارع الموصل إلى الميدان، ويفتح ساقيه بكل مافيهما من طول ويعدو عدة خطوات، ثم يسير مسرعًا تارة.. قافزًا تارة.. ويقترب من الميدان.. وبائع السجائر مازال يبيع لزبائن آخر الليل.. والتليفون موجود.. وسيوقظ الطبيب، سيقول له: «المرة ديه بصحيح يا دكتور.. الحالة وحشة جدًّا.. والله العظيم وحشة»!.. ولكن..

ولكن.. ماذا يفعل لو رفض الطبيب؟!

تسـمر حسـين أفندي في مكانه.. بينه وبين التليفون عدة خطوات.. وهو مقتنـع تمامًـا بـأن هذا هو عمـل الطبيـب.. ومقتنع بـأن زوجته سـناء تتألم.. ولكن.. ماذا لو زال الألم فجأة؟ ألا يصبح موقفه محرجًا؟ هل يصدقه الطبيب في المرة القادمة؟! ستكون ولادة بحق وحقيق، ولنفرض لنفرض لنفرض أن الطبيب رفض الحضور.. ماذا يفعل؟!

في التأني السلامة.. وفي العجلة الندامة..

الميدان خال ليس به أحد.. الأنوار كثيرة تضيء كل شبر في الأرض.. السماء مظلمة وساكنة.. وحسين ليس طفلًا، وليس شابًّا أرعن.. يجب عليه أن يأخذ جانب الصواب دائمًا.. ولكل حقيقة وجهان.. ولكل وجه ملامحه الخاصة.

هل كان مصيبًا عندما وافق على الزواج؟!

الغريـب أنـه لم يعرف الجواب حتـى الآن.. أحيانًا كان يشـعر بأنه أخطأ، فـما له هو والخوف من الخادمات، ومن زيارات الجيران؟! وماله هو والحمل والولادة؟!

وأحيانًا كان يشـعر بأنه كان على صواب.. سناء جميلة، ولطيفة.. وتحبه.. حقًّـا تحبـه رغـم أنهـا لم تـره إلا عندما أخـذه أبوه – عنـوة – إلى بيت نسـايبه ليخطبهـا.. ورغـم أن فارق السـن بينه وبينها كبـير، عشرون عامًـا تقريبًا.. لكنها تحبه.. ولكن، من يدريه أنها تحبه؟!

ربـما كان ذلك تظاهـرًا، وربما كان رضا بالأمر الواقـع.. لكنها دائمًا تقوم عـلى راحتـه، ولا ترفض له طلبًا.. أحيانًا كانت تقبلـه بعنف، وتقول له: «أنا من غيرك ولا حاجة.. أنا بحبك يا حسين.. إنت بتحبني؟!».

وكان يحتـار أيضًا.. هل هو يحبها؟! طبعًا طبعًا طبعًا كان يقول لها: «طبعًا بحبك ياسناء.. مش مراتي!»لكنه بينه وبين نفسه - في الحقيقة في الحقيقة - لم يكن يدري ما هو الحب! هل..

بـترت أفكاره صيحـة جندي البوليس، «آها..»أطلقهـا من طرف الميدان وهو يسـدد إليه نظرات الشـك.. هذه هي النتيجة.. لقد وضع نفسه موضع الشك، اكتشف أنه مازال واقفًا في مكانه يحملق في التليفون والوقت متأخر.. كم السـاعة الآن؟! ربما كانت الثالثة والنصف، وربما كانت الرابعة.. وسواء أكانـت هذه أم تلـك فالبندول لا يسـتقر على حال.. تيك تـاك.. تيك تاك.. يكاد يراه مجسـمًا بخياله.. وليس له أمامه الآن سوى الابتعاد عن هذا المكان، حتى يسـتقر على رأي، هل يحدث الطبيب أم لا؟ لقد مضى وقت كاف لتهدأ سـناء.. تمامًـا كالوقت الـذي مضى في المرة الفائتـة.. ما كاد يعـود إلى البيت، حتى جاء الطبيب، وحتى هدأت سناء تمامًا.. هذا هو الحل.. يعود إلى البيت إذن.. وزيادة في الحيطة، يستمع من وراء الباب.. فإذا كانت لا تزال تصرخ، يعود فيحدث الطبيب، وإذا كان الهدوء شاملًا، يدخل، ولن ينسى أن يؤنبها عندما يطلع الصبح.

الشـوارع الخالية لها جمال خاص.. كم أتمنى أن يسـير في مثل هذا الوقت وحيدًا في الشـوارع، تمنى ذلك من أعماق نفسـه، لكنه لم يفعلها.. فماذا يقول عنه الناس إذا رأوه؟! وماذا يقول عنه جندي البوليس مثلًا؟!

ذات مـرة راودتـه هذه الرغبة.. فارتدى ملابسـه، وغادر المسـكن وهبط السـلم.. ثم وقـف على عتبة البيت.. يخرج أم لا يخـرج.. يخرج أم لا يخرج..

كان قـد نظر إلى السـاعة قبل أن يغادر البيت، وكانت تشـير إلى الثانية وعشر دقائق صباحًا.. والبندول يتردد تيك تاك.. تيك تاك.. وظل مسمرًا في مكانه، حتـى مـر جندي البوليـس، و.. «واقف كده ليه يا أفنـدي؟!».. لم يرد عليه، فماذا كان يقول؟! شيء محرج جدًّا.. استدار في سكون ودخل البيت، وصعد السلم وعاد إلى الشقة..

وها هو البيت يقترب.. لا صراخ ولا توجع.. إذن فكل شيء على ما يرام والحمد لله..

هبط السلم.. وأنصت..

لا شيء..

وقف دقائق في قفل الباب.. ودخل..

لا شيء..

لا شيء سـوى صـوت البنـدول.. تيـك تـاك.. تيـك تـاك، لقـد نامـت وهدأت..

امتـدت يده إلى زر نور الصالة.. لكنه لم يضئه.. تعلقت أصابعه بالزر هل يضيئه أم لا؟ ربما إذا أضاءه اسـتيقظت من نومها.. ولكن لنفرض أنها كانت متعبـة.. فـماذا يفعل؟!.. لا بد أن يراها وأن يطمئـن عليها.. تيك تاك.. تيك تاك.. يترك الظلام أم يبدده؟ يضيء أم لا؟ انتشـلته شـهقة سناء من ورطته.. فأضاء النور..

– إزيك دلوقت يا سناء.

كانت ممدودة على الفراش.. هادئة في غاية الهدوء.. هذا ما توقعه.. الحمد لله أنه لم يستدع الطبيب..

- سناء.. إزيك دلوقت.

لا ترد إنها نائمة.. في عز النوم ليتركها تستريح إذن.. ولن ينسى في الصباح أن يؤنبها..

جلس على حافة الفراش كعادته عندما يبدأ في خلع ملابسه.. إنه دائمًا يخلع حذاءه أولًا.. وضع ساقًا فوق ساق.. وامتدت أصابعه إلى رباط الحذاء.. و.. وتنبه لشيء..

الفراش مبتل؟! أم هو العرق؟!

ليست مشكلة على أي حال.. ليتأكد بنفسه..

وضع كفه على الفراش.. فغرقت في سائل.. نور الصالة هو المضاء، ونور حجرة النوم مازال مطفأً، والنور الخارجي يلقي على الفراش ظلالًا كانت تخفي الدماء التي أغرقت الفراش!

- سناء.. سناء.. سناء.. كان يصرخ كالمجنون..

- سناء.. سناء.. سناء ففتحت عينيها.. ورمته بنظرة.. مجرد نظرة سريعة فيها أشياء كثيرة.. ثم أغمضتهما مرة أخرى.. بلا تردد هذه المرة - فالأمر لا يحتاج لتفكير وقد بان الصواب - اندفع إلى الخارج.. ما كاد يفتح باب المسكن، حتى قفز الدهليز الذي يفصله عن باب مسكن سلطان أفندي.. راح يهوي بيديه على الباب.. ويضغط بأصبعه على زر الجرس.. أكثر من هذا، كان ينادي في توسل: «يا سلطان أفندي.. يا سلطان أفندي!».

ويضاء النور في الداخـل.. ويفتح الرجل الباب وهو لايزال نائمًا.. «خير يا حسين أفندي خير»..

- الست.. الست تعبانة.. والنبي الجماعة يروحوا لها لحد ما أجيب الدكتور..

لا يهم الآن عسـكري ولاظلام ولا ناس.. قفز السـلم قفـزًا، واندفع إلى الطريق اندفاعًا.. وجرى في الحارة والشارع جريًا.. ووصل إلى محل السجائر الذي يبيع الزبائـن أول النهار.. وانقض على التليفون.. وأدار القرص بذعر وبسرعـة.. الجـرس يـرن، لا بد أن يسـتيقظ الطبيب: «الحالـة خطرة، خطرة جدًّا، فيه دم يا دكتور، دم مالي السرير».

- حالًا يا حسين أفندي.. خمس دقائق بس، مش حا أغيب أبدًا.. اطمئن..

ألقى السـماعة.. ونسي أن يعطي الرجل ثمـن المكالمة.. عاد يجري ويجري ويجري.. ويصعد السلم قفزًا.. البيت كله صاحٍ.. النور يملأ السلم.. مسكن سـلطان أفندي مضاء.. ومسـكن الجيران الذين يسـكنون الطابق السـفلي.. وعلى باب مسـكنه.. يقف سـلطان أفندي.. في الداخل، زوجة الرجل تبكي بحرقة وهي تردد.. «يا خسارة شبابك يا بنتي.. يا خسارة شبابك»!

وصرخ: «سناء.. مراتي.. سناء»!

وسـلطان أفنـدي يمنعـه.. يضمـه إلى صدره بحنـان غريـب، كأنه أب.. ويربـت عليه، وتدمع عينا الرجل.. «معلش يا ابني، البقية في حياتك.. لازم تتشجع.. ده أمر ربنا»!

تيـك تاك.. تيك تـاك.. البندول مازال يدق، وهـو لا يبكي، لا يصرخ.. ينهـار عـلى أول مقعد، وجار يأتي لاحول ولاقـوة إلا بالله: «البقية في حياتك

يا حسين افندي».. والبيت يمتلئ بالناس.. بالسيدات، كلهن يبكين.. من هؤلاء؟! كيف جاءوا.. جيران.. الجار للجار.. والطبيب.. الطبيب يأتي بالبيجامة.. يهرول إلى الداخل، ولا يمكث سوى دقائق.. يخرج بعدها وفي عينيه نظرة.. نظرة رهيبة..

- من إمتى كانت تعبانة؟!

- من ساعتين..

- وليه ما ندهتليش من ساعتها؟!

ولم يرد.. لم يرد.. بكى والبندول يتردد.. تيك تاك.. تيك تاك..

عندما جاء الضحى.. كان كل شيء قد أعد.. كان سلطان أفندي قد قام بكل ما يحتمله الموقف.. لم يقل له متشكر، كان سارحًا في أمر غريب، عيناه معلقتان بالساعة، تروحان وتجيئان مع البندول..

بعد ساعة سوف يحضر أبوه وأمه.. وسوف يحضر أبوها وأمها.. وكل عائلة ستطلب أن تدفن سناء في مقبرتها الخاصة.. فماذا يفعل؟ أين الصواب؟ وأين الخطأ؟.. موقف محير.. محير جدًّا.. الناس يتهامسون.. «لا حول ولا قوة إلا بالله.. الراجل مذهول»!

والبندول يدق.. تيك تاك.. تيك تاك.. تيك تاك..

توحيـــدة

كان زكي أفندي قد أغمض عينيه وأسند رأسه إلى حافة الشباك.. وسرح بأفكاره.. بينما كانت أم توحيدة زوجته تعد القهوة.. وما لبثت بعد برهة أن قالت وهي تمد يدها بفنجان:

«قهوتك يا ادلعدي..».

وفتح زكي أفندي عينيه في بطء.. كأنما يريد أن يستبقي أحلامه بين جفونه، ومد يده وتناول الفنجان.. ثم رشف رشفة طويلة منغمة.. ووضع الفنجان فوق الصينية وأشعل سيجارة.. وانتشر الدخان في ضوء الشمس الذي حددته فتحة الشباك.. وعندما مد يده مرة أخرى إلى الفنجان قالت أم توحيدة:

«بتفكر في إيه ياسي زكي؟!».

«هي توحيده لسه ماجتش؟!».

«أبدًا ياخويا.. دي حاتتأخر النهارده».

وصمت زكي أفندي بينما استطردت زوجته..

– دي يا كبدي يا بنتي بتتعب قوي.. وبتيجي زي الفسيخة الهمدانة..

- ما هم العيال يوجعوا القلب.. ودي لسه عضمها طري..

وطـال الصمت بينهما.. وكانت أم توحيـدة تحاول خلالها الكلام.. وهي لا تـدري مـا الذي كان يمنعها.. فشـفتاها كانتـا تنفرجان.. ثـم تعودان إلى الانطباق مرة أخرى..

ولكـن ترددهـا لم يطـل.. إذ سرعان مـا وضعت فنجانها هـي الأخرى.. وقالت بعد تنهيدة قصيرة:

- توحيدة موعداني تجيب لي فستان من أول ماهية تقبضها..

وارتسمت ابتسامة خفيفة فوق شفتي زكي أفندي.. وجذب نفسًا عميقًا من سيجارته ونفث الدخان دون أن يفتح عينيه..

ذلك أن زكي أفندي كان مصابًا بما يسمونه أحلام اليقظة.. وهو في جلسته هذه قد أدار حال الدنيا.. وغيَّر حالها وبدلها تبديلًا.. وتجسمت أحلامه جميلة لذيذة.. وماذا يمنع؟! إنه لم يبق على أول الشهر سوى بضعة أيام..

- والعيال يا سي زكي.. مش ناوي تجيب لهم كسوة.. الشِّتا السنه دي بَرْد خالص.. وهنا فقط فتح زكي أفندي عينيه.. ولكنه لم يبرطم كما هي عادته.

- كله يتعدل يا ام توحيده.. أهي البنت حاتساعد شويه..

وتنهد من أعماقه وقال:

- الحمل كان تقيل عليه قوي يا ام توحيدة لكن..

-لكن إيه يا اخويا؟

- ولا حاجة.. بس يعني.. دي .. أصل..

- يوه.. ما لك يا سي زكي.. كفى الله الشر.

- يا وليه انتي لازم تعرفي ان البنت دي بنت ومش لازم آخد منها حاجة..

«وما له يا خويا.. هو احنا أول الناس ولا آخرهم..».

«ده صحيح.. لكن دي مش ولد..».

«ما تصلي على النبي امال يا سي زكي.. هو بقى فيه حاجة اسمها بنت وولد دلوقت.. يا خويا اسم الله عليك.. أُمال احنا بنربيهم ليه.. والله دي البِنَيه من نفسها قالت.. أنا حاقبض الماهية أحطها في إيد بابا.. يوه حَقَّه ما لكش حق في كِده يا سي زكي..».

وكان زكي أفندي في الحقيقة يشعر بالألم لأنه سيعتمد على ابنته.. ولكنه كان دائمًا يستسلم ويقول.. ما باليد حيلة.. وكثيرًا ما كان ينظر إلى أولاده الكثيرين وتجتاح رأسه خواطر كثيرة.. ويتساءل في حيرة وإشفاق.. هل سأعيش حتى أربيهم؟! ويتحول تفكيره في الحال إلى توحيدة.. إنها عاقلة وبنت كويسة.. وكان يحمد الله ليل نهار، أنها كانت تجتاز سنوات الدراسة دون أن ترسب مرة واحدة.

«توحيدة أصبحت مدرسة يا واد.. يا سلام.. يا سلام عالدنيا».

«وتوحيدة جد.. متعرفش اللعب والمسخرة والحب بتاع البنات الأيام دي.. نحمدوه.. الحمد لله»..

«وبكرة محمد يكبر.. ويشتغل.. ويشيل عني الحمل ده كله»..

«محمد!! ده لسه صغير.. صغير قوي.. ابن خمس سنين».

«وإيه يعني.. ما هي الأيام بتمر.. وبتجري.. وتوحيدة بنت امبارح بقت مدرسة قد الدنيا».

ولم يكن هناك ما يسعده قدر تفكيره في أنه سيرتاح من الاقتراض.. فقد كان السلف جزءًا مكملًا لحياته.. ومرتبه.. وهو لايدري كيف استطاع أن يعيش بهذه الطريقة إلى اليوم.. والذين يقرضونه.. بعضهم كان يعطيه بشق النفس.. والبعض الآخر.. البعض القليل. بل النادر.. كان يعطيه بلا تعب قلب.. ولكنه في كلتا الحالتين كان يتألم..

وكانت أم توحيدة قد غفت في جلستها.. وهو قد انكمش على نفسه.. وأغمض عينيه.. ودار عقله.. ورقصت أحلامه.. فلم يبق غير أيام معدودة.. وهو سيضيف نصف مرتب توحيدة إلى مرتبه.. ويدفع للبقال دون أن يؤخر شيئًا.. والبوفيه في المكتب.. ويعطي إبراهيم الخولي نقوده.. ويرفع رأسه لأول مرة في المكتب.. ويطلب فنجان القهوة «كاش».. وقسط السمن سيدفعه.. وسيفصل بدلة بالتقسيط.. والحالة ستبقى معدن وعال جدًّا..

وفتح عينيه وهو يسمع رنين الجرس.. وانتبهت زوجته وقالت: «آهي اسم النبي حارسها جت».

ورسم كل منهما ابتسامة فوق شفتيه.. وذهب محمد ليفتح الباب ولكنه عاد يقول:

«فيه اتنين عاوزينك يا بابا..».

ودهش زكي أفندي ونهض وهو يحكم وضع الطاقية فوق رأسه، ويضع فوق كتفيه العباءة التي ترم عضمه وتستره أمام الناس في الشتاء.. وزحف بالشبشب.. وكان هناك اثنان:

«حضرتك زكي أفندي محمد؟».

«أيوه يا افندم.. اتفضلوا..».

كان يقولها من باب المجاملة.. ولكنهما تقدما.. وأفسح لهما الطريق إلى حجرة الجلوس..

«أهلًا وسهلًا..».

وساد الصمت برهة.. قال بعدها أحدهم

«أنا حسن محجوب.. مهندس في السكة الحديد..».

«أهلًا وسهلًا..».

«وده أخويا حسني.. مدرس.. زميل.. الآنسة توحيدة..».

وكان الأمر حتى ذلك الوقت غريبًا على زكي أفندي.. ولكنه اتضح فجأة أمامه.. وانتصب كعملاق كبير..

«أهلًا!!.. تشرفنا يا ابني..».

«والله يا زكي أفندي إحنا طالبين إيد الآنسة توحيدة لاخويا حسني..».

وصمت زكي أفندي.. وطال صمته.. حاول أن يفكر.. يفكر في أي شيء.. ولكن عقله كان قد شل تمامًا.. كان الأمر مختلطًا عجيبًا.. خططه التي وضعها.. آماله.. السلف.. الدين.. الناس.. البوفيه.. السمن.. إبراهيم

الخـولي.. أشـباح وقفـت منتصبة تقهقـه في سـخرية.. وتوحيـدة.. تتجوز.. يـا سـلام.. دنيـا.. أيام بتجـري.. وانا قاعد اعـد واطرح واجمـع واضرب.. لكـن ازاي؟! دي لسـه صغيرة.. صغـيرة ازاي؟! دي عندها تمنتاشر سـنة.. آه.. يعنـي.. يعنـي إيه بـس؟! هو احنا نـربِّي ونتعب نفسـنا.. وبعدين ييجوا ياخدوهم.. كده.. خطف.. جواز.. كلام فارغ.. ولاد..

«يا زكي أفندي..».

«هيه.. نعم.. أفندي.. أفندم..».

«شوف يا عمي..».

عمي الدبب يا بعيد.. عمك خبط لزق.. كده خلاص.. حليت وربطت.. وبقيت عمك.

«نعم يا بني.. نعم..».

«أنـا توحيـدة عارفـاني كويـس.. وعارفـة أخلاقي.. إنـما أنا عايـز أقول لحضرتك كلمتين».

«اتفضل..».

«أنا مش عايز حضرتك تغرم حاجة من جيبك.. أنا مش غريب.. وعارف الحالة كويس.. إللي نفسي فيه.. إني افرش بيتي أنا ومراتي.. من عرق جيبنا.. ونوضبه على كيفنا..».

«لا مؤاخـذة.. أنـا أصـلي في الحقيقة اتلبخـت شـوية.. دي أول مرة حد يكلمنـي في موضـوع زي ده.. وأصـل توحيـدة أنـا عاملهـا زي اختي مش بنتـي.. دي بينهـا وبـين اختهـا زي عـشر سـنين.. آه والله.. وباعزهـا قـوي

قـوي خالص.. وبقت عروسـة يا سـلام.. حاكم الواحد منـا ولامؤاخذة.. يفضـل يبص لأولاده على إنهم عيـال صغيرين مهما كبروا.. أهلًا.. أهلًا إنتم شرفتونا..».

وتكلـم.. تكلم كثيرًا.. ولكنه لم يكـن يدري ماذا يقول.. كان هناك طنين في رأسـه.. ودوامة تدور فيها.. وهو حائر.. لا يدري.. ماذا يفعل.. الشـاب ظاهـر عليه إنه طيب وابن حلال.. ولن يكلفه مليمًا.. ومن الذي يفعل ذلك في الزمـن ده.. وكان عليـه أن يفكـر.. وأن يفكـر في روِيَّـة وهـدوء.. وشربا الشـاي ونزلا.. وكانت الدوامة مازالت تعصف برأسه.. وعاد إلى الحجرة.. وكانت زوجته مازالت تجلس في مكانها..

«ومين دول ياسي زكي؟».

«دول ناس طالبين توحيدة..».

وانتبهت حواسها الخاملة كلها دفعة واحدة ولونت الدماء وجهها المكتنز.. ودقت على صدرها في صرخة لم تستطع إخفاءها وقالت في لهفة طَرِبَة:

«والنبي.. والنبي يا خويا.. ويبقى مين.. وشكله إيه.. و..؟..».

وقاطعها في حدة قائلًا:

«وما لك فرحانة كده.. ده لسه بدري عليها؟!».

«بدري إيه يا سي زكي.. دانت خدتني وانا اصغر منها..».

«ده كان زمن.. وده زمن..».

«يا خويا نسترها ونفرح بيها.. هو مش مناسب؟ ..».

«زميلها في المدرسة.. مدرس زيها..».

«والنبي عال.. عال قوي..».

«بس يعني يا ام توحيدة..».

وصمت وفكر.. وخلع العباءة والطاقية وجلس على مقعد بجوار الفرش.. وقد احتقن وجهه.. وحاول أن يقول شيئًا.. ولكن الحيرة ألجمته..

«ما لك يا خويا.. إيه اللي محيرك؟..».

«ولا حاجة.. بس..».

«يا خويا تفرج.. هو يعني مستعجل والا إيه.. ما تتكلم يا ابو محمد..».

«مش عارف والله..».

«خلاص.. يكتب الكتاب.. ويستنى لما تجهزها على مهلك.. وربنا..».

«أبدًا.. ده عايز هو وهي بس اللي يجهزوا..».

«هو اللي قالك؟..».

«أيوه..».

«والنبي كويس.. دا باين عليه ابن حلال قوي..».

ولم يطق زكي أفندي أكثر من ذلك.. وقال في حدة:

«يا وليه اسكتي.. ابن حلال.. ابن حرام..؟».

«يوه.. ما لك.. هي الفرحة مخلياك كده؟..».

«فرحة إيه يا ولية يا مجنونة انتي عارفه معنى كده إيه.. معناها إن احنا نفضل في الغُلْب ده على طول.. فاهمه!!..».

«يوه يا سي زكي.. أهو انت دايمًا كده ما احنا كويسين آهه في أمانة الله.. أحسن من غيرنا كتير..».

«كتير إيه.. حاجيب منين.. هي مكنة بتدق فلوس.. بقى يعني الشهر اللي الواحد ايه.. حايشم نفسه.. يطلع لنا عفريت.. بلاش كده.. هي دي حاجات مش عايزة مصاريف.. هي حاجة بالساهل.. إنتي فاكره إيه؟! هي البت لسه ماجتش؟».

«لأ.. لسه.. زمانها جايه عندها اجتماع مرشدات النهارده..».

وصمت.. ومد يده إلى سجادة الصلاة.. وألقى بالطاقية فوق رأسه.. وسار إلى حجرة الجلوس وهو ينوي الصلاة، وفي الطريق إليها..

جاءت توحيدة..

وانتهى من صلاته.. وما إن وقف بباب الحجرة حتى سمعها تقول لأمها:

«والنبي يا ماما! حسني جه؟! والنبي صحيح! ومعاه واحد! بابا.. ما له؟ معجبوش ليه د حسني كويس خالص.. والنبي يا ماما د شاب لطيف قوي..».

وتسمر زكي أفندي في مكانه.. من أدراها إنه حسني؟.. وحسني بالذات.. إنه لم يخبر زوجته عن اسمه.. فكيف عرفت؟.. وعاد إلى الظلام..

وجلس فوق مقعد.. كانت أعضاؤه تكاد لا تتماسـك.. ابنته.. توحيدة لا بد أن بينها وبين حسـني شـيئًا.. وإلا.. كيف عرفت؟!.. كيف؟! سؤال حائر.. وهو أيضًا حائر.. وتوحيدة هدمت أملًا كبيرًا كان يعيش به..

ولكـن خطوط المشـكلة كانت قد اتضحـت.. وابنته كانـت قد وضعت خطًّـا عريضًا.. سـار فيه تفكيره.. وتماسـك.. ونهض من مكانـه وذهب إلى الحجـرة الأخرى.. كانت فكرته عـن ابنته قد طوحت به بعيـدًا.. بعيدًا جدًّا عن نفسـه ومثله وأخلاقه وتقاليده.. وما إن رأتـه توحيدة.. حتى صمتت.. واحمر وجهها وقالت في حياء:

«مساء الخير يا بابا..».

«هو اسمه حسني إيه يا توحيدة؟».

«حسني محجوب يا بابا..».

واتضح له كل شيء.. نعم.. هو .. لا مفر..

لم يكـن لـب حيرته شـيئًا واحدًا.. بل أشـياء.. أيمنع توحيـدة من العمل وليكـن ما يكون؟ ماذا قال لها حسـني؟ وماذا قالت لـه؟ ابنته.. حبيبته.. إنه كان يثـق فيهـا.. كيف تفعل ذلك؟ كيـف؟. ولكن. أليس الحمـد لله أنه أتى وطلبها للزواج؟ عظيم.. ولكنه لا يحب تلك المسـخرة.. البنت تريده وهو.. هـو يريـد أن يزوج ابنتـه حقًّا.. يريد أن يسـترها يريد أن يفرح بهـا.. ولكنها اتَّفقت مع حسني قبل أن يأتي إلى البيت هذا شيء مقبول..

وظل هكذا.. حتى قام ليصلي الفجر.. ووقف طويلًا دون أن يبدأ الصلاة، وفجأة أخذت ابتسامة راضية ترسم خطها فوق شفتيه كأنها تتسلل إليهما في الظلام، وكان هو قد أحس كأن ضوءًا باهرًا يغمر قلبه.. وصلى ونهض.. وشرب شايًا ودردش مع زوجته.. واجتاحه المرح.. وارتدى ملابسه وهو يقرأ بصوت مسموع..

وفي الصباح عندما ألقت عليه توحيدة التحية.. ردها بوجه باسم وعينين ضاحكتين وتسربت ضحكته إلى البيت كله.. وكان ينظر إلى توحيدة وهي رائحة غادية.. كأنها ملاك جميل.. وقبل أن تغادر البيت ناداها..

«تعالي يا بنتي.. اقعدي جنبي هنا».

وصبغت الحمرة وجه توحيدة.. وخفضت رأسها وهي تجلس بجواره.. وتحس للمس كفه المعروق فوق كتفها بنشوة كبيرة..

«إيه رأيك في الشاب ده؟».

«كويس.. كويس يا بابا».

«يعني.. تتجوزيه يا توحيدة..».

«أمرك يا بابا..».

وتنهد تنهيدة عميقة.. وقال بصوت مضطرب:

«طيب... طيب يا بنتي على بركة الله.. قولي له ييجي يقابلني النهاردة..».

ونهضت توحيدة مسرعة.. وقالت وهي تفر وقد شـاعت حول جسـدها السعادة.. سعادة أحس بها زكي أفندي تغمره.. وتشمل كل إحساساته..

«حاضر يا بابا..».

«تعالي يا توحيدة..».

قالها في رنة أنكرها هو على نفسـه.. وعادت إليه توحيدة.. كانت مشاعره تتدفق كالسيل في روعة وصدق.. وشعر كأن الدنيا لا تسعه..

«تعالي.. تعالي يا بنتي لما ابوسك».

«وعندما لامسـت شفتاه وجنتها الملتهبة.. أحس كأن خدرًا لذيذًا يطوف بروحه.. وقال لها بصوت حنون:

«روحي يابنتي.. ربنا يسعدك..».

وعندما غادر البيت في ذلك اليوم.. ولفح الهواء الرطب وجهه الساخن.. رفع رأسه ونظر إلى الطريق.. وكان الطريق ممتدًّا كما كان بالأمس.. ولكنه بدا له طويلًا.. طويلًا جدًّا.. أطول مما كان بالأمس فقط..

وبراءة الأطفال تخدعني

أدركت في تلك اللحظة أن هذه السيدة قد طرحتني أرضًا وانتصرت علي بثلاث نقط، ذكرين وأنثى. وأنها وصلت إلى مبتغاها، وسيطرت عليَّ سيطرة كاملة، وأنه لا مفر من التسليم!

كانت تقف الآن أمامي وقد وضعت يديها في خاصرتيها وهي ترمقني بنظرات محذرة منذرة:

- «ما تجبش إلا من الفرن الآلي.. فاهم؟!».

قلت في استكانة:

- «خلاص يا ستي، حاجيب من الفرن الآلي!».

- «الولاد بيحبوا العيش بتاع الفرن الآلي!».

الأولاد هم القاسم المشترك في كل ما تطلب، نقطة ضعفي التي ظلت تضغط عليها عامًا بعد عام، وطفلًا بعد طفل، حتى إذا ما حاولتُ التمرد يومًا، أخرجت الكارت الأحمر أو الأصفر وفي حياتنا كارت جديد. رضيع أطلقت عليه الكارت الأخضر. ولولا حبي للأطفال، ذلك الحب الذي تحول في حياتي إلى مرض، لكان لي شأن آخر مع هذا الجنرال الذي أصبح

لا يطلـب لكنه يأمـر ولا يأخذ ولكنه يغتصب «واللي مش عاجبه يخبط راسه في الحيط»!

عندمـا قالت إن الأولاد يحبون الخبز المصنـوع في الفرن الآلي رحت أنظر إليها في دهشـة.. أين هذه المستبدة من تلك الفتاة الرقيقة الناعمة التي استمر حبي لها سنوات كنت أتمنى فيها فقط أن ألمس أصابع يديها، وأسعى إلى سماع صوتهـا مغمـورًا بكلمة صباح الخير، وأتوق شـوقًا إلى يدها الصغيرة تزحف في نعومـة كـي تتعلق بذراعـي ونحن في الطريـق، فإذا فعلت أحسسـت أني أملـك الدنيا وما عليها.. أين هذا الجبروت من كلمة «من فضلك» أسـمعها كشقشقة عصفور يغازل صوته أذني؟!

«أقدر اعرف انت بتبص لي كده ليه؟!».

انتبهت على زمجرتها فصحوت من أحلامي، قلت:

«الولاد بيحبوا العيش بتاع الفرن الآلي؟!».

كنت أتساءل فظنتني أسخر، اقتربت مني مزمجرة:

«لأنه طري، وطازج، ولأنه أنضف وأرخص!».

كانت هذه هي الحيثيات، فقبلت الحكم، وقلت:

«حاضر!».

ثم انصرفت!

الطريـق مـن بيتنا حتـى الفـرن الآلي وعـر.. لا تتمثل وعورتـه في أرض الطريـق فقـط، لكنهـا تتمثـل في مسـار لا بـد وأن أدور فيه حول مستشـفى

أو مدرسة ومجمع استهلاكي، وحول المستشفى تتكدس العربات ويتزاحم الزائرون وتزمجر سيارات الأجرة وتزأر الأتوبيسات وهي تنهش الطريق غير عابئة بالبشر أو المركبات.. كان الوقت ظهرًا والشمس في كبد السماء ترسل شواظها على الدنيا في غضب. وعند المدرسة - الآن في هذه الساعة - ينصرف مئات الصِّبية الذين لم يعودوا أطفالًا وهم يلعبون الكرة ويلعبون بحقائب المدرسة، ويلعبون بإطار سيارات أيضًا. يتحول الأولاد في هذه السن إلى شياطين، ويصبح المرور من وسطهم جحيمًا، واختراق الطريق وسط جحافلهم كاختراق جبهة تستعمل فيها جميع أنواع الأسراب الحديثة من كرات وقذائف حجرية تصيب كتفًا أو رأسًا أو ظهرًا، ولأني تمرست على المرور وسط جمع هذا الجيش اليومي الذي يصنع في الحي نوعًا من اللغط كأزيز أسراب قاذفات الكلمات. لا أنكر هذا.. غير أن المرور من تلك الساحة الصغيرة التي تتكدس فيها السيارات مع عربات الباعة مع أجساد الناس أمام المجمع الاستهلاكي، أمر لم أستطع التمرس عليه.. اختراق هذا الطابور نوع من العذاب لا أطيقه، ولا سبيل إلى الوصول إلى الفرن الآلي إلا من خلال تلك الساحة، فخلف المجمع الاستهلاكي يقبع مبناه الكالح الذي أبرم معاهدة صداقة مع الشر، فراح ينفث في المكان حرارة شديدة، ويصبح الاقتراب منه نوعًا من المخاطر تحتاج أن يتدرب عليه البشر.

كان من الممكن أن أشتري خبز رشاد بائع الخبز العتيد في الحي، والذي تحول بمرور السنوات إلى التعود لاسبيل إلى الفكاك منه، هو وحده الذي ظل يمدنا به لسنوات طالت. هو وحده الذي جعل سكان الحي لايعانون يومًا من نقص في الخبز حين حدث هذا النقص في الأحياء الأخرى.. حقًّا كان رجلًا

ديكتاتورًا يتحكم في سعر الرغيف خارج التسعيرة أو داخلها، لكنه كان لا يشعر أحدنا يومًا بالحاجة إلى البحث - في الصباح الباكر - عن رغيف طازج لأولاده.. ظل رشاد يتربع على قمة الرغيف لسنوات حتى افتتح هذا الفرن الآلي، وتزاحم الناس أمامه من حيِّنا ومن الأحياء المجاورة، وأصبح رشاد مثل أثر من آثار المكان ينظر إلى زبائنه اللذين أطعمهم يتخطونه إلى الزائر الجديد في حسرة، وكانت نظراته هذه تصيبني بضعف التنفس، كنت أضطر إلى الدوران من أزقة وشوارع وحواري تبعدني عن دكانه حتى لا أواجه عينيه، وأنا.. وأنا.. أنا ضعيف أمام الأطفال.. لم يطلب أحد من أولادي مرة واحدة طلبًا ولم ألبه له.. براءة الطفل تسحقني سحقًا، هذه البراءة تحولت في يد زوجتي إلى سلاح، وهكذا كان علي أن أقتحم كل تلك الصعاب، وأخترق ميادين قتال سلاحها الحرارة والشمس والصبية والعربات والمرور وصرخات الباعة، كان عليَّ أن أحتمل كل هذا، فـ.. فالأولاد يحبون الخبز المصنوع في الفرن الآلي!

ولقد حدث ما توقعته ولكن.. لم يكن هناك سبيل آخر.

فأمام كشك الخبز المجاور للفرن الآلي، كانت المعركة محتدمة. كانت قد وصلت إلى ذروتها!!

كان المشهد أمامي يبعث القشعريرة في جسدي..

أمام فتحة الكشك وجدت كرة هائلة من الأجساد البشرية وهي تتضاغط في عنف، وتتزاحم في قسوة في محاولة الوصول إلى البائع الذي صبغ وجهه بسحابات الدقيق الأبيض المتناثر من الأرغفة الطازجة.. فوق الكرة البشرية

كانت الأذرع ترتفع منتهية بأيد تمسك بالنقود.. من أفواه الناس تختلط الصيحات اختلاطًا منفرًا، فهذا يطلب خمسة أرغفة، وهذا يطلب عشرة، وهذا يطلب عشرين.. و .. وتوقفت على الناحية الأخرى من الطريق أحاول العثور على ثغرة أخترق منها تلك الكرة لكي أصل إلى البائع.. بدا لي الأمر مستحيلًا بكل المعاني.. مرق أتوبيس من أمامي بسرعة أثارت عاصفة من الأتربة لفتني لفًّا فرحت أدور حول نفسي كي أتجنب استنشاقها دون جدوى.. تذكرت زوجتي يوم كنا نجلس على ضفاف النيل عروسين يستقبلان الدنيا في حب، كان الوقت غروبًا، وكنت أبوح لها بمكنون صدري:

«أنا بحب الأطفال قوي!».

وتهادت جفونها في خفر، وافترَّت شفتاها على ابتسامة عذبة.. وغرد صوتها:

«وانا حاخلف لك دسته!».

وتساءلت: كيف يتغير طعم الدنيا؟! .. وإذا كانت قد هزمتني بربع دستة، فماذا أنا فاعل لو أنها برت بعهدها؟!!.. غير أني عندما تذكرت أطفالي، اقتحمت عاصفة التراب، وسرت في الطريق، وألقيت بنفسي وسط الكرة البشرية، وأخرجت نقودي، ورفعت ذراعي، ورحت أنادي على البائع وسط الناس!

تضاغطت الأصوات في معركة رتيبة خانقة:

«خمسة عيش يا حسين!».

«عشرة عيش!».

«يا أخي اديني عشرين أنا واقف بقى لي ساعة!».

«عشرة عيش!».

«ما تمشينا بقا ياعم حسين!».

«عشرة عيش!».

«وبعدين معاك يا حسين.. هو انت عندك خيار وفاقوس؟!».

«عشرة عيش!».

«خمستاشر رغيف من فضلك!».

«عشرة عيش!».

معزوفة هي.. لم يكن اللحن منسجمًا لكن يدا البائع «كالمايسترو» كانت تروح وتجيء وتتحرك في آلية وكأنها جزء من آلات الفرن الآلي.. تمتد يمناه كي تأخذ المال، وتمتد يسراه إلى صناديق العيش، تعود اليمنى إلى اليسرى تعمل اليدان معًا في العد، تلقي بالخبز. إلى صاحبه، ثم تعود مرة أخرى إلى نفس الحركة.. والأصوات هي هي.. أصوات كأصوات الكون، منها الغليظ ومنها الرقيق ومنها العالي ومنها الخفيض، ولكن.. وسط كل هذا، كان ثمة إيقاع لاينقطع، إيقاع منتظم لا يكف. رتيبٌ هو، يأتي من أسفل، من قلب الأجساد، يردد دون ملل: «عشرة عيش.. عشرة عيش.. عشرة عيش!»..

وكلما صاح صوت، لاحقه هذا الصوت الرفيع الثاقب، وكلما طلب أحدهم طلبًا. التصق به ذلك الصوت: «عشرة عيش!»وكأنه آلة تطلق صوتًا

لايتغير.. في البداية لم أنتبه، تسلل الصوت إلى وجداني فكأنه جزء من اللحن العام، تقدمت خطوة، أصبحت وسط الكرة البشرية، دفعتني سيدة، ولكزني رجل، وزاحمتني فتاة.. وراح جسدي يتقدم دون أن أتقدم أنا.. اكتفيت بيدي الممدودة بالنقود، وتصاعدت سحابات الدقيق.

عندما جاء صندوق آخر من الخبز الطازج، ازداد تزاحم الأجساد، وتلاحم الأصوات، وحمل الناس جسدي وسط أجسادهم وتقدموا بي خطوة أخرى، وأصبح الصوت أكثر وضوحًا: «عشرة عيش.. اتناشر رغيف.. عشرة عيش.. خمسة ياحسين.. عشرة عيش.. قفوا طابورًا.. عشرة عيش»!.. حتى إذا كانت لحظة، .. لحظة توقف فيها الكون والأصوات وتجمدت الحرارة.. لحظة اكتشفت فيها صاحبة الصوت بين ساقي تمامًا. هناك تحت في الظلام وسط الأجساد.. طفل صغير لايتعدى عمره ثمانية أعوام، ذراعه مثل عود أخضر، تمتد في فضاء مزدحم، ويده مثل مخلب صغير، تمتد بالقروش العشرة، زاحمت بجسدي كي أرى وجهه، وجه صغير مترب غطته ذرات الدقيق فأصبح في لون القطن، قطرات من العرق تزحف لتصنع فوق الوجه الصغير خطوطًا متعرجة، تدفعه الأجساد فيندفع، تضغطه إلى جوار الكشك فينضغط، تمتد الأيدي من فوقه فتخترق ذراعه، بيده، بقروشه العشرة وسط الزحام. وصوته لايكف، ولايتوقف ولايمل: «عشرة عيش.. عشرة عيش، عشرة عيش!».

انقبض قلبي.. هدرت الدموع خلف جفوني.. اختطف البائع في حركة آلية قطعة النقود من يدي ثم ألقى بالأرغفة إلى وجهي، فالتقطتها، وهممت بالانصراف، فجاءني الصوت من تحتي:

«عشرة عيش!».

فامتدت يدي لتأخذ منه قطعة نقود، وألقيت بالأرغفة إلى يديه:

«خد يابني!».

رفع وجهه الذي أطلت من عينيه نظرة دهشة.. صمت:

«خد العيش واطلع من هنا!».

واختطف الأرغفة، وسقط جسده بين السيقان، ثم ذاب.

عندما التفت نحو البائع، كانت قطعة النقود لاتزال في يدي قال الرجل:

«إنت مش لسه واخد العيش دلوقت؟!».

ارتفع صوت من خلفي ساخرًا:

«أصله ادى العيش للولد!».

لم أقل شيئًا، ولم يقل البائع شيئًا، لكنه رماني بنظرة خلت أنها تسخر مني، وافترت شفتاه البيضاوان بفعل ذرات الدقيق عن نصف ابتسامة، اختطف مني قطعة النقود. وألقى إلي بالأرغفة وهو يقول ساخرًا:

«طب اتفضل!».

عندما نفذت من وسط الأجساد إلى خلاء الطريق تنفست الصعداء، دفعني رجل اقتحم الزحام فكاد الخبز يسقط من يدي فلحقته باليد الأخرى، ضممته إلى صدري فلسعتني سخونته، تنفست الصعداء أخيرًا هممت بالسير، فتسمرت في مكاني!

علـى بعد خطوة مني، كان ثمة سـيارة يركبها رجـل وامرأة. وكان الطفل هنـاك، نفـس الطفل بنفـس الوجه المصبوغ بـذرات الدقيـق الأبيض، وكان يسـلم الرجل الأرغفة العشرة ويقبض منه الثمن، وتمضي السيارة.. ويهرول الطفل إلى سيارة كانت تقف خلفها:

«عاوز كام يابيه؟!».

هكـذا جاءني صوت الطفل واضحًا، قدم له الرجل الجالس خلف عجلة القيادة قطعة نقود قائلًا:

«هات لي عشرة يابني انا مستعجل!».

«حمامة!».

قالهـا الطفل وهو يختطـف قطعة النقود ويسـتدير عائـدًا إلى حيث كانت الكرة البشرية. وبسرعة بدت لي مدهشـة إلى أقصى حد، انحنى بين السـيقان واختفى!

ظللـت جامـدًا في مكاني للحظـات، حتى جاءني صوته، وسـط عشرات الأصوات وهو يصيح:

«عشرة عيش.. عشرة عيش.. عشرة عيش!».

كوثر والأعزب

الزواج كالموت قضاء وقدر! هكذا قال لي من يعرف في زمان ما.. وقال: إن زواجك مفرد، لكنه ليس مرة واحدة.. وكان ما يعنيه صديقي أني سأتزوج ثلاث مرات أو خمسًا أو سبعًا.. وقال لي صديقي صاحب «الزودياك» المنتشر في الصحف العربية الذائع الصيت: ستتزوج لامحالة، فلا تقاوم قدرك، ولاتحذر منه، فالحذر ياصديقي لايمنع القدر!

كان هذا منذ سنوات طويلة، لكني لم أتزوج حتى الآن.. لم أتزوج رغم حبي للأطفال!

نعم أنا أحب الأطفال، وليس لي سوى أمنية واحدة في هذه الدنيا: أن يكون لي طفل أو طفلة يحمل أو تحمل اسمي، طفل يصبح ملكي، لي وحدي، شريطة أن يظل طوال عمره طفلًا شريطة.. ألا يكبر وينمو ويناطحني الحياة ويصبح رجلًا أو امرأة ويفقدني لذتي العظمى في ملاعبته واللعب معه، وحبه، وشراء الحلوى له!

ولطالما حيرني هذا الأمر، ولطالما ساءلت نفسي: لماذا أحب الأطفال إلى حد أنسى الدنيا وما فيها إذا ما التقيت بطفل! إلى حد أن أطفال إخوتي وأقاربي وأصدقائي يكونون عالمي الخاص المرح السعيد؟ ولقد فكرت كثيرًا،

وحسبت الحسبة، ووصلت إلى إجابة مقنعة تمامًا.. فلقد اكتشفت ذات ليلة أرقني فيها الأمر، أني أحب الأطفال لأنهم أطفال!!

غير أنه قد حدث لي ذات يوم ما جعلني أضع أطفال العالم كلهم في كفة، وأضع كوثر وحدها، في كفة تعادلهم!

منذ المرة الأولى التي التقيت فيها بكوثر أحببتها حتى رحت أنتظر لقاءها يومًا بعد يوم، وفي نفس الموعد.. وظل حبي لها قائمًا لا يفتر، حتى اكتشفت أنها - وهي ابنة خمس سنوات فقط - أكبر مني بكثير!!!

وكوثر هي ابنة عبده المكوجي!

وعلاقتي مع عبده المكوجي علاقة من نوع خاص، فلأني أعزب، ولأنه ليست لي زوجة تعد القمصان والمناديل والبنطلونات والفساتين وتحسب له الحسبة بالقرش، وتحاصره حتى لا يغالط.. لأني أعزب لا أفهم في هذه الأمور، فلقد كنت أدفع لعبده ما يطلبه دون مناقشة، وهو - في المقابل - كان يلبي طلباتي دون مناقشة.. وتطور الأمر، حتى أصبح عبده هو المسئول عن غسيل ملابسي وكيها، وأصبحت زوجته هي المسئولة عن رتق جواربي، وتركيب أزرار قمصاني المقطوعة!

وكان لعبده طفلان: محروس وخميس!

وهما طفلان من نوع نادر أحدهما يكبر الثاني بعام واحد. لكنهما يبدوان وكأنهما وُلِدا في يوم واحد، وساعة واحدة. فكل منهما يشبه الآخر شبهًا يبعث على الارتباك، ظننت في البداية أنهما توءمان، ثم اكتشفت خطأ ظني وتعودت

أن أشتري لهما الحلوى، كما تعودت أن أنفح كلًّا منهما بقشيشًا، ثم تطور الأمر فأصبحت ألاعبهما بأسلوبي الخاص.

كانا دائمًا يأتيان معًا في ساعة الظهيرة، تلك الساعة التي يطلقون عليها في بلادنا، «ساعة القيلولة».. عندما ينام الناس، وتهجع الدنيا بعد وجبة غداء تملأ المعدة وتكتم الأنفاس.. فإذا ما حلت الساعة الثالثة والنصف، وتأخر الجرس عن الرن، انتابني القلق، ورحت أنظر من العين السحرية في باب بيتي كل دقيقة متسائلًا عما أخَّر محروس وخميس حتى إذا جاءا، اطمأن قلبي وأخرجت حلواي. ورحت أستعد كي ألعب لعبتي!

ذات مرة - وكنت دائمًا أعدل بينهما في العطاء - تساءلت: ما الذي يحدث إذا ما كففت عن العدل؟ ماذا يحدث لو أني أعطيت خميسًا أكثر من محروس، أو أعطيت محروسًا وحرمت خميسًا؟!

هي نزعة شريرة دون شك، لكن المشهد من العين السحرية كان يبدو لي وكأنه ذروة الدنيا.. ففي المرة الأولى أعطيت أحدهما قرشًا ونفحت الثاني قرشين، أخذت ملابسي، وأغلقت الباب وألصقت عيني بالعين السحرية!

«إداك كام؟!».

«وانت مالك؟!».

«اشمعنى انت!».

«مالكش دعوة!».

«بالنص!».

«بعينك!!».

كانا يقفان أمام الباب لا أستطيع معرفة خميس من محروس فكأنهما إنسان وظلـه، طفـل ينظـر في المـرآة يتحدث مـع صورته فتتحـدث إليـه صورته.. ثـم .. ثـم يتقدم أحدهمـا من الآخر، ويتقهقـر الآخر إلى الحائـط ويبدوان في الممر الطويل المدى إلى سـلم البيت، وكأنهما يلعبان مشـهدًا في فيلم سـينمائي مسـحور، قـد يلكز أحدهما الآخـر، وقد يفر الآخر منه، قـد يطول الحوار أو يقصر، وأنا هناك خلف العين السحرية أنتفض بالسعادة، فللأطفال عالمهم، ولهـم منطقهـم ودنياهم.. حتى إذا ما انتهى الأمر، واختفيا في عمق المشـهد، أسدل الستار.. عدت إلى وحدتي بعيدًا، أتمنى أن يكون لي طفل لا يكبر.

حتى جاءت كوثر!

قبل أن أقلق. وقبل أن تدق الساعة الثالثة والنصف، دق جرس الباب.

كنت بملابسي الداخلية، وكنت متوقعًا أن الزائرين هما محروس وخميس، أسرعت إلى «الفكة»، والحلوى، وفتحت الباب!

وطالعتني شهقتها.. فارتددت كالكرة إلى الخلف، ليس وجهها ولا نظرها ولا وجودهـا كله، إنما هي شـهقتها تلك التي أطلقتها مـع نظرة خضراء من عينين بللورتين واسعتين - ارتددت إلى الخلف وأغلقت الباب وهرولت إلى الداخل وارتديت ملابسي وعدت إليها.. وعندما فتحت الباب كان محروس وخميس هناك، وكانت معهما كوثر. وجه كالبدر في استدارته.

عينان خضراوان واسعتان تنفثان نظرات مقتحمة جريئة لاخوف فيها.. لاتردد.. قوام رقيق وضع فوقه جلباب طفلة تكبرها - على الأقل - بثلاث سنوات، وكانت هي التي تحمل ملابسي!

نظرت إليها طويلًا، فصفعتني نظراتها حتى هربت منها.. التفت نحو خميس وسألت:

«مين دي ياخميس؟!».

«أنا محروس يابيه!».

التفت في ضيق نحو الآخر وأنا أسأل:

«مين دي يامحروس؟!».

«أنا خميس يابيه!».

قبل أن أفتح فمي صاحت:

«ده خميس، وده محروس... اللي عنده حسنة جنب ودنه خميس، واللي ماعندوش محروس!».

وامتلأت بالسعادة، هتفت:

«وانتي مين؟!».

«أنا كوثر!».

كانت لثغاء، تنطق الثاء تاء.. وكان نطقها هذا يضفي عليها سحرًا من نوع خاص.

«كوثر مين؟!».

هكذا سألتها، فرفعت حاجبيها دهشة:

«يوه... أختهم!».

صحت فيهما:

«هو انتوا لكم أخت؟!».

«أُمال أنا اطلع إيه؟!».

«أصلهم ما قالوليش!».

«وهو انت سألت؟!».

امتلأت بالنشوة والسعادة، كانت كوثر تبدو وكأنها مخلوق ساحر، أحببتها من أول نظرة، ونظرت إلى أخويها فرأيت في عيونهما ضيقًا لا يخفى، اتسعت ابتسامتي:

«وليه ماكنتيش بتيجي قبل كده يا كوثر؟!».

«كنت لسه صغيرة!».

«ودلوقت كبرتي؟!».

«أنا بنت خمسة وماشية في الستة!».

«حسابك كام؟!».

- «الحساب ستين لكن العيال دول عاوزين يسمسروا منك بريزة!».

وأطلقت ضحكة صاخبة.. ضحكت من قلبي. اكتشفت أن محروس وخميس كانا يستغلان حبي ويزيدان في الأجر ويلهفان قروشًا لحسابهما الخاص!

«انتوا بتسمسروا علي يا ولاد؟!».

قال أحدهما:

«ماهو انت بتدينا من غير ماتحسب ولاتحاسب!».

بدا المنطق رائعًا، كما أنه بدا معقولًا، قاومت:

«مش المفروض انكم ماتسمسروش؟!».

رماها خميس - وقد يكون محروس - بنظرة نارية.. أردت عقابهما، قدمت لها جنيهًا.

«خدي الجنيه ده. إدي لابوكي الحساب، وخدي انتي الباقي!».

كنت متوقعًا أن معركة رائعة سوف تنشب أمام باب البيت، تعجلت المشاهدة فأخذت ملابسي وأنا أقول:

«ابقي تعالي كل يوم ياكوثر!».

أغلقت الباب. ولفرط لهفتي على المشاهدة، سقطت ملابسي فلم أهتم...

ألصقت عيني بالعين السحرية، وكان المشهد ذروة في الروعة.

شرير أنا.. ربما.. ولكن، من منكم يستطيع أن يحرم نفسه من مشهد قطة متوحشة ارتدت إلى الوراء وألصقت ظهرها بالحائط وأشرعت مخالبها في

وجه أخويها كرجال العصابات في التلفزيون أو السينما كان محروس وخميس يقفان قبالة كوثر وقد حاصراها:

«انتي فتانة!».

«أنا بقول الحق!».

«هاتي الجنيه ده!».

«لما تشوف حلمة ودنك!».

«حاقول لابويا!».

«أنا اللي حاقول له الأول!».

«مش حانجيبك معانا تاني!».

«أنا حاجي لوحدي!».

«باقول لك هاتي الجنيه يابت!».

واندفعت كوثر بيديها مشرعتين إلى الأمام، كي تدفع كل واحد منهما في ناحية، ثم، من وسطهما تمامًا، انطلقت كالسهم غائصة في ظلام الممر المؤدي إلى السلم... وقبل أن ينتبه واحد من أخويها، كانت قد اختفت!

وأصبحت في كل يوم أنتظر الثلاثة، أضفى وجود كوثر على فترة الظهيرة نوعًا من السحر ملأ علي وحدتي.. تفننت في شراء أنواع الحلوى والشيكولاتة، كما تفننت في توزيع العطايا بين الثلاثة... وكان لا بد - في كل مرة - أن تنشب معركة. معركة بين الأطفال. وفي كل يوم كنت

ألتصـق بالعين السـحرية وأشـاهد، وأسـعد، حتـى إذا انصرفـوا، عدت إلى وحدتي وقد امتلأت بالنشوة.

حتى كان يوم...

دق الجرس ففتحت الباب... وكانت كوثر هناك وحدها.

«الله... فين اخواتك ياكوثر!».

في عينيها الخضراوين حزن صريح:

«أصلهم عيانين!».

«سلامتهم. عندهم إيه؟!

«لوز!».

«زعلانة؟!».

«مش اخواتي؟!».

مددت يدي، تناولت ملابسي، نفحتها جنيهًا...

«ولاتزعلي، بكرة يخفوا!».

«قول ياشافي!».

قالتها وهي تستدير ماضية، باظت الحفلة.. قاومت، ناديت عليها:

«كوثر!».

التفتت متوقفة!

«حاتقسمي الفلوس مع اخواتك؟!».

استدارت كلها ناحيتي:

«نقسم ايه يابيه؟!».

«بقية الفلوس!».

«وهو احنا كنا بنقسم قبل كده!».

«كنتي بتاخديهم لوحدك؟!».

«مش أنا اللي باخد، ولا اخواتي.. ماحنا في كل مرة بنديهم لابويا!».

كانـت كلماتهـا واضحـة صريحة. كانـت... كانت مثل صفعـة هوت على وجهي..

وكانت... كانت هذه آخر مرة أرى فيها كوثر!

الأخـــرس

كان عملاقًـا.. ذراعه غليظـة مفتولة، كأنها مصنوعة مـن حديد مطروق وكنـت أراه في ورشـة صديقـي.. واعتـدت دائـمًا أن أنظـر إليـه وهـو يرفع المرزبـة بذراعيه.. ويهوي بها فوق الحديد الأحمر.. كان اسـمه حامد.. وكان أخـرس.. وكان صديقي متلافًا.. يحب المظاهر ولو على حسـاب الآخرين.. أنانيًـا لدرجـة كبيرة.. وجـاءت أيام.. اسـتنفدت الأعـمال الصناعية الحديد «الكريتال»الموجود في السوق.. واضطرب العمل في الورشة.. وصبر العمال أسـبوعًا.. وآخر.. وبـدءوا يطالبون بأجورهم، وأصبـح صديقي في موقف عصيـب.. وكان كاتـب حسـاباته قـد تركه وفـر.. وأخذ العـمال يلحقون به الواحد بعد الآخر.. بحثًا وراء لقمة العيش..

وعاصرت تلك الفترة الحرجة من حياة صديقي.. وكان كلما جاء إليَّ ثائرًا غاضبًـا.. حامـلًا على العمال الذيـن لا يحفظون الجميـل.. والذين يتركونه في الأوقات العصيبة.. أحاول قدر استطاعتي أن أهدئ من ثائرته..

إنهم مسـاكين.. وراءهـم أفواه جائعة تطلب المزيد مـن الطعام كل يوم.. ولن أنسـى ذات سـبت.. وهو اليوم الذي يقبض فيـه العمال أجورهم.. يوم أعطـاني صديقـي أربعة جنيهات لأوزعهـا عليهم.. ولم يرد هـو الذهاب إلى

هنـاك.. بحجة انشـغاله في موعد عمل.. وكنت أعلـم أنه كان يهرب منهم.. ومن دائنين آخرين..

ولم يعد مصطفى في الأسـبوع التالي. وبدأ صديقي من جديد يشـكو عدم وفاء العمال..

وخلَـت الورشـة تدريجيًّا.. ووقـف فيها العمـل تمامًا.. ولم يبـق غير فرد واحد.. هو حامد الأخرس..

وكنـت أعجب لصـبره الطويـل.. وكانت الأسـابيع تمـر دون أن يقبض شـيئًا.. يفتـح الورشـة في الصبـاح.. ويظل جالسًـا حتـى موعـد إغلاقها.. فيقفلها ويمضي في سكون.. وكان صديقي قد أصيب في هذه الفترة بضربات متوالية.. وساءت سمعته في السوق.. وأصبح على شفا الإفلاس.

وأصابتـه هـذه الحالة بشيء يشـبه السـعار.. فما يـكاد يعلـم أن أحدًا من أصدقائـه يملـك نقـودًا حتى يطلبهـا منه.. وكأنـه يطلب حقًّا مـن حقوقه.. أصبح كالوحش المفترس.. يستدين من هنا.. ومن هناك..

وذات يوم جاءني صديقي.. وعرض عليَّ أن أعمل معه..

«لكن احنا مش هانتفق ياصبري.».

«ليه يا أخي.. ماحنا طول عمرنا أصدقاء..».

«إنت اتعودت انك تكون كل حاجة في الورشة.. و ..».

«أنا ماليش دعوة بحاجة.. إنت بإيدك كل حاجة..».

وألـح صديقـي.. ولم أرد أن أتخلى عنه في وقت عصيـب.. ولم يكن هناك ضرر مـن أن أبـدأ معـه لنبني مـن جديد.. وبدأنـا معًا.. نعمـل.. ونبحث.. طوال اليوم.. واستطعنا أن نجد أملًا صغيرًا.. كأنه شعاع في مكان مظلم..

كل هذا.. والأخرس في مكانه.. صامت.. يقبع في ركن من أركان الورشة فوق مقعد من الحديد وهو يدور بعينيه في المكان.. وما إن يرانا ندخل.. حتى يهب واقفًا.. ويرفع يده إلى رأسـه محييًا.. وعلى وجهه ابتسـامة.. وأذكر أنني قلت لصديقي ذات يوم ونحن جالسان في الورشة.. وكنت أرقب حامدًا.

«إنت مش بتدي حامد حاجة..».

«أديله منين؟!..».

وفي الحقيقـة.. كنت أدهش لصبر هذا الإنسـان.. وقـد تراكم أجره لدى صديقي حتى أصبـح بضعة جنيهات.. واقترحت يومها أن نتناول الغداء في الورشة.. وأرسلنا حامدًا فأحضر بعض الجبن والطماطم والفول الأخضر.

وبدأنـا نأكل.. ولاحظت أن حامـدًا كان قد جلس في ركنه المعتاد.. ينظر إلينا فترة.. ثم ينهض ويدور في المكان دورانًا لاهدف له.. ولم يخطر ببالي شيء مـن الذي عرفتـه عندما جاء ووقف أمامنا.. ونظر صديقي وقال وهو يشـير بيديه.. ويخرج تلك الأصوات الغامضة..

واتضح أنه يطلب خمسـة قروش.. ووقفت اللقمة في حلقي.. ولم أستطع أن أبتلعهـا.. وأحسسـت بالخجل يغمرني.. واعترتني الدهشـة وأنا أسـائل نفسي كيف لم أنتبه لأمر كهذا منذ البداية.. ولكن دهشتي زادت وتحولت إلى ثورة عندما قال له صديقي..

«ليه.. عاوزهم ليه؟!».

وثُرْت.. وأخذت الكلمات تنساب من فمي وقد اختفت الدماء في رأسي.. ووقف حامد ينظر إلى صديقي وعلى وجهه ابتسامة خجلة.. وقلت..

«بأه ده سؤال يا أخي.. عايز ياكل زي ماحنا بناكل..».

وتكلمت كثيرًا.. وحامد في مكانه لايتحرك.. وكأنه تمثال قد رسمت على وجهه ابتسـامة بلهاء.. وأعطاه صديقي القروش الخمسـة وهو يزفر وينفر.. وعـاد يتابع طعامه وكأن شـيئًا لم يحدث.. وذهب حامد ثـم عاد ومعه حزمة كبيرة.. وجلس في مكانه المعتاد.. وبدأ يأكل في شراهة..

وأحسست إحساسًا عميقًا بالخجل أمام هذا الإنسان.. وكان هو قد فقد كل شـعوره بمن حوله.. وجلس يأكل في صمت وسرعة.. وأشعل صديقي سيجارة.. ونهض لعمل ما..

كانت هناك رغبة قوية تجتاحني لأجلس إلى حامد.. وأتكلم معه.. وأحدثه.. وجدت نفسي كمن يريد أن يحتضن شيئًا غريبًا.. شيئًا يحبه ويملأ قلبه..

وظللت في جلسـتي ألحظه حتى انتهى من الطعام.. ثم نظر إليَّ مبتسمًا كما هي عادته.. وقمت إليه وطلبت منه أن يحضر لنا شايًا..

وأخذت أنظر إليه متحدثًا.. مثرثرًا وأنا أشعر به يملأ فراغ الورشة كلها.. وعلمت أن له شـقيقًا يعمل في ورشـة أخرى.. وأن أباه متوفى.. وأن شـقيقه أخرس مثله.. ويعيش ثلاثتهم – هو وأخوه وأمه – في غرفة واحدة.. ولست أدري أيـة لذة تلك التي كانت تعتريني وأنـا أتحدث إلى حامد.. وفوجئت به

يخبرني أنه يسمع.. وأنه يفهم ما يقال له.. وأنه كان يتكلم في صغره.. ولكنه أصبح ذات يوم فيجد لسانه عاجزًا عن الحركة..

«ومن إيه ده ياحامد؟».

وأشار إلى السماء..

«ومرحتش لدكاترة..».

«تير.. إيه.. مو.. يده..».

كان يقول إنه ذهب كثيرًا.. وداخ.. ولكن لافائدة..

ومر بنا الوقت.. ولست أدري أي شيطان دفعني لأن أسأله عن سر بقائه في الورشة.. وصمت طويلًا.. ثم نظر إليَّ وقد اختفت الابتسامة.. وحل محلها حزن شمل كل وجهه.. وحسبت أني أغضبته.. أو أنه لم يفهم ما أردت قوله.. فكررت السؤال.. وزاد تعقيد قسمات وجهه الطيبة القوية.. وكان يعقد كفيه ويفركهما في عصبية وقوة.. وأحسست أنني قد ارتكبت جرمًا في حقه.. قدمت له سيجارة.. وربت على كتفه وأنا أحاول قدر إمكاني أن أبتسم وأهون الأمر.. وشملتني راحة كبيرة عندما وجدت الابتسامة تعود إلى وجهه.. ثم أخذت الأصوات الغريبة تخرج من حلقه وهو يحاول أن يتحدث.

وجلست أستمع إليه بكُلِّيتي وقد أمتعني الحديث..

كان حامد قد عمل في أكثر من ورشة.. ولكنه لم يكن يمكث أكثر من شهر في أية واحدة منها.. وغالبًا ما كان يضرب أحد العمال.. أو صاحب الورشة.. ثم يغادرها بغير رجعة..

وكانت يداه معبرتين.. والأصوات التي تخرج من فمه يهتز لها الوجدان.. فهـي تخـبر وتتكلـم وتثـور وتهـدأ.. كان حديثـه شـائقًا للغاية.. معـبرًا كل التعبير..

«أنا .. أنا .. اسمي حامد.. بني آدم.. زيي.. زيك.. مش اخرس.. فاهم؟».

«فاهم..».

«اسمي حامد.. مش الأخرس.. والأفندي..».

«قصدك صبري.. مش كده؟».

«أيـوه.. هو طيب.. عمره ماقال لي يا اخرس.. كان بيقولي يا حامد.. قال للصنايعية يقولوا لي.. ياحامد.. عنده حق.. مش كده..».

«مظبوط؟».

«بـس.. أنا اسـمي حامد.. مش الأخرس.. والنـاس كلها.. والمعلمين.. والأسطوات كلهم بيقولوا لي.. يا اخرس.. ليه.. ده مش اسمي.. أنا اسمي.. حامد.. فاهم؟».

«فاهم ياحامد..».

وهنـا أشرق وجهـه.. وطفحـت ابتسـامة كبـيرة شـملت كل تقاطيعـه الضخمة.. وبحلق في وجهي.. وأشار بيديه وهو يريد أن يقول..

«خلاص.. أنا فضلت هنا.. علشان.. اسمي.. حامد.. حامد.. مش الأخرس».

لا وقـــت للأحـــزان

عرفت عطيات منذ زمن، منذ أن جاءت بكشكها الخشبي واحتلت ناصية شـارعنا.. وكان ظهورها فجائيًّا بعث في نفوسـنا التأفـف والضيق.. على أن أكثر ما ضايقنا أن يحمل شـارعنا الهادئ الحالم تلك العلامة.. كشـك خشـبي حائـل اللون، وثلاجة عرجـاء باهتة، وبجوارهما فتاة غريبـة.. لكن عطيات سرعـان مـا احتلت - بعـد الناصية - قلوبنـا جميعًا.. وفي يـوم وليلة تحولت الناصيـة الهادئـة الحالمة إلى منتدى للبوابين والطباخـين والخدم، كما أصبحت موقفًـا لسـيارات الأجرة التي غالبًا ما اعتذر سـائقوها عن العمل لأسـباب واهية!!. ولا تمر سـاعة دون أن يتسـكع أحد سـكان شـارعنا - من الأطباء والمهندسـين وأصحاب السـيارات التي تسـير بلا صوت - بجـوار عطيات ليتبـادل معهـا كلمـة أو كلمتين من شـباك عربتة.. بينما تقف هي وسـط كل هؤلاء كالمايسـترو الـذي لا يخفى عليه نغم.. تلبـي كل طلب. وترد على كل سؤال، وتجيب كل حاجة.

هي فتاة مشرقة باسـمة، لها عينان واسـعتان ثابتتان، يطل منهما بريق مرح لكنه مخيف، ولا يطرق لهما جفن أمام نظرات الآخرين. جمالها بريء متوحش ينسـجم مـع أثوابهـا الفاقعة الألـوان التي تلتصق بجسـدها اللـدن الممتلئ،

وتضوي ألوانها الفاقعة فوق استداراته في أمواج مثيرة تحت وهج الشمس في النهار، أو ضوء الكلوب في الليل، فتخطف الأبصار.. وربما القلوب!

جذبتنـي عطيات كما جذبت غيري، ثـم جذبتني أكثر مما جذبت غيري.. ونمت بيننا ألفة ارتاحت لها نفسي وإن عجزت عن تعليل سببها!

غالبًا ما سهرت حتى الصباح، ولمحتها من مسكني الشاهق وهي تأتي قبل شروق الشـمس تفرقع بشبشـبها فوق الأرض في جذل، تحيي في طريقها كل مـن تقابله ويدندن صوتها وهي تحادث السـائقين والعـمال وجنود البوليس، وتعزف بين الحين والحين ضحكتها فتسبح أمواجها في الفضاء المتثائب كنغم حالم يوقظ الناس.

ورأيتهـا مـن مكاني العـالي بعد منتصف الليل بسـاعة أو سـاعتين، وهي تجمـع شـمل بضاعتهـا المتناثـرة، وتطفئ الكلـوب ثم تغلق كشـكها وتمضي وحيدة، يتراقص شـبحها تحت أضـواء مصابيح الطريـق الباهتة وكأنها دمية من القش تحركها أصابع خفية.

ومـا بين الصباح والصبـاح - فهي تأتي في الصبـاح وتنصرف في الصباح التالي - لم تكن عطيات تكف عن الحركة أو العمل، تضحك وتناقش وتثرثر وتبيع وتشـتري وتـأكل وتصاحب وتنثر ابتسـامتها على الرجـال الذين كان عددهم يزداد يومًا بعد يوم.

وفي البداية.. ظننت فيها ظنونًا كثيرة.

إلى أن رأيتهـا ذات مسـاء - وكنت في طريقي إلى عمـلي - تندفع من باب الكشك الخلفي وتنقض على رجل وتهبش بأظافرها في قميصه وتهوي برأسها

- كالصخرة - فوق وجهه فتسيل دماؤه.. حدث هذا في لحظات خاطفة، وعبثًا حاول الرجال أن يحولوا بينها وبينه، كانت أصابعها قد تحولت إلى مخالب وشفتاها المكتنزتان تطلقان في وجه الرجل سيلًا من الشتائم القاسية العارية، وكلما اقترب منها أحد ناله رذاذ من غضبها أو صفعة من كفها.. وأخذ الرجل يتهاوى أمامها.. تمزق قميصه وتهدلت خرقه عن صدر حفرت في لحمه أظافر عطيات أخاديد دامية.. ولست أدري كيف وجدت نفسي أتقدم منها، بل أضع يدي على كتفها وأقول بصوت ثابت: كفاية كده يا عطيات!. وارتفعت يدها لتهوي على وجهي عندما استدارت بوجهها نحوي، وانغرزت نظراتها في عيني.. وجمدت يمناها وسقطت يسراها عن طوق الرجل، وارتخت - لأول مرة - جفونها أمام نظراتي، وعلت وجهها ابتسامة خَجْلَى وهو تعود إلى الكشك قائلة:

«هو كل الطير اللي يتاكل لحمه.. يا بيه دانا وليه وباجري على عيله.. هو يعني..».

واحتبس صوتها وترقرقت كلماتها كالدمع، ولكنها لم تبك بل ركلت الباب في غضب ودلفت إلى مكمنها.

وعندما عدت بعد ساعات كان كل شيء قد عاد إلى حاله.. الرجال تجمعوا في هدوء، وثرثرتهم معها تملأ جو المكان، وعطيات تضاحك هذا وتعابث ذاك وتتراقص ألوان فستانها وترتعش تحت ضوء الكلوب.. وانحنت ليلتها أمامي على حافة الكشك وأسندت نهديها إلى ذراعيها وهي تقول بابتسامة:

«إن ماكنتش عملت كده ياكلوني يابيه.. وحياة النبي ياكلوني!».

وثرثـرت ليلتها مع عطيات، كما ثرثرت معها ليـالي أخرى كثيرة.. وتطورت الألفـة بيننا - منذ تلك الليلة - فأصبحت صداقة سـاحرة تزداد كلما قصت عليَّ طرفًا من حياتها.. واكتشفت مع الأيام أن حياتها مشاكل، وأن مشاكلها كثيرة..

مشاكل مع البلدية..

«طلبوا مني رخصة، جبت لهم رخصة، طلبوا مني فيش وتشبيه، طلعت.. عاوزين تصريح شغل رصيف.. حاجة تحير والنبي يابيه».

وشقيقتها الصغرى التي أبت أن تذهب إلى المدرسة..

«يرضيك والنبي يابيه؟!».

السـائق الذي سلم لها خطابًا غراميًّا ملتهبًا يطلب يدها، ويعرض عليها كل ماله، حتى عربته التي تساوي ألفًا من الجنيهات، قدمت لي الخطاب ثم قالت:

«ده متجوز.. أخرب بيت واحد عشان عينه فارغة؟!».

لكـن مشـاكلها تروح وتـأتي دون أن تحتجـب ابتسـامتها، كانت عطيات «تقزقزها» كحبات اللب الذي تبيعه للأطفال، ثم تحلها ببساطة وقدرة وكأنها تبصق قشر اللب في غير مبالاة.

لكنـي رغـم هـذا كنـت أشـعر كلما تحدثـت معهـا أن شـيئًا مـا يجثم على صـدري، شيء لم أسـتطع التخلـص منـه أبـدًا. قـد يكـون حرصًـا، خوفًـا، أو .. أي شيء.

وقـد دهمنـي ذلك الإحسـاس ذات ليلة، كانـت عطيات قـد غابت نهارًا بأكمله. وقد اعتراني الضيق لذلك السكون الموحش الذي خيم على الناصية،

على أنني عندما عدت في منتصف الليل وجدت الحياة قد عادت إلى الكشك، فحيح الكلوب وضوءه الواهن، الثلاجة العرجاء البالية، زجاجات ملقاة هنا وهناك.. وعطيات في الداخل، تطل برأسها بين الحين والحين في قلق محملقة في الظلام وكأنها في انتظار شخص بعينه.. وما إن لمحتني حتى غادرت الكشك وأغلقت بابه، ثم وقفت في طريقي محتمية بالظلام.

عند ذلك فقط تنبهت أنها وحيدة ليس هناك سمير ولا مشتر ولا معجب، وانتفض فيَّ ذلك الشيء في صدري فأبطأت قدماي وكأنهما التصقتا بالأرض.. قصرت المسافة بيني وبينها فإذا هي خطوات، وتكاثف السكون من حولها فإذا هو عميق، لا سيارة ذاهبة، ولا عربة آتية.. حتى ضوء الكلوب كان يتهاوى مسافة قدم ويذوب.. سمعت عن يساري حركة، فأدرت وجهي ولمحت جندي البوليس يقف منتصبًا، رددت عنه عيني فرأيت بواب عمارتنا وهو ينظر ناحيتي.. وارتبكت.. ماذا تريد من وقفتها تلك؟. وماذا يريد هذان الرجلان؟!.. لم أفكر، بل إني ما دريت إلا وأنا أنثني إلى اليسار مبتعدًا عنها إلى الضفة الأخرى من الشارع، ثم أوسِّع الخطى مضطرب القلب حتى التحية ابتلعتها لخمتي فلم ألقها عليها.. كنت متعبًا مرهقًا يدفعني خوفي وتوجسي أمامها في رعونة.. وظللت أهرول حتى وقفت وراء الشباك أرقبها وهي تزحف وسط الليل وظلامه وحيدة. سهمت برهة ثم ارتجفت فجأة. فقد تنبهت وقتها فقط أنها كانت تلبس السواد.

وتذكرت وجهها المطل عليَّ من وسط الكشك، كان وجهًا قد تجهمت ملامحه وانتفخت عيناها وتشعث شعرها، أحسست برغبة طاغية في اللحاق بها وأنا أراها تخطو في الطريق كأنها تضع فوق كتفيها أحمالًا ثقيلة، تنحرف

خطواتهـا إلى ضفتـي الطريـق، ثـم تعـودان في انزلاقـة سـكرانة إلى الضفـة الأخـرى.. على أن رغبتي هذه كانت مجرد خاطـر ذاب تمامًا في دقات التعب التي كانت تسحق جسدي. فنمت.

ومـا إن فتحـت عيني في الصباح حتى صافحـت أُذُنَيَّ ضحكتها، فقفزت إلى الشـباك، وألقيت ببصري نحوهـا.. وجدتها كـما عهدتها، تضحك وتثرثر وتعمـل وتعاتـب وتجـري وراء خادمـة عاكسـتها، وترفـع رأسـها في دلال، ويضوي فستانها اللامع فوق استدارات جسدها.

وبعد دقائق كنت ألقي عليها تحية الصباح، واستقبلتني عطيات بابتسامتها وضياء عينيها، فهمست في عتاب وأنا أتناول منها صندوق سجائري:

«كنت لابسه اسود ليه يا عطيات؟!».

قالت في نبرات فضية وهي تداري وجهها:

«ده مش فستاني يا بيه.. دا بتاع واحدة جارتنا!».

ولاحقتها قائلًا: «وكنتي لابساه ليه؟!».

خبا الضياء لحظة، وغاضت الابتسامة ثم عادت فانتصرت على تقلصات كادت تغزو الوجه، وتخضبت وجنتاها وهمست في ارتباك:

«أصل ابويا مات.. البركة فيك!».

فضحكت في بلاهة: «هيه؟!».

مفيش مشكلة

فجأة وجد كل منهما نفسه أمام الآخر، تلك اللغة المشتركة التي تحدثا بها منذ أن التقيا لأول مرة حتى قالت هي ما قالت دون قصد، وحتى فعل هو الذي فعله بجنون ولسبب بدا لها رهيبًا.. راحا يصرخان ويتحاوران ويتخبطان فإذا كل منهما يسبح في عالم من الضياع بلا نهاية، وإذا بالعش الهادئ يصبح كابوسًا.. وإذا الحب يقف على شفا هاوية بلا قرار. وإذا هما يتمزقان معًا ويدمعان معًا.. ثم لم يجد كل منهما ملاذًا من عذابه إلا صاحبه!

ليست قصة حبهما عظيمة ولا غريبة ولا هي قصة حب تصلح للكتابة أو السرد أو التسجيل، فهي واحدة من ملايين قصص الحب التي تحدث كل يوم في كل حي أو شارع أو حارة أو شركة أو مصنع أو مصلحة حكومية، ثم إنهما لم يلتقيا لقاءً متميزًا، بل كان لقاؤهما عاديًّا.. كان هو يحمل أوراقًا من الشركة التي تعمل هي بها.. الأوراق في حاجة إلى اعتماد، والاعتماد في حاجة إلى مراجعة، والمراجعة في حاجة إلى نظر، والنظر في حاجة إلى رئيس ينظر، ورئيس يسأل ورئيس يقبل، ورئيس يرفض، ورئيس يحيل الأوراق إلى رئيس.. هو يعرف هذا جيدًا، ولقد وطن نفسه منذ أن أسندوا إليه هذا المشوار، على قضاء يومين أو ثلاثة في حالة من ضيق الخلق والمداهنة

والمحايلة وانتقاء ألفاظ بلا معنى و.. وكل هذه الأساليب التي من الممكن أن تيسِّر ولا تعسر، وتسهل الأمور ولا تعقدها!

دخـل إلى الشركـة التي تعمل بها وسـأل عن القسـم الذي يبغيه، فسـأله الساعي وهو ينفث في وجهه دخان سيجارة رخيصة عما يبغيه فما كان منه إلا أن قال إن هذا لايعنيه وإنه يريد القسـم وإن عليه أن يدله عليه.. ولم تعجب السـاعي لماضته، ولم يعجبه رد السـاعي، فتشابكت كلماتهما وتصايحا فإذا بها، وكانت تعبر الممر لشـأن من شـئون عملها تتوقف، وتسأل عن الحكاية، وإذا هي المسئولة عما جاء من أجله، فطيبت خاطر الساعي، وانتهت المشكلة وسار خلفهـا حتـى دخلا مكتبهـا، فجاءت له بمقعـد اقترضته مـن مكتب مجاور، وطلبت له كوبًا من الشـاي، وأخذت منه الأوراق، وراجعتها، ثم ابتسـمت وهـي تطوي الدوسـيه قائلـة إن الأوراق في حاجـة إلى اعتـماد، والاعتماد في حاجـة إلى مراجعة، والمراجعـة في حاجة إلى نظر، والنظـر.. فقاطعها ناهضًا وهو يشعر بالاختناق:

«قولي لي أروح فين وأنا أروح!».

رفعت إليه عينيها في دهشة وهي تقول:

«وتروح انت ليه، أنا اللي حاروح!».

ودهـش وعـاد إلى جلسـته، وأخـذ يحملـق فيها وهـي تقـول إن الروتين سـخيف، وأسـخف منه القائمـون عليه، وهو عصبـي المـزاج، وإذا كان قد تشـاجر مع السـاعي فما الذي سـوف يفعله مع الموظفين ورؤسـاء الأقسـام

والمديرين وأصحاب التوقيعات؟! قالت هذا وطلبت له شايًا آخر، ثم تركته ومضت.

أدهشه ما فعلته، فراح يتأمل ما حدث.. هي ليست جميلة ولكنها بالقطع مليحة، وهي ليست رشيقة، لكن قوامها ملفوف، وهي ليست خفيفة الظل، ولكن في خدها غمازة تجعل لابتسامتها سحرًا لايقاوم.. وسبحان الله الذي يأخذ من ناحية ليضيف في ناحية، وسبحان مفرق القلوب ومجمعها على غير موعد.. ولقد كانت الغرفة التي يجلس فيها تضم ما يزيد على الخمسة مكاتب، وكانت تشغي بالموظفين والموظفات والأحاديث والصيحات والمساومات والمتعاملين والسعاة والخردواتية الذين يبيعون أي شيء وكل شيء والجرسون داخل خارج يدندن بالملعقة في أكواب الشاي.. و.. ورغم كل هذا فلقد اكتشف أنه منذ دخل هذا المكتب لم يكن قد رأى غيرها، أو سمع سوى صوتها، ولا أحس إلا بها.. وهكذا، عندما عادت إليه بالدوسيه، كان قد أمضى ثلث ساعة وهو مستغرق في التفكير يضرب أخماسًا في أسداس، ينظر إلى الآخرين ولايراهم، يستمع إليهم ولايسمعهم، يجلس وسطهم ولايشعر بهم.. وعندما قدمت له الدوسيه سألها في توجس غير مصدق:

«خلاص؟!».

«حظك كويس!».

هتف:

«قوي!».

قالها والحق يقال في حماس واندفاع، ولكنها رفعت إليه عينين انطلقت منهما نظرة نارية فهتف مدافعًا عن نفسه:

«والله مش قصدي!».

بدت عليه خيبة الأمل وهي تقول:

«يا خسارة!».

قالت هذا ودفنت نظراتها في الأوراق المبعثرة أمامها ولم يكن أمامه سوى أن ينهض واقفًا:

«أنا متشكر قوي!».

فلم ترد عليه، غادرها وغادر الشركة لكنه لم يغادر المكان، ظل يتلكأ في الشارع جيئةً وذهابًا حتى جاء موعد انصراف الموظفين فرآها تنصرف معهم، وحين وقعت عيناه عليها لم يكن يعرف ما الذي يفعله بالضبط وما الذي يريده بالتحديد.. وطوال الساعتين اللتين وقفهما في الانتظار حاول التركيز فلم يستطع.. ولطالما توقف وسأل نفسه بصوت عال، وفي الشارع أمام الرائح والغادي: «أنا عاوز إيه بالضبط؟» ثم ينتبه إلى أنه في الشارع، وأنه يتحدث بصوت عال، فينسى السؤال كما ينسى الجواب ويتخذ القرار بالانصراف، وينصرف فعلًا، لكنه ما إن يصل إلى ناصية الشارع حتى يعود مرة أخرى!

وفي حقيقة الأمر فلقد أعجبته تلك الحالة التي انتابته، فهي حالة من تلك الحالات الغامضة اللا إرادية العجيبة التي تعطينا ذلك الإحساس الفائق

اللـذة بالتمـرغ في غمـوض أهـوج.. ولقد حـدث كل ما حـدث دون قصد بالفعـل، فهو عندما اعترض طريقها أثناء انصرافهـا رفعت إليه عينيها بتلك النظرة النارية فوجد نفسه يقول بصوت أنكره على نفسه:

«تتجوزيني؟!!».

«لأه».

«ليه؟!».

«لأن معندكش ذوق!».

هكذا من الباب للطاق، لا هو عرف لماذا قال ما قال، أو كيف قال ما قال.. ولا هو فهم كيف سـألها ذلك السـؤال!! فهو أبدًا لم يفكر في الزواج ولا خطر بباله ولا رتب له ولا اسـتعد، أحس وكأن إنسـانًا آخر هو الذي يتحدث من داخلـه، وأن ثمة قوى خفية أصبحت تسيطر عليه منذ أن رأى تلك الفتاة.. وهو بالفعل أراد مغازلتها عندما قالت إن حظه كويس، ثم أدرك أنها من هذا النوع الذي لايتقبل الغزل عندما رمته بتلك النظرة النارية، فتأسف. ثم ضاع عندما وجدها تتحسر على أسفه فوقع في الحيرة!

انطلقت تسير فسـار بجوارها، كان يقول كلامًا لايعنيه ولايعيه، وكانت تـرد عليـه بكلـمات كالحجـارة لكنهـا كلـمات لاتصد ولاتـرد ولاتفتـح بابًا ولاتغلقـه، وكانـت النتيجـة أنهما تنافـرا في الطريق العام، ثم توقفـا، عادا إلى السـير.. لكـن الحوار اسـتمر.. قالت إنـه قليل الذوق؛ لأن الـسرور كان قد انتابها فعلًا رغم نظراتها النارية - وظنته يريد مغازلتها أو مجاملتها - سيان - لكنـه عندمـا تراجع قالت لنفسـها إنه واحد من اثنين: إما أنه جبان يسـحب

إعجابه لمجرد نظرة غاضبة من فتاة، وإما أنه جبان - أيضًا - لأنه لايستطيع مواجهة الحقيقة بشجاعة!

ياهـذا المنطـق الغريب العنيد الذي ينفذ إلى القلـب فيدفعه إلى الخفقان في بهجة.. وكلما أمعنت هي في منطقها، أمعن هو في الإصرار على موقفه، وحتى عندما عرف أين تسكن وذهب إلى والدها يطلبها منه فوجئ بالأب أشد حيرة منـه، لكنه لم يدهش لما حدث، فهذه البنـت - منذ صغرها - ذات منطق غير منطق الناس، وعقل ركب في رأسها بطريقة تبدو غريبة، هكذا قال له الأب، وهكـذا انحاز لصفـه بعد أن عرف أصله وفصله ومرتبه وماضيه ومستقبله وسأل عنه واستشـار وتداول وناقش ووجده صالحًا ابن حلال.. ثم وافقت هي على مضض، وبشرط أن يوضع تحت الاختبار لستة أشهر!

عندما وضع الدبلة في أصبعها ووضعت الدبلة في أصبعه اعترف لنفسـه لأول مـرة أنـه يحبها، ثـم.. وعندما عقـد القران وراحا يبحثان عن مسـكن، اعـترف أنها استطاعت، بمنطقها هذا الغريب، أن تجعله يسـير على العجين دون أن يخدش سـطحه الأملس.. لكنهما عندما تزوجا كشفت له عن جوهر جعل عقله يترنح وعواطفه تتأجج. ومضت بهما الشـهور ناعمة مثل سحابة تتهاوى في يوم مشمس.. ثم برزت مشكلة «الإنجاب»!

في بدايـة الأمـر لم تكـن «الخلفـة» مشـكلة تشـغل بالهـما، لكنهما أحسـا، بعـد مـرور عام وبعـض العام أنهما لا بد أن يناقشـا الأمر مناقشـة موضوعية وصريحة - هكذا قالت هي - ذلك أن أمها بدأت تسـأل، وأمه بدأت تسأل،

وأمهـا تهمس لهـا، وأمه بدأت تهمس لـه، ثم تدخل الأبوان، وراح السـؤال يتردد مرة تصريحًا ومرة تلميحًا، وعندما قررا المناقشة قالت:

«شوف يا أستاذ - فهكذا تعودت أن تناديه مدللة إياه - احنا قدام مشكلة واحدة، لايمكن يكون لها إلا سببين اتنين فقط لاغير!».

«إيه هما؟!».

«يا إما العيب فيك، يا إما العيب فيَّ أنا!».

«وإذا ماكانش فيه عيوب؟!».

«يبقى مافيش مشكلة!».

كان المنطـق واضحًـا وصريحًا ومباشرًا؛ لذلك.. فلقـد اتفقا على أن تبادر هـي وتذهـب للطبيب.. ولقد فعلت، كشـفت وأجرت التحليلات وجاءت كل النتائـج تقول: أن لا موانع لديها على الإطلاق، وهكذا جاء الدور عليه، حسب الاتفاق، كان عليه أن يذهب إلى الطبيب لكنه رفض!! «أنا عارف إني طبيعي.. وما عنديش حاجة!».

«خلاص، تبقى مفيش مشكلة!».

«إزاي؟!».

«تروح للدكتور علشان يقول لنا الكلام ده!».

لكنـه لم يذهـب للطبيـب، أصر على الرفـض، ولم تصر هي عـلى ذهابه.. وكانا أحيانًا يتناقشـان، وأحيانًا يتنافـران، لكنهما أبدًا - فيما يختص بموضوع الخلفة - لم يتشاجرا!

لكـن أمهـا لم تعجبها الحـال.. وراحت أمه تشـكك في صحة التحليلات وتطالـب بالذهـاب لطبيب آخـر.. وللحـق، إن الأمر كان يضايقـه كما كان يضايقهـا، وكان مـن الممكن أن تسـير الحياة كـما كانت لولا مـا حدث ذات ليلة.. كانا في زيارة لحماتها، عندما تركها لمشـوار كان عليه أن يقضيه، على أن يعود إليها فيصحبها إلى البيت.

مـا إن غـادر حتـى بـدأت حماتهـا الـزن، والحديـث عـن الحيـاة الزوجية والاسـتقرار.. كانت الأم تلف وتدور حول الموضوع فلم يعجبها هي الحال فسألتها:

«إنت بتتكلمي على إيه يا طنط؟».

«يا بنتي ربنا قال: المال والبنون زينة الحياة الدنيا!».

ضحكت مداعبة وهي تسأل حماتها:

«طب انتي عاوزة إيه من الاتنين دول؟!».

«المال.. وادي الله وادي حكمته!؟».

«آمنت بالله!».

«يفضل البنون!».

«الحمد لله!».

هـي لاتدري لم قالت ما قالت وكيف قالته وبأية لهجة، لكن الذي حدث أوقعهـا في ورطة، فلقـد اجتاحت ملامح الأم سـعادة بلا حدود، ابتسـمت هاتفة:

«إنتي حامل؟!».

أعجبها الموقف فقالت:

«في أسبوعين!».

كانت تريد أن تبتر الحديث في الموضوع. وكانت تعلم أنها لن تخسر شيئًا، فهي تستطيع بعد أسبوع أو اثنين أن تدعي أن الحمل كان كاذبًا أو أنها أجهضت، كان ما يعنيها الآن ألا تناقش المشكلة، ولقد أرادت أن «تسبك»الدور، فادعت التعب، واستأذنت وانصرفت قبل عودته كي يصحبها إلى البيت.. عادت إلى بيتها وبدلت ملابسها وأعدت عشاءً خفيفًا وطالعت برامج التليفزيون في الجريدة، وقررت أن تعطي لعقلها إجازة في تلك الليلة وأن تشاهد في السهرة فيلمًا عربيًّا!

ما إن سمعت صوت المفتاح يدور في الباب حتى استعدت للقاء زوجها بابتسامة أرادت أن تبدأ بها الحديث عن النكتة التي قالتها لحماتها، سمعت خطواته وهو يقترب حتى إذا وصل إلى باب الغرفة كان الشرر يتطاير من عينيه وقد انقلبت سحنته فبدا لها وكأنه تحول من إنسان إلى شيطان، ولأول مرة في حياتها تشعر بهذا القدر من الخوف، فاعتدلت في جلستها وابتلعت ابتسامتها وأدركت أن كارثة تهب على بيتها وكان الخوف - كلما طال صمته في وقفته - ينتشر في أرجائها كإعصار ثلجي.. لكنها قاومت حتى وجدت صوتها التائه فيما بين صدرها وحلقها - فقالت مازحة:

«طب قول مساء الخير!».

«إيه اللي نزلك من عند ماما قبل ما ارجع؟!».

«أصل أنا حسيت إني...».

قاطعها هادرًا:

«أنا مش قايل لك اني حاعدي عليكي؟!».

«كنت تعبانة!».

«من إيه؟!».

عندما سـأل سـؤاله أدركـت وفهمت ودهشـت وذعـرت.. إذا به يتقدم نحوها هاتفًا:

«ممكن أعرف مين هو الأب السعيد لولي العهد اللي جاي؟!».

قفزت من مكانها وهي تشـعر وكأن قلبها ينفجر انفجارات متتالية توجع صدرها، نفثت عيناها تلك النظرة النارية وقالت وهي تغادر الغرفة:

«أنا عاوزة اتطلق!!».

ترنحت في سـيرها فارتطمـت بالحائط والباب ومقعـد كان في الطريق.. لاحقها هو بصراخ لكنها لم تسمع، أحست بالطعنة نافذة إلى القلب مباشرة، دلفـت إلى غرفـة النوم وشرعت في إبدال ملابسـها وتجهيز حقيبتها وكان هو عنـد الباب يلاحقها بصراخه فكان صوته يأتيها مـن أعماق بئر بلا قرار.. في لحظة التفتت إليه فأحسـت أنه يتعذب عذابًا بلا حدود، تمنت لو يسـألها لكنه كان يتمـزق أمـام عينيها إربًا، وانفجر من عينيها شـلال مـن الدمع لا يعرف التوقـف، وكان دمعهـا غزيـرًا إلى الحـد الـذي أطفأ نـار غضبه فـراح يلهث ويلهث ثم ما لبث أن سألها:

«أقدر اعرف انتي بتبكي ليه؟!».

«علشان أنا مش حامل!».

ولأول مـرة منـذ أن التقـى بهـا في ذلـك اليـوم في مكتبها بشركتهـا يأتيه صوتها ضعيفًا واهنًا متهاويًا مرتجفًا بحزن بلا حدود، أحس هو بالدواء وقد اتضحـت له الحقيقـة فانتابه الفزع ممـا قال وهربت دمـاء الغضب من وجهه وانسـحبت وراءها كل دمائه فبدا شـاحبًا شـحوب المحتضر.. كانت هي قد ثبتـت عينيها في وجهـه وتركتهما هناك وقـد انتابها فزع هائل لمـا أصابه، كان يقاوم إحساسًا مريعًا بالإغماء فقال:

« أمال قلتي لماما إنك حامل ليه؟!».

«علشان زهقت من كتر الكلام في الموضوع ده!».

ساد بينهما الصمت ولم يتوقف الدمع فعادت إلى الصياح:

«وعشان خايفة كلامهم يجرح شعورك!».

انتفـض في وقفتـه كالمذبـوح، راح يحملـق فيهـا غير مصـدق فعادت من خلال الدمع تقول:

«أصلي انا عرفت كل حاجة من زمان!».

أراد أن يسأل لكنه لم يستطع.

«أنا شفت التحليل بتاعك وعرفت انت خبيته عليَّ ليه؟!».

وجد صوته أخيرًا فسأل:

«عرفتي إيه؟!».

«عرفت ان مفيش مشكلة!».

هتف باسمها وهو يتقدم منها وقد انفجر بركان الدمع من عينيه.

«وعرفت إن كفاية عليَّ طفل واحد!».

كاد يسقط في إحدى خطواته: «كنت خايف تسيبيني!».

«واروح فين؟!».

تلقفته بين ذراعيها، واختلط نشيجهما، كما اختلطت دموعهما وكان كل منهما يشعر أنه يحب الآخر حتى الموت!!..

الرجــــل والســــيــارة

- 1 -

الشـارع شديد الانحدار يصعد نحو الجراج في حدة، ثم يلتوي فجأة عند البـاب في انحناءة لولاها لهان الأمر، ولما أصبحت هناك مشكلة، ولانحلت العقدة.

كانت أشـعة الشمس ترسل أول خيوطها الباهتة عبر البيوت ومن خلال الطريـق البعيد، وصمـت الفجر يلف المكان ولا صوت إلا صوت السيارة وهـي تزمجـر، وصراخ العجـلات وهـي تحتك بـالأرض كلما بـدأت طريق الصعـود.. كانـت تندفع صاعدة في يسر، حتى إذا وصلـت إلى ذلك المنحنى توقفت فجأة!

في النهايـة.. كان لا بـد أن يحـدث شيء من اثنين.. أن يخرج السـائس من الجراج، أو تقع معجزة تحمل السيارة إلى فوق!!

شيء غريب بالفعل هذا الذي كان يحدث، فلم يكن البيه من هؤلاء الذين يجيـدون قيادة السـيارات، كانت حركاتـه وتصرفاته واثقة شـديدة الوثوق، وقدمـاه تتحركان في دراية وحنكة من يقود سـيارة منذ سـنوات وسـنوات،

رغـم هذا فقد كانت السـيارة تتوقف في كل مرة تصـل فيها إلى هذا المنحنى، ثـم بدأت في هبوط المنحدر رغم كل محاولاتـه.. وتمضي لحظات حيث يدور بعدها الموتور بصوت عال، يزمجر فتندفع السـيارة تتسلق الشارع حتى تصل إلى المنحنى.. ثم تقف!

- 2 -

في النهايـة، كان لا بـد أن يحـدث شيء مـن اثنـين، أن يخرج السـائس من الجراج، أو تهبط معجزة من السـماء.. لكن المعجزة لم تحدث، وخرج السائس من الجراج عندما فقد «البيه»صبره وعلق بوق السـيارة في صراخ حاد طويل، وتصاعد في السكون صوت خطوات السائس وهو يزحف على أرض الجراج في بـطء، ثـم خرج إلى الشـارع رجل طويـل القامة نحيف الملامـح، في قدميه الكبيرتين قبقاب وعلى جسده بنطلون وقميص لبسا كيفما اتفق، وقف الرجل عند الباب ناظرًا إلى السيارة والبيه في هدوء مثير، ثم في صوت ناعس:

«دور الموتور وشد الفرامل وعشق العربية واطلع وهي تيجي معاك!».

كان السـائس يتحـدث وكأنـه مـدرس يلقـن تلميذة درسًـا فارْبـدَّ وجه البيـه الشـاحب بالغيظ، لكنه - رغـم غيظه - بدأ محاولة جديدة، ففشـل... وانحدرت منه السـيارة حتى كادت تصل إلى أول الشـارع، ثم زمجر الموتور، وصرخت العجلات، واندفعت السيارة بسرعة شديدة نحو السائس وكأنها ستدهمه، فلـم يتحرك هذا من مكانـه ثم انحرفت قليلًا نحـو باب الجراج.. لكنها توقفت!!

- 3 -

«عنك انت يا بيه!».

بدأ صوت السائس كأزيز موتور قديم، وبدأت السيارة مسيرتها هابطة، وتحرك البيه في الداخل متململًا يريد مغادرتها..

«شد فرامل اليد!».

جذب فرامل اليد لكنها ظلت تنزلق في بطء، وانفتح الباب في الوقت الذي لامست فيه يد السائس نافذة السيارة.. وسرعان ما دق الرجل قدمه في الأرض بقبقاب فبدت وكأنها تسمرت في بطن الأسفلت، وانثنى الجسد إلى الخلف وتقلصت الذراع فتوقفت السيارة عن الانحدار وهبط منها البيه.

كان قصيرًا نحيلًا شاحب الوجه رقيق الرقبة معروق اليد، وكان يضع نظارة سميكة لا تستقر خلفها عيناه وكان ضوء النهار قد غزا الشارع وبدأ سعال الرجال يخرق السكون مع وقع خطواتهم الصباحية النشطة.. وكان البيه عصبيًّا، بدأت عصبيته أول ما بدأت عندما استدار السائس محاولًا الدخول إلى السيارة خلال الباب المفتوح.

«حاتعمل إيه؟!».

أوقفته صرخة البيه الحادة فالتفت نحوه، ولم يبد على وجهه – في ضوء الصباح الأزرق – أي تعبير يوحي بالغضب أو السرور..

«ماحدش يسوق العربية غيري!».

كان صوت البيه آمرًا حازمًا لا يقبل الجدل ولا المناقشــة، فتسمر السائس في مكانه!

«الموتور تعبان.. الميكانيكي قال محدش يسوقها غيري!».

كان البيه يبدو كاذبًا فلاحت على وجه السائس بسمة ساخرة!

«إيدك معايا واحنا نطلعها الجراج!».

- 4 -

رغــم أن الأمر يبدو مســتحيلًا تمامًا، فالســيارة ضخمــة هائلة والانحدار شــديد والانحناءة عند بــاب الجراج حادة فــإن البيه وضع يده على الســيارة كمــن يهم بدفعها.. وهز الســائس رأســه وهو ينظر نحو بــاب الجراج ثم بدأ العمل بلا كلمة.. وطرقع القبقاب فوق أرض الشارع طرقعات غير منتظمة، ثم دس الرجل كتفه في فجوة النافذة، ودق قدميه في الأرض فاستقام جسده النحيل كرمح إفريقي، ثم زعق:

«إيدك معايا يابيه!».

ألقى البيه بكفه فوق السيارة وبدا منهكًا، ورغم أنه لم يبذل جهدًا حقيقيًا فإن شرايينه برزت، ونفرت عروق وجهه.. انزلقت النظارة فارتبك وتحركت السيارة نصف خطوة فازداد ميل جسده وبدا كأنه ازداد طولًا، وزام السائس بصوت غليظ فتحركت معه الســيارة وكاد البيه يســقط لولا أنه تدارك الأمر فاســتقام وقد بــدا على وجهه الضيق.. وزام الســائس مــرة وزعق مرة وفرك البيــه كفيه في عصبية وبدا أن الســيارة رســخت في مكانهــا وأن لا أمل، وقبل

أن تنحـدر مـن جديد امتـدت يد السـائس إلى الداخل وجذبـت فرامل اليد فتسمرت السيارة في مكانها.

«يا بيه اديني المفاتيح متخافش!».

رغم صعوبة الموقف فقد رفض البيه في كبرياء..

«ماحدش يسوق العربية غيري!».

قالهـا وهـو يعود فيسـتند إلى السـيارة من جديد، وهز السـائس رأسـه في استسـلام وعـاد إلى الدفع من جديـد، وتزحزحت السـيارة قليـلًا وتصبب العرق على وجه السـائس وتقطعت أنفاسه.. وكان البيه يفرك كفيه قلقًا وقد أيقن أن الأمر مستحيل.. فماذا يفعل؟!

- 5 -

ظهـرت في السـماء - فوقهـما تمامًا - أول خيـوط النهار.. كانت السـيارة ساكنة وسط الشارع كالجثة وكان البيه يردد غاضبًا في حيرة:

«وبعدين.. وبعدين يعني!».

وقتها علت عند الناصية سعلة وصوت بصقة وخطوات قدمين، التفت البيه فرأى على البعد شبح رجل يرتدي جلبابًا وعلى رأسه لاسة، فصاح بلا تفكير:

«إيدك معانا والله يا ريس.. يا .. ريس!».

كان نـداء البيه وكأنه السـحر، كان نـداءً آمرًا واثقًا، التفـت بعده الرجل وتوقف لثوانٍ خاطفة.. ثم استدار نحوهما وبدأ يصعد الشارع بلا كلمة!

- 6 -

كان الوافـد الجديـد عملاقًـا صعيديًّـا عريض الجسـد، غليـظ الصوت، سرعان ما أسند ظهره إلى ظهر السيارة وراح يدفع بكل قواه.. ومع كل دفعة كانت السيارة تتزحزح قليلًا، وتحمس البيه فصاح في الرجل:

«إجمد امال وخليك جدع!».

كان النهـار قـد طلـع وسـعال الرجـال يمـلأ الطريـق البعيـد وأصوات الخطوات تتناثر، وكانت السيارة قد وصلت إلى المنحنى وبدا القلق على وجه البيه وتعالت صيحاته عندما ظهر رجل آخر عند الناصية:

«إيدك معانا والله يا ريس!».

وكـما حـدث في البداية حدث هذه المـرة، وأصبح الرجـلان ثلاثة راحوا يدفعون السيارة بينما تقهقر البيه إلى الخلف وراح يدفعهم بصوته وزعقاته.

«إيدك معانا يا ريس!».

أيضًا.. كانت كلمات البيه كالسـحر، آمرة واثقـة مهذبة تعرف طريقها لا أدري إلى أين، فقد توقف رجل ثالث ثم راح يصعد الشـارع نحو السـيارة.. وكان البيه يعدل من هندامه والسيارة تدور في المنحنى ببطء شديد، وأصوات الرجـال الأربعـة تبدو كجزء من الصياح الذي غمر الشـارع كلـه، كانوا قد أحاطـوا بالسـيارة من كل جانـب، وأيديهم تقبض عليها في قوة، وسـيقانهم مشدودة، وعروق جباههم نافرة، ونسمة صبح تهب فيصيح البيه من بعيد:

«زقة واحدة وتطلع!».

- 7 -

اختفت السيارة داخل الجراچ وكان البيه يقف في منتصف الشارع وقد اختفت العصبية من ملامحه وحل محلها الارتياح.. سكنت أصوات الرجال في الداخل ثم تعالت خطواتهم مقتربة من الشارع، تراجع البيه خطوة ثم صاح في السائس:

«أنا طالع الساعة تسعة ونص وعاوز العربية نضيفة من فضلك!».

ورد السائس من الداخل بسعال طويل وكلام متهدج متآكل الحروف. وعندما ظهر أول رجل من داخل الجراچ كان البيه يسرع نحو الناصية وهو ينظر في ساعته، وعندما وصل إلى الطريق كان الرجال جميعًا عند باب الجراچ فالتفت نحوهم ملوحًا:

«متشكرين يارجاله!».

ثم اختفى!!

كيف يموت الشيء الجميل؟

كان لا بد أن أفرح وتبدو السعادة في عيني..

ها هو أخيرًا بعد طول شوق ألقاه.. كم سنة مضت؟.. كم شهرًا؟ كم يومًا؟.. كم ساعة منذ أن افترقنا لآخر مرة؟

سقط الزمن واتصل..

هـا هو كفه في كفي، ها هو صدره على صدري وكل منا يحتضن الآخر في شوق.. وصوته يغزو أذني كموسيقى طال بي البعد عنها:

«إنت فين؟».

وكان لا بـد أن أفـرح.. فرغـم كل ما حـدث... كل ما حـدث... كل ما حـدث كانت السـاعاتِ أو الأيام أو الشـهور أو السـنوات بكل مـا فيها من شـوق للقيـاه، وها أنا ألقـاه من جديد، بعينيه وابتسـامته، بلحمه وشـحمه، فكان لا بد.. لا بد لي أن أفرح..

غير أن ما حدث.. شيء غريب، فلقد كنت أشـعر أني أشـد ابتسـامتي إلى شـفتي شـدًّا، وكانت ابتسـامته هو الآخر مشـدودة وفي عينيه كانـت النظرة

خابيـة، يـكاد البريق يطـل منهـما فينطفـئ.. كان كل منا يقف تجـاه الآخر.. وتذكرت الشيء الجميل الذي جمعنا ذات يوم فقلت:

«فاكر؟».

وقال إنه يتذكر كل شيء، وإنه كان مشـتاقًا للقياي، وإنه عاتب عليَّ، وإن الـشيء الجميل لا يمكـن أن يموت.. ثم سـألني عن أحوالي فلـم أجبه وإنما قلـت له إني مشـتاق للقياه، وإننـي عاتب عليه، وإن الـشيء الجميل لا يمكن أن يموت.. لكني لم أسـأله عن أحواله.. كان ثمة برودة في الجو رغم ارتفاع درجة الحرارة..

قال وقلت في نفس واحد: «إنت كبرت كثير!».

وضحكنا.. وعاد كل منا ينظر للآخر ويشد ابتسامته إلى أقصى ما يستطيع.. ذلك لأنه كان لا بد لنا أن نفرح..

في نفس هذا الطريق سرنا من قبل مئات المرات، تحدثنا وتجادلنا وتشاجرنا وتخاصمنا.. لكن أحدنا أبدًا لم يفكر أن يومًا سيأتي، ليموت فيه الشيء الجميل، سألني: «إيه اللي كان حصل؟».

وزعقـت بكلام سـبح مـن فمـي متموجًـا عـلى أصـوات كالضحكات وهززت رأسي أنفض عنه ذكرى وقعت هنا، في نفس هذا المكان الذي نقف فيه، وذكرى أخرى في الشارع المجاور، وذكريات في الحواري نصف المظلمة، والأيام القائظة والليالي الباردة.. ذكريات..

ولأنـه كان لا بـد لنا أن نفرح لأننـا التقينا، فلقد قررنا أن نتناول العشـاء معًـا، وأن نـشرب ونتحدث ونتجـادل، ونتشـاجر، وألا نتخاصـم مثلما كنا نفعل في الأيام التي خلت..

تناولنا العشاء وتحدثنا وتجادلنا، وتشاجرنا.. وراح كل منا يملأ عينيه من الآخـر.. ويمتـص بأذنيـه صوتًا طال به الشـوق لموسـيقاه.. كان لا بد لنا أن نفـرح فلقـد التقينا.. لابد.. غير أن شـيئًا مـا حدث.. فلقد تذكـر كل منا أن وراءه عمـلًا أو موعـدًا، أو أي شيء.. وران الصمـت للحظـات طالت، ثم نهضنـا وشـد كل منا ابتسـامة، وتصافحنا وقال كل منـا إن الشيء الجميل لا يمكن أن يموت وإنه لا بد أن نلتقي دائمًا.

والله مانا قاعدة لك في البيت

انفجر غاضبًا، فركل غرفة النوم بالكامل. ارتطم بالمقاعد بالفراش بالدولاب بالتواليت والشوفنير لتصبح الغرفة كلها - في لحظة - ركامًا.. رفعت رأسها وكانت جالسة أمام المطبخ الذي رتبته ونظفته ووضعته في مكانه وجهزت الأواني.. بدا الخوف في عينيها، لم تفهم سر غضبته هذه، سألته في صوت مستكين ناعم:

- «مالك ياهاني؟!».

- «أنا قلت لك ميت مرة اني ما احبش آكل من غير سلطة خضره!!».

قالت معتذرة:

- «أصل مفيش خيار!».

- «وماجبتيش خيار ليه؟!».

- «مش كنت باحضر لك الأكل ياحبيبي؟!».

استدار مندفعًا نحو باب الغرفة، راح يركل ما تناثر على الأرض من سيارات ومسدسات وكرات ملونة وبالونة كان قد تعب حتى انتفخت، وصل إلى الباب فاستدار مهددًا:

- «لو كنت حبيبك صحيح، كنتي عرفتي اني باجي من الشغل تعبان!».

بـدا الغضب في عينيها الخضراوين وتـضرج وجهها بالدماء وهي تنهض إليـه. كادت تركل - لفرط مـا انتابها من غضب - مطبخها الصغير، لكنها لم تجـد في ذلـك نفعًا بعد أن تعبت في ترتيبه ووضع الأواني فوق النار.. تقدمت منه ويداها في خاصرتها:

- « تقدر تقول لي حضرتك، أنا باشتغل إيه هنا؟!».

- «مراتي!!».

- «أمال لو كنت شغالة عندك كنت عملت إيه؟!».

أحـس بالخجل فألقى بنفسه فـوق الأرض، بجوار البـاب، ومد يده إلى مسدس وجده بجواره وراح يتلاعب به. طال الصمت، وكان لا بد أن يقول شيئًا، فلوح بالمسدس مصوبًا إياه نحوها:

- «خلاص.. مش عاوز اطفح!».

- «هو ده جزائي؟!».

نهض إليها والمسدس مصوب إلى صدرها:

- «شوفي يا راندة.. أنا يوم ما اتجوزتك اشترطنا عليكي إنك.. .. ..».

قاطعته في ضيق:

- «دي مش عيشة بقى!..».

«على كيفك!».

«والله مانا قاعدة لك في البيت!».

صرخ:

- «الباب يفوت جمل!».

كادت تخطو نحو الباب لكن جملته وقعت عليها وقوع الصاعقة.

جمدت في مكانها لثوان. استدارت نحوه محملقة في وجهه الوسيم وتصاعدت الدموع إلى عينيها، اختنق صوتها معاتبًا:

«بتطردني يا هاني؟!».

طوَّح بجسده مبتعدًا عنها ملوحًا بذراعه:

«افهميها زي ما انتي عاوزة!».

«الحق عليَّ اللي جيت لك تاني!».

قالت هذا وقد تساقطت دموعها. استدارت نحو الباب وغادرت الغرفة في خطوات ثابتة. أغلقت الباب خلفها في عنف، فساد الصمت!

نظر حوله فرأى السكون الذي أطبق على الغرفة، ولولا تلك التمتمة التي جاءته من الخارج لأطلق صرخة كانت محتبسة في صدره. نظر حوله وكان كل شيء محطَّمًا.. راودته نفسه على البكاء، لكنه رفض. استبد به الغضب فنهض ليركل كل شيء؛ غرفة الطعام وغرفة النوم والأنتريه والمطبخ حتى التلفزيون الصغير الذي أهداه له عمه في عيد ميلاده. ركله بكل قواه فارتطم بالحائط وتهشم!

بعدها وقف لاهثًا لكنه كان يشم رائحة غامرة!

قرر أن يحسم الأمر كله، وأقسم بينه وبين نفسه، ألا يلعب منذ اليوم إلا مع الصبيان!!

عندما غادر الغرفة بعد ذلك كانت راندة لاتزال تبكي، وكانت أمه راقده فوق الأرض تربت عليها. وكان أبوه يقف في آخر الممر المؤدي إلى غرف النوم بادي الدهشة. كان أول ما سمعه هو صوت راندة الباكي وهي تقول:

«أنا عاوزة اروح لماما!».

أخذته العزة فصرخ:

«في ستين داهية!».

زمجر أبوه في غضب:

«وبعدين يا ولد؟!».

وقالت أمه معاتبة:

«هاني... عيب كده!».

أطرق صامتًا وعادت أمه إلى راندة:

«إنتي مش كنتي عاوزة تيجي له من الصبح؟!».

صرخ متعاليًا:

«قولي لها!!».

عاد أبوه يزمجر:

«هاني!!».

أغلق فمه واشتد غضبه وتلصصت عيناه نحو راندة التي كانت دموعها تغرق وجنتيها الآن.

«طيب قولي لي ياحبيبتي.. إنتي زعلانة ليه؟!».

من بين شهقاتها جاءت كلماتها باكية:

«ياطنط انا متضايقة».

«إنتي عاوزة إيه دلوقت؟!».

«عاوزة اروح بيت بابا!».

قبل أن تفتح الأم فمها بكلمة، صاح هاني:

«قلت لكم سيبوها تروح في ستين داهية!».

اندفع الأب نحو ولده وقد اجتاحه الغضب اجتياحًا، لكنه قبل أن يتفوه بكلمة كان هاني يصيح مهددًا راندة:

- «بس يكون في علمك. إذا خرجتي من باب البيت مانتيش راجعاه تاني!».

أرتج أبو هاني وجحظت عيناه وهو يحملق في ولده غير مصدق. في عنف التفت نحو زوجته وكانت عيناها هناك تمتد منها نظرات متشبثة ضارعة تنفث حزنًا بلا حدود.. استدار الأب هاربًا من كل شيء فران على المكان صمت ثقيل، صمت امتد لثوان ثم تسلل إليه صوت راندة الحزين:

«الحق مش عليك يا هاني... الحق عليَّ انا اللي جيت لك تاني!».

«مش انتي اللي اتحايلتي على طنط علشان تجيبك؟!».

- «ماهانش علي تكلمني في التليفون واكسفك!».

أطلقت الأم ضحكة متكسرة الأمواج، ضحكة أرادت لها أن تداري ما في نفسها.. لكن ضحكة الأم أغضبت هاني فصاح:

«عاجبك كده؟!».

هرب الأب من نظرات طفله مستديرًا نحو الداخل هربًا من شيء غامض. والتقـت نظراته بنظرات زوجته في لحظة، فخيـل إليه أنه رأى في عينيها طبقة رقيقة من دمع حائر.

ولا بد أن الضحكة كان لها نفس التأثير على راندة، فلقد قالت:

«انت السبب!».

«انا اللي ماباسمعش الكلام؟!».

«انت اللي عاوز تحط كل حاجة على دماغي!».

وضع هاني يده في خاصرته ومال بجذعه الأعلى إلى اليمين قائلًا:

«طيب اقدر اعرف.. حضرتك عاوزة إيه دلوقت؟!».

أحسَّـت الأم أنهـا أصبحت - فجـأة - خارج الموضـوع. فنهضت وكان الألم قـد انتشر في ركبتيها. خطت نحـو الأب وعيناها على الطفلين، وجاءها صوت راندة:

«هارجع بيت بابا!».

«وتسيبيني من غير أكل؟!».

تقدمـت منه راندة وقد تنمرت فجـأة. لوحت في وجهه بأصبعها الصغير هاتفة:

«إياك تكون فاكر اني عبيطة!».

«عاوزة تقولي إيه؟!».

«إنت متغدي بره قبل ماتيجي!».

هم هاني بالحديث فأردفت:

«شوف انت كنت متغدي مع مين وجاي هنا تعكنن عليَّ!».

انتفضـت الأم وقد اقشـعر بدنها فضمـت ذراعيهـا إلى صدرها وصوت ولدها يقول:

«ماتبقيش عبيطة ياريري!».

صرخت راندة:

«انا اسمي راندة يا أستاذ!».

تقدم منها مغمغمًا:

«طيب خشي البيت عيب عمايلك دي!».

«متأسفة!».

«بلاش الكلام ده قدام الناس!».

توقفت لثوان ثم قالت:

«انت اللي حاتعمل السلطة!».

غمغم هاني وهو يعود إلى غرفته:

«وبيقولوا عليكم جنس لطيف!».

زمجر الأب وقد طار عقله تمامًا:

«ولد ياهاني!».

استدار هاني نحوه.

«جبت الكلام الفارغ اللي انت بتقوله ده منين؟!».

ولم يجـد هـاني جوابًا، فقـط... راح ينظر إلى أبيه وقد تاهـت عيناه... بينما هرب الأب من نظرات ولده مسـتديرًا نحـو الداخل هربًا من شيء غامض، والتقـت نظراته بنظرات زوجته في لحظة، فخيـل إليه أنه رأى في عينيها طبقة رقيقة من دمع حائر!!

العطــــش

قد يجرب الإنسان شيئًا ولكنه لا يحسه.

و«جوده» كان قد جرب العطش، ولكنه لم يحسه إلا في تلك الليلة.

وهـو عندما كان يعطـش في البيت، كان يجري إلى الحنفيـة أو القلة ليعب منها عبًّا..

وعندمـا كان يعطـش في الشـارع، كان يدلـف إلى قهـوة المعلـم حنفـي، ويشـب على قدميـه حتى تطاول رأسـه البنك العالي ويقول لحسـن.. والنبي عاوز اشرب..

ولما صام لأول مرة، ونام بعد السـحور، وجـاء الصباح وأحس بجفاف حلقه، اتجه إلى القلة وشرب منها فورًا، وكان ناسـيًا، ولذلك لم يبطل صيامه. وتقـدم به النهـار، وأحس بالعطش، فذهب إلى القلة وتعمد أن ينسـى. ثم لم يصم مرة أخرى، وأقنع نفسه بأنه «لسه صغير».

وهو لا يذكر متى أحس بالعطش لأول مرة في تلك الليلة.. ولكنه لم يذكر أنه عطش ولم يطلب ماء.

في أول الأمر كسل عن طلب الماء. ثم عاد وتحمله.. ثم لم يستطع فطلب أخيرًا أن يشرب. ولكنه لم يجد ماء. وأمضى الليل ملتصقًا بأمه وهي تلف ذراعها حوله، فيشعر بأصابعها الرقيقة المعضمة تلتف حول كتفه وتضمه إلى صدرها.. ثم ترتفع باردة كالثلج إلى وجهه فتتحسسه.. ويسمعها تهمس بكلمات كثيرة.. كلمات مرتعشة تنساب إلى أذنه عبر الظلام المتكاثف.. ملفوفة بأنفاسها التي كانت تلفح نصف وجهه فتدفئه.

ظلام.. ظلام كثيف مخيف.. لم يكن يرى فيه كفه.

وبرق.. برق مزمجر هادر.. يضيء الدنيا ويرجها في قوة وعنف.. فتهتز وتترنح ثم يختفي البرق ليعود الظلام والفرقعة والهدير الرهيب.

قنابل وطيارات ورصاص وصرخات ليل طويل مرعب مليء بالموت - ودوي وراء دوي.. وهو قابع في صدر أمه، يكتم أنفاسه، وتبحلق عيناه في الظلام ويرتجف، ويقرأ الفاتحة وآية الكرسي مرات ومرات.. ولا شيء يتغير أبدًا.

كم كان يحب السهر، وكم كان يتضايق عندما يقول له أحد «قوم نام».

ولكن أحدًا في تلك الليلة لم يقل له «قوم نام».. وتمنى هو النوم.. وحاول أن ينام دون جدوى، أغمض عينيه، وضم جفونه بشدة حتى آلمته ولم ينم..

ومرت الساعات طويلة بطيئة وهو في مكانه يرتجف ولا يتحرك.

في أول الليل كان يقرأ كل ما يعرفه من آيات بصوت مرتعش.. ويهتز لسانه بسرعة داخل فمه يطرقع ويتلوى.. يلطم سقف حلقه.. ويعود إلى مكانه.. ينفرد ويروح ويجيء في سرعة.. ويخرج الصوت مكتومًا كالفحيح مع الشهيق والزفير.

وعندما توغل الليل.. زم شفتيه الباردتين.. وأخذ لسانه يتحرك أيضًا داخل فمه المغلق، وجف ريقه، ونشف حلقه، فوقف لسانه عن الحركة ولكنه استمر يقرأ في سره وأحس بالعطش.

ويهتز البيت، ويترنح السرير، وتفتح ضلفة الدولاب في قسوة، وتتكسر المرآة، ويسقط دهان الحوائط وتصرخ أخته، وتشهق أمه وتتشبث أصابعها بكتفه في قوة حتى تؤلمه.. وتقول متوسلة في وجل: «يا ساتر يا رب.. يا رب عالظالم وابن الحرام».. وبداخله رعب رهيب، وتصطك أسنانه، ويزداد التصاقًا وترتجف أوصاله، ويزم جفونه، ويعود لسانه إلى الحركة في سرعة ولهفة داخل فمه.

ثم يعود إلى الصمت مرة أخرى.

كان الليل مرعبًا، لم يترك له فرصة للنوم، أو حتى للراحة، النوم الذي افتقده كثيرًا، وتمناه ليريحه من ذلك التنميل الذي أخذ يطوف برأسه وجفونه ويحرق عينيه، وتدوي الفرقعة من جديد ويبرق البرق الحارق، ويهتز كل شيء وتصرخ أخته، وتشهق أمه. ويثني هو ركبتيه بسرعة.. فتصطدمان بذقنه ويلتصق فخذاه بصدره، ويلف ذراعيه حول ساقيه المنثنيتين، وتصطدم أصابع يديه وهي تبحث عن بعضها في الظلام الكثيف، ثم تتداخل بسرعة وتتشابك وتشد بعضها البعض في قوة كأنه يحتضن نفسه.

ويبدأ لسانه في الطرقعة المكتومة داخل فمه.. ويعود فيحس العطش من جديد.. يحسه أشد وأعتى وكأنه نار تلهب حلقه.

ماذا يريد الإنجليز.. لا يدري..

قالـت لـه أمه «عايزيـن الكنال» ولم يفهم لمـاذا يريدون القنـال.. ولما قال «ليه؟»لم يرد عليه أحد.

لماذا يريد الإنجليز القنال؟

ولم يجد جوابًا.. ولم يسأل أمه.. كان رأسه ثقيلًا.. وقد أخذته سنة من التيه فلا هو نائم ولا هو مستيقظ.. يحس كل شيء ويعي كل شيء.. ولكنه متجلد يشك في الأمر كثيرًا.. وكأنه حلم مزعج..

ولسـانه أصبح يتحرك داخل فمه في كسـل وبطء وتراخٍ، فيحس به لزجًا جافًّـا، وحلقـه تسري فيـه حرارة حارقة. وضـوء النهار يتسـلل من فرجات الشـيش المتتالية المتتابعة، أزرقَ باهتًا، والهدوء يتسلل رويدًا رويدًا، ويزحف ناعـمًا خفيفًا، والصمـت يحلق فـوق كل شيء تدريجيًّا.. ويتسـلل مع الضوء الباهت غارقًا في نفسه، وتتردد الأنفاس مجهدة وتتململ الأجساد في أماكنها، وريـح باردة تنفذ من حيث لايدري أحد. ويـدور هو بعينيه إلى أعلى، ويرى وجه أمه، وأنفها المسـتطيل الذي يخترق الفضاء الرمادي الممتد أمام الوجه.. وتحته شـفتان زمتا في قوة، وذقن تقلص وتثنى جلـده.. ويتململ «جودة».. ويقول:

«أنا عطشان يا امه».

ويسـود الصمت برهة.. وتدير أمه رأسـها إلى الناحية الأخرى.. وهو لا يرى ذلك.. إنما يحسه بانقطاع أنفاسها الدافئة في وجهه..

«قومي يا سنية اسقي أخوكي».

وتغمغم سنية.. ويحس هو ارتخاءً وتنميلًا يسريان في كل أعضائه والظلام يخف تدريجيًّا.. وريح باردة تطوف بالحجرة.. وتنهض سنية.. ويرفع هو عينيه دون أن يحرك رأسه.. وتتمطى سنية.. وتفرد ذراعيها في الهواء.. وتتثاءب بصوت عال.. ويتثاءب هو الآخر.. وتخطو سنية خطوة.. وتتثاءب أمه وهي تواصل قراءاتها.. وتخرج الكلمات من بين شفتيها المنفغرتين بطيئة ممطوطة متراخية.. «اللهم يا لطيف بعباده الطف بنا يا عزيز ويا قدير».

ويتحرك شبح سنية خفيفًا ناعمًا كأنها تسبح في فضاء الحجرة البارد الثقيل.. وتختفي في الخارج برهة.. ويأتيه صوت أمه:

«مش تقوم تنام بقى يا جودة»؟

ولا يدري ماذا يقول.. والليل الطويل الذي سهره يصعب عليه ويتمنى في قرارة نفسه لو تطلع الشمس، ويغمر النهار الدنيا ليخرج إلى الشارع، ويرى ما حدث في الليل، ويخبر العيال أنه لم ينم وظل ساهرًا حتى الصباح.

وهو يدفن رأسه بين ركبتيه فيحس الدفء في انكماشه هذا.. ولكن سرعان ما يرفع صوته عندما يأتيه صوت أخيه من الخارج:

«مفيش ميه في الحنفيات».

ويدب في البيت شيء كالحياة.. وتتحدث أمه مع أخته.. وتعودان إلى الحجرة.. وتخرجان وتتباحثان.. وهو قابع في مكانه قد استسلم للخمول الذي اعتراه.. ولذلك الدبيب الكسول الذي أخذ يتمشى في أوصاله هينًا لينًا فيحس له اللذة كل اللذة.. وترتخي جفونه ثقيلة كأنها تحمل فوقها ثقلًا لا يقاوم.. ويتسلل النوم إلى عينيه بخفة كأنه يريد أن يسرقه.. ويسري في أذنيه

طنين رتيب ثقيل.. ويتذكر العيال والشارع.. وهل سهروا كما سهر.. أم سهر بعضهم ونام الآخر؟ لا.. يجب ألا ينام.

ونهـض جـودة من مكانـه.. وسرعان ما دثـره الهواء فارتعـش واصطكت أسنانه وتضاربت في سرعة متلاحقة متتالية.. وتسلق الكنبة.. ونظر من خلال فتحات الشـيش.. ولم ير شـيئًا.. ويعود إلى مكانه.. وينسى الليل وهو يفكر في العيـال.. ويحـس العطـش أكثر.. ويطلب مـاء.. وأمه تقول لـه أن يصبر حتى يطلع النهار، وتبزغ الشـمس.. وتتسـلل ككل يوم من ثقب في الشـيش ترسل خيطًـا طويلًا من شـعاع أبيـض.. يلتقي مـع الأرض في دائـرة.. فكأنه عصاة سحرية كثيرًا ما لعب بها.. وتخطاها.. وحملها فوق يده دون أن يحس لها ثقلًا.

وأمـه لا تكف عن القراءة.. وتتسـاءل عن الجدعـان وتدعو لهم أن يقف الله معهم ويحرسهم لأهلهم وأولادهم.. وأخته قد عادت إلى مكانها وقبعت كالتمثـال.. وبرودة جافة تنفذ إلى عظامه.. وبدأ يتضايق ويقول أنا عطشـان ويقول إن النهار قد طلع.. وتقول هي «طول بالك كمان شوية». ولا يطيق.. ويقول لها بصبر نافذ:

«أنا عاوز اشرب».

ويمـضي الوقـت.. وأخـيرًا ينهض ويأخـذ الكوز الكبـير.. ونهضت أمه وراءه وقالت له:

«خلي بالك من نفسك – إوعى تقرب من حد .. ملكش دعوة بحاجة».

ويسرع إلى الباب.. ولا يصبر حتى تفتح أمه له «الترباس».. فهو يتعلق به ويفتحه.. وينفرج الباب.. ويندفع هو إلى الخارج وهو يجذب الباب وراءه.. ويحس كأنه انطلق من سجن بغيض.

وتغمره الشمس.. ويبهر الضوء عينيه فيغمضهما.. ويرفع كفه إلى وجهه.. ويفتح عينيه ليرى من خلال فتحات أصابعه أشياء غريبة.. ثم يغمضهما بسرعة. ويعود ليفتحهما من جديد.. ويرى كل شيء هذه المرة.. وتسقط يده وتتدلى جانبه.. ويفغر فاه دهشة.

وهو في ذهوله لا يعي شيئًا.. تدور عيناه على المكان لتشمله.. ولا يصدق.. ويمتص شفته السفلى بين أسنانه - ويجز عليها.. والأمر كله كالحلم.. وسؤال صارخ يلح عليه:

«أين الشارع»؟

لم يكن هناك سوى هدد وتراب وحجارة.. وصمت عميق كئيب.. وعيناه تجولان مرات ومرات بالمكان فكأنه اتسع وكبر.. ونظر أمامه فإذا البحر الأزرق هناك.. يترامى أمام الشاطئ فسيحًا رحبًا أزرق، والتفت إلى اليسار ولم يجد دكان عم بيومي بائع اللب والحلويات، وعم عدس ليس واقفًا بعربته يبيع الفول ككل صباح.

أيكونون قد نقلوه بالليل من بيت إلى بيت دون أن يشعر؟..

ولكنه كان ساهرًا ولم ينم.. لم ينم ولا دقيقة.

«وأين العيال»؟..

ليس هناك أحد.. ليس هناك سوى هدد وهدد وهدد كثير.. وأكوام طوب وحجارة.. وأبواب وشبابيك محطمة.

كان يريـد أن يعـود ولكن ذلك الارتخاء الناعم عاد إلى أوصاله.. فأسـند رأسـه إلى كـف وأغمـض جفنيه نصـف إغماضة.. وأخـذ ينظـر إلى البيوت المهدمة في شيء كبير من الرعب، وأغرقت الدموع عينيه فجأة.. وتسللت ثم انحدرت فوق وجهه الشاحب وقال: «يا عيني».. ولم يكن يدري لم يقول «يا عينـي» ولا على أي شيء يقولها كأنه يحس كأنه فقد عزيزًا، عزيزًا مبهمًا ولكنه كبير جدًّا.. كبر حياته كلها.

يمضي الوقت وكانت الشـمس مفروشـة فوق كل شيء.. والفضاء يمتد إلى بعيـد.. بعيـد حتـى البحر.. وهز رأسـه وقال: «يـا عيني» قالهـا حارقة.. وانهمرت الدموع أكثر ثم أخذ الصمت يتسلل إلى نفسه رويدًا رويدًا وينتشر في داخلـه حتى لفه كله.. فغرق فيه.. فلا حياة ولا تفكير ولا حركة.. وشيء كالعدم لايدريه ولا يعرفه.. إنما هو غارق فيه مستسلم له.

ومـد رقبته إلى اليمين، وعندما رأى بيت الحاجة زهرة قال: «الحمد لله».. وكانـت هنـاك بيوت.. ولم يكن هنـاك ناس، ومدَّ رقبته أكثـر. ثم نهض ومد نصفـه الأعـلى كلـه.. وأخذت عينـاه تلمان كل شيء أمامه كأنه يحـزم الرؤيا في كتلـة كبيرة ويحملهـا في داخله.. وخطا خطوة.. وسـقطت قدمه الصغيرة الحافية وسـط الحجارة والطوب.. ونظر إلى أسـفل.. وأخذت أصابع قدميه تتشبث بالحجارة العالية.. وتهبط وتغوص في التراب الكثير.. ويصعد جسده الضئيل ويهبط وهو يسير بحذر وقد نسي كل شيء والكوز في يده يهتز.

وهو لا يدري إلى أي شيء كان ينظر وعن أي شيء كان يبحث، كان يسير ببـطء ولا يبتعد عن البيت.. ذهب عنه بعض الخوف ولم يذهب كله.. وكان

يمصمص بشفتيه ويقول: «يا عيني» كلما رأى شيئًا محطمًا. ووقعت عيناه على كرة شراب فخفق قلبه، وعرف على الفور أنها كرة عبده صديقه، والتقطها ونفض عنها التراب، واستدار بلا وعي نحو جدار بيتهم وقرأ ماكتبه العيال.. «شجعوا تيم النسر المتوحش».. «يحيا الكابتن عبده»..

«يا ترى أين ذهب العيال»؟..

لقد قال له بعضهم إنهم سيهاجرون وتحايل على أمه ليهاجروا مثل العيال ولكنها رفضت وقالت: «نموت في بلدنا أحسن من الغربة».

ووجد شيئًا يبرق فانحنى عليه.. واخترقت أذنه صرخة تناديه.. وكان الصوت في السكون كالحياة في القبر.. كان صوتًا رفيعًا يتسلل بكل قواه.. وكأن يدًا خفية تمتد لتخنقه وتمنعه من الوصول إليه.. وخفق قلبه بشدة.. واضطرب واهتز.. ورفع رأسه.. ورأى السيد.

وكان واقفًا هناك.. عند أول الشارع. وانتابه فرح طاغ وكأنه لقى لقية.. وانطلق ناحيته وهو يصرخ بكل قواه.. وقذف بالكرة نحوه، وأخذت قدماه تتشبثان بالحجارة والطوب.. ويعلو جسده ويهبط مع الأرض المملوءة بالهدد.. وهو يتكلم ويتكلم ويفرغ كل ما اختزنه في ليله الطويل.

- وله يا سيد.. يا سيد.. شفت اللي حصل.. سمعت الضرب بالليل.. أنا سمعت كل حاجة.. ما نمتش.. ما نمتش.. ولا دقيقة.. فضلت سهران للصبح.. سهرت طول الليل يا ابني.. وسمعت كل حاجة.. شفت البيوت يا سيد.. كلها مهدودة.. ولقيت الكرة بتاعة الوله عبده في الهدد.. سيد.. سمعت يا وله.. أنا سمعت.. أنا شفت.

كان يجري بكل قواه.. وبكل ما تسمح به الأرض المليئة بالطوب.

وكان صدره يعلو ويهبط بسرعة متلاحقة.. وأنفاسه منبهرة.. وعيناه تلتقطان منظر الأرض في سرعة.. ثم تصعدان وتمران بكل شيء.. بالحجارة والطوب والبيوت المنهارة والجدران المحطمة وأعمدة الدخان المتراقصة في كسل وبطء، ثم تلتقيان بجسد السيد الصغير الواقف هناك.. وتعودان في نفس الطريق.. وتمران بكل شيء وتلتقيان بالأرض تحت قدميه.. وينتقي مكانًا لقدمه.. ويخطو خطوة ليعود فيرفع عينيه من جديد.

وقدماه تغوصان في التراب.. وتتحملان صلابة الطوب.. وهو يجري.. ويصرخ وصوته الرفيع الثاقب ينتشر قليلًا في المكان الهامد، ثم يختنق.. والسيد واقف في مكانه لا يتحرك وقد تمزق جلبابه.. وتلطخ وجهه بالتراب.. وبانت ساقاه الرفيعتان قذرتين سوداوين.. ولكن «جودة» لم ير شيئًا من هذا.. كان يريد أن يصل إلى السيد أولًا.. وأن يقسم له أنه لم ينم ولا دقيقة.. ولا دقيقة واحدة.. وأنه سمع كل شيء وأنه.. وأنه..

ويجري.. ويصل أخيرًا إلى السيد.. ويقف أمامه لاهثًا وقد كست وجهه موجة من الفرح – وتسيل من عينيه دمعتان.. ويبرد طرف أنفه.. ويتسرب منه خيط رفيع تتقلص له الأنف كلها.. فيرفع كفه المتربة المتسخة ويدعكها.. وكان لا يزال يتكلم.. والكلمات تخرج من فمه متقطعة منبهرة.. ويسعل سعلة سريعة.. ثم يرى السيد وكأنه يراه لأول مرة.. ويجمد في مكانه.. ويتسلل السكون ثم يندفع بسرعة ليشمل كل شيء.

كان السيد يرتجف.. وكان وجهه قذرًا علته الأتربة ونقط دماء.. ويده مربوطة برباط أبيض ملوث بالدماء.

«ما لك يا سيد»؟

قالها «جودة» في صوت خافت خاشع.. وبدا له السيد غريبًا.. صامتًا كالحجر. وأحس بالخوف يغمره.

«ما لك يا سيد»؟

وتحركت شفتا السيد، وتقلصت ذقنه بشدة.. وتثنَّى لحمها وتداخل.. واتسعت شفتاه وامتطتا.. وأخذ يبكي في نشج متقطع مبحوح كمن يواصل بكاءً طويلًا، وأحس «جودة» بحيرة كبيرة.. ووقع بصره على الرباط الملوث.

«من إيه ده؟ ما لك يا سيد»؟

«البي.. ت.. نهد..ع.. عل.. علينا».

وانفجر سيد يبكي بحرقة.. وأخذت الدموع تنهمر من عينيه سريعة.. وأنفه يسيل.. وخيط من لعابه يمتد من فمه ويتأرجح رفيعًا في الهواء.. ثم يستقر على صدره العاري المترب.. وصوته الباكي يتناثر حولهما ولا يمتد إلى أبعد من ذلك.

ورفع «جودة» يده ليبعد ذبابة حطت فوق الرباط وقد اجتاحته نوبة من الحنان.. ولكنه لم يدرك ماذا يقول أو يفعل.. وامتدت يده إلى كتف سيد وربت عليه وقال:

«معلش يا سيد.. فداكم».

وشهق سيد شهقة طويلة.. ثم قال وهو يمسح وجهه بظهر كفه فتختلط الأتربة بالدموع وتصنع فوق الوجه غشاءً معاديًا قذرًا.

«أمي.. ما. ماتت».

وشهق «جودة».. ولم يدر ماذا يقول.. كان شيء ينغرز في أعماقه انغرازًا بطيئًا مؤلمًا.. وساد الصمت برهة.. أحس خلالها كأنه يريد أن يفعل شيئًا.. أي شيء.. وحاول أن يبكي.. ولكنه لم يبك.. وقال بصوت خفيض هامس «يا عيني» وكان يعني بها شيئًا.. والسيد نشيجه يستمر.. وهو يقول من خلال بكائه:

«وأبويا.. ، .. كمان».

ولم يدر «جودة» إلا وهو يبكي هو الآخر وقال: «يا عيني يا عم أبو سيد».. كان الصمت ثقيلًا عميقًا.. والشمس ترتفع في السماء.. والذباب يمرح في الجو.. والتراب تسبح ذراته كثيرة تخنق الصدر.. وتختلط بخيوط الدخان الملتوية.. فكأنهما يصنعان معبدًا للشيطان.

وهدأ كل منهما قليلًا.. وكان السيد قد جلس فوق الأرض.. و«جودة» قد قبع أمامه وفي يده الكوز فارغًا.. يتدلى من أصابعه.

«متزعلش يا سيد».

«أنا بقيت يتيم يا جودة».

وقال «جودة» بحنان كبير. وصوته الخافت يرتعش في رقة:

«طب ما انا يتيم أنا كمان مش ابويا ميت؟».

«لكن انت لسه لك أم».

وصمتا وطوح «جودة» ذراعه يبعد الذباب عن الرباط الملوث.. ثم قال وهو ينظر إلى الكوز:

«مفيش ميه في الحنفيات».

ورفع السيد رأسه إلى «جودة».. وكانت عيناه حمراوين.. ووجهه قذرًا.. وشعره منكوشًا مليئًا بالتراب.. وشفتاه علتهما طبقة بيضاء.. وقال في صوت متحشرج خافت:

«إنت عطشان»؟

«أيوه».

«فيه ميه مع الانجليز».

وأحس جودة بكراهية تطوف بصدره. كراهية غريبة.. وتمنى لو يموت كل الإنجليز.. كلهم.. ولا يبقى منهم أحد؛ وصمت.. وعاد السيد يقول:

«جم رجالة خدوني من البيت الصبح بدري.. وربطوا لي إيدي».

واستدار «جودة» ناحية الشارع.. ولم يجد بيت السيد. ثمة جدار أسود.. وقد لوثته أدخنة سوداء.. وتغلغل الشيء في أعماقه أكثر.. وغرزت أظافر حادة في صدره نوبات من الألم متتالية سريعة.. لم يعبر عنها.. كانت كأنها شيء صامت.. ولكنه يهدر هناك في أعمق أعماقه فلا يدري حيالها شيئًا.

«قوم نروح يا سيد».

«بيتنا انهد يا جودة».

«قوم نروح بيتنا احنا».

«لأ.. أنا حاقعد هنا».

«يا أخي قوم.. الله».

وهز سيد كتفيه.. وعلا في الجو صوت حاد.. والتفت كلاهما بسرعة.

كانت دبابة تسير فوق الأنقاض.. وتسحق كل شيء.. وداخل كل منهما خوف رهيب.. فنهض «جودة» وهو يقول:

«قوم يا سيد».

وكانت الدبابة تتقدم نحوهما.. وتهتز وتترنح وتكركر بصوت عال مزعج.. وتسير وتخترق الحوائط وتهدمها.

«قوم يا سيد».

ضاع صوته في الضجة التي كانت تحدثها الدبابة.. والسيد في مكانه لم يتحرك.. ينظر إلى الدبابة.. إلى الرجل ذي الوجه الأحمر فوقها نظرة جامدة.. وهي تقترب.. وتقترب.. ومد «جودة» يده يجذب السيد.. ويصرخ وهو يقول له أشياء كثيرة.. وصوته يضيع في صوت الدبابة المقتربة.. والخوف يشل كلًّا منهما.. وتتعلق عيونهما بها في حقد ووجل.

وتقف الدبابة بالقرب منهما.. ويسود الصمت إلا من فرقعة خفيفة تصدر منها.. ويقول «جودة»..

«مش قلت لك.. قوم يا أخي بقى».

ويتكلم الرجل من فوق.. ويشير إليهما.. ويهبط.. وهما جامدان في مكانهما لا يتحركان.. والكوز في يد «جودة» يتمايل مع الهواء.. ويتقدم منهما الرجل.. وفي يده زجاجة.. ويتحدث.. ولا يردان عليه.. ويبتسم ابتسامة شاحبة.. وعيناه تتعلقان بعيونهما الجامدة الخالية من كل شيء.. وكان كل منهما يرسب في أعماقه كلمات غير التي يقولها لهما.

ومد الرجل يده بالزجاجة.. ومد يده الأخرى نحو الكوز.. والتفت رأس «جودة» إلى سيد.. والتقت عيونهما.. والماء يهتز في الزجاجة رائقًا أبيض.. ولم يعد «جودة» يشعر بالعطش.. ولم يعد يريد ماء.. ويده جامدة إلى جانبه.. والرجل ذو الوجه الأحمر يتكلم.. وتمتد يده أكثر نحو الكوز.. ولكن «جودة» يبعد يده وراء ظهره.. ويتوقف الرجل.. ويتكلم في سرعة وقد زاد احمرار وجهه.. ويشير بيديه.. ويتكلم.. وهما صامتان جامدان.

وفجأة.. يتوقف الرجل.. ويهز كتفيه.. ثم يعود إلى الدبابة..

وينهض السيد ويسير «جودة» والسيد يتبعه.. وأقدامهما تتشبث بالحجارة والطوب.. وتغوص في التراب.. وفي نفس كل منهما شيء غريب يعربد ويثور و«جودة» يريد أن يفعل شيئًا.. وهو يحس أنه يريد ذلك.. ويحس ببركان يغلي في صدره.. وشيء.. شيء كالنار ملتهبًا.. وتزداد أنفاسه اللاهثة المحترقة عندما تسير الدبابة ويعلو صوتها ليطغى على صوت أفكاره المتلاحقة المتضاربة.. وهما يسيران.. والدبابة تسير.. والبيت يقترب.. وينظر «جودة» حوله فلا يجد سوى هدد.. وبيت.. وبيت.. وجدران.. وطوب.. وتراب.. ودخان

يتصاعـد متمايلًا متراقصًا في كسـل.. وغيظ يملأ قلبـه وصدره.. ويحس كأن يدًا قاسية تعتصر جبهته.. ودموعًا تفور في أعماقه.. وأنفاسه تنبهر.. والدبابة تحاذيهـا.. وتـدوس فـوق كل شيء.. وتهـدم كل شيء.. وصـوت الأبـواب المحطمة ينكسر تحتها.. والبيت يقترب.. ويقترب.. والدبابة تبتعد. ويصلان إلى البيـت.. و«جودة» يحس دموعًا تنهمر من عينيه سريعة خارقة.. ولسـانه يجف وشـفتاه تتخشـبان.. وكراهية هائلة تفور في صـدره.. ويقف ناظرًا إلى الدبابة المبتعدة.. وينطلق صارخًا بكل قواه..

«يا ولاد الكلب.. مش عاوز اشرب».

ويعـود الصمـت هـادرًا مضغومًا.. وصـوت الدبابة يبتعـد.. وتدوي في أعماقـه صرخات مزمجـرة مدمرة.. فيلقـي بالكوز بكل قـواه.. وتنتفخ رقبته الرفيعة وتنفر عروقها خضراء باهتة.. وتحمر وجنتاه حتى تلتهبان.. وذراعاه تمتدان في الهواء متشنجة مرتجفة في انفعال متوتر.. وأصابعه الصغيرة تتقلص كأنها تمسـك بشيء.. وترتجف شـفتاه ارتجافًـا عصبيًا.. وينطلـق صارخًا من جديد.. وصوته الرفيع يثقب الفضاء في سرعة وقوة..

«يا رب تموتوا.. مش عاوز اشرب.. يا رب تموتوا كلكم».

ويسـتدير في عصبيـة إلى البـاب يدقـه بكلتـا يديـه.. ويسـتمر في صراخه الهيستيري.

«افتحـي يـا امه.. يـا رب تموتوا افتحي يا امه.. مـش عاوز اشرب.. مش عاوز اشرب».

أعمار

تسربت الضحكات خفية فيما بيننا، كان اليوم هو موعد اجتماعنا الأسبوعي عندهما... منذ أن تزوجت ليلى - أختي الصغرى - وأصبحا يعيشان وحدهما، اتخذنا قرارنا بالاجتماع عندها مرة كل أسبوع، ولقد تضاحكنا سرًّا لأنهما - أبي وأمي - كانا متخاصمين ويتحدث أحدهما إلى الآخر، ولا يوجه أحدهما إلى الآخر كلمة... كانت هذه ظاهرة، فهما - منذ أن عادا يعيشان معًا وحدهما وقد رحلنا جميعًا إلى بيوتنا وزوجاتنا وأزواجنا - كانا يعيشان شهر عسل جديد... ولقد أعلّنا منذ اليوم الأول، أنهما ليسا في حاجة إلى أحد، كانا قد تعديا السبعين واحدًا وراء الآخر، وإذا كانت أمي قد أصيبت بعدة أمراض كالسكر وضغط الدم وما إلى ذلك: فلقد كانت لا تزال قادرة على أن تعد له وجبات الطعام اللازمة... أما هو، فلقد كان - رغم أنه تعدى الخامسة والسبعين بعام وبعض عام - قادرًا على شراء ما يحتاج إليه البيت من لوازم...

«كفاية علينا أم محمد مرتين في الأسبوع!».

هكذا كانا يقولان وهكذا ركبا رأسيهما وهكذا أعفيانا من كل شيء... كان أبي دائمًا يقول إن لكل منا - ولد أو بنت - بيته وزوجته أو زوجه

وأولاده ومشاغله ودنياه التي هو مقدم عليها... لكننا - ربما بإحساس غامر بالذنب تجاههما - قررنا أن نجتمع عندهما في الأسبوع مرة.

«على شرط!».

هكذا صاح أبي معترضًا:

«إيه هو؟!».

«إنكوا تخلوا البيت قبل ما تنزلوا زي ما دخلتوه، نضيف وزي الفل!».

وكان عادلًا في شرطه فلم يعترض أحد... وهكذا سارت بنا وبهما سفينة الحياة، نطلبهما في التليفون ونطمئن عليهما إن شئنا أو شاء أحدنا أو إحدانا، نزورهما بين الحين والحين فرادى نشرب فنجانًا من القهوة أو كوبًا من الشاي أو نحمل إليهما كيسًا من الفاكهة، كانا يشترطان - أيضًا - على ألا يكون كثيرًا أو كبيرًا فقدرتهما على الطعام كانت ضعيفة، وكانت تضعف أكثر كلما تقدمت بهما السنون شهورًا!!... كانا من ذلك النوع من الآباء والأمهات الذين يتحولون مع الأيام إلى أرواح شفافة هانئة... ولذلك، فلم يكن غريبًا علينا أن نسمعهما يتحدثان كثيرًا عن الموت!

نعم الموت!

تحول الموت لديهما إلى نوع من الأمل المرتقب، كانا يتحدثان عنه في شوق من ينتظر نهاية رحلة العمر... أحيانًا كنا نضحك من حديثهما، وفي بعض الأحيان كان يصيب بعضنا الاكتئاب خاصة شقيقاتي اللواتي كن يبكين لدى

سماعهن هذا الحديث... غير أن خلافًا واحدًا نشأ بينهما... أن كلًّا منهما كان يريد أن يرحل قبل الآخر... كانت أمي تقول في لوعة:

«إلهي ما يحرق قلبي عليك أبدًا يا حاج!».

فيصيح فيها أبي محتجًّا:

«اشمعنى عاوزة تحرقي قلبي أنا عليكي!».

ولقد كانا يبدوان في تلك اللحظات وكأنهما قد تحولا إلى جسدين نورانيين. أو هكذا كان يخيل إلينا، كانا يبدوان راغبين عن كل شيء في الدنيا، في الطعام والزينة وحتى الفرح... كانا يصيحان:

«كفاية بقى!».

تلك لحظات لا تنسى، وكيف ينساها الإنسان عندما يواجه مصيره قبل حلوله... كان أبي إذا ما عاتبته إحدى شقيقاتي يقول:

«بتقولوا سعادة، بتقولوا فرح، بتقولوا أكل... كل ده انتوا ما تعرفوش عنه حاجة لأنكم مساجين، ويا ريتكم مساجين في أوضة، إنتوا مساجين في جيفة!».

أذكر عندما سمعت قوله هذا في أول مرة أحسست برغبة قوية في التقيؤ، كان الأمر قاسيًا وفوق كل احتمال، ولقد صاح فيه أخي ذات مرة!

«معنى كلامك ده يا بابا إننا نسيب حالنا وشغلنا ودنيتنا ونقعد نستنى الموت!».

«مين اللي قال؟».

«إنت اللي بتقول؟».

«أنا باقول ده يا أستاذ بعدما بقيت عالة!».

اختنقت شقيقتي الكبرى هاتفة:

«بابا».

«تقدري تقولي لي أنا باعمل إيه دلوقت؟!».

صحت فيه:

«طب ما انت عملت يا أخي!».

«محدش يعرف!».

«بص لنا وانت تعرف!».

«عملت لنفسي ولأولادي.. لكن إيه اللي عملته للناس؟! هو ده اللي في علم الغيب؟!».

كان محيرًا!

حياته سلسلة متصلة من الصراع مع الدنيا، ولد يتيمًا وذاق مرارة الحرمان منذ نعومة أظفاره لكنه راح يحفر في صخر الحياة بإصرار عنيد... كان يقول في لحظات صفاء:

«شوفوا يا ولاد... أنا كل اللي انا عاوزه، وكل اللي اتمنيته ربنا اداهولي!».

وتؤمِّن أمي على حديثه والكلمة تخرج من أحشائها:

«الحمد لله!».

«وهي دي القضية يا حاجة!».

«أمال إيه القضية؟!».

«يا ترى كل اللي هو عاوزه، أنا اديتهوله؟!».

قال هذا واختنق صوته، وكست عينيه طبقة رقيقة من دمع حائر، وارتسمت على شفتيه ابتسامة متسائلة، وران علينا الصمت ثقيلًا ثقل ذنوبنا، فغمغمت:

«لما انت بتقول كده، إللي زينا يقول إيه؟!».

«بفتكر يوم زي اللي فيه ده!».

نعم كانا يحلمان بالموت، ويتحدثان عنه حديث المنتظر الملهوف، ويختلفان فيمن يسبق الآخر منهما، لكنهما في تلك الليلة كانا متخاصمين.

وكان لا بد لنا أن نلح، سألناها عن السبب فقالت في تغاضب:

«اسألوا أبوكم!».

وعندما سألناه قال:

«اسألوها، هي اللي زعلانه!».

كانا يبدوان كطفلين يلعبان فاختلفا فتخاصما... وكان لا بد للإلحاح من أن يأتي بنتيجة، فلقد قالت أمي ذات لحظة:

«أبوكم عاوزني أموت، ما بقاش طايقني خلاص!».

هتفت ممازحًا:

«مش انت اللي كنت عاوزه كده؟!».

قالت في احتجاج:

«أنا أعوز حاجة، وهو لما يقولها حاجة تانية!».

من الغرفة الأخرى جاء صوت أبي:

«الحق عليَّ اللي مش عاوزك تتعبي!».

بـدا لنـا الأمر وكأنـه يود المزاح العنيـف، لكن الأمر لم يكـن كذلك، كان جـدًّا في جـد.. قـال أبي يحكـي الحكايـة إنهـما كانا. بعـد أن انتهـت من صنع قهـوة الصباح، وانتهـى هو من حل الكلـمات المتقاطعة في جريدتـه اليومية، راحا يتسـامران، فقـال فيما قال من أحاديـث إنه «زهق»وإنـه أصبح يتعجل الرحيـل، فقال هي كـما كانت تقول دائمًا إن عليـه أن ينتظر حتى ترحل هي، فهـي لن تحتمل رحيلـه وبقاءها وحدها بدونـه... وبدلًا من الـرد التقليدي الـذي تعـوَّد أن يقوله، قال لهـا إن هذا الأمر أصبح يشـغله في الأيام الأخيرة كثـيرًا، فهـي مريضـة وتحتـاج إلى دواء، كـما أنهـا تحتـاج إلى نوع خـاص من الخدمـة، وهـو لا يريـد لأحـد مـن الأولاد أو البنـات أن يتـضرر منها فهي لـن تسـتطيع أن تعيـش وحدهـا، هـو لا يريدهـا عبئًـا، يريدهـا سـيدة بيتها حتـى آخر يـوم في حياتها... وهي لو ماتت، فلسـوف يسـتطيع هـو أن يدبر حالـه، وألا يتعب أحدًا، وألا يكلف أحدًا حتى مشـقة صنـع فنجان القهوة أو كوب الشاي.

«يعني انت عاوزني أموت يا حاج؟!».

«قلبي عليكي!».

«قلبك عليَّ، والا انت عاوز تخلص مني؟!».

وهنا انفجر أبي غاضبًا، كان الحوار بينهما غريبًا لا يسمح لأحد بالتدخل أو المشاركة أو الحديث، كان الحوار يبدو خاصًّا وكأنهما حبيبان يتناجيان، انفجر أبي قائلًا:

«خلاص انتي حرة، بكرة لو جه يومي قبل يومك حاتعرفي، إن الله حق!».

ساد الصمت تمامًا، حتى الأولاد الصغار كفوا عن الصياح واللعب وارتكن كل طفل إلى ساق أمه أو أبيه ورحنا جميعًا ننظر إليهما، وكان ما أمامنا شيء لا علاقة له بالواقع، حتى قالت أمي:

«طيب.. بس على شرط!».

«اشرطي زي ما انت عاوزه!».

«ما تتأخرش عليه!».

«أتأخر ازاي، كلها خمستاشر يوم واحصلك، هو انا بقيت اعرف اعيش من غيرك؟!».

وانفجرت شقيقاتي في البكاء، وانفجرت أنا وأخي في الضحك! اختلطت الدموع بالضحكات كما اختلطت التعليقات وسرى في الجو دفء من نوع نادر، أحسست في لحظة أننا حبات عقد تنتظمها أفكار هذا الرجل الغريب الذي تصادف أنه كان أبي...

ولقد كان اليوم حميمًا.

أكلنا وشربنا وضحكنا وسمرنا وسهرنا...

تركناهما بعد العشاء وكان كل منا يحمل في قلبه قدرًا من الحب من الصعب احتماله.

عاد كل منا إلى بيته...

وعادا هما إلى حياتهما الرتيبة... توضأ أبي وصلى العشاء، وأدت أمي الصلاة خلفه جالسة... أطفآ الأنوار وأغلقا الباب بالمفتاح وأوى كل منهما إلى فراشه، كان ثمة ضوء خافت يأتي من اللمبة «السهاري» التي وضعاها في منتصف الممر المؤدي إلى الخارج، سألته أمي إن كان يريد شيئًا فسألها إن كانت قد تناولت الدواء... ثم قال لها: تصبحي على خير!

ونام...

ولم يستيقظ....

مات!!

تحطيم الأحلام

أخيرًا... أخيرًا تحقق الحلم، أصبح حقيقة فاجتاحتهما سعادة بلا حدود، وراحا - في بعض الأحيان - يختلقان المشاوير، كي يغادرا البيت... وعندئذ يركبان السيارة معًا ويفتحان النافذتين كي يلفحهما تيار الهواء قويًا، ثم لا يذهبان إلى المشوار، وينطلقان ضاحكين، ويتصارحان بأنهما غادرا البيت، فقط كي يركبا السيارة!

نعم، اشتريا سيارة!

ولأربع سنوات كاملة كانا يحرمان نفسيهما من كل متعة كي يحققا هذا الحلم العسير!

حدث هذا يوم أن عادت هي باكية إلى البيت. كانت دائمًا ما تصل قبله من عملها فتجهز الغداء وتسرع في ترتيب البيت حتى إذا عاد مارسا حبهما في الطعام ومشاهدة التليفزيون وتبادلا آخر الأخبار والأقاويل.. فلقد كانا - قبل أن يقعا في الحب - صديقين، وكانا يرتاحان إلى بعضهما البعض بشكل بدا لكل منهما غامضًا وإن لم يثر هذا الغموض فيهما أي تساؤل، جرفتهما الصداقة كالموج الهادئ إلى شاطئ الحب فتصارحا وهما يضحكان، فلقد كان من ألذ أحاديث النميمة بينهما قصص الحب الخفية والعلنية... وما لبثا أن

راحـا ينمان على نفسـيهما ويقولان عنهما ما كانـا يقولانه عن الآخرين، يومها ضحكت وهي تهتف: «داين تدان!».

وعندمـا اتخذا قرار الزواج، كان أكثر ما يضايقها أنها لن تسـتطيع الشـماتة فيه فسوف يشمت هو الآخر فيها وفي نفس الليلة بل في نفس اللحظة، لقد حرمها حبه من نعمة النم عليه وتقطيع فروته وإطلاق النكات عليه... أما هو، فقد استسـلم للحب وهو يردد بين الحين والحين: «أنا عمري ما فكرت فيك... عمري!».

بعد أن تزوجا، كانت المواصلات واحدة من مشكلاتهما القومية - حسب تعبيرها السـاخر - لكنها لم تكن مشـكلتها وحدها، فسرعـان ما دبرا الأمر، واتخذ كل منهما لنفسه مسارًا، هو إلى عمله، وهي إلى عملها.

وحتى عادت في ذلك اليوم باكية، لم يفكرا أن يشتريا سيارة، لا لشيء، إلا لأنهما لم يكونا يملكان مالًا يشـتريان به هذه السيارة، وعد غنماتك يا جحا، راتبـه وراتبهـا ولا شيء آخر، لا دخـل ولا إرث ولا أب غني ولا أم تحوش المـال تحـت البلاطـة... والراتبـان، بالكاد كانـا يكفيانهما... وعندمـا مر عام وبدأت أسئلة الأهل تلاحقهما سائلة عن ولي العهد، لم يأخذ منهما الأمر أكثر مـن ثوان، فرغم ذلك الشـوق الطبيعي عندها كي تصبـح أمًّا، وتلك الرغبة الدفينة في صدره بأنه يريد أن يصبح أبًا، اتخذا القرار بألا يفكرا في الأمر، مهما تسـاءل الأهل، ومهما قالت أحزاب النميمة، إلا بعد أن يحصل كل منهما على درجة يزيد بها الراتب قليلًا!

وحتـى ذلـك اليـوم الـذي عـادت فيـه باكيـة، أيفكـر في شراء سـيارة.. «منين»؟!

لكنهما في هذا اليوم، اتخذا قرارًا بأن يشتريا سيارة!

■ ■ ■

ظلت واقفة على محطة الأتوبيس لساعة ونصف دون أن تستطيع أن تجد لنفسها مكانًا لقدم على السلم... كان اليوم عاديًّا والركاب هم الركاب، والأتوبيس هو الأتوبيس والموعد هو الموعد... ولكنهما في ذلك اليوم بالذات، لم تستطع أن تركب الأتوبيس، فقررت أن تركب سيارة أجرة!

هدأ التاكسي من سرعته عندما أشارت له، كان بالداخل راكبان أحدهما يجلس بجوار السائق، والآخر في المقعد الخلفي، هتفت باسم الحي الذي تسكنه فوقف التاكسي وركبت في الخلف... مضى التاكسي في أمان الله حتى أشار له رجل يقف في الطريق، هدأ السائق من السرعة وسمع الجميع صوت الرجل يهتف باسم نفس الحي، توقف التاكسي وأصبحت هناك - مع النور - مشكلة!

مالت على الجالس بجوار السائق متوسلة:

«لامؤاخذة يا حضرة!».

«نعم يا مدام!».

«ممكن سيادتك تقعد ورا.. وأنا أقعد مطرح سيادتك!».

في اختصار شديد، قال:

«متأسف!».

كان التاكسي واقفًا، والباب المجاور لها مفتوحًا، وإحدى ساقيها في الخارج استعدادًا للانتقال إلى المقعد الأمامي، ولم يكن معقولًا أن تنحشر

في المقعـد الخلفي بين رجلين، أو تنزلق بجـوار أحدهما، وهو رجل، ويجلس مرتاحًا بجوار السائق.

«يا أستاذ أنا باستسمحك!».

«رجلي بتوجعني!».

كان الرجل سمجًا سماجة تفوق الوصف، باردًا لدرجة تبعث القشعريرة في أشـد الأجسـاد تبلدًا، جاثمًا عـلى المقعد وكأنه لن يتزحـزح من فوقه مدى العمر.

«يا أستاذ!».

صاح السائق متبرمًا:

«ما تخلصونا بقى!».

أسـلمت أمرهـا إلى الله وغـادرت السـيارة طالبة من الراكـب الجديد أن يدخـل حتى تجلس هـي إلى جوار الباب... ما إن فعلـت حتى جاءها صياح من الداخل:

«أستغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم!».

كان هـذا صوت الرجل الجالس في الخلف... انحنت مقبلة بنظرها نحوه لكنه أدار وجهه إلى الناحية الأخرى في تأفف وهو يقول:

«ما بقاش فيه خشا ولا حيا ولا دين!».

أدركت أن الأمر قد خرج الآن من يدها فأرادت أن تحسـم الأمر، خطت نحو النافذة الأمامية سائلة السائق:

«حسابك كام يا اسطى؟».

«اللي تشوفيه!».

في ضيق قالت:

«أنا ما اقدرش اشوف لأن العداد بيشتغل من قبل ما اركب!».

«هاتي جنيه زي بعضه!».

«يا نهار اسود!».

فتح السائق الباب وغادر السيارة صائحًا من فوق سطحها في عرض الطريق وبصوت حياني:

«وحاتسودي النهار ليه يا ست، البنديرة ضاربة مية وعشرين بأقول لك هاتي جنيه بس!».

مالت ناظرة نحو الرجلين الجالسين في الأمام والخلف وكانا يبدوان وكأنهما تحولا إلى حجر، عادت تطل على السائق من فوق السيارة، فصاح وكان الراكب الجديد يدلف إلى السيارة دون كلمة:

«ماتخلصينا يا ست، إحنا مش ناقصين مخالفات!».

وكان لا بد أن تخلص نفسها هي أولًا، فدفعت الجنيه، وعادت إلى البيت باكية!

■ ■ ■

في ذلك اليوم قررا أن يشتريا سيارة!

وكان لا بد - وقد اتخذا القرار - أن يحرما نفسيهما من متع كثيرة، أبسطها ألا يذوقا الفاكهة إلا مرتين في الشـهر، وألا يدخلا السـينما إلا مرة في الشهر، وأن يقتصـدا في النور، والملابس.. و.. ولقد هان كل شيء، هان تمامًا، عندما وقفت بهما السيارة أمام باب البيت!

في البدايـة.. كانـا يسـتيقظان مبكـرًا، ويرتديـان ملابسـهما في نشـاط، ويتنـاولان الإفطـار بشـهية مفتوحة، ويتبـادلان آخر أخبـار النميمة، ويدلي كل منهـما بتوقعاته لما سـيحدث في ذلك اليوم، ثم يغـادران البيت، ويعاتبان البواب، لأنه لم ينظف السـيارة كما يجب.. كانت أولى المشـاكل التي واجهتهما هي المكان.. ذلك أن سـكان الشارع الذين يملكون سيارات كانوا يتزايدون يومًـا بعـد يـوم.. وكل مالك لسـيارة قد وضع يـده على مكان في الشـارع لا يسـتطيع أحد أن يتعدى عليه.. في بداية الأمر حدثت مشـاجرات وخناقات ثـم اسـتقر الأمر في النهاية بالتسـليم لـكل صاحـب سـيارة بقطعة أرض من الطريق العام تئول ملكيتها إليه.. وعندما اشـتريا السيارة كان الشارع بطوله قد أصبح ممتلئًا تمامًا، وعندما فكرا في وضع السيارة في الجراج القريب، فهي هناك سـتكون في مأمن لكنهما تراجعا عن الفكـرة على الفور، فقبل أن تصل السيارة دق جرس الباب، وعندما فتحاه، كان البواب هناك:

«بيقولوا من غير مؤاخذة يا سعادة البيه إنك حاتشتري عربية!».

تبادلا النظرات، ثم اعتبرا الأمر طبيعيًّا.

«أيوه يا متولي.. خير!» كشر البواب عن أنيابه قائلًا:

«لأ يعني كنت بأقول إننا أولى من غيرنا!».

تبادلا النظرات، ثم اعتبرا الأمر طبيعيًّا!

«وحتاخد مني كام؟!».

«زي الجراچ!!».

هتفت في البواب وقد استفزها الأمر:

«ليه بقى.. إنت بذمتين يا متولي؟!».

«ليه ياست هانم لا سمح الله؟!».

«الجراچ بياخد سبعة جنيه ونص على العربية، وانت بتاخد من كل نمرة خمسة.. أربعة جنيه بس!».

«مين اللي قال؟!».

«أنا اللي بأقول!».

«ده كان زمان يا ست هانم.. أيام كان الرغيف بقرش!».

تبادلا النظرات، ثم اعتبرا الأمر طبيعيًّا:

«بس على شرط يا متولي!».

«وحاتشرط عليَّ ليه يا سعادة البيه؟!.. الجراچ حايبيتها لك في الشارع، وهنا حاتبات في الشارع، على الأقل هنا حتبقى قدام البيت وتحت إيدينا!».

«بس الجراچ بيغسل العربيات!».

«طب قوم طل ساعة الفجرية من لامؤاخذة الشباك، حاتلقاني أنا والعيال وأمهم نازلين غسيل في عربيات الحارة كلها!».

كانا يعلمان مقدمًا، أنه لا سـبيل للحوار، وأنهما لا بد وأن يستسلما للرجل الـذي كان يقف قبالتهـما متحديًا لا متحدثًـا... ويا ويلهما إن همـا لم يطيعا.. حدث هذا لنمرة سبعة أصر على وضع سيارته في الجراج فرأى النجوم في عز الظهـيرة، ضاعت خطاباته، وأهين ضيوفه، وأهملت قماماته وبح صوته ذات عـصر وهو ينادي على البـواب الجالس أمام باب العمارة دون أن يرد النداء.. وعندما نزل إليه قال:

«لا مؤاخذة ما سمعتش!».

«أنا عندي ضيوف وعاوز حاجة ساقعة!».

«لا مؤاخذة خلصت!».

كان البواب يبيع المثلجات منذ بضعة أعوام ويحتكر بيعها لسـكان العمارة فلا يسـتطيع أحـد أن يتعـداه.. وعندما قـال إن الحاجة السـاقعة لا مؤاخذة خلصـت كان الصنـدوق أمـام عيني نمرة سـبعة مكتظًـا بالزجاجات صرخ الرجل مشيرًا إلى أكداس الزجاجات:

«أمال إيه ده كله؟!».

فقال البواب وهو يضطجع في جلسته:

«دي لامؤاخـذة متباعـة!» تذكـرا كل هذا.. كانت حريتهـما أثمن من أي شيء، مـضى الرجـل مطاعًا، وجلـس كل منهما قبالة الآخر دون أن يسـتطيع كل منهـما أن يواجـه نظـرات صاحبـه.. في داخل كل منهما خجـل صارخ.. وكان لا بد لهما أن ينسيا الأمر، أو يجدا تبريرًا لاستسلامهما لكنهما لم يستطيعا،

فلاذا بالصمت، لم يعد للمسلسل التليفزيوني طعم، ولا للعشاء معنى، راحا يتحركان في البيت حركات أقرب إلى الهرب.. فكل منهما يعتز بكرامته، ويفخر باعتزاز صاحبه بكرامته، في حياتهما قيم جمعتهما، فكيف يتنازلان بسهولة عن حريتهما لبواب؟! فجأة صاحت هي:

«ما هو ده كمان مش معقول!».

استدار نحوها، أطلقت عيناه تساؤلًا صامتًا، فأجابته:

«حتى الفرحة الواحد ما بقاش عارف يفرحها عدل!!»وناما! فيما تلا ذلك من أيام، بدأت السيارة، التي كانا سعيدين بها كل هذه السعادة، تسبب لهما مشاكل بلا حصر.. كان هو قد تعود في الصباح أن يحملها إلى عملها، وهما في اليوم الأول، وعندما استشعرا ذلك اليسر في الوصول إلى العمل، وجد مبررًا لاستسلامهما للبواب.. كان الأمر يستحق، ولكن هل يستحق الأمر كل هذه المشقة أمام مقر عمله؟!

اكتشف أن هناك عم سيد المنادي!

وهو كان يرى عم سيد، ويعرفه، ويتعامل معه أحيانًا في السجائر والسندوتشات وما إلى ذلك.. ولكن، لأنه لم يفكر في اقتناء سيارة، فلقد غفل عن سطوة عم سيد وسلطانه.. كان المكان فيما يحيط بالوزارة مكتظًّا بعشرات السيارات، في بعض الأحيان، وعندما يطل من نافذة مكتبه على الطريق العام، كان يشعر أن السيارات ليست واقفة على الأرض، بل مكومة فوق بعضها لكثرتها التي تتزايد يومًا بعد يوم.. وسط هذه الغابة، كان عم سيد هو الأسد المطاع الكلمة.

تـزويـغــة

إننـي لا أكاد أرى.. صدري ضيق.. أكاد أنـام من فرط الإعياء.. والترام يهتـز ويترجـرج.. والمحطـة التي سـأنزل بها لا تـزال بعيدة.. أين السـيجارة الباقية؟.. ربما تفتحت عيناي بعد تدخينها.. ولكن.. ليس هناك من أشـعلها منه.. الجميع على وجوههم نفس المسـحة الحزينـة التي اعتدت أن أراها على وجوه أمثالي من الفعلة.

- تذاكر.. ورق.

يا سـاتر.. يجب أن أزوغ اليوم بأي ثمن.. أليس هناك من أشـعل منه هذه السيجارة؟ أبدًا.. كلهم صامتون.. كلهم متعبون واجمون مثلي تمامًا.. ولكني أرتعد!!

- ورق.. ورق.

لعـن الله الـترام.. والكمسـارية.. والتذاكـر.. إن يـدي ترتعـد فعـلًا.. والسـيجارة تكاد تسقط من بين أصابعي.. والجو ليس باردًا.. ربما كان ذلك من فرط التعب والإجهاد.. أو من «الخضة».. إنني منذ أن كدت أسـقط من أعلى الحائط وأنا مضطرب.. هذا هو سـبب رعدتي.. ومحمدين سقط اليوم.. ومات.. وظللنا نعمل.. حتى الإسعاف رفضت أن تأخذه.. ليس في قلوبهم

رحمـة.. والمعلـم صرخ فينـا لنعود إلى العمـل.. وعدنا.. وأخـذوا محمدين.. سـيدفن في مدافن الصدقة بعد أن يقطعوا جثتـه.. يشرحوه.. لقد كان رجلًا طيبًا.. لا بد أني مضطرب لهذا السبب.. لا.. أبدًا. فكثيرًا ما حدث مثله.. ولم أرتعد.. بكيت يومها كما بكيت اليوم..

كان ذلك في الشـهر الماضي.. وقع اثنان.. ودفنوهما في مدافن الصدقة.. لم يكن لهما أهل في مصر.. مصر البلد الكبير هذا الذي أعيش فيه وحدي.. وهناك في الصعيـد زوجتي وأولادي.. لماذا أذكرهم الآن؟ ربما لأنني أرى هذه المرأة التي تجلس مع أولادها.. إن هذا الطفل من سـن محمد ابني.. كم أوحشني.. لقـد كنت أظن عندما غادرت البلد لأول مرة منذ سـنوات أنني سـأعود بعد شهر على الأكثر لآخذهم إلى مصر.. مصر البلد الكبير.. ولكن لم أجد بها غير هذا العمل.. وأنا أرسل لزوجتي جنيهين كل شهر.. يوميتي اثنا عشر قرشًا.. والباقي لا يكفي أبدًا.. ولكن ماذا أفعل؟! آه الملعون الكمساري.

– ورق.. تذاكر.

يجـب أن أديـر وجهـي إلى الناحيـة الأخـرى.. لا أسـتطيع أن أدفع ثمن التذكرة اليوم.. وغدًا؟!.. غدًا يحلها ربنا.. إنني متعب.. متعب جدًّا.. يا لهذا الـترام اللعين! لماذا يقف كثـيرًا هكذا؟! الأولاد أوحشـوني جدًّا.. ومبروكة أيضًا.. مدة طويلة لم أرهم فيها.. عظيم.. جاري يشعل سيجارة.

– تسمح تولع لي.

يا سلام.. الدخان لذيذ إن يدي ستكف عن الارتعاد ولا ريب.. يا خبر!.. لقد نسـيت.. بعد العشـاء.. لا بد من أن أحبس.. وليس معي ما أشـتري به

سيجارة.. كيف أطفئ السيجارة؟!.. لا بد أن أطفئها.. ولكني محتاج الآن لسيجارة.. نفس واحد فقط.. نفس آخر.. لا.. إنها ستنتهي.. هذا النفس فقط.. نعم.. فقط هذا.. يدي تعصى ولا تريد أن تخنق السيجارة.. لعن الله الفقر.. يجب أن أحافظ على هذا النصف.

- ورق.. تذاكر.

ألا يكف هذا الملعون عن ترديد هذه الكلمة!

- العتبة.. الورق الأخضر.

لا يزال أمامي مشوار طويل.. لا نزال في العتبة.. أسير المسافة الباقية وأمري إلى الله.. ولكنني متعب.. ومن الفجر وأنا أهد عمارات.. عمارات كبيرة.. وقديمة.. «عمارات تنهد.. وعمارات تنبنى.. وأنا.. ومراتي.. وأولادي.. والغلابة».. أين نسكن؟! في عشش صفيح.. وكل عشرة في حجرة.. هكذا خلقنا.. فقط لا أحب أن يأتي الكمساري.. عال.. نهض جاري.. سأجلس في مكانه.. نعم هكذا في الركن لن يراني.

الترام يقف كثيرًا.. ولكنها نفس المحطات.. أنزل أفضل.. نعم.. يجب أن أنزل.. ولكن ساقاي لا تكادان تحملاني.. الناس دائمًا تقول: «صعيدي يكسر الزلط».. نعم نكسر الحديد أيضًا.

وماذا يهمهم؟! لا شيء.. المعلم الذي لا يفعل شيئًا غير الوقوف والصراخ.. كل يوم يتغدى برطلين كباب.. أمامنا جميعًا.. ونحن نجلس بجوار الحائط.. وفي وسط التراب.. والطوب.. والزلط.. نأكل طعمية وفول وباذنجان.. نعمة.. الحمد لله.. باقي محطتين.

- ورق.. تذاكر.

باقـي محطـة واحدة.. غريبة.. أيـن الصاغ.. الصاغ الباقـي؟! يا خبر.. لا بد أنني وضعته في جيب الصديري.. أبدًا.. لا حول الله.. كيف سأتعشـى؟! الصاغ.. الصاغ!.. ولا هنا أيضًا.. وصلنا.. لكن الصاغ.. وهذا دكان المعلم حسن.. والطعمية ساخنة.. لا حول الله.. لا.. أهو.. الحمد لله.. يا سلام..

- بقرش طعمية ورغيف.. و.. وحتة طرشي سايق عليك النبي.

حـين يكبـــرون

الحمـد لله .. كل شيء كـما كان يتمنى.. الشـوارع خالية، الضاحية هادئة، البيوت يكسـوها ذلك الرداء الرمادي الشاحب.. ونقيق الضفادع في حدائق القصور بدأ يزين الجو بنغمات ساحرة.

مـا أحلى الدنيـا وما أجملها حتى لو لم ترنُ إليه بنظـرة! ما أحلى الدنيا وهو يطوف بيتها فيلمح ذات مرة شـعرها، ومرة أخرى طرف ثوبها! وإن رضيت عليـه بنظرة كانـت هذه أحلى لياليه.. ما أحلى الدنيـا وهو في كمال عدته، وفي أعلى درجات النشوة!!

جـاء البنطلون من عند المكوجـي أخيرًا.. وقد كاد يلبس البنطلون الآخر القديـم، واسـتولى من والده -بعد سـاعات رجاء وسـاعات- على قرشـين بـدلًا من قـرش، وضع أحدهمـا في جيبه للظروف واشـترى بالقـرش الثاني ثلاث سـجائر وضعها بعنايـة في جيب قميصه، وحرص عـلى أن يضع بينها وبـين الناظر إليه ورقة صغـيرة، حتى لا يلحظها أحد أصدقاء أبيه - لو قابله أحدهـم - أو رمـاه حظـه في طريـق أبيه الذي يحلـو له أن يتمشـى في أقاصي البلـدة مع أصحابه، وقـد يصلون في سرحاتهم إلى هذا الحي.. وقد .. وقد .. ولألف سـبب وسبب فليس هذا مهمًّا، المهم أنه استطاع بعد جهد أن يقتنص

علبـة الكبريت من المطبخ دون أن تضبطه أمه، وإلا اضطر إلى شراء صندوق بنصـف القرش الباقي وقد.. و.. وقد.. وقـد.. المهم أنه وصل.. وأنها تقف الآن في شرفتهـا المطلـة عـلى الحديقة.. ولعلهـا تنتظره، لعلها تنتظـره، لعلها أخيرًا أحسـت بـه.. لعلها قررت أن ترد على الخطاب الـذي ألقاه في الحديقة بالأمس.. لعلها.. لعلها.

هذا هو الوقت المناسب.

عنـد الناصية تمامًا يجب أن يقف.. هنا.. نعم هنا.. وأن يثني سـاقًا ويفرد أخرى.. لكي يستطيع أن يميل بجانبه الأيسر، ويخرج السيجارة بيده اليمنى، ثم يدسها في جانب فمه.. نعم هنا.. بالضبط، لكنها - أي السيجارة - لا بد وأن تتدلى أكثر.. أصابعه تنشـل علبة الكبريت مـن جيبه بمهارة.. أيام وأيام قضاهـا مع فوزي يتعلمان كيف يلعبان هذه الحركـة البارعة.. علبة الكبريت في الجيـب الأيسر، الأصابع تندس بخفة.. لتقبـض عليها.. ثم تقذف بها إلى يـده اليمنى لتلعب أصابع يمناه في الغطـاء وتلاحقها أصابع اليسرى لتلتقط عودًا يشعل بنفس اليد، مع استدارة أمام الوجه ثم.. آه.. تمامًا تمامًا.

إنها تنظر إليه.

هـذه هـي اللحظة، هذه هـي اللحظة.. اليمنى ترفع برشـاقة لتلمس على الشعر المصبوغ بالصابون.. رباه.. ليس هذا معقولًا.. أنامل الحبيبة تمسح هي الأخرى على شعرها الذهبي كأنها حورية من الجنة.. الابتسامة تضيء الوجه بألف مصباح.. موسـيقى ملائكية تنسـاب إلى أذنيه من صرخات السيارات البعيدة.. ونقيق الضفادع، وصوت النسمات وهي تمر على وجهه.

ما أحلى الدنيا وأجملها!!

على الرغم من كل شيء.. على الرغم من السيجارة التي قاربت على الانتهاء، ولا بد من إشعال سيجارة أخرى لتظل الصورة، لتكتمل مع المشهد التالي الذي لا بد أن يحدث وإلا ضاع كل شيء.. المشهد الثاني هو الحاسم في الموضوع كله.. في مصير قلبه الذي يدق كطبلة الكشافة الضخمة المدوية.

المشهد الثاني هو النهاية والبداية.. هكذا تعلم من أصدقائه.. والمجربين منهم على وجه الخصوص. لا بد من المشهد الثاني.. الذي هو نهاية ثلاثة أشهر مضت منذ رأى سعاد لأول مرة وهي ذاهبة إلى المدرسة.

فتاة من مئات الفتيات اللواتي يراهن كل يوم مندفعات في سرعة من شارع البحر العريض إلى شارع القاضي إلى كفر اسكاروس إلى مدرسة البنات.. هو على العكس ينبت كل صباح من قلب كفره اسكاروس، ليخترق شوارعه وحواريه حتى ينتهي به المطاف عند شارع البحر في طريقه إلى مدرسته على الضفة الأخرى للبلدة.

وانتظرها في صباح اليوم التالي والذي يليه، وطوال ثلاثة أشهر كتب فيها أكثر من قصيدة تغزل فيها بجمالها، وعرف أثناءها مكان بيتها ورقم التليفون، واكتشف بطبيعة الحال أنهم من ثراة المدينة وأغنيائها.. وعثر على زميل له في الحي الذي تسكنه محبوبته.. ومن ثم أصبح صديقه في المدرسة، فلا مانع من زيارته في بيته.. و .. ويومًا بعد يوم، وأسبوع بعد الآخر.. أصبح معروفًا في الحي الراقي بشلته وعصابته أنه صديق أحمد الوقاد، فلا مانع من وقوفه في

الحـي في بعـض الأحيان في انتظـار أن يمر أحمد الوقـاد.. ولا مانع من تبادل التحيات مع رجال عصابات الحي المدرسية.

- سلام عليكم.

- عليكـم السـلام ورحمـة الله.. ولا ينطـق و «بركاته».. فهو يسـتطيع أن يلعـب بلسـانه كما يلعـب بأصابعه.. ومن شـيم الجدعان ألا يكمـل جملته.. وعلى محدثه أن يفهمه بسرعة وإلا كان قفلًا لا يستحق احترامه.

الأيام تمضي، والحب ينمو في قلبه ويتمكن، ولكنه لم يتمكن أبدًا قدر تمكنه اليـوم، وقـد خلت الدنيا من كل شيء عدا طيفها الذي كان ينسـاب من باب الشرفة إلى سلم السلاملك.. وما هي إلا ثوان.. وتكون قد اخترقت الحديقة وجاءت إلى حوض الورد، وهنا يبدأ الشوط الثالث.

لقد نجح.. نجح.. نجح.. هل هذا معقول؟!.. حلم أم علم؟!

قبل أن تنزل يدها من على شـعرها كانت رأسـه تميل بسرعة آمرة إياها أن تأتي.. لم يصدق عينيه.. وهو لا يستطيع تصديقها، إن ابتسامتها تزداد ضياء، وطيفهـا ينحدر من الشرفة إلى سـلم السـلاملك إلى الحديقـة، إلى قلبه الذي كان يتهـاوى مترنحًا تحت وطأة خفقاته المؤلمة القاسـية اللذيذة - أروع اللذة وأجملها.

السـيجارة الأخـرى لتـداري ارتباكـه وتردد أنفاسـه، وخفقـات صدره العاتية.. أصابعه ترتجف انفعالًا وهي تشعل السيجارة، ولكن هذا غير مهم.. المهم بداية الشـوط الثالث والأخير.. كلمة مساء الخير أفضل أم بنسوار؟!.. إنه رجل حقًّا.. فيجب أن يسـتعمل لغة بلده، ولا داعي للحذلقة.. ولكن..

هي من عائلة غنية؟ أهلها لا بد أنهم يستعملون هذه الكلمة.. ولا بد أنها لا تعرف فإن تقولها.. فماذا تقول عنه؟ تقول عنه أنه جلف من أبناء البلد؟.. وليكن.. إنه وطني.. مصري، متطرف.. و.. و.. وهي تقترب، تنحني على حوض الورد.. تنهض.. تتجه نحوه وكأنها لا تراه، تقترب منه فلا يصبح بينهما سوى سور الحديقة فقط.. قد يصافحها.. قد يلمسها.. قد ...

يكاد ينفجر بالسعادة، يكاد يحترق باللذة.

قلبه يدق، يجري، يجري.. يجري مع الأقدام التي كانت تندفع من طرف الشارع على عجل، وفي لهفة يقفز إلى الخلف خطوة.. وتجعلها تجفل وتفر هاربة وسط ظلام الحديقة.

ووجه أحمد الوقاد يبرز في الظلام مع أول أضواء المصابيح الخشبية العالية.. وأنفاسه تتهدج وهو يتكلم في لهفة:

– خير يا أحمد.. خير.. قالها بحدة ولهفة وجدعنة، فربما كان أحمد في ورطة أو خناقة وقد يحتاج ذراع صديقه الوفي كما حدث منذ يومين ودخل هو المعركة كأي صديق رجل، وخرجا ظافرين.

– إنت صاحبي صحيح.. يابو صلاح.

اضطرب قلبه بعنف.

– خير يابو حميد.. عيب انت مع راجل!

– يعني لي قيمة عندك.. ليه كلمة؟

– الصاحب للصاحب يابو حميد!

- سيب الحتة دلوقت، يالله بينا من هنا.. إسمع كلامي.. وقع المحظور.. لا بـد أنهم آتـون.. العصابـة تتحرك، فلم يعـد لديهم مزيد مـن الصبر.. هو يعـرف تمامًا ما قد يدور بينهم من أحاديث.. ثلاثة شـهور ما لوش وقفة غير قدام بيت سعاد.. أيوه يا عم ويقول لك أحمد الوقاد.. اسمعوا يا رجالة إحنا مـش عيال.. نكلم أحمـد.. إبراهيم يزعل.. وإيه يعنـي.. إبراهيم راجل، هو أخـو أحمد صحيـح، وبطل الحي تمام التـمام، يعني.، إلا إنه ابـن الحي قبل ما يكون أخو أحمد.. كده تمام.. أيوه.. معاك حق.. ونكلم أحمد.

وهـا هـو أحمد يقف أمامـه مبهور الأنفـاس، منتظـرًا رده، فلا بد أنهـم آتون.. والكثرة مهما كان تغلب الشجاعة.. وليس معه خنجره.. حتى المطواة التي لا تغادر جيبه.. ألقاها اليوم على الفراش تحت الوسادة.. فقد كان في طريقه إلى الحب..

وأنَّى له أن يعرف.. أنَّى له أن يعرف..

- قلت إيه يا بو صلاح.. قلت إيه؟!

أحمـد متعجل.. وهي تقترب من السـور في خفة، يلمح شـبحها وراءه.. هي تسـمع كل كلمة.. مصير حبه في كفة ميزان، رجولته تتأرجح على طرف كلمة ينطق بها لسانه الآن.. أحمد يردد بلا توقف:

- قلت إيه يابو صلاح.. قلت إيه؟

- إيه رأيك يا أحمد.. مش أعرف الأول إيه السبب في طلبك ده؟

قال السـطر الأول من الجملة بلا معنى سوى طلب النجدة من صديقه.. وقال الشـطر الثاني لكسـب الوقت ولتغطية اسـتغاثته الأولى.. لكن الوقت

يضيــع.. والاســتغاثة تصبح بلا معنى، الشــارع الآخر يبــذر فجأة بعشرات الصبيــة من عصابــات هذا الحي.. في ضوء نور الشــارع كان يــرى الكرابيج والمدي ونصول الخناجر والعصي.. تمامًا كما هو الحال في حيه ومع شلته التي لا بــد وأن تــأتي للانتقــام في اليوم التالي.. غــير أن النتيجة ســتكون واحدة.. وأمامــه حــلَّان لا أكثــر.. إما أن يجــري.. وهنا سيســقط من نظرهــا إلى نهاية العمــر.. وفوق هذا فســوف يــضرب.. فالكثــرة تغلب الشــجاعة.. وإما أن يصمــد ويدخل المعركة أعزل.. وهنا ســوف يضرب أيضًــا.. فالكثرة تغلب الشجاعة، فإن رجولته ستنجح أمامها في أعسر امتحان لأقوى الرجال.

الخوف يشتت حواسه، السيجارة ترتجف في يده، الحمد لله فالدنيا ظلام.. ركبتــاه ترتجفان داخل بنطلونه الطويل الجديــد، وصديقه يكف عن الحديث فجأة، ويتســمر في مكانه، والركب الحاشــد يقترب منه على رأســه فتى قصير القامــة.. مليء الوجه.. ضخم التقاطيع.. حلو الملامح.. في أقصى يســار فمه ســيجارة تتدلى في شــموخ ويداه فارغتان لا مدية ولا ســكين ولا خنجر ولا كرباج ولا حتى لبيسة أحذية.

إنه الزعيم الذي لا يدخل معركة بسلاح سوى ذراعيه.

الوجــوه كلهــا متلاصقــة والأحذية تكحت أرض الشــارع، والأجســاد تتمايــل على موســيقى خفيــة.. ويصبــح الوجــه في الوجه، والعــين في العين. والأنفاس تختلط بالأنفاس ويقول الزعيم في اقتضاب ولســان ملتو شأن كل بطل زعيم:

– مساء الخير..

- سا النور..

اختصر الميم والهمزة متعمدًا.. ولوى لسانه بقدر الإمكان واستجمع كل الهـواء في دفعة من حلقه تخشـن صوته.. وقبل أن يبتلع ريقه الذي سـال بين شدقيه انفعالًا..

قال الزعيم:

- بقى صل على النبي..

- ألف صلا على الحبيب..

- أنا محمود الفتال..

- وأنا صلاح الساهر..

- بقى شوف إحنا ناس جدعان..

- واحنا كمان..

قالها بوضع يده الممسـكة السـيجارة فوق صدره، فإذا بجمرة السـيجارة تـكاد تحرق وجه الزعيم، فتراجـع هذا دون وعي إلى الخلـف ليتفادى النار، وخفـق قلبـه هـو سرورًا فقد كسـب النقطـة الأولى عـلى أية حـال، وأصبح هنـاك شيء يقولـه بعد المعركة التي سيخرج منها مهزومًا لاشـك.. فالكثرة تغلب الشـجاعة، ورفع السـيجارة إلى شـفتيه وجذب نفسًـا عميقًا، ثم نفث دخانه غزيرًا مسـموع الصوت كالقاطرة، وتنحنح الزعيم وهو يشعر بالغيظ يتملكه، فقال في حدة ملقيًا بنفسه في المعركة مباشرة:

- ممكن تقول لنا أنت بتيجي هنا ليه؟

السؤال المتوقع والذي كان ينتظره.. غير أن الرد غير جاهز.. فماذا يقول؟

إن قـال إنه يأتي لأحمـد الوقاد فقد يحرج هذا صديقه أمـام أبناء حيه، وإن قال عذرًا آخر ربما جاء واهيًا، لكنه لو قال الحقيقة لكانت الطامة..

- السؤال ده محرج يا محمود، إنت عارف إن صلاح صاحبي.

هذه هي الرجولة حقًّا، والمنقذ الوحيد من المشكلة هو أن يتحدث أحمد، أن يقف على الأقل في صفه، هنا سيكون الموقف أكثر ليونة، فمن غير المعقول أن يغامـر أحـد بإذكاء مشـاجرة مع شـقيق النمـر المرهوب إبراهيـم الوقاد. الشـبح يقترب من وراء الجمع وسـور الحديقة وفروع اللبلاب ليصبح قريبًا من المعركة ويسـمع كل كلمة.. مرة أخرى عليه أن يضع رجولته فوق طرف أي كلمة ينطق بها، حبيبة القلب تقف بجواره، ليت هذا يحدث في موقف بلا نـاس.. ليس في الدنيا غيرهما.. غير أن للأحـلام وقتًا غير هذا، الزعيم يعود للزئير، معاتبًا أحمد، خاطبًا في الجمع المحيط به وكأنه يقودهم نحو ثورة..

- مـا هو ده مـش كلام يا احمد، ولاد حتتك أولى بيك.. «آه»وردد الجميع وراء كلمة «آه»بنغمات حاسمة متحمسة.. وعاد الزعيم إلى الزئير:

- وكمان ده مايخلصش ابراهيم آه...

- آه..

رددها الجميع للمرة الثانية في زمجرة أشد من الأولى..

كفة الميزان تتلاعب، وهنا عليه، كأي رجل، أن يتدخل وينقذ صديقه من هذا الموقف، من شبحها المائل وراء فروع اللبلاب، ثم يقول:

- اسمعْ يابو حنفي..

لوى الزعيم رقبته فمال رأسـه، وأخرج من جيبه سـيجارة أشعلها بعد أن دسها في طرف شفتيه، وبعد أن بصق بقايا السيجارة الأولى على الأرض.

- سمعنا.

باختصـار، كنقرات ذراع التلغراف النحاسـية تحـت أصبع عم مينا زميل والده، باختصار كان يتحدث، وباختصار كان يسمع:

- عاوز تعرف سبب...

قاطعه محمود الزعيم:

- أيوه عايزين نعرف.

- أنا بكلم مين؟

- بتكلم رجاله.. قصدك إيه؟

- كلكم رجاله..

زادت الأصوات النحيلة الصبية:

- طبعًا.. قصدك إيه؟

- أنا جاي هنا عشان سعاد.. الكلام ده مايصحش يطلع بره!

أبدًا هو لم يفكر للحظة واحدة، أبدًا أبدًا أبدًا هو لم يفعل هذا، كلماته التي نطق بها لاعلاقة لها إلا بلسانه.. قال الحقيقة، وأمنهم عليها، وبان وكأنه أشد حرصًا على ابنة حيهم منهم. ماذا يفعلون؟..

تنحنح صديقه في سعادة، ومد إليه يدًا بها أصبعان مفرودتان، فوضع هو السيجارة الباقية بينهما، ولعب بيسراه ويمناه وأشعل عود الثقاب وقدمه إلى صديقه دون أن ينظر إليه، ودون أن تغادر عيناه عيني محمود الزعيم الذي أحس بالحيرة والارتباك غير أنها - والحق يقال - شلة رجال بحق، الصديق منهم يسند صديقه، والأخ يلحق أخاه.. فقد نطق فجأة شاب آخر من وسط الجمع، وكأنه لاعب تلقف الكرة فقذفها في نفس الثانية، وقال:

- وأنا كمان بحب سعاد!

يعود الموقف إلى التأزم من جديد، ولا بد أن ينسحب أحدهما من طريق الآخر بأي وسيلة، سواء أكانت المفاوضة أم المعركة نفسها... لا بد من انسحاب أحدهما، وهو غريب، والآخر من أبناء الحي... والجار أولى بالشفعة، والمقربون أولى بالمعروف.

الكرة في يده ولا يعرف أين يقذف بها، والشبح وراء فروع اللبلاب، يتململ، ويتململ معه قلبه باللهفة.. ماذا يقول؟!

لا وسيلة إلا الهجوم.. ولن يخسر نقطة، وغدًا يأتي بشلته، وسيرون.

- بقى اسمع بقى انت وهو.. بقى يعني..

- مايعنيش..

- اسمعوا.. لو فيه..

- مانسمعش..

- عاجبك كده يا احمد.. لو فيكم.

- بلاش تماحيك.. إتكلم كلام رجالة..

إنها الفرصة.. الفرصة..

- الكتره تغلب الشجاعة، ولو كنتم رجاله صحيح، اطلعوا لي واحد واحد..

في الامتحـان تعود عـلى نصيحة لم يكف أبوه عنها طوال حياته.. المسـألة السهلة الأول، إخلص منها، وبعدين تروح للصعب.. تقوم تضمن نمر..

لافرق بين الامتحان والمعركة، ليبدأ بأصغرهم فيضربه، ثم أكبرهم.. لا.. ليست المعركة كالامتحان.. سيكون وقتها منهك القوى.. أما من حل آخر؟

- تعال لو كنت جدع.. اطلع لي عند الناصية التانية..

رائع..

- يالله بينا..

رائع فلو ضرب فسيضرب بعيدًا عنها، لن تكون هزيمته أمامها، ما أحلى الدنيا ومـا أجملهـا، عندما يواتيـك الحظ!، فأنت سـعيد، وهو الآن سـعيد، سـعيد، سـعيد، عنـد الناصيـة الأخـرى دكان سيشـتري منه ثلاث سـجائر أخريات بالقرش الأخـير.. الطريق يبدو قصيرًا بالرغم من طوله.. أصوات الأقـدام كالموسيقى تزف معركة تسـال فيها الدماء، لمـاذا لايضربهم ويكسر شـوكة قانون الكثرة التي تغلب الشـجاعة؟ لماذا لايضرب حتى خمسـة منهم فيعود لرفاق حيه ويقص عليهم بطولته وربما يصبح زعيمًا بعد «فوزي» الذي سينتقل إلى الإسكندرية مع أهله؟

زعيمهم يخرج سيجارة ويقدمها بطرف أصابعه، يريد أن يبرهن على الرجولة وكرم الضيافة.. تناول السيجارة بلا اهتمام وسمع الزعيم يقول:

- إحنا ناس جدعان.. وكرماء.

نظر إليه بجانب عينه وقد كفت ركبتاه عن الارتجاف وهدأت نفسه - وكان هذا عجبًا - ثم قال في اقتضاب وكأنه يتحدث عن أشهر مكان في الوجود:

- إنت جيت كفر اسكاروس؟

- كتير، حبايبنا فيها كتير.. ورجالتها جدعان..

بنفس الاختصار والسرعة قال:

- تعرف مين فيهم؟

- فوزي.

- صاحبي..

- سالم..

- حبيبي.. متربيين سوا من أيام الطفولة.

كأنه كهل يتحدث عن عهد غابر، ارتجف صوته بالانفعال، والتأثر بنبل شديد.

- وسليم جعيصه.

- ساكن في الشقة اللي قدامنا.

صمت الزعيم وهو يستدير ليواجه فريقه بجانب وجهه، ويواجهه هو بالجانب الآخر. ثم قال في صوت ممطوط مستريح.. و .. ومرحب أيضًا.

- الله.. أمـال يـا أخـي لما انـت جدع من جدعـان اسـكاروس.. ليه بس العمايل دي؟

- بالتفاهم نفهم بعضنا..

- ماهي حاجة مفهومة للشمس.. يعني برضه استأذن من صحاب البيت.

- استأذنا يا أخي، ودي تيجي برضه، داحنا ناس برضه نفهم الأصول.

- ماحصلش.

- حصل.

- من مين؟

- من أحمد الوقاد!!

قالها وكأنه يختتم بها مباراة رائعة ألقاها عبر الهواء إليه وكأنها كرة خالصة لاتصد ولاتقف أمامها عقبة، جاءت رائعة، والموقف رائع، ولا ينقص سوى التصفيق.

عم الصمت، وهبت نسـمة ندية، لطفت من حرارة وجهه، واسـتراحت الملامح على الوجوه، وتطلع الجميع إلى وجه أحمد الوقاد الذي قال:

- حصل..

وعاد الصمت من جديد.

كيـف حـدث مـا حـدث؟ كيـف سـمع وأجـاب؟ كيـف انتقـى الجمل والكلـمات؟ كيـف سـار على هذه الشـعرة وكأنهـا الصراط المسـتقيم؟ كيف

لايزغرد ويهلل ويجذب أنفاسًا سعيدة من سيجارة نوعها فاخر لم يذقه سوى مرتين ولايقوى على ثمنه إلا أبناء هذا الحي؟.. كيف كيف كيف كيف.. كيف نطق الزعيم بهذه الكلمات؟!:

- أحمد ابن الحته، وإبراهيم بطل الجهه كلها.. يبقى عداك العيب.. طب مش تقول؟

ما أجمل الدنيا وما أحلاها!.. وصدق المثل القائل ما صداقة إلا بعد عداوة، الأيدي في يده، يد وراء يد، قرأ الجميع الفاتحة، وغدًا يجتمع أفراد الحيين في فرح يباركون فيه الحب الجديد، عودة من نفس الطريق بعد أن دفع القرش للبقال، وأخذ منه السجائر الثلاث ووزع اثنتين منها، وأشعل الثالثة وقدمها - بكل أخوة - إلى الزعيم ليجذب منها أنفاسًا، ويتشاركون السيجارة كالعيش والملح.. فلا خيانة.

الطريق طويل رغم قصره، المسافة بينه وبين الحديقة تقل لكن ببطء شديد، والضحكات تتتالى، والأيدي تتضارب في سعادة، وهو في الوسط كالعريس، رافع الرأس، مبتسم الوجه، وعيناه تسبقانه إلى السور، وتخترقان فروع اللبلاب، وتلتقيان بشبح يقف خلفها، ولا بد أنه سعيد وفخور.. ولا بد من تحية، يده تمر على شعره، وأناملها تلامس شعرها.. والسعادة تغمره.

الجـريمــة

كان غريبًـا ومثـيرًا ولا يصدق هذا الذي رأيناه فجأة في وسـط الشـارع.. ثلاثـة رجال ينهالـون بالعصي فـوق رأس رجل رابع، كانـت العصي غليظة والضربـات شـديدة وقاسـية لدرجة أن أحدنـا لم يتحرك مـن مكانه، ورحنا جميعًا نرقب المشهد بأنفاس محبوسة وعيون مشدوهة، ولم يكن سبب الدهشة والانبهـار هـو منظر الرجال الخشـن وأجسـادهم الفارعة التـي كانت تبدو كأجسـاد عمالقة.. بقدر مابهرتنا حركات الرجل الـذي بدا كالعفريت بألف روح، كان يقـع ثـم ينهـض يتقي ضربـات ويتلقى ضربات، وشـعره الغزير متناثـر حول وجهـه في جلال أخاذ، وعضلاته المفتولة جعلته كواحد من آلهة الإغريق..

ولقد حاول أحدنا في البداية أن يفضّ النزاع، فأصابته عصًا سقطت فوق رأسه فآثر بعدها الانسحاب، وحاول آخر أن يفعل نفس الشيء لكنه تراجع من منتصـف الطريق واكتفى بالصياح من بعيـد «كفاية يا رجاله.. مش كده امال..» ثم هز كتفيه وعاد إلى الحلقة التي التفت حول المتعاركين، وقد بدا لنا جميعًا رغم العصي والوحشية، أن المعركة متكافئة..

وبعـد لحظـات لم يكن من الممكن أن يلحظ أحدنا السـيارة الصغيرة التي وقفت، ولا وجه الشاب الذي أطل منها وهو يسأل أقرب الواقفين إليه:

«إيه الحكاية..؟».

وجاء الرد من رجل لم تفارق عيناه أرض المعركة:

«خناقة».

ثم تنبهنا جميعًا عندما غادر هذا الشاب سيارته واخترق الحلقة وأصبح في الأرض الفضاء وهو يصيح:

«بقى دا اسمه كلام.. تلاتة على واحد؟ كفاية يا جدع انت وهو..».

وبلـغ انفعـال النـاس أقصـاه عندمـا هـوت فـوق رأس الشـاب إحدى العصي.. وتعجل أغلبنا انسـحاب هذا الشـاب الذي كاد يفسـد المشهد كله، لكن الدهشـة ازدادت عندما وجدنـاه يدخل المعركة بدوره، ويقف في صف الرجل الوحيد..

ورغم أن عراكًا كهذا كان لايمكن أن يفض إلا بالقوة، فإن أحدنا لم يفكر في العسكري على الإطلاق.. لذلك، فعندما جاء العسكري بالفعل بعد بضع دقائق لم ينتبه أحدنا إليه، وبدا لثوان أنه كاد يستسلم لمتعة المشاهدة هو الآخر فقد ارتسمت على وجهه ابتسامة حانية وهو يشب من خلف الناس ليتفرج، بـل إنه زاحم البعض حتى وجد لنفسـه مكانًا وقـف فيه وراح يرقب المعركة وقد استراح جسده فوق ساقيه وهو يسأل جاره في ود:

«إيه الحكاية؟!».

وقال الجار بانفعال: «خناقة!».. ثم لاحت من عينيه نظرة نحو العسكري فانفجر يصيح: «خناقة يا شاويش.. خناقة!».

ولم يعد أمام الشاويش مفر بعد تلك الصيحة، فسرعان ما شد ساقيه وزعق زعقته وهو يتقدم نحو المعركة.. كانت قامة العسكري مديدة، وتقاطيعه قوية، وخطواته تدق الأرض في ثقة.. كان منظره في الضوء الخافت مهيبًا لدرجة جعلت الرجال ذوي العصي يولون الأدبار.. تركوا الشارع عدوًا واختفوا في لمح البصر!

وصرخ العسكري في الواقفين أن يلحقوا بأولاد الكلب هؤلاء، وسرعان ما استجاب البعض لصرخته في حماس فانطلقوا في أثر الثلاثة صائحين في مرح: «حرامي.. حرامي»، كانت الصيحات مرحة لدرجة أضحكتنا جميعًا ودفعتنا إلى تبادل الابتسامات والتعليقات الودية، وسرعان ما ذابت الصيحات ثم تلاشت، وكان العسكري يتقدم من الرجل المضروب وهو يسأله في جفاء تعمد أن يجعله مصطنعًا:

«إيه الحكاية؟!».

كانت آثار الضربات بادية على كل مكان في جسد الرجل، ورغم أنفاسه المتهدجة فإنه راح يسوي من وضع ملابسه وخصلات شعره في هدوء.. وأشاح بوجهه بعيدًا عن العسكري في غضب ولم يرد على سؤاله، وقال الشاب صاحب السيارة للعسكري في حماس:

«كانوا ملمومين عليه بالعصيان يا شاويش!».

وزمجر الشاويش في الرجل: «إيه الحكاية يا أستاذ؟».

فرد الرجل في جفاء:

«ولاحاجة.. مافيش حاجة!».

«لكن إيه اللي حصل؟».

وكان لا بد أن يتطوع أحد الواقفين لحكاية ما حدث، وبدأ أحدنا يحكي ومعه اثنان تطوعًا للإدلاء بمعلوماتهما، وما لبث عدد المتطوعين أن ارتفع إلى عشرة رجال التفوا جميعًا حول العسكري الذي راح يستمع إليهم ويحدثهم ويناقشهم ويحاورهم جميعًا في وقت واحد.. وعندما عرف الحكاية من أولها حتى لحظة وصوله، بدا عليه الارتياح الشديد، وبرقت عيناه بالحماس:

«عفارم عليك يا جدع.. أهو كده المرجلة وإلا.. أللـه.. هو فين؟ فين المضروب؟».

واكتشفنا فجأة أن الرجل قد اختفى، وساد اللغط وكل منا يحاول تفسير سر اختفائه، وتشابكت أصواتنا في نشاز أغضب العسكري الذي سيطر على الموقف بزعقة حازمة فرقتنا جميعًا في امتثال شديد، غير أن أقدامنا سرعان ما توقفت على صيحة من العسكري دوت في سكوت الشارع:

«عربية مين دي؟».

فقال الشاب وهو يسوي من وضع ملابسه ثم يربت على سيارته الصغيرة:

«دي عربيتي انا يا شاويش!».

«الوقوف هنا ممنوع، ثم إنك ماشي غلط كمان!».

وانتبهنا لحظتها فقط أن الشـاب كان يسـلك بالفعل الطريق الخطأ، وربما انتبه الشاب نفسه لهذا الخطأ لأول مرة في تلك اللحظة، فقد بدا عليه الارتباك والخجل وهو يقول:

«ماهو انا.. أصل انا كنت.. الخناقة يعني كنت انا..».

وتطوع بعضنـا للإدلاء بمعلوماته مرة أخـرى، وتطوع آخرون بملاطفة الشاويش الذي صاح:

«هنا الوقوف ممنوع.. دي أوامر!».

قالهـا وهـو ينحنـي - دون سـابق إنذار - عـلى إحدى عجلات السـيارة ليفرغهـا مـن الهـواء، هكذا تحـول الأمر أمـام عيوننا فجـأة فأصبنا بما يشبه الصدمة، وانسلخ صوت الشاب:

«يا شاويش إنت مش فاهم.. أصل.. إل..».

«إسمع يا أستاذ.. إنت ماشي غلط، فاهم يعني إيه غلط!؟».

كان العسـكري يتحـدث وهـو يمضي بعيـدًا عن السـيارة: «أيـوه غلط، والعربية دي لازم تروح المرور، الأوامر كده.. دي أوامر!».

وتسـمرنا جميعًـا في ذهـول، وتبـددت كل متعـة أحسسـناها، فقـد كان العسـكري يتقـدم وهـو يضع الصفـارة في فمـه، وينفـخ فيها، وبدأنـا جميعًا نتقارب في انفعال، والعسكري يصفر، والشاب يتوسل.. دون جدوى!

يـــا انـــا.. يـــا الكتـــب

قال لي صديقي حسين عبد الخالق محمود الزغبي إن زوجته ليست مخطئة، وإنــه عرفهــا كما هي، وأحبها كــما هي، وتزوجها كما هــي، وأن لا شيء يتغير فيها لكنه لم يعد يطيق، وهذا كل ما في الأمر!

وقالت لي زوجته السيدة سوسـن سـليم الرمالي، إنها لاتعـرف ما الذي حـدث لزوجها، فهو فجأة هـدد بالويل والثبور وعظائم الأمور، وانهال على كتبهـا ومجلاتها تمزيقًا وتقطيعًا، وإنها وقفت أمامه ذاهلة لا تدري ماذا تفعل، حتى إذا انتهى مما كان فيه، تحول إليها والشرر ينطلق من عينيه قائلًا:

«يانا، يا الكتب دي!!».

وبدت لي المشـكلة مضحكة ومحيرة في نفـس الوقت، ذلك أني أذكر جيدًا يوم تحدث إليَّ صديقي حسـين عبد الخالق محمود الزغبي - وهذا هو اسـمه الرباعي الذي عرفناه به منذ كنا في المدرسـة معًا، ولسـت أدري، لم اشتهر هو بيننـا بهذا الاسـم الرباعي الذي ظللنا نناديه به حتـى يومنا هذا، ولا أذكر أن أحدنا تحدث عنه باسمه مجردًا، بل كان لا بد أن نذكر هذا الطابور من الأسماء كي نعرفه - على كلٍّ فأنا أذكر جيدًا يوم تحدث إليَّ عن تلك الفتاة التي وقع في

هواها على غير انتظار، كان يعدد مناقبها ومحاسنها وينوه بمسلكها وأخلاقها واستقامتها ثم يقول:

«دي مثقفة!».

وفي حقيقة الأمر لم أكن أعرف ما الذي يعنيه حسـين بكلمة «مثقفة»هذه، فلم تكن من سـمات صديقـي هذا أنه يحب الثقافة أو يقبـل عليها أو يعتبرها شـيئًا هامًّا في حياته، بل ربما كان العكس هو الصحيح، فغالبًا ما كان حسـين عبـد الخالق محمـود الزغبي يسـخر منا نحن هـواة القراءة والكتابـة ويتهمنا بأننـا نضيـع العمر هبـاءً فيما لانفع فيـه، وأن الحياة أثمن مـن أن نضيعها بين دفتي كتاب أو مناقشـة قصة أو قصيدة أو مسرحية أو فيلم جيد، وعلى أيامنا كانـت أفلام إسـماعيل ياسـين هـي أفلامه المفضلـة، ومجـلات الأطفال هي الـشيء الوحيد الـذي يتلذذ بقراءته، لكنه كان صديقـي وكنت أحبه كما هو، وكنـت صديقه وكان يحبني بعيوبي الكثيرة التي من أهمها أني أهوى «المنظرة» والتظاهر بالمعرفة.. وعندما حدثني عن «سوسن سليم الرمالي»- هكذا ذكر لي اسـمها - زميلته في العمـل، بدا لي مبهورًا لاهـث الأنفاس، كان يتحدث عنهـا طويلًا، كيف تتصرف وكيف تتحـدث، بل كيف تنطق بعض الكلمات بالفصحـى فـإذا بها تتسـاقط من بين شـفتيها كحبـات الملبـس - هكذا كان يقـول - وليـس مثلي كالطوب أقذف به وجوه النـاس في تعالٍ، كان يتحدث ويتحدث ثم يردف مؤكدًا حديثه بقوله:

«إنت حاتنبسط منها قوي دي مثقفة!».

وعندما عرفت سوسن سليم الرمالي دهشت حقًّا، هي فتاة هادئة متزنة رقيقة، تحب القراءة إلى حد الإدمان، وهي تقرأ أي شيء وكل شيء يقع تحت يديها، من العلوم إلى الاقتصاد إلى السياسة إلى الأدب والفن، والقراءة عندها ليست للمعرفة فقط، ولكنها تبدو وكأنها غذاء تتغذى عليه، وكانت سوسن تقول إنها لا تعرف متى تعلقت بالكتاب، ولكنها تشعر كلما قرأت شيئًا جديدًا أنها كانت جاهلة بشيء لا بد أن تعرفه.. فلسفتها في الحياة أن الإنسان لا بد أن يعرف كل ما يستطيع تجميعه من معارف؛ لأن الحياة قصيرة، والمعارف كثيرة، وعار على الإنسان أن يعود إلى ربه جاهلًا، وكانت موقنة أشد ما يكون اليقين، أن الله سيسألها يوم القيامة لِمَ لم تقرأ الكتاب الفلاني ولِمَ لم تعرف العلم الفلاني.

ولقد اختلفت مع سوسن كثيرًا لكني كنت أنظر دائمًا إلى الأمر على أنه نوع من غرائب الطبيعة، فلقد قبلت سوسن الزواج من حسين عبد الخالق محمود الزغبي كما تقبل عملًا عرض عليها في شركة وعاش كلاهما سعيدًا بالآخر، وجاء وقت على صديقي ما إن يرى كتابًا جديدًا، أو يسمع من أحدنا عن كتاب جديد، حتى يسارع بشرائه لتقرأه سوسن.

وعندما تزوجا كانت سوسن حريصة، أشد ما يكون الحرص على أن يكون ضمن جهازها مكتبة، ولم يختلفا على ذلك أبدًا، وربما كان - وهذا أمر بدا لي غريبًا بعض الشيء - حسين عبد الخالق محمود الزغبي أشد اهتمامًا منها بهذه المكتبة التي بدأت صغيرة ثم تكدست فيها الكتب يومًا بعد يوم وعامًا بعد عام.. والغريب في الأمر، أن الخلاف الوحيد الذي حدث بينهما حول هذا الموضوع، أن حسين كان يهوى ترتيب المكتبة. أما سوسن، فلم

يكـن هذا الأمـر ليعنيها في كثـير أو قليل.. ولقد انتهى الخـلاف بينهما عندما سلم حسين بأن المكتبة من حق سوسن التي كانت تقرأ الكتاب ثم تلقيه فوق أحـد الأرفف في لا مبالاة، وتتحول المكتبـة مع الأيام إلى شيء لا أول له ولا آخر، تبدو الكتب فوقها في أكوام يعلوها التراب أحيانًا، لكنك - وهذا أيضًا كان غريبًـا - إذا طلبـت منها كتابًا، أي كتـاب، مدت يدها دون أن تبحث أو تنظر أو تتأمل أو تفكر، لتأتي بالكتاب من مكانه الذي قد يكون مدفونًا تحت ركام هائل من الكتب.

غـير أن هـذا لم يكن حائلًا بين سوسـن وبـين بيتها، كانت زوجـة مثالية، وأمًّا مثالية أيضًا.. وكثيرًا ما كان حسين عبد الخالق محمود الزغبي يتندر على زوجته قائلًا إنه كان يسـألها وهي مسـتغرقة في القـراءة: «حانقرأ إيه النهاردة يا سوسن؟!».

فترد عليه دون أن ترفع رأسها عن الكتاب:

«كوسة يا حبيبي!!».

هكذا كانت حياتهما، وهكذا عاشا سنوات أنجبا فيها ولدين كان أكبرهما صورة من أمه، وأصغرهما صورة من أبيه، غير أن الكبير الذي يشبه أمه كان مـن النـوع اللعبي الذي يهـوى ركوب الدراجـات ولعب الكرة في الشـارع والمدرسة والنادي وحتى في البيت، ونشأ الصغير - الذي يشبه أباه - عزوفًا عـن اللعـب، محبًّـا للتأمل والقـراءة، يعـرف موعد صدور مجـلات الأطفال ويقلب الدنيا إذا نسي أبوه أن يشتري له المجلة في يوم صدورها.. وهنا كانت

المتاعب أكثر، فالكبير يغيظ الصغير بالاستيلاء على مجلاته وكتبه، وكثيرًا ما فضّ الأبوان اشتباكًا أشعل النار في غرفة «العيال»حول كتاب أو مجلة.

هكذا كانت حياتهما، تسير سيرًا رقيقًا، وكنا جميعًا نعتبرهما من أسعد الأزواج على الإطلاق، بل إن المناقشة إذا امتدت إليهما في جلسة من جلسات النميمة هذه المحببة إلى قلوب البعض منا، كان تفسيرنا يصل إلى أن اجتماعهما وحبهما هو اجتماع النقيضين وتجاذب الضدين وأن كلًّا منهما يكمل الآخر، بل وصل الأمر إلى الحد الذي راح بعضنا يحاول في حياته، تقليد حياتهما لعلنا نهنأ في حياتنا الزوجية مثلهما!

حتى كان ذلك اليوم الذي حدث فيه ما حدث.. عاد صديقي حسين عبد الخالق محمود الزغبي من الخارج جائعًا - كان الولدان قد تعشيا وناما في أمان الله، وكانت هي، كالعادة، مستغرقة في كتاب كبير الحجم كانت تقرأ فيه منذ أيام، بدأ حسين في إبدال ملابسه وهو يسألها «حانتعشى إيه النهارده؟!».

رفعت رأسها إليه هاتفة:

«تصور يا حسين إن معدل التطور الإنساني بيتزايد في سرعات مخيفة، وأن الإنسان بعد ألف سنة هايرجع قرد تاني؟!».

ووقف حسين عبد الخالق محمود الزغبي أمام زوجته ذاهلًا، أحس أنها - لسبب ما - تسخر منه!

«يا سوسن أنا جعان!».

نهضت على الفور وهي تنحي الكتاب جانبًا مستطردة:

«ماهو احنا لو عشنا ألف سنة كمان، حانتعشى سوداني!».

حتى الآن لم يفصح حسين عن السبب الذي ثار من أجله..

«يا سوسن!».

قالها من بين أسنانه فالتفتت إليه:

«عارف هانرجع قرود من تاني ليه؟!».

قالت سوسن إنها عندما نظرت إليه لم تلحظ شيئًا غريبًا، كل ما في الأمر أنه كان ينظر إليها في صمت، فعادت، وهي تستعد لتجهيز العشاء، تقول:

«أجيب لك موزه؟!».

قال حسين وقد أحس بالإهانة تلسعه كصفعة:

«سوسن!».

«أنا رأيي إننا نوفر ألف سنة من عمر الدنيا!».

من بين أسنانه سألها:

«إزاي؟!».

«أحط لك شوية سوداني وكام موزة وتسيبني أكمل الكتاب!».

– ما الذي تقوله سوسن؟! ولماذا؟!

وما الذي فعله حسين؟!.. ولماذا؟!

«قصدك إيه يا ست هانم!».

كانـت – الآن – تضـع الجبـن والحلاوة الطحينية والخبز، قال حسـين إن العشـاء كان جاهـزًا بالفعـل، وإنها كعادتهـا لم تقصر في شيء، بـل إنها لم تعد للكتاب كما تعودت أن تفعل، وجلست إلى المائدة ساهمة وهي تقول:

«أصـل مـع التطـور، الإنسـان حايخـترع كل حاجـة تخليـه مايعملـش حاجة!..».

جلس أمامها وقد داخله الشك – لأول مرة – في قواها العقلية!

«سوسن!».

«يعنـي لما يبقـى البيت فيه شـغالة بالكهرباء وغسـالة بتشـتغل لوحدها، والأكل حايبقـى في أنابيـب، كل الأعضاء الإنسـانية مـش حايبقى لها لزوم، تقوم تنقرض، وأول حاجة حاتنقرض في الإنسان هي مخه!».

صرخ حسين عبد الخالق محمود الزغبي غاضبًا:

«سوسن!!».

لكنها أكملت:

«وبكره أطفال الأنابيب دول حايبقوا موضة قديمة!».

«قصدك إيه!؟».

«مفيش ست حاتحمل وتخلف وكلام من ده!».

«أُمال حايبقى فيه إيه؟!».

«جهاز العروسـة حايبقى فيه مكنة بالكهربـا، يقولوا لها خلِّفي تخلف من غير وجع قلب!».

كان حسـين - هكـذا قالـت سوسـن - يجز عـلى أسـنانه في غيـظ وهي تستطرد:

«ما هو مخك حاينقرض علشان مش حايبقى له لزوم!».

«مخي أنا اللي حاينقرض يا سوسن؟!».

«الكتاب بيقول انه بدأ في الانقراض فعلًا!».

«مخي أنا ؟!».

«فيه رجل أمريكاني اسمه جوني هوايت بيقول إن العالم بعد...».

ولم تكمـل سوسـن، وهـي تقسـم بأغلظ الأيـمان إنهـا رأت زوجها يقفز مـن مكانه كما تقفز القردة بالضبط، ليقطع المسـافة مـن غرفة المائدة إلى غرفة التليفزيـون في قفزة واحدة، وينقض على الكتاب، وينهال عليه تمزيقًا.. وأنها لم تفعل شـيئًا على الإطلاق، بل هي مندهشـة لأنها لم تغضب ولم تحزن، وإنما راحت ترقبه وقد هبطت عليها سكينة من نوع غريب..

ويصرخ حسـين عبد الخالق محمـود الزغبي قائلًا، إنه وهو في ثورة غضبه تلك، سمعها تقول ساخرة:

«مش قلت لك؟!».

كان الرجل يلهث غضبًا، وكانت هي تبتسم مستطردة:

«أصلك يا حبيبي لو بصيت في المراية حاتعرف إنك بقيت قرد فعلًا!».

«أنا قرد يا سوسن؟!».

«وهو فيه إنسان يقطع كتاب؟!».

جاءت جملتها الأخيرة كالضربة القاضية، فلقد قال حسين صارخًا:

«قرد بقرد يبقى يا اللا!!».

وتقسم سوسن إنه تسلق المكتبة بلا مقعد ولا سلم، وإنه راح يقذف الكتب التي كانت قد وصلت بعد طول السنين إلى السقف، يقذف بها إلى الأرض، وإنها عندما رأته معلقًا هكذا.. يمسك المكتبة بيد، ويقذف الكتب بيد، وساقاه مفرودتان يمينًا وشمالًا، أحست إحساسًا غامضًا بقدرة الله على تحويل المخلوقات في لمح البصر من كائنات إلى كائنات أخرى،.فلم تزد على قولها:

«سبحان الله!!!».

■ ■ ■

لأنها استدعياني في الثالثة صباحًا، فلم أعرف كيف أسوس الأمر، كنت أجلس بينهما ومن حولنا تناثرت الكتب يمينًا ويسارًا وفوق وتحت، وكان المكان قد تحول إلى فوضى، وكان صديقي حسين عبد الخالق محمود الزغبي يردد:

«يانا يا الكتب!».

وكانت هي تردد:

«والكتب ذنبها إيه؟!...».

وكان طعام العشاء موضوعًا في مكانه لم يمسسه أحد عندما قالت سوسن في حزن:

«أنا آسفه يا حسين».

«بعد إيه بقى؟!».

«قوم اقرا لك حتة جبنة انت ماتعشتش!».

«مش عاوز اطفح!».

«طيب إيه اللي انت عاوزه بالظبط؟!».

قال في تحد:

«يانا يا الكتب!».

عادت تردد.

«والكتب ذنبها إيه؟!».

صرخ وقد فاض به:

«اختاري يا سوسن يا رمالي.. اختاري، يانا يا الكتب!».

اختنق صوتها لأول مرة، قالت:

«إنت!».

وجاءت كلماتها عـلى غير انتظار منه. فهي عنيدة وهو يعرف ذلك فكيف سلَّمت بهذه السهولة.

أحس أن في الأمر شيئًا حذرها:

«سوسن يا رمالي، أنا عارفك كويس!».

«يعني إيه؟!».

«مفيش كتب فعلًا!».

«وأنا موافقة حتى يهيئ الله أمرًا كان مفعولًا!!

صرخ - في الرابعة صباحًا - حتى سمعه الجيران بالتأكيد:

«عاوزه تموتيني علشان تقري على مزاجك؟!».

«لا مش كده!».

«أُمال ازاي!».

نهضت سوسن وهي تجمع الكتب وقد انهمر دمعها غزيرًا:

«حاختصر الزمن!».

نظر إليَّ مستفزًّا:

«سامع يا سيدي!».

«وهي قالت إيه بس يا حسين!».

«عاوزه تخلينا قرود من دلوقت، بكت سوسن، وقالت من خلال دموعها التي أغرقت وجهها:

«طب عاوزني اعمل ايه؟!!».

«عاوز تقريني زي ما بتقري الكتاب!».

نظرت إليه طويلًا، وكان دمعها لايزال ينهمر..».

في لحظة، أحسست أني غير مرغوب فيه، فلقد هبط حسين عبد الخالق محمود الزغبي على ركبتيه، وراح يلملم الكتب مع سوسن سليم الرمالي، وكان الحديث بينهما الآن خافتًا، قالت:

«أنا زعلانه منك!».

«وانا حاطق من جنابي!».

«لو كنت صبرت شويه ماكنتش قطعت كتاب قيم بالشكل ده!».

«اشمعنى!».

«لأن مُخِّنا لما حاينقرض حاتبقى الحياة الزوجية من غير مشاكل!».

القطة التي اشتعل ذيلها

احتدم الأمر فجأة وانفجر أبي بالغضب أثناء خناقة عادية من تلك الخناقات التي تنشب كل يوم بيني وبينه..

وكان من الممكن أن يمر الأمر بسلام.. كان من الممكن أن يمر بسَبّة يطلقها في وجهي، أو صفعة يسود بعدها الصمت أو يتناثر الغضب من بين شفتيه كالرذاذ وهو يمضي مبتعدًا.. كان من الممكن أن يمر بسلام لولا شيء تسلط على رأسي وسيطر على أفكاري.. فقد قررت فجأة أني قد كبرت، وأنه قد أصبح لي الحق في أن أفعل ما أشاء..

كانت التجربة رائعة، ولم يعد من السهل أن أتنازل عنها، ولقد علم أبي بالأمر، وبلغه أني جلست على المقهى في وسط البلد، وأني كنت ألعب الطاولة مع بعض أصدقائي.

وخيل إليّ في بداية الخناقة أن الأمر كان من الممكن أن يختلف لو أني لم أجلس على نفس المقهى الذي تعوّد هو أن يجلس عليه، كان صوته يجلجل في البيت:

«حضرتك رايح تقعد لي على القهوة، وكمان اللي انا باقعد عليها؟.. مافضلش غير انك تيجي تلاعبني طاولة وتعزم عليّ بسيجارة!».

لم أكـن خائفًا منه هذه المرة، وقد أدهشـه عدم خـوفي كما أدهش أمي التي كانت تبدو دائمًا كلما تشاجرنا كالقطة التي اشتعل ذيلها، وعندما رددت عليه بحـت أمـي بصوتها مسـتنكرة، لكني في الحقيقـة كنت أكثر منها دهشـة لهذا الذي يحدث كأن شـيئًا ثقيلًا ينسـاب في عظامي برفق، وصدري يتسع لأكبر قدر من الهواء، وصوت نقر الزهر وبداية الإجازة السـنوية والجرسـون وهو يقـول لي: «الشـاي يـا بيه!» كل هذا كان يبدو لي شـديد الروعـة، فقلت لأبي بصوت ثابت: «خلاص.. نبقى نقعد على قهوة تانية!».

ولم يرد أبي هذه المرة، بل ردت أمي بشـهقة مذعورة: «مش عيب ترد على أبوك كده يابني؟!».

ربـما كانت هـذه الجملة بالـذات هي سـبب الاحتدام والانفجـار وتناثر الغضب في كل أرجاء البيت، فقد التهب وجه أبي فجأة وهو يصرخ: «مفيش قعاد على القهاوي خالص!».. كان من الممكن أن ينتهي الأمر بعد سـاعة أو سـاعتين، لـولا أن صوتًا خرج من صدري في شـبه زمجـرة: «مانا حاقعد على قهـوة تانية يا بابا!».. وكان صوتي غاضبًـا فارتبكت، وعندما هوت الصفعة على وجهي لم أشعر بالألم وعدت أردد:

«أنا مش صغير يا بابا علشان انضرب!».

«خـلاص كـبرت وبقيـت راجـل.. طيـب مفيش نـزول من البيـت لمدة أسبوع!».

كان قـد مـضى وقت طويل منـذ عاقبنـي أبي مثل هذا العقـاب، تلعثمت للحظـات وبدأت أمي تروح وتجيء بيننا كالقطة المذعورة وهي تردد كلمات

لم نكـن عـادة نسـمعها أو نلتفـت إليهـا، وكان أبي يزمجر: «هـي كلمة مفيش غيرها!»» وارتجفت ركبتاي داخل ساقي بنطلوني الطويل فصرخت:

«أنا حاخرج يا بابا.. أنا مش صغير!».

«بقى كده.. طب عليَّ الطلاق من امك لو خرجت من البيت لمدة شهر!».

وطغت صرخة أمي، التي تشبه مواء قطة تحترق، على ما قلته، أو ربما كان أبي قد اكتفى بقسـمه ولم يعد يريد السـماع، فقد انطلق خارجًا من البيت وأنا أردد بصوت ممزق: «أنا نازل.. أنا حانزل.. أنا مش صغير!».

كنت موقنًا أنه سمعني جيدًا.. لكنه لم يرد بكلمة!!

سـدت أمـي بـاب الغرفـة بذراعيهـا.. «حاتعمـل إيـه يـا ولـد.. إنـت اتجننت؟!».

كنت أرتدي ملابسي استعدادًا للخروج.

«إنت سمعت أبوك قال إيه يا ولد؟».

وانتهيت من ارتداء بنطلوني الجديد.

«إنت مش خارج من هنا.. فاهم؟».

لم يكن يخيفني تهديدها أبدًا.. رفعت إليها رأسي ساخرًا:

«حاخرج!!».

ورحت أبحث عن الشراب.

«أبوك لما يقول كلمة لازم تتنفذ، وانا كمان لما أقول اقعد لازم تقعد!».

تحول صوتها إلى مواء، وأخذت تروح وتجيء كعادتها..

«إنت سمعت ابوك قال إيه؟»وكدت أنتهي من ارتداء الحذاء».

«إنت سمعت أبوك قال إيه يا بني؟».

وبحثت عيناي عن المشط.

«يا بني اهتدي بالله واخزي الشيطان.. دلوقت يرجع وتصالحه؟».

كان وجهي في المرآة شديد الإحمرار، وشعري كثيفًا.

«هـو انا حالاقيها منين ولا منين؟!» عندما اسـتدرت نحوها كان وجهها قبالة وجهي تمامًا.

«أبوك عمره ما حلف يمين زي ده أبدًا!».

كان هذا صحيحًا، ولكن..

«أنا ماليش دعوة!».

واندفعت خارجًا فهرولت خلفي: «يا بني الناس تقول علينا إيه؟».

رحت أقفز السـلم وقد انتباتني نشـوة عارمة، وأطلـت عليَّ وهي تصيح بصوت ممزق:

«انتـو حاتغلِّبوني معاكـم.. طب وانا أروح فين يعنـي.. أروح فين بس يا خواتي؟!».

عندما رفعت وجهي إلى أعلى كانت هي تسـتدير إلى الشقة. وكان صوت بكائهـا مكتومًـا، ورغم أن باب الشـارع كان أمامي، ورغـم أني حاولت أن أسـتعيد نشـوتي وأن أكمل طريقي، فإني لم أسـتطع، فعدت أصعد السلم من جديد.. وأحسست ساعتها برغبة شديدة في البكاء.

شــــوفــــولكــــم حــــل..

- 1 -

ثار.. وكان لا بد أن يثور.

هدد... وكان يعلم أن تهديده لن يأتي بنتيجة!

غلى الدم في عروقه وصعد إلى رأسـه فاحتقنت عيناه وراح يُرْغِي ويُزْبد، وتدفقـت الكلمات مـن فمه كالطوفـان، كلمات تعني شـيئًا وكلمات لا تعني شيئًا. وكان الثلاثة يقفون أمامه في صمت وقد أذهلهم هذا الذي يحدث!!

ولم تكـن الحكايـة في حقيقـة الأمـر تحتـاج إلى كل هـذه الثـورة وكل هذا الغضـب، عـادت البنت مـن الكلية متوتـرة الأعصاب غاضبـة وقد أعلنت العصيـان عـلى أي شيء وكل شيء. فهي لا تريد أن تأكل ولا تريد أن تشرب ولا تريـد أن تتحـدث، ولا تريـد حتـى أن تفصح عـما بها.. سـألتها أمها عما بهـا فغمغمت بكلمات لا معنى لها، ألحت عليها الأم فصاحت بصوت مختنق «ماما.. شوفولكم حل!».

وعندما علمت أمها بالمشـكلة أطرقت في سـهوم، فالبنـت كانت تريد ما يزيـد عـلى الثلاثين جنيهًا كي تشـتري المحـاضرات أو الكتـب التي تخرج في

ملازم وكل ملزمة لها ثمن وكل ثمن لا بد أن يدفع.. ولقد طنشت البنت مرة ومرتـين وثلاثًا. حاولت أن تنقل الكتـاب، أو تقترضه، أو.. أو.. ولكن هذا كان مسـتحيلًا.. فزميلاتها وزملاؤها كانوا قد اشتروا الملازم، بل إن بعضهم كان يؤجـر مـن يكتب له المحـاضرات حتى لا يتعب يـده في الكتابة ملاحقًا الأستاذ الدكتور وهو يتدفق في الحديث في مادته تدفق العالم الخبير...

في البداية، وعندما طرحت البنت الحكاية على أمها نظرت إليها قائلة:

«مفيش حل غير حكاية الفلوس دي؟!».

وكانـت البنت تعلم البئـر وما تحويه، وكانت تعلم أنها لا بد أن تسـاعد، أن تكون غطاء للبئر التي كانت تنضب شـهرًا بعد شهر. ومن أين يأتي أبوها بالمال وكل مرتبه يدخل البيت، وكل ما يصل إلى يده يتسرب إلى البيت، حتى التدخين، كف عنه شـهورًا، وقد أصبحت العيشـة لا تطاق! غير أنها اليوم لم تعد تستطيع!

لم تعد تستطيع الاستمرار على ما كانت عليه، فالأساتذة الدكاترة متمكنون من علمهم. يدخل الواحد منهم إلى المدرج المزدحم بالطلبة والطالبات، وفي المـدرج ليس الزحـام زحامًا كالذي يعرفه الناس.. ويا ماما لقد أصبح بعض الطلبة يحملون مقاعدهم معهم من بيوتهم كي يجلسوا عليها، وبعضهم يدخل المـدرج مع السـاعات الأولى من الصبـاح كي يجد مكانًا، والأسـتاذ الدكتور معذور، فهو يلقي محاضرات بسرعة، هو لايناقش؛ لأن المناقشـة مسـتحيلة، وهو لا يستمع لأسئلة؛ لأنه لو استمع لما عاد إلى بيته، وهو لا يتوقف؛ لأنه لو توقف فلن يكمل المقرر.

لكن اليوم لم يكن ككل يوم، كانت للبنت صديقة تشتري الكتب، أبوها مقاول، وهي غنية تأتي في سيارة وتعود إلى البيت في سيارة، وثمن الملازم أو الكتب لايعني بالنسبة إليها شيئًا، لكن صديقتها وجدت لها صديقة غيرها، غنية مثلها، ذات سيارة وأب يعمل ما لا تدري لكنه ثري مثله، والطيور على أشكالها تقع.

«شوفي لك واحدة زيك يا بنتي!».

«إللي زيي مابيدوروش على اللي زيي، بيدوروا على اللي بينفعوهم!».

أطرقت الأم وربتت على كتف ابنتها، تنهدت حيرة وقالت «ربنا يسهل!».

«إمتى؟!».

رفعت الأم إليها عينين تنذران بالشر، فالست متدينة تصلي الوقت في وقته وتعرف الله ولاتحب التطاول حتى في ساعة الغضب، وقالت البنت معتذرة على الفور.

مش قصدي يا ماما.. قصدي إمتى حاتشوفولي حل؟!».

لما ييجي أبوكي من شغله!

- 2 -

قبل أن يصل الرجل من عمله وصل الولد من مدرسته!

دخل البيت مزمجرًا ثائرًا مهددًا، ودون إحم أو دستور، ألقى بكتبه فوق المائدة بطول يده وهو يصيح بصوت كصوت رجل ذي حنجرة أوبرالية!

«إنت يا ست ماما!».

كـبر الولـد فجأة. بين يـوم وليلة تحول من صبي إلى رجل خشـن الملامح محجـب الوجه غليـظ الأنف، جـاءت الأم من الداخل مهرولـة، وكانت قد فرغت لتوها من صلاة الظهر قبل أن تفوتها:

«خير يا بني!».

«شوفولكم حل!».

لم تكن في حاجة لأن تسـأل. كانت تعرف المشـكلة منذ أسـابيع: الولد في حاجـة إلى دروس خصوصية.. ليسـت المشكلة في أنه عاجز عن اسـتيعاب الدرس، أو حتى المذاكرة.. لكن المشـكلة كانـت تكمن في أن الكل أصبحوا يأخذون دروسًـا خصوصية، والكل أصبحوا قريبين من الأساتذة. وتحولت المسألة إلى أنه أصبح وحيدًا أو كالوحيد، منبوذًا أو كالمنبوذ.. ذلك أن التلاميذ، وقد أوشك العام الدراسي على الانتهاء واقترب موعد الامتحانات، أصبحوا يتبارون في الإجابة عن أسئلة لم تطرح في الفصل، أسئلة كان يطرحها عليهم الأستاذ في أثناء الدرس الخصوصي.

«طب انت مش مذاكر يا بني؟!».

هكذا قالت أمه؛ فصاح مختنق الصوت!:

«مذاكر يا ماما وكل حاجة، بس الأسئلة دي أصلها.. أصلها..!».

ثم توقف ولم يستطع أن يكمل: حملق الولد في أمه وأخته، ثم دق الأرض بقدمه:

«مش عارف، بس انا لازم آخد درس زيِّي زيهم!».

- 3 -

عندمـا وصـل الأب كان الحوار قـد اصطدم بـين الثلاثة، البنـت تبكي. والولـد يهـدد، والأم تؤنب.. ولا يقدر عـلى القدرة سـوى الله، هكذا كانت تقـول، ثـم هـذا هو الجمل وهـذا هو الجمال، وهما ليسـا صغيريـن بعد، إنهما يسـتطيعان أن يفهما... أبوهما يفعل كل ما في وسـعه، كف عن التدخين حتى يوفـر لهما حيـاة كريمة، كف عن الذهاب إلى المقهـى والجلوس مع أصدقائه؛ حتى لايتورط في مصروف قد يحتاج إليه البيت، يشـتري لهما ما يحتاجان إليه من ملابس، ويحرم نفسـه مـن بذلة جديدة رغم أن مـا يملكه من بذلات قد آن أوان إحالته إلى المعاش.. هما في حاجة إلى محاضرات ودروس خصوصية، هذا حق وهي تصدقهما، وهو «أبوهما» في حاجة لأن يفهماه، لأن يدركا مدى ما يعانيه من متاعب في سبيل تربيتهما.

قالت البنت فجأة:

«أنا مالي... محدش قال لكم تخلفونا وانتوا مش قد الخلفة»:

«إخرسي!».

ولم تكن المشـكلة مشـكلة صفعة تلقتهـا الفتاة، لكنها كانت مشـكلة قهر كانت تحس به فازداد إحساسـها الآن بالقهـر، صمتت البنت، ولم تفعل أكثر من النظر إلى أمها في عتاب، لكن الولد صاح:

«وكمان بتضربيها يا ماما؟!».

كانت أعصاب الأم انفلتت، فهوت على صدغه هو الآخر بصفعة!

واشتعل الموقف.

ووصل الأب!!!

- 4 -

لا أحـد يـدري ما الذي حـدث له في الطريق من عملـه إلى البيت، كل ما عرفوه أنه عندما دخل، وكان الموقف مشتعلًا، كانت عفاريت الدنيا تتراقص أمام عينيه، فتح الباب بالمفتاح وخطا إلى الداخل، وكان المشـهد أمامه في غير حاجة إلى سؤال أو استفسار فقال:

«إيه الحكاية؟!».

قالت الأم وكانت لاتزال في ذروة الانفعال:

«أنا إيش عرفني.. أهم ولادك عندك اسألهم!».

وسألهما.. وما إن عرف الحكاية حتى ثار... وكان لا بد أن يثور!!

هـدد... وكان يعلـم أن تهديـده لن يأتي بنتيجـة!... غلى الـدم في عروقه وصعد إلى رأسـه واحتقنت عينـاه وراح يُرْغِي ويُزبد، وتدفقت الكلمات من فمه كالطوفان، كلمات تعني شـيئًا وكلمات لاتعني شيئًا، وكان الثلاثة يقفون أمامه في صمت، وقد أذهلهم - رغم ما كانوا فيه - هذا الذي يحدث:

لم يكن الرجل قد عرف سـوى أن ابنته في حاجة إلى محاضرات والولد في حاجة إلى دروس خصوصية، ثم لاشيء عن التفاصيل التي أدت إلى الموقف الـذي دخـل فوجده أمام عينيه، ورغـم هذا فلقد كانـت ثورته غريبة وعارمة

وعنيفة.. كان ينتفض لاهثًا والكلمات تتناثر من بين شفتيه كرذاذ لعابه في كل اتجاه، كان جسده كله يرتجف بانفعال غامض ظل يتصاعد ويتصاعد حتى وصل إلى ذروة مزقت قلوب الثلاثة فتوقف عن الصياح لاهثًا.

ساد الصمت لثوان قال بعدها بصوت مختنق:

«إنت عاوزة تشتري المحاضرات، وانت عاوز دروس خصوصية.. وانا ماعنديش فلوس!».

بدا الأب وكأنه يتمزق إربًا. «يعني أنا لو كان معايا كنت هاحوش عنكم!».

كانت الفتاة أول من أدركت ما الذي ألمَّ به فهتفت:

«بابا».

«بلا بابا بلا زفت!».

حاول أن يخطو لكنه ترنح فقفز إليه الولد:

«بابا!».

دفعه بعيدًا عنه فازداد ترنحًا! همت زوجته بالاقتراب منه، لكن نظرة من عينيه أوقفتها، كانت العينان مبللتين بدمع خفي!

دخل إلى غرفته وأغلقها عليه.. وجلست الأم في مكانها وقد انفجرت في البكاء.

فقالت الفتاة نائحة:

«أنا مش عاوزة محاضرات.. بس ابقي صحيني بدري يا ماما علشان الحق ألاقي لي مكان!».

وقال الولد مدمدمًا!

«ولا انا عاوز دروس خصوصية بس... بس...».

لكنه لم يكمل...

وخيم على البيت - لساعات طويلة - سكون عميق.

نـومـــة

كانت مشكلته أنه لا يعلم إلى أين يذهب.

طـرده المعلِّـم وحرَّم عليه المبيت في الوكالة قائلًا له بصوته الخشـن «روح نام عند امك».

وهو لا يعرف له أمًّا ولا أبًا.. لا يعرف غير الوكالة والمعلم.

وخالتي سعدية زوجة المعلم.

ولكن هذا غير مهم، المهم عنده هو أن يعلم إلى أين يذهب.

وهـو يريـد أن ينـام، والمطر ينهمر وهـو يحتمي تارة بالجـدران والأبواب والشرفات، وتارة أخرى يسير تحت سيل المياه باحثًا عن مكان يبيت فيه.

إنه بلا شـك يكـره المعلم. لقـد كان محصوله اليوم مـن الأعقاب ضئيلًا، ومـاذا يفعل؟! لم يجد أعقابًا، كان اليوم مطيرًا والناس قليلة وفي المقاهي التي ذهب إليها طردوه، والتي لم يطردوه منها كان زملاؤه قد سبقوه إليها.

المعلـم يقـول له «روح نام عند امك»وهو يعلـم أنه بلا أم.. ومن أين يأتي بـأمٍّ وهل مثله يكون لـه أب أو أمٌّ؟ ورغم أن المعلم يعلم ذلك جيدًا فقد قال

لـه ذلك... فلماذا؟ .. لماذا؟... الشـارع مليء بالنـور. والأرض تلمع بعد أن غسلتها المياه، والعسكري يقف عند الناصية.

وهناك زقاق مظلم سيدخله، فربما وجد مكانًا يبيت فيه.

المعلم حسـونة بلا شـك سيدخل النار؛ فهو يقسـو عليه رغم أنه يعلم أنه يتيم وغلبان ولكن.. هل هو يتيم حقًّا؟

إن اليتيم أبوه مات وأمه ماتت.

كـم كان يتمنـى أن يعرف له أمًّا، لا لأنه يريد أمًّا فماذا سـيصنع بها؟.. إنما ليرى شكلها فقط!!

ترى كيف سيكون شكلها؟

لـو كانت مثل خالتي سـعدية لما أحبها إنها ولية كشرة وحولاء وشـكلها وحش.

الزقـاق مليء بالأبـواب وكلها موصدة والمطر قـلَّ.. ولكن الأرض كلها طين.. أين ينام؟ إنه بردان.

هل لو كان له أم.. كان سيعيش في بيت صحيح كما كان يعيش «سمعه؟».. غير معقول، لسـبب بسـيط هو أن والد سـمعه كان موظفًا في الحكومة ويلبس بذلة كالأفندية. ثم مات فجأة عندما داسه أتومبيل. وهل أبوه - لو كان له أب - سيكون موظفًا مثل «أبو سمعه»؟ شيء مضحك صحيح.. مضحك جدًّا.

ولكنـه فعـلًا يريـد أن يعرف شـكل أمه، وهـو لا يدري حقًّـا إن كان كل إنسـان لا بـد أن تكون لـه أم. لا يدري... ولكـن المعلم حسـونة، ياباي، إنه

يكرهه جدًّا، سيدخل النار حدف.. قال له «روح نام عند امك»وهو يعلم أنه لا أم له، سيشوى جسده في النار.. وسيبقى هو في الجنة ويتفرج عليه.

ربما كانت له أم، ولِمَ لا، وإذا كان هذا صحيحًا.. فأين ذهبت..؟!! ولماذا تركته هكذا؟.. غير مهم أن تتركه أو شيء من هذا القبيل، ولكن المهم أن يعرف شكلها، وألا تكون مثل خالتي سعدية.

العسكري يشمشم كالكلب السلوقي، ولو رآه لكانت واقعه سوده.. سيندس في صندوق الزبالة هذا.. حقًّا الزبالة مبلولة وباردة جدًّا، ولكن مؤقتًا إلى أن يمضي العسكري... يا خسارة.. كان في جيبه عقب كبير خبأه ليدخنه ويدفيه، لقد طالته المياه وأصبح لا ينفع.. حتى عود الكبريت والشكاكة طالتهما المياه.

هل أمي كانت تدخن مثل خالتي سعدية؟... إنه يريد أن يعرف كل شيء عنها، وربما كانت لا تدخن.. وربما كانت تدخن، شيء غير مهم بالمرة، المهم أن يعرف شكلها آه.. أليس كل طفل يرضع وهو صغير؟ لا بد أن يرضع الطفل حتى يصبح كبيرًا مثله، أليس كذلك؟ وهو لا بد أن يكون قد رضع، وأن أمه هي التي أرضعته ضروري، وإلا كيف كبر وأصبح هكذا؟

إن خالتي سعدية لا يمكن أن ترضعه طبعًا، لأنها لا تنجب وليس عندها أولاد، ثم إن صدرها مهرول كالخرق.. فلا بد إذن أن هناك من أرضعته.. إنه سعيد جدًّا.. حقًّا الزبالة مبلولة وطرية وتجعله يرتعش، ولكنه سعيد؛ لأنه له أمًّا، وإلا لو كانت ماتت كان عرف كما عرف «سُمْعه»، وكان أصبح يتيمًا أيضًا، فهي لم تمت إذن.. لأنه لا يعرف ولأنه ليس يتيمًا.

هي لم تمت، إنها ما زالت تعيش فأين هي إذن؟

ولكــن.. لماذا يفكر في أمــه الليلة، لماذا يعني.. هيه؟ كثيرًا ما ضحك منهم وهم يشتمون أمه، لأنه لم يكن يعرف أن له أمًّا، ولكنه لن يترك أحدًا يشتمها بعد الآن.. فهي موجودة.

ولماذا هو فرحان؟ لِمَ كل هذا السرور؟ هل هو يحب أمه؟

إنه لا يعرفها ولا يعرف شـكلها، وليس مهمًّا أن يعرف شـكلها، المهم أن يعرف أين هي، ولماذا تركته، إنه صحيح لا يحبها وهو ليس فرحان كما يظن، وقلبـه لا يطـب لا، إنه لا يطـب. ولكنه حقًّا شيء مثير أن يكـون للواحد أمٌّ. وهـو قطعًـا لـه أم أرضعته، ماذا لو نزلـت من السـماء الآن وأخذته لتدفئه في حضنها وهو يرضع كما كان طفلاً؟.. مش معقول.

إذن مـاذا لو سـخطه الله صغـيرًا. أليس الله قـادرًا عـلى كل شيء، ويقدر يسخطه من أول وجديد؟

إنه لو حدث ذلك حقًّا فسوف لايترك أمه أبدًا، سوف يتشبث بها، ويبكي ويـصرخ ويضرب الأرض بقدميـه ويقول لها ألا تتركه ليذهــب عند المعلم. حقًّا إن الأطفال لا يتكلمون وهم صغار ولكنه سيبكي ويقول لأمه وستفهم هي طبعًا ما يريد، أليسـت هي أمه؟.. وهي لا بد تحبه كما يحبها. آه إنه يحبها، لم لا؟ مش امه، وهل هناك من يكره أمه؟!.

يا سـلام.. سـيكون دافئًا صدر أمه هذا.. سـيدفئه ولا يجعله يرتعش كما يرتعـش الآن.. الميـاه تسربت إليه مـن الزبالة، ولكن في حجـر أمه لن تكون هناك مياه كهذه.. وسيبتسـم لها وستقبله أمه ويقبلها، وسـتقول له يا حبيبي

يا بني، وسيرفس بقدميه ويصرخ لو رفعت عنه ثديها، سيتعشى كل يوم لبنًا، أحسن من الجوع الذي يحس به الآن... لن يترك صدرها طوال النهار، أبدًا لن يتركه. وسيظل يرضع حتى يشبع، وسيكبس عليه النوم، النوم حلو... يا سلام يا سلام... وسيغمغم. ويتمطى ويتشبث بصدرها... المهم أنه سيدفأ.. ولن يرتعش وسيتعشى.. ولن يجوع.. وينام..

الشـــارع

كان هذا الشـارع في البداية شـقًّا يتعرج بين بيوت الحي بلا نظام.. لم تكن لـه بدايـة ونهاية ككل شـوارع الدنيا، فلا أحد كان يعرف مـن أين ينبع وأين يصـب.. هـو موجود وغير موجود. هـو جزء من شـوارع عديدة وعشرات الحواري التي تنفذ إليه من كل جوانبه، وينفذ إليها بالطول أحيانًا وبالعرض أحيانًا.. لكنه أبدًا لا يتوقف.

وكان الإنسان إذا وُجِد في هذا الشارع، في أي مكان فيه، في أوله - إن كان لـه أول - وفي آخـره - إن كان له آخر - فهو في الحـي.. فإذا ما غادره الناس كانوا يعرفون تمامًا أنهم يغادرون الحي بأكمله.

وفي تلك الأيام البعيدة جدًّا، لايذكر أحد أنه كان لهذا الشارع اسم. حتى العجائز الطاعنون في السـن لايذكرون له في تلك الأيام اسـمًا على الإطلاق. لا هـم بأنفسـهم، ولا ذكرياتهم عـن آبائهم الذيـن ولدوا وتربـوا وماتوا في هـذا الحي.. ولا أمهاتهم، ولاحتى يذكرون من الجدود أنه كان لهذا الشـارع بالذات اسم.

كل ما يذكره العجائز الطاعنون في السن أن عم حسنين الصرماتي كان هو العلامة الوحيدة، عند مفترق طرق وحوارٍ وزقائق، التي تدل على أن الإنسان

قـد أصبح في زمام الشـارع.. ويذكر الأولـون أن الصرماتي كان رجلًا بذيء اللسـان حشاشًـا لا يفيق طـوال ليله أو نهـاره، لكنه كان محبوبًـا من الجميع، وكان يفخر بأنه يصلح كل أنواع البلغ والأحذية والشباشب.

وفي مـكان مـا يبعد كثيرًا عن مـكان الصرماتي، يذكـر العجائز الطاعنون في السـن أن دكان أبو عكوش الخياط كان هـو العلامة الثانية. وبينما كان أبو عكوش نحيلًا رقيقًا ذا قلب صغير وعينين شديدتي الضيق، كان عم حسنين الصرماتي سـمينًا غليظ الصوت هائل الحجم يتدلى كرشـه فوق ركبتيه طوال النهار، ويصدر عنه فحيح مسموع إذا ما تنفس.

ويقولون إن الصرماتي كان يعرف كل سكان الشارع، ولم يكن أبو عكوش يعامل سوى الأثرياء والموسرين من التجار.

وهناك، على بعد خطوات عديدة من دكان الخياط كان يقوم فرن الأعسر وبجواره الحمام.. وكان الأعسر يملك الفرن والحمام معًا، ويذكر الأولون أنه كان رجلاً اشتهر بجشعه وبخله، ولم يكن سكان الشارع يعاملونه. فجميعهم كان يصنـع خبـزه في بيته، لذلك ففرن الأعسر لم يعمر طويلًا، لم يعمر سـوى سنوات لا تزيد على الخمسين عامًا.

وإذا كان الأعـسر يصنـع الخبز في مخبزه من أجل الأحيـاء الأكثر رقيًا من أهل الشـارع، فإن هذه الأحيـاء جميعًا كانت تأتي من أجـل الماوردي... كان «المـاوردي» صغـيرًا شـديد الصغـر، كان وكأنـه ثقب نظيف في جـدار مليء بالبنور.. وكان صاحبه سـمينًا ذا لحية بيضاء مسترسـلة، وكان جميل الوجه، أبيـض البـشرة والملابـس، باسـم العينـين، لا يحـدِّث إلا بذكـر الله.. يؤدي

الفرض في وقته ويعطي الفقير من بضاعته دون مقابل، ولا يستحل لنفسه مال الغني إلا بقدر ما يعطيه، وكان له ولدان مثله تمامًا، وكانت تفوح منهم ومن دكانهم، رائحة ماء الورد.

ويؤكد الجميع أن اسم «الماوردي» لم يكن اسم الرجل أو واحد من ولديه، وإنما أطلق عليه الماوردي لأنه كان يبيع ماء الورد. ولا يذكر واحد من الأولين والعجائز أو الطاعنين في السن اسم هذا الرجل الحقيقي.. لا أحد يعرفه ولا يعرف له اسمًا سوى الماوردي.

وكان للماوردي زبائن يأتونه من كل الأحياء، ويسعون إليه مهما علا شأنهم، فكان الواحد من أهل الحي إذا كان ذاهبًا إليه، قال إنه ذاهب إلى الماوردي.. فأصبح اسم الشارع الماوردي من أجله.

وكان سكان الأحياء الأخرى إذا ما كانوا ذاهبين إليه لشراء أو بيع قالوا: إنهم ذاهبون إلى الماوردي.. فأصبح الماوردي اسم الحي كله!

ولقد مرت سنوات طويلة حتى اختفى فرن الأعسر والحمام معًا.. لا أحد يذكر متى حدث هذا بالتحديد، لكن الكبار يذكرون جيدًا أنه يوم أن أغلق الحمام واختفى الفرن.. مات الصرماتي.

ولقد أحدث موت عم حسنين ضجة هائلة.. لم يكن للرجل زوجة أو ولد ولم يعرف له أحد أبًا أو أمًّا.. بل إن الكثيرين لم يكن أحدهم يعرف أين يسكن، كل ما كان يعرفه الناس أنه يجلس هنا.. وهنا مات عم حسنين الصرماتي، كان صوته يطفح بالتشاؤم والبذاءة منذ الصباح.. ثم صرخت امرأة كانت تقف عنده، وتلفت الناس فوجدوا الصرماتي في مكانه كما هو،

بنفس جلسته، وكرشه الرابض فوق ركبتيه.. لكن رأسه كان مائلًا إلى الأمام، كان العنق ملتويًا، والرأس راقدًا فوق الصدر.

وخـرج الـسر الإلهـي مـن الرجـل فهـب الشـارع كلـه يودعه، ويقسـم الطاعنون في السـن أن كفن الصرماتي كان من أغلى الأقمشـة، وأن جنازته لم يشـهد لها الشـارع مثيلًا.. ثم أصبح قبره جامعًا صغيرًا، أصبح اسمه سيدي الصرماتي.

بعـد سـنوات أخرى طويلـة، يذكـر النـاس أن الحكومة أرادت توسـيع الشـارع.. وعندمـا جاءت مصلحـة التنظيم عنـد الجامع، لم تسـتطع إزالته، ولم يمر الشـارع منحنيًـا إلى يمين الجامع، بل احتضن الجامـع من الناحيتين، وتحـول الشـارع في هذه المنطقة بالذات، إلى ذراعـين تلتفان حول الجامع، ثم تلتحمان بعده.

في تلك الأيام غيرت الحكومة اسم الشارع، وكان دكان الخياط قد أزيل، ولا يذكـر أحـد بالتحديـد متى مـات الخيـاط، وأصبح للشـارع أول وآخر، وأصبـح مثل عصا تشـق الحي من شـماله إلى جنوبه، ووضعـت عند ناصيته لافتة كتب عليها «شارع طوسون».

ولم يلفت هذا نظر أهل الشارع، ولم يعن أحدهم أن يسأل من هو طوسون هذا.. وكان في الشـارع شـاب أزهري كان الناس يعرفونه باسـم «المجاور»، ولقـد قـال هذا المجـاور ذات مـرة إن طوسـون كان مفتشًـا كبـيرًا في وزارة المعارف، وهز الناس أكتافهم بلا كلمة، وظل اسم الشارع هو الماوردي.

وكان الرجـل الكبير قد مات منـذ زمن بعيد، وواحد من الأخوين تزوج وافتتح لنفسه دكانًا آخر.. وظل الابن الثاني يقف وسط هذا الثقب الذي ازداد صغره، لكنه كان لا يزال ثقبًا نظيفًا لامعًا، وكان يقف فيه رجل سني، له لحية بيضاء مسترسـلة فوق صـدره، وكان وجهه أبيض مثل ملابسـه، ولا يحدِّث الناس إلا بذكر الله. وعندما أصبح لمصلحة البريد مكتب في الشـارع سـمته «مكتب الماوردي»، وإذا أرسـل أحدهم خطابًا إلى الشـارع، باسـم طوسون كان الخطـاب يعود إلى مرسـله لعدم وجـود العنوان، كانـت اللافتة لا تزال فـوق الجـدار، كان الصدأ قـد أكلها تمامًا، وتسـاقطت قشرة الجـدار العلوي عليه، وكان اسم طوسون لا يزال واضحًا.

ولم يكن للابن الثاني أولاد، ويوم مات كانت رائحة «ماء الورد تفوح من الدكان المغلق.. وفي نفس هذا اليوم سـمع أهل الشـارع أن اسم شارعهم قد تغير وجـاء بعض عمال التنظيـم ليرفعوا اللافتات القديمـة الكالحة ويعلقوا لافتـات حديثـة لامعة كتب عليها «شـارع السـهر وردي»، ثـم بخط أصغر «طوسون سابقًا».

وتسـاءل البعض عمن يكون «السـهر وردي» هـذا.. لكن أحدهم لم يعنه أن يسـمع الإجابة.. فلقد ظل الناس كلما كانوا في طريقهم إلى هذا الشـارع، قالـوا: إنهـم ذاهبون إلى الماوردي، وكان سـكان الشـارع يقولـون: إنهم من الماوردي.. وكانت المحلات الكبيرة في الشـارع تحمل اسم الماوردي.. ولقد اختفى الثقب النظيف من جدار الشارع، وأصبح نافذة زجاجية أنيقة في محل كبير وهائل، وكانت هذه النافذة بالذات مخصصة لعرض زجاجات الروائح العطرة.. وفوقها تمامًا تلمع لافتة تحمل اسم «لوليتا»!

عـــزوز العبيـــط

إنني ما زلت أذكر عزوز العبيط.. جلبابه الوحيد الذي كان يلبسـه صيفًا ما زلت أذكره وهو راكب عربة الطحين وقد تكدست فوقها مقاطف الغلال أو الدقيق الـذي كان دائـمًا يغمر وجهـه، وجلبابه الوحيد الذي كان يلبسـه صيفًا وشتاءً.

كان يركـب دائـمًا وراء عم فرج.. يـردد نداءه مقلدًا إيـاه بصوته الضخم وكلماته المدغمة..

«الطحين يا بت.. الطحين يا بت».

وكان الجميـع في كفـر الزيات يعرفونـه ويحبونه.. ويتحفونـه أيضًا بما فيه القسمة من الصفعات والسجائر والطعام.

ولم يكـن عزوز يثور عندمـا يصفعه أحد.. بل يظل وجهـه جامدًا كما هو ولا تختفي ابتسامته البلهاء الباهتة.. وكثيرًا ما كانوا يضاحكونه بقولهم.

«بطه اهه يا عزوز بطه اهه..».

وكان عزوز يرقص منتشيًا وهو يردد نغم..

«بطه.. يا بطه.. يا حبيبتي يا بطه».

وكنت أسمع عن عزوز قصصًا مختلفة في التفاصيل.. ولكنها كانت تلتقي عند نقطة واحدة.. وهي أنه من عائلة ثرية.. وأنه كان يحب فتاة اسمها بطة.. وأنها تزوجت غيره فأصابه ما أصابه من البلاهة والعبط..

كان أمـام منزلنـا بيـت مهجـور كان ينبعث منـه إذا أوغـل الليل صوت بكاء مكتوم.. وكان الناس يخافون السـير في الشـارع.. ويقولون إنه مسكون بالعفاريـت التـي تقذف النـاس بالطوب والحجـارة إذا مروا مـن أمامه بعد منتصف الليل.

أما في رمضان فإن العفاريت والجن تقيد بالسلاسل تحت الأرض فينقطع البكاء ويمر الناس أمامه في أي وقت.

وفي كل شـهر كنت أذهـب مع فاطمة جارتنا إلى وابـور الطحين بالغلال والذرة لنعود به دقيقًا.. ورَدَّة.

وكنـت أحب صحبة فاطمة.. كانـت طيبة وحلوة.. أرتـاح إليها كثيرًا.. وتحنـو عـليَّ دائمًا.. وتمنـع أبي عن ضربي إذا أتيت ذنبًا يغضبـه.. وما كان أكثر هذا!!

وجاء شـهر رمضـان.. وظللت أنتظر ليلة الطحين التي أسـهر فيها حتى الصبـاح مـع فاطمـة في المطحن.. وأشـاهد عـزوز والجميـع ينهالـون عليه بالصفعات.. وهو يبتسـم للجميع في وداعة وطيبة.. وأتقدم أنا الآخر لأقلد الكبار وينظر إليَّ عزوز مبتسمًا ويقول بصوته الغليظ الكلمات:

«اسكت ياله».

في تلـك الليلـة مـن رمضان.. لعبـت كثيرًا بجـوار الترعة مـع الأولاد.. وعـدت إلى فاطمة التي كانت تجلس فوق الغـلال تنتظر دورنا في الطحين.. وبعـد قليل قمت وأخذت أجوس خلال المطحن.. أصعد وألعب وأتفرج.. وقادتني قدماي إلى غرفة وراء المطحن.

كانت غرفـة صغيرة.. جدرانها من الصفيح القديم.. وعلى أرضها المتربة حشـية من الخيش ممزقة، وفوقها لحاف قذر ممزق هو الآخر.. ومقعد خشبي قديم ملقّى بإهمال بجوار الحائط.. ولا شيء غير ذلك.

ولم أكـن أدري عندمـا مررت ببـاب تلك الحجـرة.. أن أحـدًا في الداخل.. ولكـن أذني التقطتـا صـوت همهمة.. وأطللت بـرأسي.. كان عـزوز راقدًا فوق الحشية وظهره نحو الباب.. كأنه يصلي.. وكان منحنيًا فوق شيء يمسكه بيده.. والجلبـاب منحسر من على قفاه الـذي بان عريضًـا مغريًا بالصفـع.. وتقدمت ببطء وأنا أستعد لصفعه.. وما إن وقعت عيناي على الشيء الذي كان بيده حتى توقفـت.. كانت صورة فاطمة جارتنا.. ولسـت أدري كيـف أحس بي عزوز.. فعندما استدار ورآني عبس وجهه الأبله الطيب وقال لي بنفس كلماته الغليظة:

«إيه اللي جابك هنا يا وله؟!».

كان يحتضن الصورة في يده.. ويضمها إلى صدره كأن هناك من سينتزعها منه.. وانتابني رعب هائل - وتقهقرت حتى التصق ظهري بالحائط.. وأخذ عزوز يتمتم بكلمات كثيرة لم أفهم منها سوى «إيه اللي جابك هنا يا وله؟!».

وأردت أن أهـدئ مـن حدة غضبـه.. واغتصبت ابتسـامة رسـمتها على وجهي بعد جهد شديد.. وقلت بصوت مرتجف خائف:

«بطه يا عزوز.. بطه الحلوة..».

وزاد غضبـه، ونظـر إلى المقعـد الخشـبي.. ومد يـده إليه ورفعـه في الهواء وزمجرتـه تخرج غريبـة كأنه وحش مفترس.. وشـملني الرعـب حتى إنني لم أحـس بفاطمـة جارتنـا التي كانـت تبحث عنـي في كل مـكان وكانت تقف بالباب عندما كان عزوز يهم أن يهشمني.. وسمعت صرختها..

«عبد العزيز...».

وجمـد عزوز في مكانــه.. واسـتدار إلى حيث كانت تقـف.. وهبطت يده بالمقعد إلى الأرض.. وتدلت ذراعاه إلى جانبه.. ورأيت وجهه تكسـوه غمامة حزينة. وعيناه تبرقان بالدموع.. وهمس بصوت خافت..

«بطه؟! يا فاطمه!».

وزمجرت فاطمة وهي تتقدم منه في ثورة قائلة:

«عايز تموِّت الوله؟ يا اهبل يا عبيط».

«أنا يا فاطمه؟! أنا؟!».

كان عـزوز يتكلم.. وكان كلامه واضحًا أشـد الوضـوح.. وكان صوته خافتًا حنونًا.. ليست به تلك الوحشية التي اعتدناها في نبراته، وقالت فاطمة في حدة..

«أيوه انت.. أيوه انت..».

ورفعت كفها.. وهوت به على صدغه في صفعة قوية..

ورأيت دمعة تنحدر على وجه عزوز.. وتحسس مكان الصفعة بكفه ثم استدار وخرج من الحجرة..

وعندما كان عزوز يغادر باب المطحن.. كان صاحب المطحن يناديه.. والتفت إليه عزوز برهة.. ثم انفلت يجري في الظلام..

وعندما جلست بجوار فاطمة.. كانت يداها ترتجفان في انفعال.. وهي تنظر إلى الباب حيث خرج عزوز.. وإلى الظلام المتكاثف حيث اختفى.. ونظرت إليَّ.. ورأيت دموعها في عينيها.. دموعًا كثيرة.. وقالت وهي تفرك كفها في عصبية..

«ليه بس رحت وراه؟!».

ولم يظهر عزوز منذ تلك الليلة في كفر الزيات.. وانتهى رمضان ولكن الجان ظلت مقيدة تحت الأرض بسلاسل.. ولم نعد نسمع البكاء في المنزل المهجور المجاور لمنزل فاطمة.. ولم تعد العفاريت تقذف الناس بالطوب!!

حديث لا يسمعه أحد

لو أن إنسـانًا قال له شـيئًا كهذا منذ عام واحد لاتهمه بالجنون.. بل لو أن إنسـانًا قال له منذ شـهر لا يزيد إنه سـيفعل ما فعل، لأيقن أنه معتوه.. وإلا، فبالله عليكم كيف يمكن لرجل مثله أن يفكر في تركيب تليفون في بيته؟!

لقـد جاءته الفكرة كالإلهام.. فجأة وبلا مقدمات، هبطت عليه من حيث لا يدري فوجد نفسه - على غير ما تعود طوال عمره - منساقًا خلفها مبهورًا بها وكأنه فقد إرادته وحواسه ومنطقه وعقله جميعًا..

وحـاول بينـه وبين نفسـه أن يبرر تلك الحماقـة التي أقـدم عليها في لحظة رعناء.. لكنه اكتشـف أن كل تبرير سـاقه إلى ذاته وهو يناقشـها غير معقول، حتى ولو كان التبرير معقولًا أو منطقيًّا..

هو من ذلك النوع من الناس الذي يبدو للآخرين سـقيمًا عليلًا مع أنه في كامل الصحة وأتم عافية.. ولو أن واحدًا ممن يعرفونه راقب وجهه الشـديد البيـاض وقت أن هبطـت عليه تلك الفكرة لارتجف بالدهشـة لتلك الحمرة التي دبت في الجلد المشدود فصبغته بما يشبه لون الحياة.. ولقد كان في الحقيقة يرتجف لهول المفاجأة، وظل أسير اضطراب لذيذ طوال ساعات يومه.. وكم تمنـى أن يخبر أحدًا بما انتـواه، وطافت بذهنه أول ما طافـت ذكرى أبيه وأمه

فاربد قلبه بالحزن.. وكاد في لحظة من لحظات السعادة الغامرة أن يميل على أحد زملائه فيخبره بالأمر سرًّا لكنه تراجع، فهو لم يتعود أن يطلع أحدًا على شأن من شئونه الخاصة أو العامة.. وهكذا انكب بعينيه على أوراق الصادر والوارد، وبوجدانه كله مع أطياف الماضي القريب والبعيد على السواء..

لم يكن له أحد سواهما، ولم يكن له أحد بعدهما أو معهما.. وهو طفل وهو صبي وهو شاب ثم وهو رجل، كان يجد لديهما وعندهما ومعهما وهو يستمع إلى الراديو ويشاهد التليفزيون.. كل شيء، كل شيء..

لذلك، فيوم أن ماتت أمه كاد الحزن يقتله قتلًا، لكن أباه استطاع أن يسد الفراغ وإن كان الحزن قد بدأ يأكله هو الآخر.. وتعلم من موت أمه - رغم حزنه الشديد - أن الحياة من الممكن أن تستمر بشكل آخر لم يألفه، واستقر به الحال مع أبيه، كانا يلعبان الطاولة والورق، ويذهبان إلى السينما والمسرح، ويستمعان إلى الراديو ويشاهدان التليفزيون.. وجاء عليهما وقت كانا يتحدثان فيه عن «المرحومة» دون أن تدمع عيناه..

وعندما تذكر أباه ساعة أن هبطت عليه فكرة تركيب تليفون، حزن عليه حزنًا أشد من حزنه عليه يوم وفاته.. ودمعت عيناه، ففي الأيام الأخيرة كان قد تعود على محبة أبيه، وخيل إليه في لحظات - وإن لم يؤمن أبدًا بهذا - أن من المستحيل على رجل مثل أبيه أن يموت، حتى يوم أن أصابته الإنفلونزا التي لم تمهله سوى أيام..

لكنه أيقن منذ اللحظة الأولى لفراقه عند القبر، أنه لا بد أن للحياة شكلًا آخر لم يألفه أيضًا، وأن عليه أن يتعوده.. ووجد هذا الأمر ممكنًا على أي

حـال، واسـتطاع أن يسـتمع إلى الراديـو ويشـاهد التليفزيـون، ويذهب إلى السـينما والمسرح، ويضحك من قلبه وهو يلاعب نفسـه الورق أو الطاولة.. واكتشـف أن حياتـه الجديدة فيهـا من المتعة جوانب كانـت خافية عليه فراح ينهل من كل ما يصادفه، حتى لقد ذهب مرة إلى ملعب الكرة، وشاهد المباراة لأول مرة في حياته بلا شاشة تليفزيون..

ولـو كان أبـوه حيًّا لاسـتمتع معـه بالحديـث الجديد الـذي كان يهزه من الأعماق..

تليفون..

تليفـون أسـود يلمع في ركن الأنتريـه القريب من غرفة النـوم، أو بجوار فراشه.. تليفون يدق جرسه، فيرفع السماعة إلى أُذنه ويقول: ألو...

وعاد إلى البيت ذات يوم فوجدهم في انتظاره... وبدأت الأحداث تتحرك بسرعة، وحلم الشهور الأخيرة كلها يتحقق في لحظة، كان قد أدمن الانتظار حتى تعوده، واهتزت نفسه بقلق شديد عندما وجد نفسه مع التليفون وجهًا لوجه.. وحدهما، ولا أحد معهما.

وبـدأ عـلى الفـور ودون انتظـار.. كان يرتجـف بانفعال لذيـذ وهو يدس أصبعه في ثقوب القرص وهو يدير أرقامًا كان ينتقيها بلا هدف.. ثم انتظر.. وسـمع رنين الجرس على الطرف الآخر، وانقطع الرنين ليتسـلل إلى جسـده صوت ناعم هادئ: ألو..

سـاعتها كاد قلبـه ينفجر لفرط الانفعال.. أصابـه شيء كالدوار، وأحس برغبة طاغية في القيء، وعاد الصوت يردد: ألو.. وشعر كأن أطرافه تتجمد،

كان وكأنـه معلق في فضاء... وعاد الصـوت الناعم الرقيق يقول في غضب: ألـو.. وعندهـا فقط وجد نفسـه وصوتـه، وارتجفت شـفتاه بالكلمـة وكأنه يصلي: ألو...

قالها.. ثم أعاد السماعة إلى مكانها، وهو يتنفس الصعداء.

سـاعات وهـو يـدور في البيت كالحبيس وعينـاه لا تفارقـان التليفون.. وتذكر أن له عمًا لا يعرف عنه شيئًا، فكر في أن يطلبه، لكنه عدل عن فكرته.. فماذا يقول له؟!...

والحاج محمد البقال ليس لديه تليفون، والمكتب مغلق وليس هناك أحد من زملائه، وهو لن يجرؤ على أن يطلب المدير في البيت.. وكان قد بدأ يقضم أظافره عندما برقت في ذهنه فكرة.. فلماذا لا يكلم نفسه؟!

هكذا انقض على سـماعة التليفون وهو يرتجف بالانفعال، الأزيز المنبعث من السماعة يسري في أعصابه سريانًا له لذة لم يألفها من قبل، القرص الدائر له نغم إنسان يتحدث.. أدار الرقم - رقم تليفونه - ثم اعتدل متهدج الأنفاس متوتر الأعصاب في انتظار الجرس، وطقطقت السماعة وجاءه صوت صفارة رفيعة متقطعة، ولم يدق جرس التليفون...

انتابته الحيرة للحظات لم تطل فقد تنبه للأمر، فالسماعة مرفوعة والجرس لا يدق إلا وهي في مكانها.

ولم يكـن الأمـر في هذه المرة يحتاج لجهد أو تفكـير، راح يدير القرص من جديـد وقـد دهمه الفـرح بقوة أشـد.. ومـا إن انتهى حتى وضع السـماعة في مكانها بسرعة، وانتظر...

ولم يدق الجرس..

في صباح اليوم التالي كان وجهه شديد البياض، وعيناه حمراوين حتى إن أحدهم سأله - على غير العادة - إن كان مريضًا.. وقد أيقنوا جميعًا منذ اللحظة الأولى أن شيئًا هائلًا قد حدث في حياته، فهو يقدم على تصرفات غريبة وغير مفهومة... إنه - مثلًا - كان ينهض بين الحين والحين، ويجلس إلى التليفون... ويدير رقمًا، ويضع السماعة على أذنه، ثم ينصت في شغف شديد، ويقول: ألو...

ويعيد بعدها السماعة إلى مكانها... دون كلمة واحدة!.

سـيـنـما

كان الاهتمام الشـديد باديًا في عيونهما الصغيرة اللامعة. وأقدامهما الحافية كانت تتواثب فوق أرض الطريق في سرعة ومرح.. وبينما أخذ أحدهما يُصْغي لزميله في شغف شديد انحنى الآخر بغتة والتقط عقبًا دسه في الصندوق الذي يحملـه.. بينما تهدل شـعره الأصفر الغزير المترب فـوق جبهته العريضة وعلى حاجبيـه، فرفع كفًّا تحمل أصابـع دقيقة نحيلة، أظافرها تتخللها الأوسـاخ، وإن بـدت رغم هـذا جميلة. وحجل الأول على سـاق واحدة في نشـوة وقفز قفزات سريعة مرحة.. ثم اسـتدار وأطلق صيحة، وما لبث أن سـدد سـبابته النحيلة إلى صدر صديقه، وصرخ في مرح «ارفع ايديك»..

وابتسـم صديقـه وهـو ينقض عليـه ويكيل له لكـمات في الهـواء وانطلق الصديقـان يضحـكان ويتعابثـان، وهـواء الليـل يداعب أطـراف جلبابيهما فيتطايران عن سيقان رفيعة سوداء، وعادا يسـيران متجاورين.. وكان باديًا أنهما في غاية السرور.

رفع طاهر ذراعه العارية ووضعها على كتف عباس، وتدلى جلبابه الممزق إلى جوار جسده، وهو يلصق رأسه برأس صديقه قائلًا في غبطة: «بقى السيما حاتفتـح بكـره.. والله زمـان يـا طاهر..» وضحك طاهر وهو يشـير إلى بعيد

حيث كانت أضواء السينما تضوي في الظلام حمراء وخضراء وصفراء.. تنطفئ وتعود لتضيء ثم تنطفئ من جديد واللافتات الكبيرة والرسوم الملونة أخذت تزغلل عيونهما اللامعة من بعيد، وقال طاهر وهو يغلق عينيه ويستنشق الهواء ملء صدره: «الصيف حلو يا جدع.. أنا محبش الشتا أبدًا».

فقال عباس في اهتمام:

«والتذاكر يا طاهر؟».

«زي ماهيه».

«بنص فرنك؟».

«ونكله».

وصفق عباس بيديه وهو يعود للحجل من جديد في طرب قائلًا:

«يا حلاوة النبي يا جدعان».

وكانا ساعتها قد أصبحا أمام دار السينما في الناحية المقابلة.. فاندفعا في سرعة يجتازان الطريق الذي يفصلهما عن الأنوار الباهرة والأضواء التي كانت تجذب قلبيهما الصغيرين.. والتصق جسداهما بالباب الحديدي الضخم، وتشبثت أصابعهما بقُضْبانه الرفيعة المتشابكة وعيونهما تلمع وتنظر إلى الصور المعلقة في سرور ونشوة.

ومال عباس برأسه إلى الخلف، وأخذ يردد وجسده يتطوح في الهواء بينما يداه متشبثتان بقضبان الباب المغلق:

«بكره الافتتاح العظيم، ثلاثة أفلام هائلة في بروجرام واحد».

وكان واضحًا أنه لا يقرأ شيئًا، وابتسم طاهر ساعتها وهو ينفذ بيده من خلال قضبان الباب ويشير إلى الصور المعلقة على الجدار اللامع في الداخل ثم يقول:

«ميت فل، ده بكره الفيلم بتاع آه يا ظالم».

وبان السرور على وجه عباس وهو يعود إلى وضعه الأول ويقول: «أنا ما شفتوش».

«أما حتة فيلم يا بني!!».

«حلو؟».

«أنا دخلته أربع مرات السنة اللي فاتت».

«حلو؟!».

«لوز».

وبحلق عباس بعينيه الزرقاوين في إحدى الصور المعلقة، وانفرجت شفتاه عن أسنان دقيقة صغيرة وهو يصيح:

«الله.. ده الوله بتاع ظلمتوني ياهوه».

«ده باس في الفيلم بوس يا ويكا».

«احكي يا ابو الطهر احكي والنبي..».

«شايف الصورة دي.. ساعتها كانوا بيتخانقوا».

صفق عباس في غبطة شديدة وهو يقول:

«هو فيه عراك كمان؟ ميت نجف».

«لا يا وله، ده عراك نواعمي، أصل هو كان أبوه باشا».

«وهي؟!».

«أبوهـا.. أبوهـا غني قوي.. وكان هو سـاكن في حتة دين سراية لوحده، وكانت بتروح له هناك.. وكان فيه واحد تاني بيحبها، فعمل فيهم مغرز».

«وبعدين؟!».

«راح سراية أبوها..».

«أبوها كمان عنده سراية؟».

«أُمـال.. سراية أبهـة، كان يا سـيدي فيها عفش يبجـي.. يبجي .. يبجي بمليـون بدشـيليون جنيه.. وعنده يمكـن... يمكن عشريـن... قول تلاتين خدام.. وكل خدام بياخد في الشهر قول.. قول ميت جنيه..

«وكان فيه أكل في السراية؟».

«وكان ليها أخ بايظ ابن حرام..».

«كان مرافق اربع نسوان..».

«وعنده سراية؟».

«أُمال!...».

«وكان فيها أكل؟».

«وكل واحدة من النسوان كان مأجر لها سراية».

«وكان فيها أكل؟».

انفلـت طاهـر يجري إلى الشـارع وقد لمحت عيناه عقبًـا متوهجًا يطير من إحـدى السـيارات يتدحرج فـوق أرض الطريق وسرعان ما أطبقت شـفتاه الرقيقتـان على العقب. وجذب نفسًـا عميقًا ثم قدمه إلى عباس وهو يسـعل قائلًا:

«كرافن».

وقال عباس وهو يلتقط العقب ويدسه في نهم بين شفتيه.

«قول بأه يا بو الطهر وبعدين..؟ كان فيه أكل في السرايات؟».

«كانت كل سراية فيها ييجي عشرين.. قول تلاتين.. لا.. خمسين أوضة، وكل أوضة فيها أربع...».

الوقت متأخر دائمًا

- 1 -

كان لا بد للحصانين بعد أن انحدرا في النفق أن يصعداه مرة أخرى إلى الشارع المضيء.. وكان الصعود رغم صعوبته دائمًا ما يصيب الرجلين والحصانين بنوبة مرح ونشاط.. وعندما انتهى نصف النفق المنحدر أخذ الحصانان يستعدان للصعود، فضربا الأرض بحوافرهما، وصهل أحدهما، وشرع الآخر رأسه، وبدأت الرحلة عندما وقف الرجلان خلفهما وأطلق كل منهما صيحته..

على الفور فعلت الصيحات فعلها.. فقد نفرت عضلات الحصانين واندفعت حوافرهما تضرب بلاط النفق في قوة فجرت منه الشرر، وامتلأ قلب النفق برجع الصدى في سكون الفجر هذا، واختلطت ضربات الحوافر بالصيحات المرحة بفرقعة السياط.. وعندما أطل ضوء الشارع بدت الأرض مبتلة بندى الصباح البارد، ولم يكن شعاع الشمس قد طرق حافة الأفق بعد، والعربتان آتيتان من حقل واحد ذاهبتان إلى سوق واحد.. وما زال الوقت متسعًا.. ورغم هذا فلم يكف الحصانان عن العَدْو عندما وصلا إلى الطريق، وبدت عضلاتهما في ضوء المصابيح متناسقة قوية.. وانتظمت ضربات

الحوافـر عـلى الأرض في إيقـاع كانـت تصاحبـه الصيحـات المرحـة.. وظل الرجـلان واقفين وكل منهما يشرع في الهواء سـوطه، ويبدد السـكون بصوته وقد غمر الجميع سرور كبير..

- 2 -

كان الشـارع ينسـاب حتى يصـب في بحيرة النـور عند الميـدان الصغير، ثـم ينثنـي إلى اليسـار لينطلق بـين صفين من الأشـجار حتى مَـدَى البصر.. وعندمـا وصلت العربتان إلى الميـدان كانت سرعتاهما في ازدياد.. وكان قلب النفق من خلفهما يسـتقبل سـيارتين فارهتين كانتا تنحدران خلف بعضهما في انسـياب هادئ.. غير أنهـما أصبحتا متوازيتين عندما انتهـى النصف المنحدر وبـدأ طريـق النفق الصاعد.. ومن خـلال نوافذ السـيارتين المفتوحة انبعثت الضـحكات شـديدة المـرح، وأطل أحد الـركاب واقترح الذهـاب إلى مكان آخر ليكمل الجميع فيه ليلتهم، ودوت على الفور صيحات المرح هنا وهناك، وظلت السيارتان متوازيتين وهما تزأران في طريق الصعود، وكل سائق يبذل مع السـيارة جهـده فيزداد الزئـير.. وعندما ظهر نور الشـارع فجأة لم تخفف السـيارتان من سرعتيهما، وازدادت الضـحكات صخبًا، واندفعت السيارتان نحـو الميدان في لمح البـصر، وبدأتا الدوران مع الشـارع والسرعة تزيد لحظة بعـد لحظـة.. وبـدت عربتا الخضـار في قلب الشـارع غير بعيدتـين، وعندما انتهت دورة السـيارتين حول الميدان، كان أول وفد من أشـعة الشمس حافة الأفق.. فانطفأت الأنوار، وعم الظلام..

- 3 -

انبعـث من السـيارتين ضوء باهر بـدا كنفق يخترق جبل الظـلام، وازداد تصايـح الركاب وصخبهم وهم يرقبون عربتي الخضار المندفعتين في سباق متكافئ تمامًا، وصنعت الصيحات مع زئير السـيارتين لحنًا شـديد الصخب، وكان الضـوء يغمـر عربتي الخضـار وينفذ إلى الطريق أمامهـما فيزداد اندفاع الحصانين.. كانت إحدى العربتين تسـبق الأخرى.. وكلا الحصانين قد شرع رأسه في الهواء وتطاير الشعر فوق عنقه لامعًا، وصيحات الرجلين تطاردهما بلا توقف.. والتصقت مقدمتا السيارتين بمؤخرتي العربيتين، وامتلأ الصبح بضجيج الأبواق وأصوات الرجال الذين أطلوا من النوافذ وراحوا يمطرون السـائقين بالصرخات، وبدأت المسـافة بـين العربيتين تزداد اتسـاعًا، وازداد عدو الحصان المتأخر فاشـتد صياح السـائق المتقدم، واندفعت السيارتان معًا نحـو المنطقة الخالية وكادتا أن تصطدما لولا صُراخ العجلات وهي تتشـبث بـالأرض، وجفل الحصان المتقـدم فصهل واندفع إلى الأمـام فجأة.. وتمايل الخضار فوق العربة عندما اندفعت إحدى السيارتين لتنفذ من بين العربتين. واسـتدارت السـيارة الأخـرى لتصعد الرصيـف بسرعة ثم تميل إلى اليسـار بعنف لتهبط إلى الطريق وتسـتقبل ضوء السـيارة الأخرى في مقدمتها تمامًا.. ودوَّى في الظلام صوت الصدام، واندلع لهب شديد الاحمرار، وقفز الحصان الأول إلى أعـلى، وجـذب الرجل الثاني لجـام حصانه فانزلقـت حوافره على الأرض ثم تسمَّرت فوقها.. وساد بعد ذلك سكون عميق، كانت تقطعه بين الحين والحين صيحات الألم!!

- 4 -

عندمـا تحركت العربتان بعد ذلك كانت الشـمس قـد أشرقت منذ زمن، وكان الطريـق أمامهـما مسـدودًا بالحطـام والدمـاء. فـكان عليهـما أن يعودا حتـى الميدان لينثنيا نحـو طريق آخر.. ورغـم أن الوقـت كان متأخرًا، ورغم أن السـوق فتح أبوابه منذ سـاعات، فـإن العربتين كانتا تزحفـان من جانب الطريق في بطء.. عربة خلف الأخرى.. وكل رجل علق اللجام بيده وأطرق صامتًا.. وراح الحصانان يضربان الأرض بحوافرهما في نغم حزين.. وأحمال الخضار تتمايل..

مغامـرة صغيـر

ضج المكان بالصراخ من كل جانب، وزحفت عجلات عربة مسرعة فوق أرض الطريق في صوت حاد مفزع، وانطلقت أبواق سيارات كثيرة تملأ المكان بالضجيج وكأنها تقول: «حاسب..»!

وانفلت الصبي من أمام العربة مندفعًا غير مبال، وقفز بقدميه الصغيرتين الحافيتين قفزة سريعة، وتوقفت عجلات أخرى مسرعة، وأطلقت صراخًا حادًّا ثاقبًا وازداد الذعر فجأة، وجحظت العيون وهي ترقب الجسد الصغير وهو يتدحرج فوق الأرض اللامعة كبلية ضئيلة قذرة، بين جبال لامعة مضيئة، وعجلات سوداء مستديرة ربضت فوق الأرض بلا حراك، أو أخذت تدور في بطء شديد.. كان الصبي في ذلك الوقت قد توقف لبرهة، ثم قفز إلى الوراء قفزة سريعة، ومرقت سيارة من أمامه.. فانثنى مسرعًا ودار حول نفسه مبتعدًا عن طريقها، وتعلق طرف جلبابه بمؤخرة السيارة، فتمزق وامتدت يده الصغيرة السوداء تطوي طرف الجلباب حول ساقيه النحيلتين وهما تعدوان مسرعتين.. وكل شيء كان قد تسمر، عربة وراء عربة، وتوقف طابور طويل من العربات.. وفتح سائق باب عربته وهبط منها مغيظًا محنقًا وهو يسب ويلعن.. ثم هبط آخر، وثالث.. و .. وازدادت الضجة،

وأسرعت أقدام كثيرة تهبط الرصيف، وتلاقت كفوف بكفوف، وانفرجت شفاه والتقت لاعنة ساخطة.. وتوقف ناس كثيرون، وأتى آخرون من بعيد، وانصبت كل العيون فوق الجسد الصغير الذي كان يزحف مسرعًا بين العربات كدودة صغيرة، وأسرع رجل وراء الصبي مهددًا، وأسرع الصبي يدور بين العربات.. ارتفعت يد وهوت تجاه صدغه في غل، وأمال هو رأسه فأفلتت اليد، وقفز من تحتها مسرعًا، واندفع نحو منتصف الطريق، وصرخت عجلات أخرى مسرعة، وتوقفت تمامًا عن السير.. وسب الرجل للصبي أباه، فارتفعت رأس الصبي بغتة إلى أعلى، والتقت عيناه المرحتان بعيني الرجل الغاضبتين، وافتر فمه عن ابتسامة، وسب للرجل جدوده غير مبال، فاندفع هذا نحوه مغيظًا، وتجمع الرجال حوله من كل جانب، فدار حول نفسه، وانثنى يخترق الفضاء الصغير بين عربتين لامعتين، وتحسست كفه سطح إحدى السيارتين، فتوقف برهة مسرورًا بنعومتها ولمعانها، ولمح خياله على سطحها، وارتفعت عيناه فلمحتا وجهًا أكثر نعومة كان جالسًا داخل العربة وقد بانت في عينيه الخضراوين دهشة غريبة، فابتسم ورفع كفًّا صغيرة دقيقة ذات أظافر سوداء إلى رأسه في تحية سريعة، ولم يسع الوجه الناعم إلا أن يفتر عن ابتسامة رضي عنها الصغير وخفق لها قلبه فرحًا.

واندفع نحوه في تلك اللحظة عملاق هائل الجثة، وقد فرد ذراعيه الحائلتين يسد بهما الطريق عليه.. فتسمرت قدماه فوق الأرض الملتهبة، وتحرك العملاق إلى الأمام.. فمال هو إلى اليمين، ومال العملاق إلى اليمين بسرعة، وسرعان ما اندفع الصبي نحو اليسار وانفلت كالريح.. وضج المكان بالضحك.. فازداد سروره، وازدادت ابتسامته اتساعًا.

كان واضحًا أنه يبحث عن شيء.. ذلك أنه كان دائمًا يلقي بنظراته إلى الأرض، ويتحسس بهما الأماكن، ولكنه لم يتوقف، وكان الهجوم قد ازداد عليه وتطوع أكثر من واحد للإمساك به، والضجة تصم الآذان، والضحكات والتعليقات تترى من هنا وهناك.. وكان واضحًا أنه وجد في الجمع بعض المؤيدين والمشجعين.. وصرخ جندي ظهر فجأة في المكان كأن الأرض انشقت ولفظته، وأصبح المنظر أكثر إغراء وأكثر جاذبية.. وهو سادر في زوغانه السريع، يجري من بين ساقين، ويزوغ من كف هائلة تسقط فوق جدار عربة فتحدث دويًّا شديدًا.. ويصرخ صاحب اليد، ويصرخ صاحب العربة فيه، ويكاد الرجلان يتماسكان لولا أن المنظر أصبح أشد إغراءً عن ذي قبل.. فالصبي لا يتجه إلى خارج الحلقة، بل هو يندفع إلى الوسط، ويحوم حول العربة الأولى التي كان صاحبها يطلق نفير عربته ليوسع له الناس طريقًا دون جدوى.. وانهال السباب من كل فم، وازدادت ابتسامة الصغير ولمعت أسنانه الصغيرة البيضاء، وقالت سيدة كانت تطل من شباك عربة «واد عفريت.. يا حرام!».. وقال رجل كان مستندًا إلى عجلة صدئة «دا ابن حرام.. هو حاسس». وما لبث الطفل أن صعد فجأة فوق سطح سيارة.. وانطلقت الضحكات والشتائم في وقت واحد.. وجسده كان يدور في سرعة فوق السطح ثم يهوي بحذق نحو الأرض.. وانكمش تمامًا.. وامتدت أصابعه الدقيقة وهبشت سيجارة كانت مقدمتها مشتعلة.. وما لبث جسده أن انفرد بغتة كما انكمش بغتة.. وانفلت يجري بكل قواه.. يداعب هذا، ويسب ذاك، ولا يكف عن الابتسام..

ثم قفز قفزة.. وأصبح في جانب الطريق.. وأطلق ساقيه للريح.. سرعان ما تحركت العربـة الأولى، وتلتها عربة أخرى، وعلـت الضجة من جديد - ضجة الرحيل - والناس مجتمعون وهم يرقبون جسـده من بعيد، كان صغير الوجـه، دقيق التقاطيع، عيناه زرقاوان براقتان، وشـعره أصفر ناعم، تهدلت خصلـة منـه فوق جبينه العريض اللامع، ويتوسـط وجهه أنـف دقيق جميل، ينتهي بشفتين صغيرتين تفتران دائمًا عن ابتسامة عربيدة.. وبين الشفتين، كان قد دس السيجارة التي التقطها منذ برهة.. وأخذ ينفث دخانها في تلذذ شديد، وبين الفينة والأخرى كان يستدير برأسه إلى الوراء، ويلمح بقايا المتجمعين، فتزداد ابتسـامته، ويجذب نفسًـا شـديدًا يدفع به إلى رئتيه الصغيرتين ثم ينفثه في الهـواء.. وصـوت الجنـدي يصـل إليه مهـددًا إيـاه.. ويعاود هو سـيره في اطمئنان.. اطمئنان شديد.

حـادث علـى الطـريـق

عـلى غـير العـادة، كان الأتوبيـس خاليًـا، لم يكـن هنـاك سـوى السـائق والمحصـل وراكبين.. كانت شـوارع المدينة مزدحمة بالخلـق، ورغم هذا فلم يركب الأتوبيس أحد. وكان المحصل سـعيدًا كل السعادة لهذه الظاهرة التي اختفـت في الأيام الأخيرة، فراح يتندر مع السـائق بصوت عال عن الركاب وتزاحمهـم، وعـن الخلـق الذيـن يتكاثرون كالأرانـب، وعن البعـض الذين يشـمون بأنوفهـم وكأنهم ليسـوا بشرًا مثل خلـق الله، هؤلاء الذيـن يقولون كلامًـا غريبًـا مضحكًا، ويرتـدون قمصانًا بيضـاء، وأربطة عنـق يصل ثمن الواحدة منها إلى أجر شـهر كامل، ويسبسـبون شعورهم ذات اليمين وذات اليسـار ويظنون أن الكلام الذي ذاكروه في المدارس يجعلهم أهم من غيرهم من عباد الله الذين يشقون من الصباح حتى المساء، من أجل لقمة العيش.

وتحمـس لهـذا الكلام أحـد الراكبـين وكان يرتـدي بذلة أنيقـة، وقميصًا حريريًـا أبيـض، وربـاط عنق يلمع تحت ضوء الشـمس المتسـلل مـن نافذة السـيارة، ويبـدو عليـه أنه قرأ كثيرًا حتـى ضعف بصره، فقـد كان يضع على عينيه نظارة سميكة..

تحمس الأفندي لهذا الكلام فدق إصبعه في منتصف نظارته، وجاء صوته رفيعًا كخيط حريري، وراح بدوره يسب هؤلاء المتغطرسين الذين لايفهمون معنى الحياة، ويؤكد أن الناس إخوة، وأن كل فرد في المجتمع عليه أن يؤدي واجبه كما يجب، بصرف النظر عن درجة «محصل» وموظف درجة خامسة في وظيفة تعتبر من أخطر الوظائف العلمية في وزارة الاقتصاد، بصرف النظر عما إذا كان هذا المحصل لا يعرف سوى القراءة والكتابة، وبصرف النظر أيضًا عن الدرجة العلمية البالغة الخطورة التي حصل عليها هذا الأفندي، والتي تعتبر فتحًا علميًّا في تاريخ الاقتصاد الوطني، وتعتبر عكازًا علميًّا يستند إليه المجتمع، وأسلوبًا علميًّا جديدًا سوف يرفع من شأن الناس في كل الأقطار، بصرف النظر.. بصرف النظر..

وساد الصمت لثوان، وتبادل المحصل والسائق نظرات دهشة، ومر الأتوبيس بإحدى المحطات، وأشار راكب للسائق أن يقف عليها غير أن هذا - لسبب لايعلمه أحد - لم يقف بل ضغط بقدمه على مفتاح البنزين فازدادت سرعة السيارة.. وتنحنح الراكب الثاني.

وكان الراكب الثاني يجلس في المقعد المقابل للأفندي، وكان على عكسه تمامًا ضخم الجثة، غليظ الصوت، منفوش الشارب، لايرتدي بذلة، وإنما يرتدي جبة وقفطانًا منتفخًا من ناحية الشمال، ويكاد انتفاخ القفطان هذا أن يصرخ: أنا بنكنوت!

ولم يكن للصمت معنى ورغم هذا فقد ساد السيارة!

وكان المحصل يبدو قلقًا عصبيًّا فصاح أنه يريد أن يذهب ليخلص الشاب حتى ولو ذبحه الشرطيان، ولولا أنه في ساعات عمله لفعلها.

فتمتم الأفندي وهو يداعب رباط عنقه بيد رقيقة إنه هو الآخر على موعد عاجل، وأن هذا الذي يحدث ليس سوى بربرية، وأسلوب همجي وبقايا استعمار، بعض الناس يخافون من السلطة، وأن الأسلوب العلمي كفيل - ذات يوم - بالقضاء على هذه الظاهرة.

ضحك المعلم بصوت عال.. المسألة ليست بهذا التعقيد، إن بضعة قروش كفيلة بأن يتحول هذان الشرطيان إلى تابعين للمرء... الشاب يحتضن الراديو في خوف وهلع، والأغنية في حضنه وبين ذراعيه تنتهي، والمذيع ينادي الجماهير الملتمة من حوله، والصفعات لا تزال تدمي الوجه، ولا بد أن تكون المسألة برمتها قروضًا يأخذها الشرطي في السر، فتحل المشكلة.

وانتاب الأربعة غيظ شديد، وانطلقت كلماتهم تتشابك وتتبارى وراحوا جميعًا يتحدثون في حماس.. الغضب يحتدم، يحتدم، يحتدم، للأمر من وجهة نظر كل منهم حل، حل هو الوحيد، هو الفعال هو الكفيل بوقف كل إنسان عند حده، ووضع الشرطي في مكانه، ولا بد للسيارة أن تتحرك، فالسائق مرتبط بموعد، والمعلم على موعد للقاء عاجل، والأفندي مرتبط.. وعندما بدأت السيارة تتحرك، لمحها أحد الشرطيين فجأة، فترك الشاب، وجرى نحوها، وضغط السائق على الفرامل فهدأت سرعتها، وقفز الشرطي إلى السيارة، وعم الصمت تمامًا.

وقـال المعلـم بصوت أجـش إن المسـألة في الأصل هي الأصـل، وما دام أصـل الإنسـان عريقًا فالرجـل منا لايعيبه سـوى جيبه، هذه هـي الحكاية.. وإذا كان الناس متسـاوين وأبناء شهور تسـعة في بطون أمهاتهم، فالفرق بين الرجـل والرجل ليس سـوى قدرته على أن يكون رجـلًا.. هذه هي الحكاية، هذه هي الحكاية فقط.

وكانت لهجـة المعلم توحي بالإنـذار، وإذا كان الأفندي بدا غبيًّا لا يفهم ما يريد المعلم أن يقول بالضبط، فإن المحصل أيد الحديث الأجش بسـعادة، وراح ينقـل حقيبة النقود من ناحية إلى أخـرى، ويعدل من وضع ربطة عنقه ويصيح بأن الله قد جعل بعضنا فوق بعض درجات، وأنه إذا كان محصلًا فإنه متعلم قطع شوطًا لا بأس به في التعليم، وإذا كانت المسألة مسألة أصل فكل الناس أولاد أصول، وأنه - شخصيًّا - ابن رجل كاد يصبح ذات يوم وكيلًا للوزارة، وأن له شقيقًا في الدرجة الرابعة وربما كانت الثالثة في وظيفة خطيرة بوزارة عظيمة.. وأن الحكاية منبتها وأصلها وجذرها هي الأخلاق فما فائدة المال إذا كان الإنسـان مكروهًا؟ وما فائدة العلم إذا كان الإنسـان غبيًّا يتعالى على خلق الله بما أعطاه الله؟ هذا هو الأمر، هذا هو الأمر!

وصاح السـائق في الكمسـاري وسرعة السـيارة تـزداد: إن الرجولة هي كل شيء في الإنسـان، هـي كل شيء، هـي كل شيء.. وإذا كان الرجل رجلًا فـلا يعيبه أحد، أما إذا كان جبانًا فهذا هـو العيب الأكبر.. لا العلم ولا المال ولا الأخـلاق، لا أبدًا.. الرجولة هي المحك، الرجولة هي التاج الذي يتوج هامـات البـشر، الرجولـة هـي كل شيء، أليس كذلـك.. الرجولـة هي كل شيء...

وسكت السائق وارتجت السيارة بمن فيها ارتجاجًا هائلًا، توقف فجأة وكأن السائق يريد أن يثبت كلامه بالفعل.. توقف صارخًا من جديد وهو يشير إلى جمع من الناس يقفون عند ناصية زقاق، كانت الشمس تميل، ووجه الدنيا يبدو رماديًا متجهمًا حزينًا، وصوت السائق يجلجل في السيارة، هذان شرطيان يضربان شابًا يحمل بين ذراعيه راديو، كان أحدهما يصفع الشاب فيتلقاه الآخر بالصفع ليعود إلى الأول من جديد، هل هذه رجولة؟ - هكذا صاح السائق - ووالله لو حدث هذا معه لأكل الشرطيين أكلًا.. هنا، في مثل هذا الموقف.. ماذا يفعل العلم؟. هل يضرب الشرطيين؟ وماذا يفعل المال، أو حتى الأخلاق؟ وجه الشاب يدمي من الصفعات، وصوت الراديو يلعلع بأغنية!!

ولم يكن ممكنًا للصمت أن يدوم، كان يبدو على الشرطي أنه غاضب فبدأ يتمتم بكلمات راحت تتناثر وكانت عيون الأربعة تائهة في الشارع الرمادي الهادئ الذي كانت السيارة تعبره، وكانت تمتمة الشرطي تتحول إلى زمجرة، كانت تطالبهم بالرد على الحكاية التي راح يحكيها، حكاية الشاب المضروب، الدامي الوجه، وكان واضحًا أن أحدهم لم يسمع الحكاية، فقد كان صوت الشرطي يتناثر مع تيار الهواء المندفع من الباب المفتوح، وما إذا كان هذا الشاب مخطئًا، ولا بد أنه مخطئ.. أليس كذلك؟.. أليس كذلك؟!

وقال المحصل فجأة - وفي حماس -: إن الشرطي على حق، وإن الشاب مخطئ، وأنه يستحق ما ناله.. قالها وعيناه تسبحان في سقف السيارة، وقال الشرطي وهو يدق عينيه في عيني المعلم: أليس معه حق فيما فعل؟ ألا يستحق الشاب ما أصابه؟

وقـال المعلـم: إن المسـألة مسـألة أخـلاق، وإن عديم الأخـلاق لا بد أن يعاقب!

وقـال الأفندي: إن على السـلطة أن تمـارس حقها، وإن على الإنسـان أن يحـترم القانـون، وإن الخـروج على القانون ليس سـوى بربرية يجـب أن تجابه بالقوة..

وقال السـائق: إن المسـألة مسـألة أصول ولـو أن أهل هذا الشـاب كانوا أولاد أصل لما فعل ما فعل، وإن الحكاية حكاية تربية..

وعاد المحصل يقول: إن العلم هو المهم، ولو أن مثل هذا الشاب تعلم كما يجب لعرف أن الله حق.. وأن.. وأن.. وأن..

وعاد الصمت يسود السيارة من جديد.. كان الشرطي قد قفز منها فجأة في أحـد المنحيات، والتقت عينا المحصل بالأفندي، فهربت عينا الأفندي إلى النافذة، واسـتدارت عينا المحصل نحو المعلم الذي كان يجمع جبته وقفطانه وعينـاه على الأرض، وصاح المحصل في السـائق إن الوقت تأخر، وإن عليه أن يسرع..

فأجابته زمجرة السـيارة، غـير أن أحدهم لم ينطق بعدهـا بكلمة.. وكانت سرعة الأتوبيس تلهب خوف الناس في الطرقات.

المقــامــرون

كان المكان كأنـه مولـد كبـير لأحد الأوليـاء.. بائعـو الكبـد والطحال. الطعميـة.. الطـرشي.. البرتقـال واليوسـفي.. وأنـاس كثـيرون.. متباينون ومختلفـون.. ولكنهـم جميعًـا كانوا كمـن أصيبوا بحمـى غريبة.. يتناقشـون ويتحمسون.. يصرخون ويهمسون.. كلهم كانوا يقفون في الشارع في حلقات متفرقـة.. ولكنها كانت تذوب تدريجيًـا في طابور طويل.. يختفي كالثعبان في فرجة الباب المفتوح نصف فتحة كالساقين إلى قدر محتوم..

ولم أكن قد شـاهدت سـباقًا للخيل من قبل.. ودفعني حب الاسـتطلاع لأن أدخـل.. ولم يطل تـرددي.. وأصبحت نقطة في خـط الطابور الطويل.. وابتلعني بعد لحظات، الباب المفتوح نصف فتحة.

ولم يكـن المنظر في الداخل أقل غرابة منـه في الخارج.. والأصوات تنتشر في الجو فتحدث نغمًا منسـجمًا.. لست أدري من أين أتى انسجامه هذا.. كان كالموسـيقى الصاخبة التي تهدف إلى إحساس معين.. موسيقى خلقتها روح فنان مبدع.. أراد أن يقودنا نحو القلق والأمل.. والخيبة والعذاب..

وصعدت السـلم إلى المدرج الكبير.. وتركـت ورائي الأوراق والناس.. ومرجـان.. وسـتهم.. وشـيخ العرب.. وأسـماء كثـيرة لجيـاد لا أدري عنها شـيئًا.. واخترت ركنًا بعيدًا.. عن الناس.. واشـتد الزحـام فجأة مع حماس

وغمغمة.. ومرت جياد صفق لها البعض.. وبحلق فيها البعض الآخر.. ولكن عيون الجميع كانت تنطلق بالرجاء.. والأمل..

وبجانبي كان رجل أبيض الشعر.. وجهه جامد لا ينم عن شيء.. في فمه سيجارة كادت تحرق شفتيه.. وكان مكبًّا على جريدة بين يديه.. وقد أمسك قلمًا وبجانبه كان يضع طفلًا صغيرًا يلبس سروالًا قصيرًا.. وقميصًا قديمًا قذرًا..

كان الطفل.. ينحني على أذن الرجل الذي كان واضحًا أنه أبوه.. ويهمس فيهز الرجل رأسه هزة خفيفة بلا مبالاة ويقول في صوت خافت «بعد الشوط ده..».

وتنهد الصبي وهو يسند رأسه إلى كفه الصغير..

وكان أحد الأجانب يجلس بجانب الطفل وهو في مناقشة حامية مع اثنين من أولاد البلد.. كان أحدهما يضع على عينيه نظارة سوداء.. وسيجارة في يده اليسرى بينما يده اليمنى تعبث في الجريدة بغير اهتمام.

وكان الأجنبي يتكلم عن أسماء.. وجياد ومكاسب وخسارة.. وحاولت أن أفهم شيئًا مما يقوله دون جدوى.

«إنتي لازم تسمعي كلامي.. دي محجوب واخد حصان كويس كتير.. دي جاب تلاتة جيني وأربعين قرش».

وتدخل الرجل ذو النظارة السوداء في ذلك الوقت.. وقال لزميله: «ما تسمعش كلام الراجل ده.. إنت مش صاحب مزاج..!».

ونفخ صاحبه صدره.. وجذب نفسًا من سيجارته.. ولوى رقبته إلى اليمين، وقال:

«آه.. أمال..».

«خلاص.. العب على اللي تفهمه.. وبس..».

وجذب الطفل الصغير انتباهي في هذه اللحظة.. فقد كان ينحني على أبيه.. وهو يقول في رجاء.. وقد علا صوته.. وظهر الألم على قسمات وجهه التي انكمشت تعلن ضيق وتبرم صاحبها.

«عاوز سميطة يا بابا..».

ورفع الرجل رأسه من الجريدة التي كان منهمكًا فيها.. ونظر إلى ولده.. كأنه لا يراه.. ثم قال بصوت خفيض..

«بعد الشوط ده..».

وانكمش الصبي في مكانه.. وخفض رأسه هذه المرة إلى الأرض.. كان صوت الرجل هادئًا حقًّا.. ولكنه كان جادًّا باترًا كالسيف..

ورحت أدور ببصري في المكان المزدحم.. وأنا أحس كأني في حلم غريب.. وفجأة.. نهض كل الناس مرة واحدة.. وسمعت صوت ناقوس حاد.. وأخذت الأصوات تتضخم وترتفع.. فنهض الرجل العجوز من مكانه ولكن الصبي لم ينهض.. وبقي تحت الأقدام يسند رأسه إلى كفه الصغير..

«يا للا.. يا للا يا مرجان.. هوب.. يا للا يا شيخ العرب.. شد حيلك.. أيوه».

ولم أكن قد رأيت شيئًا بعد.. أين الجياد؟!.. واستدرت لأسأل جاري العجوز.. وكان الرجل صامتًا.. ووجهه ما زال جامدًا ولكن عينيه كانتا مثبتتين على مكان ما وفي يده الجريدة ترتجف.. وبين شفتيه السيجارة تهتز.. وامتصني منظره.. وأحسست كأني أريد أن أحتضنه وأخرج به بعيدًا عن ذلك المكان

وهذه الحيـاة.. ولكنه فجأة.. رفع قبضته.. وأخرج مـن فمه فحيحًا.. وكانت الجيـاد قد ظهـرت واضحة قريبـة.. شيء غريـب جعلني أحبـه.. وهو واقف يخرج ذلك الفحيح.. وعندما حاذتنا الجياد.. كدت أنسـاه تمامًا.. كان الصراخ قد علا واشتد والناس كأنهم في تشنج عجيب والجياد تجري بسرعة..

وانتهى الشـوط.. ونظرت إلى جاري لأطمئن عليه.. كان جالسًـا بجوار ابنه.. وقد نطق وجهه هذه المرة بالخيبة والألم.

وجاء إليَّ صراخ الرجل الأجنبي.. وهو يتكلم مع زميله وفي يده أوراق عديدة..

«شايف اللعب.. دي اسمه فن.. تقول مزاج.. مزاج إيه.. دي فن.. روح بيتكم أخسن..».

وكان زميله ينظر إلى الأوراق في حسرة والناس بعضهم ينزل..

والبعـض جالـس في مكانه.. وآخرون يتناقشـون والـصراخ قد علا من جديـد.. الوجوه المنفعلة المتألمـة.. والنظرات الحيرى المتعبـة.. التي تنظر إلى لاشيء.. وتتبع في الهواء أشـباحًا وأوهامًا.. ووجوه صفراء ممتقعة.. وأخرى حمراء منفعلة..

والنـاس كانوا قـد غابوا عـن وعيهم في إغماء اسـمه السـباق.. والصبي جالس في مكانه يختلس النظر إلى أبيه بين الفينة والفينة.. دون أن يتكلم.

ونزل الرجل.. وعاد.. وما اختفت السـيجارة من فمه.. ولا الجريدة من يـده وجلس بجانب ابنـه.. ولكن الحياة بدأت تدب في وجهه.. وعيناه شَعَّ منهـما بريـق عجيب.. ووجنتـاه كانتا تحملان شـعيرات بيضـاء ثابتة أخذت تهتز.. ويداه لا تكفان عن الارتجاف..

وعندمـا مـرت الجياد في عرض قبل الشـوطين.. ووقف وهـو ينظر إليها ولمحت شبح ابتسامة يطوف بوجهه.. ثم عاد إلى الجلوس.. ولأول مرة نظر إلى ولده.. وربت على كتفه الصغير..

كنت سعيدًا وأنا أنظر إلى هؤلاء الناس من بعيد.. وأكاد أضحك بصوت عالٍ لصراخهم سـاعة جري الخيل.. إنهم بلهـاء!!.. لم يصرخون ويهللون.. ألا تجري الخيل بدون هذه الهستيريا العنيفة التي تصيبهم؟

واستدار شيخ العرب في تلك اللحظة.. وقفز.. ثم انطلق يجري بسرعة.. وأحسست شيئًا يتحرك في أعماقي.. ماذا لو جربت حظي مرة واحدة؟!

حقًّا إن الأمر يبدأ دائمًا بهذه الكلمة ولكني لسـت مثلهم ولسـت في مثل جنونهـم.. نعـم.. يجب أن أبرهـن لنفسي أننـي أقوى من هذه السفاسـف.. سـألعب.. إنهـا تجربة.. ماذا في ذلـك؟!.. وعندما وقفت أمـام الرجل.. وفي يدي القروش العشرة.. اختطفها مني في سرعة وهو يقول:

«عاوز ايه..».

«إديني نمرة..».

كنت حائرًا.. بين مرجان وشيخ العرب.. وقال في ضيق..

«هيه بسرعة من فضلك».

«نمرة أربعتاشر من فضلك..».

وأمسـكت بالتذكـرة الخـضراء في يـدي.. ومضيـت إلى مـكاني.. ودق الناقـوس ووقفنـا.. ومرت لحظـات.. وظهرت الجياد مع ازديـاد الصراخ.. ولمحت جاري في مكانه.. كانت السـيجارة تهتز اهتزازًا شـديدًا بين شفتيه..

وقبضته تلوح في عنف.. واقتربت الجياد.. وعلا الصراخ يصم الآذان.. كان مرجان وشيخ العرب في المقدمة.. ومرجان يسبق شيخ العرب.. كان يجري كالريح لا يوقفه شيء.. عظيم.. ولكن شيخ العرب قفز قفزتين..

«يا للا يا مرجان.. شد حيلك.. يا مرجان.. يا للا..».

ونظرت إلى قبضتي وهي تهتز في الفضاء.. كنت أصرخ مثلهم مثل الجميع.. لم أكن أحسن منهم.. نفس الصرخات كانت تندلع من حلقي.. وهزة عنيفة كانت تشملني.. وجمدت في مكاني لحظة.. وكانت الحقيقة قد ظهرت جلية.. كلنا سواء..

وأنزلت يدي.. ضحكت في سخرية.. ونظرت إلى الرجل العجوز كانت عيناه تبرقان.. ولكن بريقهما كان خافتًا حزينًا.. ونظر إلى الورقة الخضراء في يده.. وقال وهو يكور الورق الأخضر الذي كان يحمله ويلقي به إلى الأرض:

«ده شيخ العرب اللي كسب».

قلت وأنا أجد لنفسي طريقًا إلى السلم.

«مانا عارف..».

وما إن خطوت خطوة.. حتى سمعت الصبي يقول في رهبة وتردد «بابا.. أنا جعت خالص».

وعلا صوت الرجل لأول مرة وصرخ قائلًا:

«قلت لك بعد الشوط الجاي».

مصـــرع إنســـان

على الرغم من أنه لم يشاهد السينما مرة واحدة في حياته.. فإن أحدًا لم يهوَ السينما مثله، ولم يحب إنسان السينما وقصص السينما قدر حبه لها.. بل إن الواحد لايستطيع أن يتذكر قصة فيلم رآه في العام الماضي إلا بالكاد، أما هو، ورغم السنوات التي لايعرف أحد عددها والتي أشعلت رأسه بالشيب، فقد كان يستطيع أن يقص عليك قصة مائة فيلم دون أن يغفل منها حادثة، أو كلمة حوار، أو حتى نغمًا موسيقيًّا!

وهو لا يدري السبب الذي من أجله لم يفكر في شراء تذكرة وولوج ذلك الباب الذي يقود إلى عالم يحكون عنه الحكايات.. بل الواقع أنه لم يكن هناك سبب لذلك على الإطلاق.. كل ما هنالك أنه لم يشعر لا في شبابه، ولا في رجولته، بل حتى في شيخوخته وبعد أن أحب السينما أكثر من أي شيء في الوجود.. لم يشعر برغبة ولو عابرة في مشاهدة فيلم.

ورغم ذلك فلقد هوى السينما.. في الشتاء، حيث تغلق الدور الصيفية، وتصبح السينما فقط داخل أماكن مغلقة.. كان يظل طوال تلك الشهور يترقب وينظر في لهفة وشغف.. ثم ما إن يهل الربيع، حتى تبدأ تلك الدور في العمل.. وتنطلق منها الأصوات إلى الخارج، فيسمعها الرائح والغادي

ويـرى الناس أشـباحها المتحركة من أماكن معينة من الطريـق، وقد يتوقفون بالسـاعات ليشـاهدوها بلا تذاكـر.. وفي تلـك الأثناء، يبدأ هـو جولاته بين الدور، لايفوته فيلم، ولايترك عرضًا دون أن يستمتع به.. يقسم أيام الأسبوع بـين الدور المتناثرة في الأحياء، ويسـتمتع كما لا يسـتمتع أحـد، دون أن يدفع ثمن تذكرة، أو يقف مع الناس في الطريق، فنظره ضعيف لايصل إلى هناك.

كانـت البداية في أحد أيـام الصيف، وكان قد انتهى من عمله والشـمس لم تغـرب بعد، ودبيب التعب يـسري في أعضائه الواهنـة المتهالكة، وهو يجر قدميه باحثًا عن مكان يسـتريح فيه.. وعلى شـاطئ النيل وجد ناسًـا كثيرين منتشريـن كحبـات الأرز.. أطفـالًا وصبيانًـا وبنـات ورجـالًا ونسـاء وباعة وصراخًـا ونداءات وضجيجًا، وضيقًا يتسرب إلى نفسـه فيدفعه عن الناس، فليس له بينهم أحد.

ولا يدري يومها ما الذي ألقى به بجوار ذلك السور المنخفض.. كان المكان خاليًا إلا من سـيارات مرصوصة وأرض الرصيف ناعمة نظيفة، فألقى بنفسه وتكوَّم.. أسند رأسه إلى ذراعيه، وأسند ذراعيه إلى ركبتيه.. وسرح، ولايدري فيم كان سرحانه وهموم الدنيا ثقيلة، وهم عجوز مثله أثقل.. فلا زوجة له ولا ولد. حياته بدأت من نقطة بعيدة موغلة في البعد، وكان الظلام يحوطها، وكلما تقدمت السـنوات اشـتد حولهـا الظلام.. وعـاش حياته بـلا إرادة.. يبيع تارة ويشـتري تـارة، ويحمل الأثقال تارة، ويعمـل بناء يومًا، وبائعًـا يومًا، وخادمًا شـهرًا، وحمـالًا أيامًا.. ولايفرق بـين عمل وعمل ما دام يحصـل منه على لقمة العيش.. وتمضي بـه الحياة فلا ذكريات ولا أحـداث، ولا حتى ذاكرة تريد أن تحفظ شيئًا، بل هي تلفظ كل شيء وتتمدد في استرخاء غير عابئة.

كانـت ثمة أصـوات تصل إلى أذنيه، أصوات ناس يتكلمون، وموسيقى وغنـاء، وكان يعلـم أنها السينما، فلـم يلق لها بـالًا.. فوراء السـور حديقة.. ووسـط الحديقة ذلك العالم الذي لم تطأه قدماه ولم تره عيناه.. وغاص في لجة من الفضاء، سرح بفكره.. وجذبته - دون أن يعي - الأصوات والموسيقى والأحداث.. ولما تنبه ذات لحظة.. ابتسـم لنفسـه، فلم يكن يفهم شيئًا، وإن كان يسـمع حديثًا.. أشـعل سيجارة.. وترك للحديث والكلام والموسيقى نفسـه.. فامتصها تمامًا.. وثمة نسـمة رطبة هبت على المكان.. فمدد ساقيه في استرخاء لذيذ.. وسرح.

وعندما أضيئت الأنوار في الداخل، أطلت عليه من فوق السور فغمرته، وأفاق لنفسـه.. وضحك.. وانتابتـه راحة من نوع غريـب، وتثاءبت ذاكرته وتمطـت.. ثـم أخذت تجتر مـا وعتـه دون أن تلفظه، وتربط بـين الأحداث، وتسترجع الحديث، وتستعيد الأغاني والمعاني.

وأحس بشيء يملأ حياته..

فعاد في اليوم التالي.. عاد وكأنه مقدم على مغامرة، كأن شعورًا غامضًا قد بدأ ينمو طيلة اليوم في نفسـه، وذاكرته التي نشـطت فجأة وعلى غير انتظار، أخذت تغذي خياله بشيء لايعرفه.. بل بعالم غريب كان يذيب روحه.

وفي المسـاء وجد نفسـه يجلـس في نفـس المكان.. ووجد نفسـه يسـتمع، وينصـت، وأحـس أنـه يفهـم الحديـث، بل أحـس أنه يفهـم تلـك النغمات الصاخبة حينًا، الهادئة حينًا آخر، كانت وكأنها تلقي إليه بحديث مسحور.

واسـتجابت نفسه لكل شيء، وجد نفسـه يضحك مرة، ويسخسخ مرة، ويبكـي مرة، ويغضـب، ويثور، وينفعـل، ويتخذ أصدقـاء، وأعداء ويحب، ويكره، ولايغادر مكانه بجوار السور..

كان العجوز قد اكتشف السينما.. وكان اكتشافًا عظيمًا.

ذلك أنه يومًا بعد يوم، وأسـبوعًا وراء أسـبوع، وشهرًا ثم آخر.. كان قد أدمن اكتشافه الجديد، وكان قد قسم دور العرض التي يعرفها كلها، ثم أخذ يجرب وينتقي..

وأصبح فجأة صاحب مزاج وذوق.. وأصبحت السـينما كل حياته.. فقد فتحت له أبواب عالم مسحور.

ثم كانت ليلة...

كان يومهـا قد اختـار وانتقى، وقرر أن يعيش مع قصة عاشـها قبل ذلك مـرات عديدة، عاشـها بكل ذرة في نفسـه، ولايـدري لمـاذا، وأحبها وأحب بطلها بكل جوارحه، ولايدري لماذا...

وليلتهـا كان عليـه أن يختـار بـين داريـن تعرضان نفـس الفيلـم.. كانت إحداهما على ناحية من النيل، والأخرى على الناحية المقابلة.. ولكن تردده لم يطل، فلقد أمدته خبرته بما يكفيه شر التردد.. وقرر الذهاب إلى إحداهما..

ذهـب بعد أن اشـترى عشاءه وسجائره.. واختار مكانه، وجلس، وأسند ظهره إلى السور، وتعشى، ثم أسند رأسه إلى السور، ودخن سيجارة، وغربت الشـمس، وأضيئـت الأنـوار، وعزفت الموسـيقى.. كان في نشـوة، وكان في

ترقب لذيذ.. وكانت ذاكرتـه تفرز محتوياتها. وتقص عليه القصة بحذافيرها قصـة المجـرم الـذي كرهه جميع الناس إلا هـو.. فلقد أحس أنـه يحبه، فأحبه بـكل جوارحه.. أحبه رغم أنـه كان يسرق ويقتل ويضرب ولا يخاف أحدًا.. كان قاسـيًا شريرًا عربيدًا.. يشرب الخمر ويختطف النسـاء ويسـلب الرجال أموالهـم ويقتـل بلا رحمـة.. في أعماقه إنه بريء.. ليس لـه ذنب في كل ما كان يحـدث ويخفق قلبه عندما يسـمع صوته، وعندما يسـمع حديثـه مع أمه التي كانت تتوسـل إليه أن يكف، ولكنه يترك لها مـالًا ويقبل يدها.. ولا يكف.. ثم.. ثم..

ثـم غمـر الدنيـا ظلام كثيـف أيقـظ العجـوز.. كان الفيلم قد بـدأ وكان هـو يعيش أحداثه عندما حـدث خلل وانقطع التيـار الكهربائي عن الحي.. وتوقف العرض.

ومضت دقيقة.. ودقيقتان. وتسرب إلى نفسه شعور غريب، فراغ رهيب، شيء كالعطـش، كالجوع، شيء ينقصه، القصة.. باقي القصة الوقت بطيء.. وصدره يضيق. ولا يستطيع أن يصبر حتى يعود التيار من جديد.. إنها هناك، في الدار الأخرى، تجري أحداثها بلا توقف.. ووجد نفسه منطلقًا نحو الدار الأخرى.. عبر الكوبري مسرعًا.. لا بد أن يلحق النهاية، فالأحداث تفرزها ذاكرته وتصبها في مخيلته فتتجسد وتعيش ولا تتوقف.

سـيحاصره البوليس، وسـيطلق عليه النار، وسيجد نفسه محاطًا بفوهات تصـب عليه المـوت من كل ناحية.. ولكنه سـيدافع عن نفسـه، ويظل يقاوم رغـم رجاله الذين هربوا والذين سـلموا أنفسـهم للبوليس والذين سـقطوا

صرعـى.. ورغم توسـلات أمـه التي جاءوا له بها كي يسـلم نفسـه، أبدًا لن يسـلم نفسـه، انتهى الكوبري.. فانثنى العجوز إلى اليسـار.. لن يسـلم رغم بـكاء أمه، ورغم بكائـه هو، وعندما يصرخ المجرم في أمه أن تعود إلى البيت، وأنـه تـرك لها من المال ما يكفيها الفقر الذي ذاقته طـوال حياتها.. يزداد بكاء الأم.. وبـكاء العجوز.. وتتوسـل للرجـال أن يتركوه.. ويتوسـل العجوز، وتتداخل المرئيات أمام عينيه.. وتضيق الشوارع وتترقرق خلف دموعه..

العجوز يطوي الطريق ويترنح في سيره.. شارعًا وراء شارع، وحارة تتفرع منهـا حارة، ثم تصب في شـارع طويـل لامع، وفي نهايته كانـت أضواء الدار تضوي. فيسرع ويعدو، ويشرع في عدوه.. فهو الآن يطلق النار على الشـباك والضابـط يأمر الرجال أن يـدوروا من خلف البيت.. والموسـيقى الصاخبة التي كانت تهز أعماقه فتستجيب أعماقه بكليتها تصل الآن أصداؤها إلى أذنيه فيخفق قلبه خفقانًا شديدًا.. الدار تقترب وتقترب، وتزغلل أضواؤها عينيه، وأصبـح عليـه أن يعـبر الطريق.. فقط يعـبر الطريق. والأصـوات واضحة، فهـو يتسـلق الماسـورة ويهبط إلى شـارع، ويقفـز، ويجري، يجري بـكل قواه، ولا يسـتطيعون اللحاق به ولكن تدهسـه سـيارة مسرعة هوجاء. سـائقها لا بد أعمى.. لولا هذا السـائق اللعين الذي يندفع بلا وعي.. ويندفع العجوز ليعبر الطريق ورأسه مشحون بالأحداث، وتحتك عجلات السيارة بالأرض في صراخ حـاد مفـزع.. ثم تصدمـه وتطويه تحت عجلاتهـا في قوة، ويصرخ الناس، ولكن، لماذا يصرخ الناس في الشـارع هكذا، ولماذا يشتد الصراخ من حوله، والموسـيقى الصاخبة تشـتد.. وصدمة رهيبة تزلزله وتدفعه بلا رحمة، ثم.. ثم آلام رهيبة، وخدر مر كالعلقم يتسرب إلى كل كيانه.. ناس، صراخ،

أصـوات.. موسـيقى.. والمجرم لا بد ملقى فـوق الأرض جثة هامدة.. كان يبكـي دائمًا عندما يسـمع صوت رجـل يقول: «لا حول ولا قـوة إلا بالله».. وقـد سـمع الصوت، ولكنـه لرجل آخر، ليس الصوت الذي تعـود عليه.. وصـوت الأم وهـي تصرخ بلوعة «يا ابني..!»يأتي إليـه من بعيد.. يذوب في الضجـة.. وفتح العجـوز عينيه.. ومن خـلال ضباب كثيـف، كانت وجوه تحيط به وتطل عليه.. وجسـد هائل يربض فوق جسـده.. وعجلات سوداء تحيط بجانبه.. والموسيقى تنبعث من الدار فتهز قلبه.. لقد مات الآن.. وتفر دمعـة مـن عينيـه.. ويغمر المـكان الضوء مطلًّا مـن فوق السـور.. ويزحف الخـدر قويًّا قويًّا فيشـل جسـده تمامًا.. إنه يختنق.. يختنق.. ويشـهق شـهقه.. شهقة واحدة..

حادث في السيرك

الأبواق النحاسية تصدح بالألحان، والأفواه تصدح بالكلمات والضحكات.. والناس يصفقون، ويضحكون، وسحب الدخان تتصاعد من الأفواه وتنعقد في سقف المكان، وتتجمع حول المصابيح المضيئة فتتحول أنوارها الساطعة إلى أضواء شاحبة تدغدغ الحواس، تغرق الناس في جو كالحلم، وانساقوا وراء إحساساتهم وثوراتهم.. وأخذوا يشجعون هذا، ويصفرون لذاك، ويسبون بعضهم بعضًا، ويتعاركون ثم ينفضون ويعودون للزيطة والضحك والكلام والحديث.

كل ليلة.. كل ليلة.. والليلة كانت مثل باقي الليالي.. «بعزق» كالملح في الطعام، الناس يضحكون عليه كلما ظهر، وهو دائمًا موجود.. ما من نمرة إلا وكان له فيها نصيب، إذا تشقلب اللاعبون تشقلب معهم وضحك الناس عليه. وإذا مثل الممثلون مثل معهم وضحك الناس عليه، وإذا هرج المهرجون كان أولهم وفطس الناس عليه من الضحك.. عندما دخل الفرسان الحلبة وهم يمتطون جيادهم، دخل بعزق وراءهم يمتطي صهوة حمار أعرج.. وعندما قاد المدرب فيلا ضخمًا دلف بعزق وراءه وفي يده معزة عجفاء!

وبعزق قزم ضئيل.. قامته لا تطاول قامة طفل في الخامسـة، ووجهه يبدو كأنه لطفل في السادسة، وشـاربه الصغير يبدو كأنـه ذرات من تراب علقت بشفته العليا.

وكادت الليلة تمر ككل ليلة.. لولا أن حدث ما حدث..

فجأة.. توقفت الدقائـق السريعة عن الجريان. وتدلت الأذرع بأكفها بلا تصفيق. وفغرت الأفواه في رعب شديد. وشمل السكون كل شيء. ثم مزقه زئير الأسد الثائر.

وحـول الحلبـة كانـت هنـاك دوائـر وراء دوائر من الأجسـاد المتشـنجة التـي تحولت كلهـا إلى رءوس، والـرءوس تحولت كلها إلى عيـون، والعيون جاحظة.

صرخت النسوة، وبكى الأطفال لصراخ أمهاتهم، وحمل الرجال أولادهم وجروا.. وساد هرج ومرج، وتصاعدت صيحات واستغاثات، ناس يفرون. ونـاس يصرخـون. ورجال السـيرك شـلتهم المفاجـأة... وفي داخل القفص الكبـير كان الأسـد ثائرًا يـزأر، ومروضته الجميلة قد التصقـت بالقضبان في رعب حاولت إخفاءه. وكانت عزلاء. سـوطها في ناحية، والشـوكة الكبيرة المدببـة في ناحيـة، ولاتكاد يدها تقترب من مسدسـها حتى يعلو زئيرالأسـد ويتحفز.. فتتدلى إلى جانبها من جديد.

توقفت الدقائق، ولهثت الأنفاس وترددت العيون بين الوحش الغاضب وفوهات البنادق التي صوبت نحوه وهو لايسـتقر في مكان، يروح ويجيء.. يقفـز فوق دعامـة ثم يهبـط إلى الأرض والفوهات تلاحقـه. ولاتكاد أصبع

تضغط على زناد حتى يرتد، فالجموع لا تزال في هرجها ورعبها تحيط بالقفص من كل ناحية، ومرت الثواني كالوميض.. وذابت دقيقة وكأنها لم تكن.

وفجأة..

دقت القلوب ودقت وارتجفت، وأصاب العقول ذهول شديد.. وعم سكون مطبق رهيب. حتى الأقدام توقفت عن الفرار.. وتحولت كل الرءوس نحو الحلبة.

كان بعزق يقف بقامته القصيرة في الوسط، يداه الصغيرتان تنوءان بحمل شوكة طويلة، وساقاه القزمتان تروحان وتجيئان في قلق، وأطلت مع الرعب دهشة كست كل الوجوه.. لم يدر أحد كيف دخل بعزق، ولم يدر أحد لم فعل ما فعل. قال رجل في همس مرتعب.. «مجنون». وصرخ آخر بصوت هامس «إطلع يا وله..». وهمهم ثالث وتشهد وترحم عليه. وتعالت كلمة من هنا.. وكلمة من هناك. ثم توقفت الألسنة، وران صمت عميق بلا حدود. وزحف صوت بعزق ضامرًا ناحلًا يصرخ في وجه الأسد.. «آلي.. آلي..».

طوح الأسد برأسه نحوه، وأطلق زئيرًا مخيفًا. وعاد السكون يلف كل شيء.

كانت الثواني تمر كأنها ساعات.. والدقائق تمر كأنها أعوام بلا نهاية. وقد مرت دقيقة أخرى، دقيقة أمسك القلق والخوف بطرفيها وأخذا يجذبانها فطالت وطالت حتى لم تبد لها نهاية.

وكل شيء جمد تمامًا، الرءوس المثبتة فوق الأعناق المشرئبة، والعيون الجاحظة وكأنها بلا أجفان، والأفواه المفغورة وكأنها بلا شفاه. وقضبان القفص طويلة طويلة. والمكان يضيق، والسقف ينسحب من كل ناحية

ويصعـد نحو نقطة في الوسـط ليكـون مخروطًا أجوف بدا وقتهـا كأنه مأوى للأشباح.

والذي حدث كان شيئًا غريبًا.

ولكن الذي فعله بعزق كان أغرب، والذي فعله بعد ذلك كان أشد غرابة.

قفـز في مكانـه والشـوكة الطويلة في يـده وعلا صوته الناحـل يزحف في السكون «آلي.. آلي..».

وكان منظـره مضحـكًا.. فضحـك رجل.. ودوَّت ضحكته في السـكون وجلجلـت، ثـم ماتت وكفنهـا الصمت الرهيـب، وبان الغضـب على وجه بعزق، غضب شـديد تحول إلى كلمات.. وصرخ بصوته الثاقب.. «بتضحك على إيه يابن الكلب!».

ومـرت لحظة، لحظة خاطفة دمرت السـكون، بعدهـا ألف صيحة رعب انطلقت من ألف حنجرة.

وكان بعـزق قـد ألقى بالشـوكة من يـده.. ثم أخذ يعـدو متدحرجًا فوق أرض الحلبة، واتجه نحو باب صغير يؤدي إلى ممر يقود إلى قفص الأسد الذي يبيت فيه.

وتسـلق إلى الممـر سـلمة عاليـة بـدت بالنسـبة إليه وكأنها سـور شـاهق الارتفاع، تسلقها القزم في خفة كقط كبير الرأس، ثم استقام جسده واستدار نحـو الأسـد الـذي كان يهز رأسـه الضخم وكأنه غـير مصـدق. برقت عينا الوحش وسـال اللعاب من بين أنيابه الطويلة.. وهوى السـكون من جديد، وعلا صوت بعزق..

«إبقى اضحك كمان إبقى اضحك يابن الكلب..».

ولكن ثورة الوحش كانت قد بلغت قمتها.. بينما ثورة بعزق تزداد عتوًّا وصوته يدوِّي صارخًا كأنه بكاء..

«آلي.. آلي.. بيضحك على حضرتك.. آلي.. تعال.. كلمني.. عشان يضحك كمان.. آلي..» كانت ذراعاه القصيرتان تتطوحان في الهواء بحركات هيستيرية ثائرة.. وكان الوحش يزأر زئيرًا متصلًا يخلع القلوب.. وقد خلعت القلوب، خلعت عندما تحفز الأسد واعتمد على قدميه الخلفيتين، ودقت القلوب واضطربت الأنفاس، واشتد الطنين في الآذان، وقفز الأسد قفزة هائلة وسبح جسده في الفضاء عابرًا سماء الحلبة في سرعة مخيفة، وهوى جسد القزم في نفس اللحظة من فوق السلمة نحو الأرض، هوى في لمحة خاطفة ثم تكور وتدحرج في سرعة بعيدًا عن المخالب التي هبشت في الممر العالي ثم اندفع الجسد الوحش الهائل إلى الداخل، وهوت وراءه بوابة ضخمة.

ومرت لحظة.. لحظة دامت آلاف الساعات، دوَّى بعدها تصفيق حاد محموم، وأخذت الألوف تلتقي وتفترق ثم تلتقي وتفترق ثم تلتقي وتفترق في هيستيرية. والناس تصرخ وتهتف. وزئير الأسد يشق الفضاء. وكفوفه تضرب جدران سجنه في غضب جنوني. والناس غير مصدقين. والقلوب يزداد وجيبها. والرجال يندفعون إلى داخل الحلبة.

بينما كان القزم ينهض من رميته، وجسده القصير يستقيم في وسط المكان، وعيناه ترتفعان في ذهول وتلتقطان منظر الأكف المصفقة ولاحت على وجهه ابتسامة، ثم انحنى يرد تحية الناس، واستقام وانحنى ثم رفع وجهه

نحو الرجال الذين أحاطوا به.. وامتدت ذراعه وأشـارت أصبعه نحو جموع الناس، وقال بصوت ذاب وسـط الضجيج «بيصفقوا.. بيصفقوا..» ولمعت في عينيـه دمعـة، وامتـدت ذراعـا عمـلاق لتحملاه. فكسـت وجهـه غضبة وتملص من الذراعين ثم وقف فوق الأرض.

وعندمـا كان يتجه خارجًا كان يسـير في موكـب، وكان الناس لا يزالون يصفقـون وكان هو لا يزال ينحني. وصـدره ينتفخ وينتفخ، وقدماه تضربان الأرض في قـوة، وجسـده مسـتقيم يشـق الفضاء..وبين الآونـة والأخرى. كان يتسـلق ببصره الأجسـاد الفارهة المحيطة به، ثم يسـتقر بهـما إلى الأيدي المصفقة.. فيهمس في صوت مضطرب ويهز رأسه غير مصدق..

«بيصفقوا.. بيصفقوا».

والناس تصفق. وتصفق.

الفهــــرس

الإهداء 5
الخوف.. 7
أمٌّ 19
الابن 31
الرجل الكبير 51
اللهب 63
العروسة 71
قاع البحيرة السوداء.. 83
الساقية 97
خناقة..107
الست هانم..117
البحر..121
قصة رجلين 133
خطيبي العزيز زكي أفندي 151
كلمة 163
كان زمان..177

الصديقتان.. 189
رحلة 199
الناس 211
حب للبيع 221
الرجل والحصان 235
وكان فى غاية الرضا عن نفسه 243
جدتي.. 249
لقمة.. 253
أنا عايزاك انت.. 257
البندول.. 269
توحيدة.. 283
وبراء ة الأطفال تخدعني 295
كوثر والأعزب 305
الأخرس 315
لا وقت للأحزان 321
مفيش مشكلة.. 327
الرجل والسيارة 339
كيف يموت الشيء الجميل؟.. 347
والله ما انا قاعده لك في البيت 351
العطش.. 359
أعمار 375

تحطيم الأحلام.. 383
تزويغة.. 393
حين يكبرون... 397
الجريمة 413
يا انا يا الكتب.. 419
القطة التي اشتعل ذيلها 431
شوفولكم حل 435
نومة 443
الشارع 449
عزوز العبيط... 455
حديث لا يسمعه أحد.................................. 461
سينما.. 467
الوقت متأخر دائما 473
مغامرة صغير 477
حادث على الطريق.................................... 481
المقامرون 487
مصرع إنسان 493
حادث في السيرك 501

أحـــدث اصـــدارات

الأســتــاذ

صــالــح مــرســي

- زقــاق الســيــد البلطــي، روايــة.
- دمـــوع فـــي عيـــون وقحـــة
  روايــة (مـــن ملفــات المخابـــرات المصريـــة).
- الصعـــود إلـــى الهاويـــة
  روايــة (مـــن ملفــات المخابـــرات المصريـــة).
- السجيـــن، روايــة.
- البـحــار مُــنــدي وقــصــص مــن الـبـحــر.
- نســاء فــي قـطــار الجاســوســيـة، روايــة.
- الكذّاب، روايــة.
- الخـــــوف، (مجموعة قصصية).
- الســيــر فــوق خــيــوط العنكبـــوت.
- رحــلات الســنــدبــاد الـبــري.
- خــطــاب لــرجــل مــيـــت.
- قــاتــلــة بــاردة الأعـــصـــاب.


دار نهضة مصر
للنشر



...كان منظرًا غريبًا ذلك الذي رأيته...هانم تقف أمام عمي "سيد" والطفل مُلقى في ركن الحجرة... كان واضحًا أن عمي "سيد" يريد بالطفل أذى وهانم تدافع عنه. ولولا خوفي من السوط الرهيب لاندفعت أرجو عمي "سيد" وأقبّل يديه بل وقدميه ليترك الطفل الرضيع، ولكنني دُهشت وأنا أسمع عمي "سيد" يُحايل هانم، بل ويربّت على كتفها. لكنه كان يتكلم في صوت جاف جامد وهو يقول: "لازم يموت الولد ده يا هانم...لازم يموت .. فاهمة؟".

في عيني هانم كنت أرى شيئًا غريبًا... وأحسست رغم صغري أن الحياة تتدفق منهما في قوة، حتى اجتاحني شعور بأني أريد أن أقبلها... نعم أقبل هانم الشوهاء الخنفاء...




للطلب والاستفسار اتصل على
16766
www.nahdetmisr.com
our page/nahdet misr group

